غير مرخصة للطباعة

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرَضَاوِي

المجلد الثاني والعشرون

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرَضَاوِي

غير مرخصة للطباعة

المِحْوَرُ الثَّالِثُ

الفِقْهُ وَأُصُولُهُ

فِقْهُ المُعَامَلَاتِ المَالِيَّةِ وَالاقْتِصَادِ الإِسْلَامِيِّ

٤٩ دور القيم والأخلاق
في الاقتصاد الإسلامي

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة



نسخة مجانية

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِي

غير مرخصة للطباعة

المحور الثالث

الفقه وأصوله

(فقه المعاملات المالية والاقتصاد الإسلامي)

٤٩

دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي

الإمـام يوسف القرضاوي

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

من الدستور الإلهي للبشرية

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٣].

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۞ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ۞ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٤ ـ ٢٨١].

QaradawiBooks.com

من مشكاة النبوة الخاتمة

عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمَّى الله فاحذروهم**». متفق عليه.

عن عطية السعدي، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرًا لما به البأس**». رواه الترمذي.

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من عبد أنعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه، ثم جعل شيئًا من حوائج الناس إليه فتبرم، فقد عرَّض تلك النعمة للزوال**». رواه الطبراني.

عن قَبِيصَة بنِ مُخَارِق الهلالي قال: قال رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ المسألة لا تحلُّ إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة، فحلت له المسألة حتى يصيبها، ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلّت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش ـ أو قال: سِدادًا من عيش ـ ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قومه: لقد أصابت فلانًا فاقة. فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش ـ أو قال: سِدادًا من عيش ـ فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحتًا يأكلها صاحبها سحتًا**». رواه مسلم.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ربنا لك الحمد، ملء السماوات، وملء الأرض، وملء ما شئتَ من شيء بعد، وصلاةً وسلامًا على من أرسلته رحمةً للعاملين، وحُجَّةً على الناس أجمعين، وبعثته ليتمم مكارم الأخلاق، ويختم رسالات النبيين، ونزَّلت عليه الكتاب، ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

(أما بعد)

فإنَّ الإسلام رسالة قِيَم وأخلاق في الدرجة الأولى، حتى صح عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**إنَّما بُعِثتُ لأتمِّم صالح الأخلاق**»[(١)]، وفي رواية «**مكارم الأخلاق**»[(٢)]. فحصر رسالته في هذه المهمة الأخلاقية، ولا غرو أن ربط الأخلاق بالعقيدة، حتى نفى الإيمان عمَّن لا أمانة له، وعمَّن بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع، وعمن زنى أو سرق أو شرب الخمر... وجعل من

(١) رواه أحمد (٨٩٥٢)، وقال مخرّجوه: صحيح وهذا إسناد قوي. والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٣)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه الحاكم في تواريخ المتقدمين (٦١٣/٢)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٥)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

لوازم الإيمان: صلة الرحم، وإكرام الجار، وقول الخير: «**مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**»(١).

كما ربط الأخلاق بالعبادات، وجعلها من ثمراتها وفوائدها، فإقامة الصلاة: ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، والزكاة: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، والصيام: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، والحج لا ينال الله منه هَدْي ولا لحم ولا دم: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

وإذا لم تؤت هذه العبادات أُكلها في الأخلاق والسلوك فقد فقدت قيمتها عند الله: «**رُبَّ قائم ليس له من قيامه إلا السهر، ورُبَّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع**»(٢)، «**مَن لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**»(٣).

كما ربط الإسلام المعاملات بالأخلاق أيضًا، من الصدق والأمانة والعدل والإحسان والبر والصلة والمرحمة.

وربط الحياة كلَّها بالأخلاق، فلا انفصال بين العلم والأخلاق، ولا بين السياسة والأخلاق، ولا بين الاقتصاد والأخلاق، ولا بين الحرب والأخلاق، فالأخلاق لُحْمَة الحياة الإسلامية وسَدَاها.

ومثل الأخلاق: القيم، سواء أكانت قِيَمًا دينية ربانية، وعلى رأسها الإيمان بالله تعالى، وبرسالاته، وبالجزاء العادل في الآخرة، وما يثمره

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١٨)، ومسلم في الإيمان (٤٧)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٨٨٥٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده جيد. وابن ماجه (١٦٩٠)، والحاكم (٤٣١/١)، وصحَّحه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، كلاهما في الصوم، عن أبي هريرة.

(٣) رواه البخاري في الصوم (١٩٠٣)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

هذا الإيمـــان من قيم أخرى مثل حـــب الله تعالى والرجـــاء في رحمته، والخشية من عقابه، والتوكل عليه، والإخلاص له.

أم كانت قيمًا إنســـانية مثل: الحريـــة، والكرامة، والعـــدل، ورعاية الفطرة، والاعتدال أو الوسطية، واحترام الحقوق، والمساواة بين الناس، والرحمة بالضعفاء... إلى آخر تلك المعاني الجميلة.

وهذا البحث عن «القِيَم والأخلاق في الاقتصاد الإســـلامي»، وعن أهميتها ومكانتهـــا وتأثيرها في مجالات الاقتصـــاد المختلفة، من إنتاج واستهلاك، وتوزيع وتداول، بيَّنتُ فيه أنَّ أبرز ما يميز الاقتصاد الإسلامي عن غيره من مذاهب الاقتصاد الوضعي: أنَّه اقتصاد قيم وأخلاق.

وهو بحث موثَّق بأدلته من القرآن والسنة، وهما المصدران المعصومان الهاديان، فمَن اهتدى بهما فلن يضل، ومَن اعتصم بحبلهما فلن يزل.

والاعتصام بهذين الأصلين الربانيين الخالدين، لا يغنينا عن الرجوع إلى علماء الأمة وأئمتها الراســـخين، للاســـتفادة من علومهم في الشرح والبيان والاســـتنباط، ولا يُتصور في أي علم كان ـ ديني أو دنيوي ـ أن يبدأ عالِم من الصفر، ويطرح التراث الهائل الذي تكوّن على مر الأجيال، وساهمت فيه عبقريات شَتَّى.

وقد التزمتُ في هذا الكتاب ألَّا أستدل إلا بحديث صحيح أو حسن، إذ لا حجة في غيرهمـــا، ولا أحتج بحديث ضعيف بيّـــن الضعف وإذا ذكرت حديثًا ضعيفًا ـ على ندرة ـ فإنَّما يكون للاستئناس لا للاحتجاج.

وهذا اقتضانـــي أن أبيِّن درجة الأحاديث، وأســـندها إلى مصادرها، وأذكـــر مَن صححها أو حسَّـــنها أو ـ علـــى الأقل ـ وثَّـــق رواتها. وهذا ما ألتزمه أبدًا، على ما فيه من جهد، ولكنه جهد غير ضائع.

QaradawiBooks.com

أقل هذا البحث جديد، وأكثره قديم، كتبتـــه منذ أكثر من ربع قرن، فصولًا متناثرة، لم يتيسر لي أن أجمع شتاتها، وأنظمها في عقد، وعندي كثير من البحوث على هذه الصورة، ولا أدري: أيتسع العمر، ويمدني الله بتوفيقه لتهيئتها وإتمامها وإخراجها للناس أم لا؟

ولا أدري أيضًـــا: هل أثَّر مـــرور الزمن، وتغير كثيـــر من الأوضاع، وتطور الدراســـات الاقتصادية، وبخاصة الإســـلامية، في القيمة العلمية لهذه الصحائف أو لا؟

ومهما يكن الأمر فهـــذه رؤيتي، وهذا جهدي، عســـى أن يكون فيه بعض ما ينفع ويضيء شمعة على الطريق، ولكلٍّ مجتهد نصيب، وإنَّما الأعمال بالنيات، وإنَّما لكل امرئ ما نوى، والله المسؤول أن يجعل نيّتنا خالصة لوجهه.

وأشـــكر لمجموعة دلّة البركة، فهي التي استحثتني على كتابة أصل هذا البحث، وتقديمـــه في ندوتها التي عقدتها في شـــهر أكتوبر ســـنة (١٩٩٣م) بالقاهرة، بالمشاركة مع بيت التمويل المصري السعودي حول «تعريـــف الإعلاميـــن بالاقتصاد الإســـلامي»، ثم أضفـــت إلى البحث الأصلي مباحث أخرى، حتى ظهر بهذه الصورة.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

القاهرة: المحرَّم ١٤١٥هـ — الفقير إلى عفو مولاه

يوليو ١٩٩٤م — يوسف القرضاوي

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com



تمهيد

الاقتصاد الإسلامي حقيقة واقعة

عندما اتجهت نيتي إلى الكتابة في الزكاة في أواخر الخمسينات، شرعتُ أبحث عن كتب الاقتصاد الوضعي لأقرأ فيها، وآخذ فكرة عن مضمونها، وعن موقفها من الإسلام وموقف الإسلام منها، وكذلك كتب علم المالية العامة.

وحاولت أن أجد في هذه الكتب شيئًا عن الإسلام، اعترافًا به أو تنويهًا بشأنه، ولو كناحية تاريخية، وكمذهب أو فكر ساد هذه الأقطار وحكمها ثلاثة عشر قرنًا من الزمان، كان هو الذي يمثل المرجعية العليا لها في تشريعها وتوجيهها وتفكيرها الاقتصادي والسياسي والقانوني والسُّلُوكي.

ولكن وجدت الكاتبين على اختلاف مدارسهم وتياراتهم، واختلاف بلدانهم وفلسفاتهم، يهملون أمر الإسلام إهمالًا تامًّا، ولا يذكرونه مدحًا ولا قدحًا.

وقد كان سبب ذلك هو جهل هؤلاء الأساتذة والباحثين بالإسلام كله: كتابه وسُنَّته، وفقهه وعقيدته، واقتصاده وسياسته، فما قرؤوا شيئًا عن «الفقه» بصفة عامة، ولا عن فقه «السياسة الشرعية»، وفقه «الأموال»

QaradawiBooks.com

أو «الخراج» بصفة خاصة، ونسوا أنَّ الركن العملي الثالث في الإسلام يتعلق بالاقتصاد، وهو «الزكاة». وأنَّ إحدى الموبقات «الكبائر» السبع، تتعلق به، وهي «أكل الربا».

ولم يكن على الجانب الإسلامي إلا كتب قليلة كتبها بعض العلماء والدعاة، في طليعتها كتب الشيخ محمد الغزالي حفظه الله ورعاه[1]: الإسلام والأوضاع الاقتصادية، والإسلام والمناهج الاشتراكية، والإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين... وكتاب الأستاذ سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ: العدالة الاجتماعية في الإسلام. وبعض المحاضرات والمقالات في جوانب اقتصادية من وجهة النظر الإسلامية، مثل محاضرة الشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز رَحِمَهُ اللَّهُ عن «الربا» التي ألقاها في مؤتمر باريس سنة (١٩٥١م)، ومحاضرات الدكتور محمد عبد الله العربي، والدكتور عيسى عبده رحمهما الله، ومحاضرة المشايخ: أبي زهرة، والدكتور خلَّاف، والدكتور عبد الرحمن حسن في حلقة الدراسات الاجتماعية بدمشق عن الزكاة، والوقف، ونفقات الأقارب سنة (١٩٥٢م)، ومقالات الأستاذ محمود أبو السعود عن «استغلال الأرض في الإسلام» في مجلة المسلمون في الخمسينات أيضًا.

ولم أعرف رسالة أو أُطروحة علمية قُدِّمت لجامعة من الجامعات في بلاد العرب عن الاقتصاد الإسلامي أو جانب منه إلا رسالة الأستاذ شوقي إسماعيل عن «نظام المحاسبة في الزكاة» قرأت عنها مقالًا، ولم تُنشر إلا مؤخرًا، وقد قدَّمها للحصول على الماجستير في المحاسبة.

هذا في الجانب العربي، وفي القارة الهندية كانت دراسات الأستاذ أبي الأعلى المودودي، وفي مقدمتها: دراسته عن «الربا»، وعن «أسس

(١) توفي الشيخ الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ في (١٩٩٦/٣/٩م) في مدينة الرياض، ودفن في البقيع.

QaradawiBooks.com

الاقتصاد في الإسلام مقارنة بالنظم المعاصرة»، وعن «مِلْكية الأرض في الإسلام»، وأخرى عن «معضلات الاقتصاد وحلها في الإسلام».

ثم بدأ الاهتمام بالاقتصاد الإسلامي ينمو ويزدهر شيئًا فشيئًا، فظهر خلال السنوات العشر التي كنتُ أُعِد فيها رسالتي عن الزكاة عدد من الكتب في الاقتصاد الإسلامي، منها: كتاب الأستاذ محمود أبي السعود: «خطوط رئيسية في الاقتصاد الإسلامي»، وكتاب الدكتور مصطفى السباعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «اشتراكية الإسلام»، وكتاب: «المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية» بالأزهر، وفيه جملة بحوث أصيلة[1]، وكتاب الأستاذ مصطفى الزرقا عن «عقد التأمين»، وغيرها من الكتب والدراسات.

وعندما عُقِد المؤتمر الإسلامي العالَمي الأول للاقتصاد الإسلامي بمكة المكرمة، تحت رعاية جامعة الملك عبد العزيز سنة (١٩٧٦م)، قدَّم الأستاذ الدكتور محمد نجاة الله الصديقي قائمة ببليوجرافية عما نُشر حول الاقتصاد الإسلامي بفروعه وجوانبه المختلفة من كتب وبحوث ومقالات، باللغات الثلاث: العربية والأوردية والإنجليزية، فكانت بضع مئات.

وقد قدَّمت مجلة المسلم المعاصر قائمة بالكتب والدراسات، التي نشرت في الاقتصاد الإسلامي، في عددين، ساهمتُ في أحدهما.

واتسع الاهتمام بالاقتصاد الإسلامي، وعُقِدت له الندوات العامة والمتخصصة، وأنشأت بعض الجامعات أقسامًا علمية له، وأُنشئت كذلك مراكز لأبحاثه في أكثر من بلد، منها: المركز العالمي لأبحاث الاقتصاد

(١) من أهم ما جاء فيه: بحوث د. محمد عبد الله العربي، والشيخ الخفيف، والشيخ السايس عن الْمِلْكية.

QaradawiBooks.com

الإسلامي بجامعة الملك عبد العزيز بجدة، ومركز صالح كامل للدراسات التجارية الإسلامية بجامعة الأزهر.

وقُدِّمت عشرات ـ وربما مئات ـ من رسائل الماجستير والدكتوراه في عدد من الجامعات في كليات الشريعة والحقوق والاقتصاد والتجارة وأقسام الدراسات الإسلامية ـ حول عدد من موضوعات الاقتصاد الإسلامي.

ومن الناحية العملية أُنشئت مؤسسات أو بيوت للزكاة في أكثر من بلد، بعضها عقد مؤتمرات، وأقام حلقات، منها مؤتمر الكويت سنة (١٩٨٤م)، الذي انبثق عنه توصيته بإقامة هيئة علمية عالمية لقضايا الزكاة المعاصرة، كما عقدت مؤسسة الزكاة بالسودان ندوات ومؤتمرات عدة، آخرها المؤتمر الذي عُقِد بالخرطوم في مايو سنة (١٩٩٤م).

كما أُقيمت مصارف وبنوك إسلامية تتعامل بغير الفوائد الربوية، التي أجمعت كل المجامع الفقهية والمؤتمرات الإسلامية على تحريمها، بدأت ببنك دُبي الإسلامي، ثم بنوك فيصل الإسلامية، فبيت التمويل الكويتي، وغيرها من البنوك التي انتشرت في العالَم الإسلامي، والتي أبطلت مقولة: «إنَّه لا اقتصاد بغير بنوك، ولا بنوك بغير ربا».

وقد عقدت هذه المصارف ـ أو البنوك ـ الإسلامية مؤتمرات عدة في دُبي والكويت والقاهرة وإستانبول وغيرها، وصدرت عن هيئات الرقابة الشرعية لبعضها فتاوى ودراسات مفيدة.

وقد أحيت البنوك الإسلامية «فقه المعاملات» المهجور، وأعادت إلى الناس الثقة بإمكان تطبيقها في عصرنا، وخطا بعض هذه البنوك خطوات جيدة إلى الأمام، وبعضها لا زال يشكو من ضعف القيادة أو سوء فقهها،

QaradawiBooks.com

ومن العنصر البشري الذي هو المحور الأساسي لكل إصلاح أو تجديد، والذي دخل هذه البنوك دون فقه بمضمونها، ولا إيمان برسالتها.

ومع هذا كله ـ مما تم نظريًّا وعمليًّا ـ لا زال البعض ـ للأسف الشديد ـ يتساءل ويناقش حول الاقتصاد الإسلامي، حتى إنَّ بعضهم لينكر وجود ما يسمى «الاقتصاد الإسلامي»!

شبهات حول وجود اقتصاد إسلامي:

ويحسن بي أن أذكر هنا خلاصة مناقشة دارت بيني وبين صديق درس في جامعات الغرب، وذلك منذ أكثر من ربع قرن، حول وجود اقتصاد إسلامي متميز عن الاقتصادات الوضعية الأخرى: رأسمالية واشتراكية، وإن كان هو الآن قد تغير رأيه، ولكن لم يزل كثيرون يحملون نفس فكره وتوجهه.

قال صاحبي، وهو من المثقفين المخلصين: هل تعتقد أنَّ للإسلام اقتصادًا خاصًّا به، وبعبارة أخرى: هل له نهج أو نظام اقتصادي ـ أو سياسي ـ يميزه عن غيره من المناهج والأنظمة؟

قلت: إن كان المقصود بالنهج أو النظام: الصورة التفصيلية التي تشمل الفروع والجزئيات والتطبيقات المتنوعة، فالإجابة عندي بالنفي، وإن كان المقصود: الصورة الكلية التي تتضمن الأسس الهادية والقواعد الحاكمة والتوجهات الأساسية الضابطة، وبعض الفروع ذات الأهمية الخاصة، فالإجابة عندي بالإيجاب.

ذلك أنَّ منهج الإسلام الذي عُرف بالاستقراء: أنَّه يُجْمل في الأمور التي تتغير كثيرًا بتغير البيئات والأزمان، ويُفصِّل في الأمور التي لا تتغير

QaradawiBooks.com

كثيرًا. ولا ريب أنَّ الاقتصاد والسياسة من الأمور الكثيرة التغير؛ فلهذا اكتفت فيها النصوص بوضع المبادئ والقواعد الكلية والتوجيهات الأساسية، وهذا ما نقصده إذا قلنا: نهج أو نظام إسلامي، فإن كان هذا هو المراد، فهو ما أومن به، وأدعو إليه.

قال: وأنا أيضًا كنت مثلك إلى عهد قريب، ثم بدَّلت رأيي بعد تأمل ودراسة.

قلت: لا بأس أن تدلنا على ما ظهر لك من نتائج تأملاتك ودراساتك، فلعلها من القوة بحيث تبدِّل رأيي كذلك!!

ثبات الدين وتغير الأنظمة:

قال: إنَّ لُباب الإسلام هو العقائد والعبادات والأخلاق، وهذه هي العناصر الأساسية لكل دين، أما شؤون الحياة الدنيا المتغيرة، فليس من شأن الدين أن يتدخل فيها، ويلزم الناس بأوضاع وأنظمة قد تلائم عصرًا ولا تلائم غيره، وتناسب بيئة ولا تناسب أخرى.

قلت: ألسنا نقرأ في القرآن أحكامًا مفصَّلة لشؤون الأسرة من زواج وطلاق ونفقات ومواريث ووصايا وما يتصل بذلك؟ فضلًا عمَّا زخرت به السُّنَّة النبوية من الأقوال والأفعال والتقريرات التي توضح هذه الأحكام وتؤكدها وتُفرِّع عليها؟

قال صاحبي: بلى، وأنا أستثني موضوع الأسرة من شؤون الحياة الدنيا، لما له من أهمية خاصة عند جميع الأديان، فكلها تقريبًا تهتم به وتعنى بتفصيله.

أما شؤون الحياة الأخرى ـ كالشؤون الاقتصادية مثلًا ـ فأرى أنَّ

QaradawiBooks.com

الإســـلام لم يحدّ للناس نظامًا خاصًّا يفرض عليهم اتباعه فيها؛ ودليلي على ذلك أمور:

غير مرخصة للطباعة

حديث: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»:

١ ـ إنَّ الرسول ﷺ نفسه قال: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**»[(١)]، وهذا نص في الموضوع، يجب أن نحترمه ونقف عنده، ولا ريب أنَّ الاقتصاد من أمر دنيانا.

عموم الرسالة وخلودها:

٢ ـ إنَّ الإســـلام جـــاء رســـالة عامة خالـــدة، والأنظمـــة الاقتصادية والسياســـية ونحوها مما تختلف باختلاف البيئـــات والأزمنة والأحوال؛ ولذا كان تقييد الناس بنظام محدَّد ينافي عموم الرسالة وخلودها، إلا إذا أُلزم الناس بـــه على وجه الحرج والإعنات. وهذا أمـــر نفاه الله عن دينه: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ﴾ [المائدة: ٦]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

اختلاف الأئمة والحكام:

٣ ـ إنَّ أئمة الإسلام وفقهاءه اختلفوا في كثير من الأحكام والمسائل، بحيث يصعب أن نخرج منها بنظام واحد متفق عليه.

كما أنَّ خلفاء المســـلمين وحكامهم اختلفوا أيضًا في تطبيق مبادئه اختلافًا كبيرًا، مما جعل صورة هذا النظام غير واضحة تاريخيًّا، كما أنَّها غير واضحة نظريًّا.

(١) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٦٣)، وأحمد (١٢٥٤٤)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

الإجابة عن هذه الشبهات... المراد من الحديث:

قلت: أما حديث الرسول: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**»، فهو حديث صحيح[1]، وقد جاء في مناسبة معروفة، وهي تأبير النخل، وكيف أشار الرسول الكريم برأي فني في أمر دنيوي بحت ليس من أهل المعرفة به؛ لأنَّه نشأ بوادٍ غير ذي زرع، فينبغي ألا نتجاوز به حدوده، ونُبطل بهذا الحديث الواحد كل النصوص القرآنية والنبوية التي وردت في البيع والشراء، والمداينة والرهن والإجارة والشركة والوكالة والاحتكار والتسعير والربا وغيرها.

وحسبنا أنَّ أطول آية في كتاب الله أُنزلت في تنظيم شأن من شؤون الحياة الدنيا، وهو المداينة: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُ ...**﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ولا يعقل أن يقول الرسول حديثًا كهذا ليهدم به ما بناه طوال ثلاثة وعشرين عامًا بأحاديث وسنن بيِّنات مفصلات.

ومن أخطر ما يزيغ به قلب الإنسان أن يتبع نصًّا متشابهًا محتمل الدلالة، ليقضي به على نصوص محكمات قاطعات، والواجب يقتضي المنصف أن يردّ المتشابه إلى المحكم، ليتضح الحق، وتستبين المحجة ناصعة بيضاء. قال تعالى: ﴿**هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ**﴾ [آل عمران: ٧].

---

(١) سبق تخريجه صـ١٧.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وفي الحديث الصحيح: «**إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمَّى الله تعالى، فاحذروهم**»[١].

ومن هنا ردَّ المحققون من علماء الإسلام أسباب انحراف الفِرَق المبتدعة، والنِّحَل الضالة عن صراط الأمة ـ إلى ثلاثة أسباب:

١ ـ اتباع المتشابهات من النصوص.

٢ ـ اتباع الهوى.

٣ ـ الشذوذ عن الجماعة.

الثابت والمتغير من الأحكام:

وأما الأمر الثاني... فإنَّ النظام الاقتصادي في الإسلام يشمل نوعين من التعاليم والأحكام:

أحدهما: أشياء ثابتة محكمة، لا مجال فيها للاجتهاد الذي يختلف باختلاف الأزمان والأماكن والبيئات والأحوال والعوائد، وثبات هذه الأجزاء في نظام الإسلام أمر مقصود للعناية الإلهية، ليزرع بها الاستقرار في الحياة، والطمأنينة في المجتمع، حتى لا يتعرض كل شيء فيه بين حين وآخر، للتغير والتبدل، الذي يؤدِّي إلى الزلزلة والانهيار.

فهذه الثوابت هي التي تجسد الوحدة الفكرية والشعورية والعملية للأمة، وتجعل منها أمة واحدة في الاتجاه والغاية والفكرة.

فالْمِلْكية الفردية، والميراث، وتفاضل الناس في الأرزاق، وفرض الزكاة لمستحقيها، وإيجاب الإنفاق في سبيل الله، وتحريم التقتير

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٥٤٧)، ومسلم في العلم (٢٦٦٥)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

والتبذير والترف، وحظر الربا والاحتكار واستغلال النفوذ، والنهي عن أكل الأموال بالباطل، وإباحة الطيبات، وتحريم الخبائث، والحث على السعي والمشي في مناكب الأرض، والمحافظة على أموال الأفراد والجماعة، والضرب على أيدي السفهاء والمبذِّرين.

كل أولئك أمور محكمة ثابتة بثبات الحياة الإنسانية، وهي الركائز التي تمسكها أن تميد أو تتأرجح.

وليس من مصلحة البشرية أبدًا أن يكون كل شيء لديها قابلًا للتغير والتبدل، ما دامت فيها هي وفي حياتها عناصر ثابتة منذ خلق الله الإنسان إلى اليوم.

وثانيهما: أشياء قابلة للتغيُّر، خاضعة للتطور، وتلك هي التي جعلها الإسلام مجالًا لاجتهاد المجتهدين من الفقهاء وأهل النظر والفتوى، وهي التي تختلف باختلاف الأعصار والأمصار والأحوال، وتتعدد فيها أنظار المجتهدين، ولم يشأ الله تعالى أن يضيّق على عباده فيها، بنصوص صريحة صارمة يُقيِّدهم بها، بل تركها بلا نصٍّ عليها، أو نصَّ عليها نصًّا محتملًا؛ ليفسح مجالًا للأنظار والآراء، التي تنشد الحق وتبغي المصلحة، وقد جاء في الحديث: «**إنَّ الله حدَّ حدودًا فلا تعتدوها، وفرض فرائض فلا تُضيِّعوها، وحرَّم أشياء فلا تنتهكوها، وترك أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها**»[1]، «**ما أحلَّ الله في كتابه فهو حلال، وما حرَّم**

(١) رواه الطبراني (٢٢١/٢٢)، والدارقطني في الرضاع (٤٣٩٦)، والبيهقي في الضحايا (١٢/١٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٩٦): رجاله رجال الصحيح. وحسَّنه النووي في رياض الصالحين (١٨٣٢)، وقال الألباني في تخريج الإيمان لابن تيمية صـ ٤٤: حسن بشاهده. عن أبي ثعلبة الخشني.

QaradawiBooks.com

فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته، فإنَّ الله لم يكن نسيًّا». ثم تلا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[1] [مريم: ٦٤].

فالفرائض والحدود والمحرَّمات هي الأمور الثابتة، التي تضع الأسس والأعمدة لبنيان النظام الإسلامي، والأمور الأخرى التي تركها الشارع رحمة بنا غير نسيان، هي التي تدع الباب مفتوحًا أمام تجارب البشر، ومحاولاتهم للانطلاق والتقدم في حراسةٍ من العقيدة، وفي ضوء التعاليم الثابتة الأخرى.

من هذه الأمور، مثلًا: ما يتعلق باستغلال الأرض الزراعية لغير مالكيها: أهي الإعارة أم الإجارة أم المزارعة؟ وقد جاء فيها أحاديث متعارضة الظواهر، مختلف في دلالتها وفيما يُستنبط منها من أحكام.

ومنها: الأمور التي تُقاس على الماء والكلأ والنار، الأشياء الثلاثة التي نصَّ الحديث على أنَّ الناس شركاء فيها، ولا يجوز للأفراد احتجازها، ومنع سائر الناس من الانتفاع بها.

ومنها: ما يفرضه أولو الأمر من ضرائب على القادرين لتغطية النفقات العامة، كم تكون هذه الضرائب؟ وعلى مَن تُفرض؟ وما مقدارها؟ وهل تكون نسبية أم تصاعدية؟ وإلى أين ينتهي التصاعد؟... إلخ.

ومنها: التدخل في تنظيم الاقتصاد وتوجيهه ـ ومنه التسعير ـ هل يجوز ذلك؟ ومتى يجوز؟ وإلى أي مدى؟

---

(١) رواه البزار (٤٠٨٧)، وقال: إسناده صالح. والحاكم في التفسير (٣٧٥/٢)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الضحايا (١٢/١٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٩٤): رواه البزار والطبراني في الكبير وإسناده حسن ورجاله موثقون، عن أبي الدرداء.

QaradawiBooks.com

كل هذه الأمور وأمثالها مما لم يحدد فيه الإسلام رأيًا صريحًا قاطعًا، يُبيِّن كل جزئية، ويجيب عن كل سؤال، ويقطع على النَّاس سبيل التجديد والاجتهاد.

وبهذا النوع من الأحكام الاجتهادية ـ وهي في الواقع أكثر أحكام الفقه الإسلامي ـ اكتسب الإسلام خواصّ المرونة، والسعة، والسماحة، واليُسر، التي بها صلحت شريعته لكل زمان ومكان[1].

اختلاف الفقهاء والخلفاء:

أما الأمر الثالث... وهو اختلاف أئمة الإسلام الفكريين، وخلفائه السياسيين، في أكثر أحكامه، حتى ليصعب أن تخرج منها بنظام متفق عليه، فهذا الكلام غير مُسَلَّم على إطلاقه، فإنَّ هناك أمورًا مجمعًا عليها بلا شك وهي من النوع الأول الذي ذكرناه قبل، وأمورًا مختلفًا فيها وهي من النوع الثاني، والاختلاف فيها رحمة للأمة لا نقمة عليها. ومن مظاهر هذه الرحمة أنَّها تستطيع أن تختار من بين هذه الآراء ما هو أوفق لها، وأصلح لشأنها، وأليق بعصرها، وأرجى لتحقيق الخير لها، وإبعاد الشر عنها، تستطيع ـ بواسطة فقهائها المعتبرين ـ أن تدع هذه الآراء الاجتهادية التي تحمل طابع عصرها، وتبتكر آراء جديدة، بفهم جديد للنص، أو عن طريق القياس عليه، أو التماس المصلحة، أو درء المفسدة وسد الذريعة، أو نحو ذلك من طرائق الاستنباط.

ومن عجب أن تجد الاشتراكيين الماركسيين في عصرنا يختلفون فيما بينهم في تطبيق المذهب، اختلافًا واسعًا نرى أثره في الصراع القائم

(١) انظر رسالتنا: عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية، نشر دار الصحوة، القاهرة.

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

بين روسيا والصين وكلاهما بلد شيوعي اشتراكي، ولم يؤدّ هذا الاختلاف بل الصراع إلى القول بأنَّ الشيوعية ليست نظامًا، لاختلاف أقطابها وزعمائها على التقيد ببعض المبادئ أو التساهل في شأنها.

فَمَا لِلإسلام وحده هو الذي نخلع عنه صفة «النظام» ونعرِّيه منها، لمجرد اختلاف أئمته في بعض أحكامه؟ مع أنَّ المقطوع به أنَّ هناك أمورًا جوهرية كثيرة هي محل اتفاق بين جميع المجتهدين. وقد ألَّف بعض المتبحرين من علماء الإسلام كتبًا لم يكن هدفها إلا تبيان مواضع الإجماع، ومواضع الخلاف في شريعة الإسلام، ولعل أشهرها هو كتاب الإمام ابن المنذر المسمى: «الإشراف في مواضع الإجماع والخلاف»، وعنه ينقل الكثيرون من علماء الفقه. وله أيضًا كتاب: «الإجماع»، ولابن حزم كتاب: «مراتب الإجماع».

الإسلام أوسع من الدين:

وينبغي أن نعلم أنَّ الإسلام أوسع وأشمل من الدين؛ فالإسلام دين ودنيا، وعبادة ومعاملة، وعقيدة وشريعة، وثقافة وحضارة، ودين ودولة، ونحن لا نتحدث عن اقتصاد ديني، بل عن اقتصاد إسلامي.

ولا عجب أن جعل الفقهاء والأصوليون المسلمون «الدين» إحدى الضروريات الخمس التي جاءت الشريعة الإسلامية ـ بل الشرائع السماوية كلها ـ بالمحافظة عليها، وهي: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال. وأضاف بعضهم إليها: العِرض. فالدِّين واحدة من الخمس أو الست، وإن كانت أهمها وأعلاها.

فليست شريعة الإسلام مقصورة على حفظ الدين ـ الذي يعني به العقائد والعبادات وأصول الفضائل ـ وإن كان له الأولوية والتقديم، فما

QaradawiBooks.com

الدين ـ في نظر فقهاء الإسلام ـ إلا إحدى الكليات التي وردت الشريعة بحفظها وصيانتها.

وأكثر من ذلك أنَّك تجد في قسم العبادات الإسلامية الرئيسة عبادة خاصة متميزة، هي في الواقع جزء من النظام المالي والاقتصادي في الإسلام، تلك هي عبادة «الزكاة» التي قرنها الله بالصلاة في ثمانية وعشرين موضعًا من كتابه، وهي ثالث أركان الإسلام، ومبانيه العظام.

وفي قسم الكبائر المحرَّمة أشدَّ التحريم، نجد كبيرة دينية تدخل في صلب النظام الاقتصادي لكثير من الأمم قديمًا وحديثًا، وتلك هي «الربا» الذي لعن رسول الإسلام آكله ومؤكله وكاتبه وشاهديه.

القرآن هداية ونور وحُكْم:

ولقد قال صاحبي: إنَّ القرآن إنَّما نزل هداية ونورًا ورحمة، ولم ينزل ليكون نظامًا وحكمًا وتشريعًا، فإنَّ الهداية تبقى وتخلد، والأنظمة والتشريعات تتغير وتتطور.

وقلت له: إنَّ مؤسسي الأنظمة العالمية المعاصرة إنَّما كانت كتبهم ورسائلهم التي يعدونها «أناجيل» هذه المذاهب وكتبها المقدسة، لم تكن إلا «هداية» أيضًا في نظر أصحابها، وبعبارة أخرى: إنَّها حملت إليهم فلسفة وتوجيهات، لا نظامًا متصلًا ذا فروع وجزئيات.

ولقد قصَّ علينا القرآن أنَّ الله تعالى أنزل التوراة فيها هدى ونور، ولكنَّه أنزل هذا الهدى والنور ليحكم به الحياة وينظم المجتمع: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا

QaradawiBooks.com

﴿تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وكذلك أنزل الله القرآن: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ولكنَّه أنزله ليحكم الحياة ويضبطها على أمر الله؛ ولهذا خاطب الله رسوله فقال: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥].

الاقتصاد أمل لعلم وليس علمًا:

وأحب أن أقول لكثير من الذين يقدسون الأفكار الاقتصادية التي تسود عصرًا ما: إنَّ هذه الأفكار ليست حقائق ثابتة، ولا أوليات خالدة، إنَّها مجرد أفكار محتملة للمعارضة، وقابلة للتبدّل. وعلم الاقتصاد ـ كأكثر العلوم الإنسانية ـ لم تزل مقرراته بين أخذ ورد، وجذب وشد، ولم تبرح آراؤه تتأرجح بين الإثبات والنفي، والقبول والرفض، تبعًا للمدارس الاقتصادية المختلفة: المدرسة التقليدية، والمدارس المنشقة، والمدارس الاشتراكية وهذا ما جعل الاقتصادي الأمريكي «جون سي. كامبس» يقول: «إنَّ الاقتصاد ليس علمًا، بل هو أمل علم»!

وقد أخذ هذا مما قاله العالِم النفسي الشهير «وليم جيمس» عن علم النفس: أنَّه لم يكن «غير خيط من الحقائق الأولية، وقليل من القال والقيل عن الآراء، وبعض التصنيف والتصميم»، ثم ختم «جيمس» القول بأنه «ليس علمًا، بل أملٌ لعلم»[1].

(١) المدخل إلى علم الاقتصاد لجون سي. كامبس صـ ١٨٠.

QaradawiBooks.com

في أوائل هذا القرن، يوم كانت الأفكار الرأسمالية هي البضاعة الرائجة، و«الموضة» الغالبة، وجدنا من المسلمين المولعين بمسايرة كل جديد، واقتباس كل وافد دخيل، مَن يحاول تأويل نصوص الإسلام، وتحوير مبادئه وقواعده، وتحريف كلمه عن مواضعها، ليبرر بذلك الرأسمالية الزاحفة بمؤسساتها الربوية ويلبسها «العمامة» الإسلامية، فتأخذ في نظر الناس الصبغة الشرعية.

وكم في سبيل ذلك حُرِّفت آيات محكمات، ورُدَّت أحاديث صحاح، واختُرِعت شروح وتفاسير ما أنزل الله به من سلطان.

ورأينا هذا مرَّةً أخرى في صورة أخرى مقابلة للصورة السابقة، وذلك حين نفقت سوق الاشتراكية في بلاد العرب والمسلمين، وأصبحنا نقرأ ونسمع بحوثًا وفتاوى في شرعية المصادرات للمِلْكيات الفردية المشروعة، والتأميم والسيطرة على وسائل الإنتاج ونحوها.

والذي يجب علينا ـ إن كنَّا مسلمين حقًّا ـ أن نحفظ لهذا الدين أصالته واستقلاله وتميزه، وأن نربأ به عن السير في ركاب المذاهب المستوردة، وتأييد كل مبدأ يسود ويغلب. فإنَّ محمدًا ﷺ ما كان رأسماليًّا ولا اشتراكيًّا، ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرضَاوِي

القيم والأخلاق في الاقتصاد والمعاملات الإسلامية

- اقتصاد رباني.
- اقتصاد أخلاقي.
- اقتصاد إنساني.
- اقتصاد وَسَطي.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

القِيَم والأخلاق في الاقتصاد والمعاملات الإسلامية

تمهيد:

إذا تحدثنا عن «القيم والأخلاق» في الاقتصاد والمعاملات الإسلامية، برزت أمامنا قيم رئيسية أربع، هي: الربَّانية، والأخلاقية، والإنسانية، والوسطية.

وهذه القيم تمثل الخصائص الأولى للاقتصاد الإسلامي، بل هي ـ في الواقع ـ خصائص مشتركة، تتجلى في كل ما هو إسلامي.

فهي من خصائص الشريعة الإسلامية، وهي من خصائص الحضارة الإسلامية، وهي من الخصائص العامة للإسلام كله.

ومن هنا نقول بكل ثقة واطمئنان: إنَّ الاقتصاد الإسلامي يتميَّز بأنَّه «اقتصاد رباني»، وأنَّه «اقتصادي إنساني» أيضًا، كما أنَّه بلا ريب «اقتصاد أخلاقي»، و«اقتصاد وَسَطي». وهذه المعاني أو القِيَم الأساسية الأربع: لها فروعها وثمارها وآثارها في كل جوانب الاقتصاد والمعاملات المالية الإسلامية: إنتاجًا واستهلاكًا، وتداولًا وتوزيعًا، فكلها مصبوغة بهذه القيم، مُعبِّرة عنها، مُؤكِّدة لها، وإلا لم تكن إسلامية إلا بالتظاهر والادعاء.

QaradawiBooks.com

وينبغي علينا هنا ـ قبل أن ندخل فـي التفصيلات ـ أن نُلقي بعض الضوء على هذه القِيَم أو هذه الخصائص، ونتحدث عنها واحدة واحدة، بادئين بأولاها، وهي «الربانية».

فما معنى «الربانية» هنا؟ وما معنى أنَّ الاقتصاد الإسـلامي «اقتصاد رباني»؟!

وهل تدخل الربانية ـ وهي معنى روحي رفيع شـفيف ـ في المجال الاقتصادي، وهو مجـال لا يتعامل إلا مـع المادة، ولا يفهـم إلا لغة الأرقام، ولا يتحدث إلا عن الربح والخسارة، ولا همَّ لأهل هذا المجال إلا ابتلاع السـوق، وهزيمة المنافسـين، واقتناص المال بأي وسـيلة، وتحقيق أكبـر عائد مـن الربح أو الريـع أو الفائدة، بغـض النظر عن الأساليب التي تُتبع، والطرق التي تُسلك؟؟

وهذا كله صحيح فـي الاقتصاد الـذي نعرفه، والـذي أخذناه عن الغرب، والذي لا يعرف إلا المادة والمنفعة، ولا سـيما المنفعة المادية الفردية الدنيويـة العاجلة، ولكنَّه ليس بصحيح قـط بالنظر إلى اقتصاد إسـلامي، تميَّز بأهدافه ووسـائله ومفاهيمه وقيمه عن الاقتصاد الغربي الوضعي، الذي لا يرجو لله وقارًا، ولا يجعل للآخرة اعتبارًا.

ولنشـرع في بيان القيمة الأولـى أو الخصيصة الأولـى للاقتصاد الإسلامي وهي «الربانية».

* * *

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

اقتصاد ربَّاني

الاقتصاد الإسلامي ـ كما أشرنا ـ يتميز بجملة خصائص.

فهو اقتصاد رباني، أخلاقي، إنساني، وَسَطي.

ربانية المنطلقات:

١ ـ هو رباني؛ لأنَّ منطلقاته من الله، وغاياته إلى الله، ووسائله لا تحيد عن شرع الله.

فالأنشطة الاقتصادية ـ من إنتاج واستهلاك وتبادل وتوزيع ـ مشدودة إلى المبدأ الرباني، وإلى الغاية الربانية.

فالإنسان المسلم ينتج استجابة لأمر الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

ولهذا يشعر حين يزرع أو يغرس أو يصنع، أو يحترف أو يتاجر: أنَّه يتعبد بعمله لله، وكلما زاد من إحسان عمله، كان أتقى لله، وأقرب إليه.

وهو حين يستهلك ويأكل من طيبات الحياة، يستجيب كذلك لأمر الله، في مثل قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨].

نسخة مجانية

وهو يتمتع بها في توسط واعتدال طوعًا لأمر الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۞ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ﴾ [الأعراف: ٣١، ٣٢].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

وهو حين يستهلك ويستمتع بالطيبات يستحضر أنَّها من رزق الله تعالى، ونعمته عليه، وأنَّ عليه الشكر لواهبها سبحانه، كما قال تعالى عن سبأ: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾ [سبأ: ١٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

بل تدل الآيات أنَّه رزقهم من الطيبات ليكونوا على رجاء الشكر: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦]، و﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وهو حين يبيع ويشتري، ويؤجر ويستأجر، ويتبادل مع غيره الأموال والمنافع، يقف عند حدود الله تعالى في معاملته، لا يكسب من حرام، ولا ينمي ما كسبه بطريق حرام، لا يرابي ولا يحتكر، ولا يظلم ولا يغش، ولا يقامر ولا يسرق، ولا يرشو ولا يرتشي.

يعمل في دائرة الحلال البيّن، ويجتنب دائرة الحرام البيِّن، ويتقي الشبهات ما استطاع، استبراءً لدينه وعِرضه، وبُعْدًا عن حِمى الحرام خشية أن يقع فيه.

QaradawiBooks.com

قد وعى أوامر الله ونواهيه في ذلك، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

وقوله ﷺ: «**لعن الله آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه**»[(١)]، «**لا يحتكر إلا خاطئ**»[(٢)]، «**إن الله إذا حرَّم شيئًا حرَّم ثمنه**»[(٣)].

وهو حين يملك المال لا يحتجزه لنفسه، ضانًّا به عن غيره، ولا ينفقه في معصية أو سفهٍ، وبعبارة أخرى: لا يمسكه عن حق، ولا يصرفه في باطل.

فملكيته للمال ليست مطلقة، بحيث يفعل ما يشاء، ويتصرف كما يشتهي، على نحو ما قال قوم شعيب لشعيب حين قال لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥]، فردُّوا عليه ساخرين: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ [هود: ٨٧].

---

(١) رواه مسلم (١٥٩٧)، وأحمد (٣٨٠٩)، عن ابن مسعود.

(٢) رواه مسلم في المساقاة (١٥٩٨)، وأحمد (١٥٧٥٨)، عن معمر بن عبد الله.

(٣) رواه أحمد (٢٦٧٨)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود (٣٤٨٨)، وابن حبان (٤٩٣٨)، كلاهما في البيوع، وصحَّحه الألباني في غاية المرام (٣١٧)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

أو على نحو ما قال قارون لقومه حين أخلصوا له النصح قائلين: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۞ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٦، ٧٧]، فماذا كان جوابه؟ ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨].

اقتصاد خادم للعقيدة «ربانية الوجهة والغاية»:

٢ ـ والاقتصاد في الإسلام ليس هدفًا في ذاته، ولكنَّه ضرورة للإنسان، ووسيلة لازمة له ليحيا ويعمل لغاياته العليا، فهو معين له، وخادم لعقيدته ورسالته.

فالإسلام نظام كامل للحياة: حياة الفرد، وحياة الأمة، الحياة بجوانبها الفكرية والروحية والخُلُقية، وبجوانبها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، فالناحية الاقتصادية جزء منه، وجانب من جوانبه، وهي جزء حي، وجانب مهم، ولكنَّها ليست أساس بنائه، ولا محور تعاليمه، ولا هدف رسالته، ولا عنوان حضارته، ولا مهمة أُمته.

العقيدة أساس هذا النظام:

وسر ذلك: أنَّ هذا النظام للحياة الإنسانية منبثق عن عقيدة شاملة في الكون والحياة والإنسان، وفي مصدر هذا الكون، وواهب الحياة، وخالق الإنسان. عقيدة تخاطب العقل، وتطابق الفطرة، في تفسيرها لمعميات الوجود، وإجابتها عن الأسئلة الحائرة للإنسان منذ فكَّر وتأمَّل: من أين؟ وإلى أين؟ ولِمَ؟ من أين جئتُ وجاء هذا الكون الفسيح؟ ومَن أبدعه؟ ومَن نظمه؟ وما صلة الإنسان بهذا الخالق المبدع؟ وإلى أين المسير بعد رحلة الحياة؟ ولماذا نحيا؟ ولماذا نموت؟

QaradawiBooks.com

هذه العقيدة تقوم على العناصر التالية:

١ ـ على الإيمان بالرب الأعلى، الذي خلق فسوَّى، والذي قدَّر فهدى «الله» ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٢ ـ ٤]، له الخلق وله الأمر وحده، وله الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم وإليه يرجع الأمر كله، لا يُعبد إلا هو، ولا يُستعان إلا هو، ولا تُطلب الهداية من غيره: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٥، ٦].

لا يجوز لمخلوق أن يتخذ غيره تعالى وليًّا، ولا أن يبتغي غيره حَكَمًا، ولا يبغي غيره ربًّا: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ [الأنعام: ١١٤]، ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

٢ ـ وبأنَّ الإنسان ليس هو هذا الغلاف الجسدي، ولا هذا الهيكل من العظم واللحم والدم والأعصاب فحسب، وإنَّما هو روح علوي يسكن هذا الهيكل السفلي، وقبس من نور السماء في غلاف من طين الأرض، وبهذا السر الكامن في حناياه كان أهلًا لخلافة الله وتكريمه، وعمارة أرضه بالحق والعدل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

٣ ـ وبأنَّ الناس جميعًا عباد لله وحده، أحرار من التبعية لغيره، متساوون في المبدأ والمصير، إخوة في الإنسانية، سوَّى بينهم بنوتهم لأب واحد هو آدم، وعبوديتهم لرب واحد، هو الله الذي خلقهم من ذكر وأنثى، وجعلهم شعوبًا وقبائل ليتعارفوا، لا فضل لجنس على جنس، ولا لون على لون، ولا فرد على فرد، إلا بالتقوى.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

٤ ـ وبأنَّ الله تعالى لم يترك النَّاس سدًى، ولم يدعهم هملًا تائهين، بل بعث إليهم مَن يدلهم على الغاية، ويرشدهم إلى الطريق، فأرسل رسله بالبينات والهدى: ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

٥ ـ وبأنَّ رسالات الله تعالى خُتِمت بالرسالة العامة الخالدة ـ رسالة محمد ﷺ ـ التي أكمل الله بها الشرائع، وتمَّم بها مكارم الأخلاق، وأودع فيها من معالم الحق، وقواعد العدل، ومعاني الخير، ودلائل الهدى، ما لا تصلح الحياة إلا به، ولا تسعد البشرية بغيره، إلى أن تقوم الساعة: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩].

٦ ـ وبأنَّ مهمة الإنسان في الحياة ليست أن يأكل ويتمتع كما تأكل الأنعام بل عبادة الله وحده، وفعل الخير ابتغاء مرضاته، ومقاومة الفحشاء والمنكر والبغي، والاستمساك بعروة الحق، والصبر على ما يلقى من الأذى في سبيله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣].

٧ ـ وبأنَّ الموت ليس نهاية المطاف، ولا ختام الوجود الإنساني، بل هو انتقال إلى مرحلة جديدة، وحياة أخرى، تُجزَى فيها كل نفس بما كسبت، وتخلد فيما عملت: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۞ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

هذه العقيدة الشاملة هي أساس النظام الإسلامي كله، وإن شئت قلت: النظم الإسلامية جميعًا، بما في ذلك النظام الاقتصادي.

QaradawiBooks.com

إنَّ النِّظام في الإسلام ـ بل في كل مذهب ـ فرع عن العقيدة، وخادم لها، ومهمة النظـام ـ أي نظام ـ أن يحمي العقيـدة، ويعمق جذورها، وينشر نورها، ويضع الصور العملية التي تُعبِّر عنها، وتحقق أهدافها في واقع الحياة.

لهذا كان النظام الإسـلامي للحيـاة نظامًا فذًّا متميِّزًا، فهو يشـمل: العبادات التي تسمو بالروح وتربط الإنسان بالله... والأخلاق التي تضبط الغرائز وتزكي الأنفس... والآداب التي ترقى بالسلوك، وتجمِّل الحياة... والتشريعات التي تبيِّن الحلال من الحرام، وتقيم العدل، وتمنع التظالم والبغي، وتنظم علاقة الفرد بالفرد، والفرد بالأسرة، والفرد بالأمة، والأمة بغيرها من الأمـم، على قواعد من الأخوة والمسـاواة والعدالة، وتبادل الحقوق والواجبات، كما تقرِّر العقوبـات التي تؤدب المنحرف، وتردع المتهاون، وتُحفَظ بها حدود الله وحقوق الناس.

فإذا كانت بعض النظم العالمية تجعل الخبز هدفها، والبطن محورها، والاقتصاد مشـكلتها، والدنيا أكبر همِّها، ومبلغ علمهـا، والمادة دَعامة حياتها، بل عماد حضارتها ومدار فلسفتها وتفكيرها ـ فإنَّ نظام الإسلام يهتم بهذه الأمور على أنَّها وسـيلة لا غاية، وفرع لا أصل، ويوجه أكبر همه وعنايته إلى السـمو بالروح، والرقي بالإنسـان مـن ظلمة المادة، وجاذبيـة الطين، وهبوط الغرائز، إلى إشـراق الروح، وهداية السـماء، والتطلع إلى الملأ الأعلى.

إنَّ الاقتصاد الإسـلامي اقتصاد رباني؛ لأنَّه منبثق عن عقيدة ربانية، هي عقيدة التوحيد، التي بعث الله بها رسـله، وأنزل بها كتبه، فهو مُعبِّر عن هذه العقيدة في مجاله، وهو خادم لها كذلك.

QaradawiBooks.com

إنَّ الاقتصاد الإسلامي يعمل بكل قوة على تحقيق الحياة الطيبة لأهله، بحيث تتوافر لهم كل حاجات الحياة ومطالبها المشروعة، ولكنَّه لا يرضى أن تكون هذه الحياة هي غاية الغايات، بل يريدها أن تكون سُلَّمًا لحياة أرقى وأزكى وأخلد، وهي حياة الخلود، التي وعد الله بها المؤمنين والمؤمنات من عباده.

الاقتصاد الإسلامي اقتصاد رباني؛ لأنَّ منطلقاته ربانية، ولأنَّ غايته ووجهته كذلك ربانية، همُّه أن يعين المكلَّفين على أن يعبدوا ربهم، ﴿ٱلَّذِىٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ [قريش: ٤]، وألَّا يجرَّهم الفقر إلى الكفر، ولا يدفعهم الجوع إلى الإثم، ولا يعلو صوت المعدة الخاوية على صوت الإيمان الحي.

وازع الإيمان قبل وازع السلطان:

٣ ـ وأمر آخر تتجلى فيه ربانية الاقتصاد الإسلامي، وهو الوازع الداخلي، أو «الضمير» الذي ينشئه الإيمان في قلب المسلم، ويجعل من نفسه رقيبًا على نفسه... فلا يسمح لها أن تأخذ ما ليس لها بحق، أو تأكل مال الغير بالباطل، أو تستغل ضعف الضعيف، أو غفلة المسترسل، أو حاجة المضطر، أو أزمة الغذاء أو الدواء أو الكساء في المجتمع، فتحاول أن تنتهز الفرصة لتربح الملايين من وراء جوع الجائعين، وبؤس البائسين.

إنَّ إيمان المسلم برقابة ربِّه عليه اليوم، وحسابه له في الغد، يوم تُنشَر الدواوين، وتُنصَب الموازين، واستحضار هذا في وجدانه، هو الرقيب الأول، الذي يغني عن كل رقيب، ولا يغني عنه أي رقيب. فهو يرقبه في تحرِّي الحلال الطيب من المكاسب، وتجنب الحرام الخبيث منها، فلا يقبل أن تصل إلى جوفه لقمة من حرام، فكل جسم نبت من حرام فالنار

QaradawiBooks.com

أولى به. ولا يرضى أن يدخل جيبه أو صندوقه درهم من سُحْت، يعلمه من نفسه سُحْتًا ـ ولو قضت به ألف محكمة ومحكمة، فإنَّ المحكمة تحكم بالظاهر، والله وحده أعلم بالسرائر، فضمير المؤمن هنا هو قاضيه ومفتيه، وإن أفتاه الناس وأفتوه، كما جاء في الحديث الشريف.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

وفي الحديث الصحيح: «**إنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحُجَّته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيتُ له من حقِّ أخيه بشيء، فإنَّما هي قطعة من النار، فليأخذها أو ليدعها**»[(١)].

والقاضي هنا هو رسول الله ﷺ، ولكنَّه هنا يقضي بظاهر الحال، وفقًا للإجراءات المعتادة، والبيِّنات المقدَّمة، فهو ينفذ في الدنيا، ولكنَّه لن يغير الحقائق عند الله يوم تُبلَى السرائر.

بل إنَّ المسلم الذي يخشى الله تعالى ويتقيه: يدع ما يريبه من المكاسب إلى ما لا يريبه، ويتقي الشبهات خشية الوقوع في الحرام، كما في الحديث المتفق عليه: «**فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعِرضه، ومَن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه**»[(٢)].

بل المسلم المتقي لربه يجعل بينه وبين الحرام حاجزًا من الحلال، بُعدًا عن أية مظنة للاقتراب من الحرام أو الشبهات، وفي الحديث الذي

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الشهادات (٢٦٨٠)، ومسلم في الحدود (١٧١٣)، عن أم سلمة.
(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، عن النعمان بن بشير.

QaradawiBooks.com

رواه الترمذي وغيره: «**لا يبلغ عبد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرًا ممَّا به بأس**»[١].

إنَّ فكرة «الحلال والحرام» فكرة مهيمنة على عقل المسلم وضميره، وهو يوقن بأنَّه مسؤول أمام الله عن ماله: من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ ولا بد له أن يُعِدَّ للسؤال جوابًا.

ولا يتسامح الإسلام في الحرام من المكاسب، ولو كان الهدف من ورائها محمودًا في نظر الشرع، كالذي يقيم حفلًا راقصًا، أو سهرة ماجنة، ليعين من دخلها جمعية خيرية، وكالذي يأكل الربا، ليؤسس به جامعًا للعبادة، أو مدرسة لتعليم اليتامى، أو لتحفيظ القرآن الكريم، أو مستشفى لعلاج المرضى الفقراء، فالإسلام لا يقر مبدأ: أنَّ «الغاية تبرر الوسيلة»، بل هو يحرص على نظافة الوسيلة حرصه على شرف الغاية. وفي الحديث الصحيح: «**إنَّ الله طيب لا يقبل إلا طيِّبًا**»[٢].

أهمية التربية الإيمانية في توجيه الاقتصاد:

٤ ـ ومن هنا كانت أهمية التربية الإيمانية لتوجيه الاقتصاد الوجهة التي يريدها الإسلام، وضبطه بأحكامه الشرعية.

فلقد أصبح من الأمور المسلَّمة في ميدان الاقتصاد أهمية الدوافع الفردية، التي تجد في حق التملك وحق الميراث، وفي جو الحرية

---

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٥١)، وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الزهد (٤٢١٥)، والحاكم في الرقائق (٣١٩/٤)، وصححه، ووافقه الذهبي، وقال ابن رجب في فتح الباري (١٦/١): في إسناده بعض المقال، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٤٣٥)، عن عطية السعدي.

(٢) رواه مسلم في الزكاة (١٠١٥)، وأحمد (٨٣٤٨)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

والمنافسة الاقتصادية، أقوى الحوافز، لزيادة الإنتاج، وإتقان العمل، وابتكار أحسن الوسائل لإنتاج أفضل الأشياء بأقل النفقات.

ولكنَّ الخطر الذي يخشاه الجميع أن تنقلب تلك الدوافع الفردية الفطرية إلى أنانية بشعة، تريد أن تلتهم كل شيء ولا تشبع، وأن تصبح المنافسة في جو الحرية الاقتصادية ضربًا من التكالب الذي لا خُلُق فيه ولا شرف، أو تمسي لونًا من اللصوصية المنظمة يتفق فيه الأقوياء على ابتلاع الضعفاء.

فهل هناك من سبيل لإبقاء الدافع الفردي وإبقاء المنافسة الاقتصادية، مع تقليم أظافرها الحادة، وخلع أنيابها المفترسة؟

والجواب: إنَّ السبيل الأول للتوفيق بين البواعث الفردية والمصلحة الاجتماعية ـ قبل كل تشريع وكل تنظيم ـ هو الإيمان.

الإيمان هو الذي يصنع لصاحبه «عقلية» ينظر بها إلى نفسه، وإلى الكون وإلى المال والحياة، وإلى الأشياء والقِيَم، غير نظرة «الرأسمالي» الذي لا يكاد يفكر إلا في المادة والمتعة، ولا غاية له إلا جمع أكبر مقدار من النقود.

والإيمان هو الذي يصنع لصاحبه «قلبًا» يشعر ويحس، ويتعامل مع الله والكون والناس والحياة، ببصيرة وحيوية، فهو يحب الحق، ويريد الخير، ويكره الباطل، وينفر من الشر، ويرنو إلى حياة بعد الحياة.

إنَّ عقل المؤمن وقلبه، غير عقل المادي الملحد أو الشاكِّ، وقلبه، ولكلٍّ منهما عالَمه، عالَم الملحد هو دنياه الخاصة وما يستطيع أن يحقق لذاته فيها من شهوات ومنافع مادية عاجلة، وعالَم المؤمن رحب فسيح اتصل بالأزل والأبد، واستوعب المادة والروح، والغيب والشهادة، والحياة وما بعد الحياة.

QaradawiBooks.com

وهذه العقليـــة التي يصنعها الإيمان من شـــأنها أن تخفف من غلواء الطمع، ومن سعار المنافســـة، ومن داء التكالب والتزاحم على المادة، وتشـــدُّه إلى أصول ثابتة من القيم الرفيعة، والمثل العليا، فتنير طريقه، وتُسدِّد خطواته، وترفعه من الحيوانية الهابطة إلى الإنسانية الراشدة؛ فتراه يرفض الحرام بإصرار، ويقبل الحلال القليل بقناعة.

ثم إنَّ هناك فَرْقًا كبيرًا بين إنســـان ينظر إلى المال من خلال شخصه هو، فهـــو وحده الذي جمعه، وهـــو وحده الذي نمَّاه، وهـــو وحده الذي يستحق أن يستمتع بثمراته... وبين إنسان يرى نفسه «خليفة الله» في المال، فالمال في الحقيقة مال الله، هو الذي أنشأ مادته، وهو الذي سخَّره لمنافع الإنسان، وهو الذي وهب الإنسان المقدرة على اكتسابه، والأهلية للانتفاع به، فهو «أمين» على المال، أو «مُسْتَخلَف فيه» كما عبَّر القرآن الكريم.

فرق كبير بين إنسان ينظر إلى المال ويقول في صلف وغرور: «هذا لي»، وآخر يقول في تواضع وإيثار: «هذا لله عندي»!!

فرق بين قارون الذي قال معتـــزًّا بماله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، وبين سليمان الذي قال شاكرًا لنعمة ربه: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

فرق بين الملحد الذي لا يرجـــو الله ولا الدار الآخرة، وليس له أمل وراء هـــذه الحياة العاجلة، كصاحـــب الجنَّتيْن الذي قـــال لصاحبه وهو يحاوره: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۞ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۞ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٤ ـ ٣٦].

QaradawiBooks.com

وبين المؤمن الذي اتسع أفق حياته، فشمل الدنيا والآخرة، ووسع قلبه الخلق والخالق، كمؤمن آل فرعون الذي قال لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ۞ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [غافر: ٣٩، ٤٠].

إنَّ المؤمن يملك المال، ولكنَّ المال لا يملكه... ويستولي على الدنيا، ولكنَّها لا تستولي عليه، إنه يجمعها في يده ولكنَّه لا يُسكنها شغاف قلبه، إنَّها عنده وسيلة وطريق، وليست هدفًا وغاية، إن هدفه عبادة الله تعالى والجهاد لتحقيق منهجه وإعلاء كلمته في الأرض، لتصقله تلك العبادة، وهذا الجهاد، وتعده لحياة الخلود التي خُلِقَ لها وخُلِقَتْ له.

أما الأموال والطيبات فهي عون له على أداء رسالته، وأداة له في بلوغ غايته.

إنَّ هذا الإيمان هو الذي يجعل المسلم يقف من نفسه موقف المحاسِب لها، المراقِب لتصرفها: فلا يتملك المال بأي طريق، ولا ينميه بأي طريق، ولا ينفقه في أي طريق، بل يتملكه كما شرع الله، وينميه كما أمر الله، وينفقه فيما أحب الله.

* * *

نسخة مجانية غير مخصصة للطباعة
QaradawiBooks.com

فكرة الاستخلاف في مال الله

ومن القيم المحورية الربَّانية في الاقتصاد الإسلامي: تلك القيمة الكبيرة البارزة، التي تقرر أنَّ الإنسان الذي يملك إنَّما هو مُسْتخلَف في مال الله تعالى، وهي تؤكد خصيصة «الربَّانية» في هذا الاقتصاد.

إنَّ المسلم يؤمن بأنَّه مخلوق لله تعالى، يعمل في ساحة هي أرض الله، بقدرات هي من هبة الله، وبأدوات هي من نعمة الله، ووفقًا لسنن هي من صنع الله.

فإذا كسب بعد ذلك مالًا فهو مال الله، هو خلقه وملكه، وإنَّما هو مُسْتخلَف فيه، وأمين عليه.

ولا بد لنا من الوقوف أمام هذه الفكرة أو النظرية ـ كما تسمى أحيانًا ـ حتى نبين مفهومها ونعرفها بأدلتها من القرآن والسنة، ونكشف عن آثارها في حياة الفرد المسلم والمجتمع المسلم، اعتقادًا وتفكيرًا وسلوكًا، ونعني بها: فكرة استخلاف الإنسان في مال الله سبحانه.

أساس فكرة الاستخلاف:

وأساس هذه الفكرة أو النظرية كما بيَّنتها في «فقه الزكاة»[1]: أنَّ الله ﷻ هو المالك الحق لكل مَن في هذا الكون، وكل ما في هذا الكون: أرضه وسمائه، إنسانه وحيوانه ونباته وجماده، الماء واليابس في هذا الكوكب، والأحياء بأنواعها وفصائلها المختلفة، وغير الأحياء من جوامد وغازات ونحوها، العقلاء وغير العقلاء، من البشر ومن غيرهم، مما

(١) (١٠١٨/٢)، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢٥، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

QaradawiBooks.com

نُبصر ومـــا لا نُبصر، يقول تعالـــى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النجـــم: ٣١]، ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ [طه: ٦]، ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٦].

فكل ما في هذا العالم، علويّه وســفليّه، مِلْك خالص لله تعالى، وليس لأحد شـــرك في ذرة منـــه: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [ســبأ: ٢٢]، وذلك الملك بمقتضى خلقه لها، وهيمنته عليها: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣].

والأموال كلها مِلْك لله تعالى، فهو واهبهـــا والمنعم بها على عباده، وهو وحده خالقها ومنشئها، وعمل الإنسان الذي نسميه: «إنتاجًا» يتخذ مجاله في مادة خلقها الله سبحانه وسخَّرها له؛ ولهذا يقول الاقتصاديون: إنَّ الإنتاج هو خلـــق المنفعة وليس خلق المادة، ومعنـــى هذا أنَّه يحوِّل المادة لتُشبع حاجاته وتكون لها منفعة[1].

كل ما يقوم به الإنســـان في «الإنتاج» لا يتجـــاوز التغيير في أوضاع الأشياء وأماكنها، كأن يســـتخلصها من مواطنها الأصلية بالاستخراج أو الصيد مثلًا، أو ينقلها من مكان تزيد فيـــه عن الحاجة إلى مكان يحتاج إليها فيه، أو يحفظها عن طريق التعبئة والخزن لينتفع بها في المستقبل، أو يخضعها لبعض المؤثرات لتصبح صالحة لســـد حاجة ما، أو يُحوِّلها من شـــكل إلى آخر بالحلج أو الغزل أو النقش أو الطحـــن... إلخ، أو يؤلِّف بينها تأليفًا خاصًّا فيجعل منها شـــيئًا جديدًا، هو مجرد التغيير في

(١) انظر: الاقتصاد السياسي للدكتور رفعت المحجوب (١٩١/١، ١٩٢).

QaradawiBooks.com

أوضاع العناصر وأماكنها، حتى في حال إحداث ثروة جديدة لم تكن من قبل، كما في الزراعة أو تربية الحيوان، لا يعمل الإنسان أكثر مما يعمله في المظاهر الإنتاجية الأخرى[1].

هذا ما يقرِّره فلاسفة الاقتصاد بوضوح في بيان وظيفة الإنسان في الإنتاج: مجرد تحوير وتغيير في أوضاع وأماكن الأشياء الموجودة فعلًا، ومَن موجدها؟ إنَّه: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ۞ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ۞ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤].

حتى هذا التغيير والتحوير مَن الذي يَسَّرَ سُبله للإنسان، ومنحه القدرة على فعله، وأمدَّه بكل ما يعينه في هذا السبيل؟ إنَّه ربنا الذي خلق الإنسان ولم يكن شيئًا مذكورًا، وعلَّمه ما لم يكن يعلم.

ولنضرب لذلك بعض الأمثلة:

إذا زرع الإنسان زرعًا فأنبت حبًّا، أو غرس غرسًا فآتى ثمرًا، فكم يوازي عمل يده في الحرث والسقي والتعهد، بجانب عمل يد الله الذي جعل الأرض ذلولًا، وصرّف الرياح، وسخَّر السحاب، وأنزل الماء من السماء مطرًا، أو أجراه في الأرض نهرًا، ووفَّر الحرارة الملائمة، والضوء الكافي، والهواء المناسب، وهيأ للحبة في باطن التراب غذاءها من شتى العناصر، حتى صارت شجرة مورقة مثمرة؟

ألا ما أقل عمل الإنسان وجهده بجانب رعاية الله!!

(١) انظر: الاقتصاد السياسي للدكتور علي عبد الواحد وافي صـ ٧٤ ـ ٧٦، ط ٥.

QaradawiBooks.com

ثم ما عمل الإنسان إذا لم يهبه الله العقل الذي به يفكر ويدبر، والقدرة التي بها ينفذ، والأدوات التي بها يعمل؟!

لهذا يبيِّن القرآن فضل الله على عباده، ويرد الحق إلى نصابه، فيقول: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۞ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۞ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۞ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۞ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۞ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۞ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۞ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا﴾ [الواقعة: ٦٣ ـ ٧٠].

ويقول في سورة أخرى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۞ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٢٨].

ويقول في سورة ثالثة: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۞ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۞ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يسٓ: ٣٣ ـ ٣٥].

نعم ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ وهم يأكلون من ثمار لم تعملها أيديهم، وإنَّما عملتها يد الله، الله الذي أحيا الأرض الميتة، وأخرج منها الحَبَّ، وأنشأ الجنات، وفجَّر العيون.

وليس عمل يد الله في الزراعة فحسب، بل في كل ناحية من الحياة: زراعة، أو تجارة، أو صناعة، أو غيرها ـ ففي الصناعة مثلًا نجد المادة «الخام» من خلق الله، لا من إنتاج الإنسان، ومن هنا امتنَّ الله على الناس بمادة الحديد، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥].

والتعبير بـ «أنزلنا» يعني أنَّ الله خلقه بتدبير سماوي علوي لا دخل للإنسان فيه.

QaradawiBooks.com

ونجد مادة الوقود والقُوى المحرِّكة من صنع الله وحده، فالإنسان لم يخلق الفحم ولا البترول، ولا الكهرباء، وإنَّما اكتشفها فقط، أما الذي بثَّها في الكون فهو الله.

ونجد الاهتداء إلى الصناعات من إلهام الله وتعليمه للإنسان ما لم يكن يعلم، كما قال عن نبيِّ الله داود: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

والنتيجة من هذا: أنَّ المال رزق يسوقه الله للإنسان فضلًا منه ونعمة، ومهما يذكر الإنسان عمله وجهده فليذكر عمل القدرة الإلهية في الإيجاد والإمداد: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]. فلا غرابة بعد هذا أن ينفق الإنسان ـ عبد الله ـ بعض ما رزقه الله في سبيل الله، وإعلاء كلمة الله، وعلى إخوانه عباد الله، قيامًا للواهب المنعم بحق الشكر على نعمائه، ومن أجل هذا يقول الله في كتابه: ﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [البقرة: ٢٥٤]، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، ويقرِّر أنَّ المال مال الله، والإنسان ما هو إلا مستخلف فيه، أو موظف مؤتمن على تنميته وإنفاقه، والانتفاع والنفع به. يقول تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، ويقول: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، لم يقل: الذين يبخلون بمالهم، بل قال: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ليُذكِّرهم بهذه الحقيقة: أنَّ المال رزق من عند الله آتاهم إياه من فضله، ويقول: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، فالإنسان ليس مالك المال في الحقيقة، ولكنَّه خليفة المالك ـ وهو الله تعالى ـ ووكيله فيه[1].

(١) قال ابن القيم: «هل يصح أن يقال: إن أحدًا وكيل الله؟». وأجاب بالنفي: «فإن الوكيل مَن يتصرف عن موكله بطريق النيابة، والله ﷻ لا نائب له، ولا يخلفه أحد، بل هو الذي يخلف =

QaradawiBooks.com

من أقوال علمائنا:

قال صاحب «الكشاف» في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]: «يعني أنَّ الأموال التي في أيديكم إنَّما هي أموال الله بخلقه وإنشائه لها، وإنما موَّلَكم إياها، وخوَّلكم الاستمتاع بها، وجعلكم خلفاء بالتصَرُّف فيها، فليست هي بأموالكم في الحقيقة، وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنوَّاب، فأنفقوا منها في حقوق الله، وليهن عليكم الإنفاق منها، كما يهون على الرجل الإنفاق من مال غيره إذا أذن له فيه»[(١)].

وليست ثمرة العلم بأنَّ المال مال الله، والإنسان فيه بمنزلة النائب أو الوكيل، مقصورة على تهوين البذل والإنفاق عليه، حيث ينفق من مال غيره، وقد أذن له فيه، بل يفيد العلم بهذه الحقيقة أيضًا أن يتقيَّد الإنسان بمشيئة المالك الحقيقي للمال، فإنَّ الوكيل ما هو إلا ممثل لإرادة الموكل، ومنفِّذ لما يطلبه، وليس له حق الانفراد بالتصرف حسبما يهوى ويشتهي، وإلا بطلت وكالته ولم يعد جديرًا بحق الاستخلاف الذي أساء استعماله.

وقد نبَّه علماؤنا على حق الله في المال بعبارات بليغة، نذكر منها ما قاله الإمام الرازي في «تفسيره»: «إنَّ الفقراء عيال الله، والأغنياء خُزَّان الله؛ لأنَّ الأموال التي في أيديهم أموال الله، فليس بمستبعد أن يقول الملك لخازنه: اصرف طائفة ممَّا في تلك الخزانة إلى المحتاجين من عيالي»[(٢)].

= عبده، كما قال النبي ﷺ: «**اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل**». رواه مسلم في الحج (١٣٤٢)، عن ابن عمر. ثم قال: «على أنه لا يمتنع أن يطلق ذلك باعتبار أنه مأمور بحفظ ما وكله فيه، ورعايته والقيام به». انتهى من مدارج السالكين (١٢٦/٢، ١٢٧)، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

(١) الكشاف (٤٧٣/٤)، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٠٧هـ.

(٢) تفسير الزاري (٨٠/١٦)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٢٠هـ.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وما قالـــه القاضي ابن العربـــي: إنَّ الله بحكمتـــه البالغة، وأحكامه الماضية العالية، خصَّ بعض الناس بالأمـــوال دون البعض، نعمة منه عليهم، وجعل شكر ذلك منهم إخراج سهم يردونه إلى مَن لا مال له، نيابة عنه ﷻ فيما ضمنـــه بفضله لهم في قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦][(١)].

فإذا ضنَّ الغني ـ وهو الخازن لمال الله والأمين عليه ـ بهذا المال على عيال الله، واختص نفسه بنعمته دونهم، فقد استوجب نكال الله وعقوبته.

شيوع فكرة الاستخلاف عند عوام المسلمين:

وقد شـــاع بين عوام المسلمين حديث قدســـي عن الله تعالى يقول: «المال مالي، والفقراء عيالي، والأغنياء وكلائي، فإذا بخل وكلائي على عيالي، أذقتهم وبالي ولا أبالي»[(٢)].

ومع أنَّ لفظ الحديث غير ثابت من جهة السند، فإنَّ معناه في الجملة صحيح، وشـــهرته لدى جمهور المســـلمين تـــدل على رســـوخ نظرية الاســـتخلاف في مال الله وتغلغلها في أفكارهم، وهـــو تغلغل أصيل له جذوره العميقة من كتاب الله وسُنَّة رسول الله.

ومن الطريف أنَّ أكثر المتســـولين والشـــحاذين في بلاد المسلمين يعرفون هـــذه النظرية ويســـتغلُّونها لاســـتعطاف القادرين، واســـتخراج الصدقات من أيديهم ولا عجب أن تســـمع منهم كثيرًا هذه الكلمة: «من مال الله»! وهي كلمة حق يريدون بها باطلًا.

(١) أحكام القرآن (٥١٩/٢)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٣، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

(٢) بحثت عنه فلم أجد له أصلًا ولا مَن تكلَّم عليه.

QaradawiBooks.com

وفي الحديث: «**ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة، يقولون: ربنا ظلمونا حقوقنا التي فرضتَ لنا عليهم، فيقول الله تعالى: وعزتي وجلالي، لأدنينكم ولأبعدنهم**»[(١)].

آثار فكرة الاستخلاف في الحياة الاقتصادية والاجتماعية:

لقد كان لهذه الفكرة أو هذه الحقيقة «الاستخلاف» آثار جمَّة، وثمرات طيبة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية عند المسلمين:

١ ـ فمن ثمرات هذه الحقيقة الكبيرة: «استخلاف الإنسان في مال الله» في نفس المسلم: أنَّها تخفف من غلوائه وادعائه، وتحول بينه وبين الأشر والاستكبار، فلا يغره المال، ولا يطغيه الغنى؛ لأنَّه يوقن أنَّ المال مال الله، وأنَّ نسبة الملكية إلى الإنسان إنَّما هي نسبة مجازية، لتنظيم الحيازة والتصرف، لا ليقول ما قال الإنسان الكفور في غرور وتنفخ: «هذا لي»[(٢)]، ولا ليقول ما قال قارون في ادِّعاء وأشر: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]، بل ليقول ما قال سليمان عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

سئل أعرابي مسلم عن إبل يرعاها: لمن هذه الإبل؟ فقال في أدب المؤمن: «هي لله عندي»؛ فما أصدق، وما أبلغ ما قال[(٣)]!

---

(١) رواه الطبراني في الصغير (٦٩٣)، وفي الأوسط (٤٨١٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٣٢٥): رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه الحارث بن النعمان وهو ضعيف. وضعفه الألباني في الجامع الصغير (١٤٢٩٦)، عن أنس.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠].

(٣) تفسير ابن عطية (٢٨٥/٥)، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مصغرة
QaradawiBooks.com

٢ ـ ومن ثمرات هذه الحقيقة: أن يهون المال على صاحبه ـ كما قال صاحب «الكشاف» ـ ويسهل عليه إنفاقه كلَّما دعا داعي الحق، أو ناداه واجب الأُخوّة، فلا يحبس ماله عن نُصرة الدين، ولا عن معونة الضعفاء والمساكين، فهو إنَّما ينفق من مال الله، على عيال الله، وفي سبيل الله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١٠].

ذكر الخطيب في «تاريخه»: أنَّ أبا حنيفة كان يبعث بالبضائع إلى بغداد فيشتري بها الأمتعة، ويحملها إلى الكوفة، ويجمع الأرباح عنده من سنة إلى سنة فيشتري بها حوائج الأشياخ المحدِّثين وأقواتهم وكسوتهم وجميع حوائجهم، ثم يعطيهم ويقول: لا تحمدوا إلا الله، فإنِّي ما أعطيتكم من مالي شيئًا، ولكن من فضل الله عليَّ فيكم[1].

٣ ـ ومن ثمراتها: أنَّها تسهِّل على مَن بيده المال، قبول الأوامر والتوجيهات والقوانين الشرعية المتعلقة بتنظيم المال، فيتقبلها بقبول حسن؛ لأنَّها توجيهات ربِّ المال ومالكه الأصلي، ولا يتمرد عليها، كما يتمرد الآخرون على التشريعات الوضعية، ويحتالون على التهرب منها... ولا عجب أن وجدنا المؤمنين في عهد الرسول ﷺ يأتون إليه سائلين: ما يصنعون في أموالهم ـ أو بعبارة أخرى ـ في أموال الله بأيديهم؟ ماذا ينفقون؟ وكم ينفقون؟ ولمن ينفقون؟ كما يسأل الموظف الجديد ـ في أمانة الصندوق أو الخزينة ـ صاحب العمل أو مديره: ماذا يصنع فيما تحت يده من عهدة، ولمن يصرف؟ وكم يصرف؟

(١) تاريخ بغداد (٤٨٧/١٥)، تحقيق د. بشار عواد معروف، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

QaradawiBooks.com

فعن أنس بن مالك قال: أتى رجل من تميم رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله؛ إنِّي ذو مال كثير، وذو أهل ومال وحاضرة، فأخبرني كيف أصنع؟ وكيف أنفق؟ فقال رسول الله ﷺ: «**تُخرج الزكاة من مالك، فإنها طُهرة تطهرك، وتصل أقرباءك، وتعرف حق المسكين والجار والسائل**»[(١)].

وفي سورة البقرة ذكر القرآن للمسلمين سؤالًا تكرر مرتين: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٥]، وقد أشار الجواب إلى أنَّهم في المرة الأولى إنَّما سألوا عن مصرف الإنفاق، وفي الثانية عن قدر المنفَق، فكان الجواب في الآية الأولى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٥]. وفي الآية الأخرى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ [البقرة: ٢١٩].

٤ ـ ومن ثمراتها كذلك: أنَّها تعطي الدولة المسلمة سندًا شرعيًّا، وأساسًا نظريًّا، لفرض ما تحتاج إليه من ضرائب على القادرين، تسد بها حاجات المحتاجين من عباد الله، أو تحقق بها مصالح عامة لدين الإسلام ودولته، إذا لم تفِ الزكاة المفروضة وموارد الدولة الأخرى بتلك الحاجات والمصالح، ذلك أنَّها تأخذ من مال الله لتنفقه على عيال الله وفي سبيل الله، وبذلك تنحل العقدة، التي حيَّرت علماء المالية زمنًا طويلًا: عقدة الأساس القانوني لفرض الضرائب على مُلاك المال: ما هو؟

(١) رواه أحمد (١٢٣٩٤)، وقال مخرِّجوه: رجاله ثقات رجال الشيخين. والحاكم في التفسير (٣٦٠/٢)، وصححه، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٣٣٢): رواه أحمد، والطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح.

QaradawiBooks.com

٥ ـ ومن ثمراتها أيضًا: أنَّها تعطي الجماعة المؤمنة حق الرقابة على الغَنِيِّ فيما يحوزه من أمـوال، وتجعل لها عليه سـلطانًا إذا هو لم يرع حدود الوكالة الممنوحة له، فأفسد وأتلف... فإنَّ مالك المال الأصلي قد خوَّلها حق الحجر عليه، وغلّ يده عـن التصرف في مال الله عنده. وفي هذا جاء قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥].

وعرف الفقه الإسـلامي في أبواب المعاملات «بـاب الحَجْر»، وقد يكون حَجْرًا لحق الغير، كالحجر على المدين والمفلس لحق غرمائه، وقد يكون حَجْرًا لحق صاحب المال نفسه، كالحَجْر على السفيه، وهو المبذِّر المتلاف الذي يسيء التصرف في ماله؛ لأنَّه أساء فيما استخلفه الله فيه.

٦ ـ ومن ثمراتها أخيرًا: تقوية قلـوب الفقراء وعزائمهم في المطالبة بحقهم عند الأغنياء وعند الدولة إذا شحُّوا به، وأنَّ من حقهم أن يرفعوا رؤوسـهم بكل عزة وكرامـة، مطالبين بنصيبهـم في مـال الله؛ فإنَّهم لا يشحذون ولا يتسوَّلون، بل يسـألون «حقهم المعلوم»، الذي كتب الله لهم في ماله عند المستخلَفين فيه من خلقه.

إنَّ الغَنِيَّ في نظر الفقير حينئذ أشـبه ما يكـون بـ «أمين صندوق» الجماعة، فهو لا يضعف أمامه ولا يذل ولا يهون.

كلمة أوجست كونت:

لقد قال «أوجست كونت» الذي يسميه الغربيون: «أبا الاجتماع» «مع أنَّ ابن خلدون أسبق منه بقرون في تأسيس علم الاجتماع» كلمة حُفِظت عنه واشتهرت، مضمونها: أنَّ الغِنَى «وظيفة اجتماعية»، وأنَّ الغنيَّ موظف في «النظام الاجتماعي» على معنى أنَّ شأن الغني في ماله شأن الموظف

QaradawiBooks.com

الذي يُسند إليه منصب ما، فإن قام بحق مسؤوليته، وأدَّى واجباته فيه، استحق أن يبقى ويرقى، وإلا وجبت عقوبته جزاءً على تقصيره وتفريطه.

وهذا كلام حسن، وقد تأخَّر عن ظهور الإسلام قرونًا عديدة، ومع هذا لم يرتفع إلى ما جاء به القرآن من دقة وروعة في بيان وظيفة الغني في ثروته، تلك الوظيفة التي رسم كتاب الله معالمها بهذه العبارة البليغة الوجيزة: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

فالغَنِيُّ هنا خليفة ونائب عن مالك المال، مسؤول أن يتصرف فيه تثميرًا وإنفاقًا، وفقًا لأمر صاحب المال وتوجيهاته، فلا يجوز له أن يهمله ويضيعه، ولا أن يبعثره ويبذره، ولا أن يبخل به ويمسكه.

فإذا قام الغَنِيُّ بأعباء وظيفته في ماله استحق الرضا والمزيد، كما يستحق الموظف الكفء الراتب والترقية، وإذا لم يقم بأعباء هذه الوظيفة، كما أمره من وضعه فيها، فقد استحق غضبه وعقوبته، كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

عقوبة الغَنِيِّ الذي لا يقوم بحق الاستخلاف:

وعقوبة صاحب المال ومالكه ـ وهو الله تعالى ـ تتمثل في عدة صور:

١ ـ عقوبة كونية قَدَرية يتولاها القَدَر الأعلى، الذي لا رادّ لقضائه ولا مُعقِّب لحكمه، كأن يسلبه الله نعمة الغنى، فيدمِّر عليه ماله، أو ينقله إلى مَن يستحقه، وفي هذا المعنى يروي عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**إنَّ لله أقوامًا اختصهم بالنعم لمنافع العباد، يقرّهم فيها ما بذلوها، فإذا منعوها نزعها منهم فحوّلها إلى غيرهم**»[(١)].

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٥١٦٢)، وفي الكبير (٢٠٧/١٣)، وقال المنذري في الترغيب =

QaradawiBooks.com

وعن ابن عمر مرفوعًا: «**ومَنْ كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته**»[(١)]. ومفهومه أنَّ من لم يكن في حاجة أخيه لم يكن الله تعالى في حاجته. وفي «الصحيح»: «**والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**»[(٢)].

وعن ابن عباس: أنَّه ﷺ قال: «**ما من عبد أنعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه، ثم جعل من حوائج الناس إليه، فتبرَّم** ـ ضاق وتضجر ـ **فقد عرَّض تلك النعمة للزوال**»[(٣)].

وهذه الأحاديث قبس من قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال: ٥٣].

والقرآن الكريم يذكر لنا نماذج من هذا النوع من الأغنياء الذين لم يحسنوا القيام بوظيفة الاستخلاف في مال الله، فنزع الله عنهم سربال النعمة، وصبَّ عليهم جام نقمته.

نقرأ في ذلك قصة قارون الذي غرَّه ماله، وأطغاه غِناه، فبغى على قومه، ونسب كل شيء لنفسه، ناسيًا فضل ربه، الذي خلق ورزق، وأنعم ويسَّر، وقد نصحه قومه مخلصين فلم ينتصح ولم يستجب: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ

= والترهيب (٣٩٦٨): لو قيل بتحسين سنده لكان ممكنًا. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٧١٤): فيه محمد بن حسان السمتي، وثقه ابن معين وغيره وفيه لين، ولكن شيخه أبو عثمان عبد الله بن زيد الحمصي، ضعفه الأزدي. عن ابن عمر.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٠).

(٢) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٩)، وأحمد (٧٤٢٧)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٧٥٢٩)، وجود إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٣٩٧٠)، وكذا الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٧١٥).

QaradawiBooks.com

أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۞ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۞ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۞ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۞ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص: ٧٦ ـ ٨١].

وتقرأ قصة صاحب الجنتين في سورة الكهف، الذي ضربه الله مثلًا للغَنِيِّ المستكبر الغارق في شهوات يومه، الغافل عن غده وآخرته: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۞ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ۞ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۞ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۞ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۞ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۞ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۞ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۞ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۞ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ۞ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۞ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ [الكهف: ٣٢ ـ ٤٣].

QaradawiBooks.com

٢ ـ وهناك عقوبة يتولَّاها أولو الأمر في المسلمين، وتشرف عليها الجماعة الإسلامية كلها متضامنة، إذ هي مخاطبةٌ بقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥].

هذا إلى عقوبات جزئية أخرى، بدنية وغير بدنية، مقدَّرة وغير مقدَّرة كجلد مَن ينفق ماله في شرب الْمُسْكرات أو المخدرات، وتأديب الرجل الذي ينفق ماله في لبس الحرير أو الذهب، ومثله مَن يقتني الأواني الفضية والذهبية، والتماثيل المحرَّمة ونحوها، مما يدخل في عقوبة «التعزير» التي تُتْرك للإمام أو القاضي، ويمكن في عصرنا أن تنظمها قوانين العقوبات.

٣ ـ وفوق ذلك، هناك عقوبة الآخرة، وهي أشد وأخزى، فإنَّ الله تعالى سائل كل ذي مال يوم القيامة عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]، ومعاقب كل مَنِ انحرف عن شرعه وهَدْيه بالعذاب الشديد: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

اقتصاد أخلاقي

الاقتصاد والأخلاق:

مما يميز نظام الإسلام عن الأنظمة المادية الأخرى، أنَّه لا يفصل أبدًا بين الاقتصاد والأخلاق، كما أنَّه لم يفصل بين العلم والأخلاق، ولا بين السياسة والأخلاق، ولا بين الحرب والأخلاق، فالأخلاق لُحْمة الحياة الإسلامية وسَدَاها؛ ذلك لأنَّ الإسلام رسالة أخلاقية، حتى قال النبي ﷺ: «**إنَّما بُعِثتُ لأتمم مكارم الأخلاق**»، كما أنَّه لم يفصل بين الدين والدولة، أو بين المادة والروح، إنَّه يؤمن بوحدة الحياة، ووحدة الإنسان؛ ولهذا لا يقبل بحال، ما قبلته أوربا من الفصاد النكد، والانفصال المشؤوم بين الدين والدنيا، وما نادت به الرأسمالية وغيرها من الانفصال بين الاقتصاد والأخلاق.

إنَّه لا يجيز أبدًا تقديم الأغراض الاقتصادية على رعاية المُثُل والفضائل التي يدعو إليها الدين، على حين نجد الأنظمة الأخرى تؤثر الكسب الاقتصادي، ولو على حساب الأخلاق ومقتضيات الإيمان.

وهذا الاقتران بين الاقتصاد والأخلاق، يتجلى في كل الحالات الاقتصادية: في الإنتاج والتوزيع والتداول والاستهلاك.

والمسلم ـ فردًا أو مجتمعًا ـ في هذه المجالات ليس سائبًا طليق العنان، يفعل ما يحلو له أو ما يعود عليه بالربح فحسب... كلا، إنَّ

QaradawiBooks.com

المسلم مُقيَّد بالإيمان والأخلاق في كل نشاط اقتصادي يقوم به: في كسبه إذا اكتسب المال، وفي تنميته إذا نمَّاه، وفي إنفاقه إذا أنفقه.

والمجتمع المسلم ليس حرًّا طليق العنان في إنتاجه لأنواع الثروة أو توزيعها، أو تداولها أو استهلاكها، إنَّه مُقيَّد بقيود العقيدة والمُثُل الأخلاقية العليا، بجوار تقيده بقانون الإسلام وأحكامه التشريعية.

ولنضرب لذلك بعض الأمثلة:

١ ـ ظل المشركون من العرب يحجون إلى البيت الحرام بمكة إلى السنة التاسعة من الهجرة، وكان لهم في حجهم تقاليد غريبة، كطوافهم بالبيت عرايا، لئلا يمسَّ أجسادهم شيء من الملابس التي دنسوها بالمعاصي ـ هكذا زعموا ـ ولكنَّ النبي ﷺ أراد أن يطهر بيت الله من أرجاس الوثنية وتقاليدها، فبعث عليًّا إلى أبي بكر الصديق أمير الحج في السنة التاسعة، كي يعلن في النَّاس يوم الحج الأكبر: «**ألَّا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان**»(١).

ولا شك أنَّ في منع حج الألوف وعشرات الألوف إلى الكعبة خسارة اقتصادية كبيرة على المسلمين، ولكن عليهم أن يتحملوا ذلك في سبيل إيمانهم، وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ (٢) فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [التوبة: ٢٨].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٦٢٢)، ومسلم (١٣٤٧)، كلاهما في الحج، عن أبي هريرة.

(٢) أي فقرًا.

QaradawiBooks.com

ومن هذا المثل يتبيَّن لنا أنَّه لا يحل للمسلمين في سبيل تنشيط السياحة وكسب العملات الصعبة، أن يبيحوا الخمور، ويحلوا الحرام، ويقيموا دور الرقص والفجور، وإن خافوا عَيْلة، فسوف يُغنيهم الله من فضله إن شاء.

٢ ـ ومثل آخر: لقد كان بعض أهل الجاهلية يفرض على إمائه أتاوة، يأخذها منهن، ولو كان ذلك من طريق البغاء والزنى العلني، فلمَّا جاء الإسلام امتنع هؤلاء الفتيات بمقتضى إيمانهن عن ارتكاب الفاحشة في سبيل الكسب، وأراد أولئك أن يجبروهن على الخنا، فنزل القرآن ينهى عن ذلك ويقول: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [النور: ٣٣].

٣ ـ ولا شك أنَّ استمرار الناس يبيعون ويشترون في كل وقت فيه كسب خاص لهم، وإنعاش للحركة الاقتصادية على العموم، ولكنَّ القرآن يأمر المؤمنين في يوم الجمعة، إذا سمعوا النداء أن يوقفوا دولاب العمل، ويعطِّلوا كل بيع وشراء ليسعوا إلى ذكر الله، وأداء فرضه الأسبوعي، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩]. ومثل البيع: الإجارة وغيرها من العقود.

كما ندَّد القرآن في الوقت نفسه بالذين يُشغَلون عن فرض الصلاة بمقدم تجارة وما إليها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١].

٤ ـ وفي إباحة الخمر والمسكرات منافع اقتصادية لبعض النَّاس، إذ يترتب عليها ازدياد المزروع من الكروم، وإنشاء مصانع لعصرها، واتساع

QaradawiBooks.com

نطاق التجارة فيها في الداخل والخـارج، ولكنَّ القرآن أهدر اعتبار هذه المنافع المادية، إزاء الأضرار المعنوية الجسـيمة، التي تزرعها في حياة الفرد، وحياة الأسرة، وحياة الأمة، فهي خطر على الدين، وعلى العقل، وعلى الخُلُق والسـلوك، بل على الصحة والإنتاج أيضًا؛ ولهذا لم يبالِ الإسـلام بالمنفعة الاقتصادية العاجلة، وضحَّى بها قرير العين، ليتفادى الأخطار الهائلة الناجمة عن إباحتها.

٥ ـ ومثل الخمر: الميسر (القمار)، ففيه بعض المنافع العاجلة أيضًا كالتسلية وشغل الفراغ، والشعور بنشـوة المجازفة، وتوقع الكسب من غير تعب، ولكنَّ القرآن لم يعبأ بهذه المنافع الشـخصية، مقابل أضراره على نفسية المقامر وخُلُقه وسلوكه، وتعوده الكسب من غير جهد، وأكل أموال الناس بالباطل، وعيشـه علـى أوهام الحـظ والمصادفة العمياء، وهوان كل قيمة وكل عزيز عليه، بعد إدمان هـذا الأمر، حتى إنَّه ليبيع قوت أولاده فيه، ويجيع أسـرته، بل يخون دينه ووطنه من أجله، فضلًا عما يجلبه القمار من عداوة وبغضاء بيـن اللاعبين، وصدّه عن ذكر الله وعن الصلاة عماد الدين.

وفي هذين الأمريـن يقول القـرآن الكريم: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

وتوضيحًا لهذا الإثم الكبير فيهما جاء قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

QaradawiBooks.com

ولم يكتف الإسلام بتحريم تناول الخمر، بل حرَّم كل ما يعين على تناولها، فعاصرها وحاملها وبائعها وشاريها وآكل ثمنها، وكل مَن أسهم فيها بجهد ملعونون على لسان محمد ﷺ[١].

٦ ـ وفي تربية الخنازير وبيعها لغير المسلمين فائدة اقتصادية، ولكنَّ الله تعالى حرَّم لحمه، وجعله رجسًا؛ ولهذا لا يباح للمسلمين أن يتاجروا فيه، فإنَّه إذا حرَّم شيئًا حرَّم أكل ثمنه.

٧ ـ وفي بيع الأصنام، وصناعة التماثيل المحرَّمة، منفعة اقتصادية لصانعيها والمتجرين فيها، ولكنَّ الإسلام لم يبالِ بمنفعة هؤلاء الأفراد ومَن وراءهم، من أجل الحفاظ على العقيدة والمبادئ التي يقوم عليها كيان الأمة المعنوي.

روى الشيخان في «صحيحيهما» عن سعيد بن أبي الحسن قال: «كنت عند ابن عباس إذ جاءه رجل، فقال: يا ابن عباس، أنا رجل إنما معيشتي من صنعة يدي، وإنِّي أصنع هذه التصاوير، فقال ابن عباس: لا أحدثك إلا ما سمعتُ من رسول الله ﷺ، سمعته يقول: «**مَن صوّر صورة فإنَّ الله يعذّبه حتى ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ فيها أبدًا**»، فربا الرجل ربوة شديدة (أي: انتفخ من الغيظ والضيق)، واصفرَّ وجهه. فقال ابن عباس: ويحك! إن أبيتَ إلا أن تصنع، فعليك بهذا الشجر، وكل شيء ليس فيه روح»[٢].

---

(١) حديث: «**لعن الله الخمر، وشاربها وساقيها ومبتاعها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه**». رواه أحمد (٥٧١٦)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح بطرقه وشواهده. وأبو داود (٣٦٧٤)، وابن ماجه (٣٣٨٠)، كلاهما في الأشربة، وصحَّحه الألباني في مشكاة المصابيح (٢٧٧٧)، عن ابن عمر.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٩٦٣)، ومسلم (٢١١٠) كلاهما في اللباس، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

تنويه بعض الأجانب بأخلاقية الاقتصاد الإسلامي:

وقد لمح بعض الدراسين الأجانب هذه الميزة في الاقتصاد الإسلامي، وكيف مزج بين الاقتصاد والأخلاق، على حين فرَّق بينهما الاقتصاد الرأسمالي والاقتصاد الشيوعي.

يقول الكاتب الفرنسي «جاك أوستروي» في كتابه عن «الإسلام والتنمية الاقتصادية»[1]: «الإسلام هو نظام الحياة التطبيقية والأخلاق المثالية الرفيعة معًا، وهاتان الوجهتان مترابطتان لا تنفصلان أبدًا، ومن هنا يمكن القول: إنَّ المسلمين لا يقبلون اقتصادًا «علمانيًّا»، والاقتصاد الذي يستمد قوته من وحي القرآن يصبح ـ بالضرورة ـ اقتصادًا أخلاقيًّا.

وهذه الأخلاق تقدر أن تعطي معنًى جديدًا لمفهوم «القيمة»، وتملأ الفراغ الفكري الذي يوشك أن يظهر من نتيجة «آلية التصنيع».

لقد استنكر «بركس» النتائج المؤذية لنمو حضارة «الجنس» في الغرب، ويقلق الاقتصاديون اليوم من سيطرة قيم الرغبات على القِيَم الحقيقية.

والآن بدأ الغرب يعي النتائج المؤذية من جرَّاء مفاوضات عالمية لعالَم غير مستقر... فلقد وجد الرجل نفسه مفصولًا عن عمله، فالآلة أصبحت السيد، وجاء التطرف في وسائل الراحة كالسيارات وغيرها... والاهتمام بالتوافه، ولم يهتم الغرب أبدًا بتخفيف عداء «الآلة» للإنسان، وهي تشكل أفقًا لقسم هام من الإنسانية.

ولم يغب عن الإسلام الواعي هذا الدرس في متناقضات الغرب، ولكي يقف في مواجهة الغرب، محققًا في الوقت نفسه وجهته الاقتصادية، عمد الإسلام لإدخال قيمه الأخلاقية في الاقتصاد...

---

(١) ترجمة د. نبيل الطويل.

QaradawiBooks.com

وهكذا يُخضع العناصر المادية في الاقتصاد لمتطلبات العدل.

وهذا اللقاء بين الأخلاق والاقتصاد، الذي يلح عليه «ج. برث» لم يوجد صدفة في الإسلام الذي لا يعرف الانقسام بين الماديات والروحيات.

وإذا كان اقتران البروتستانتية مع الوثبة الصناعية مزوّرًا، وإذا كانت الصلة بينهما موضع نقاش، فهذا غير كائن في الإسلام؛ لأنَّ عالمية تشريعه الإلَهي تمنع كل تنمية اقتصادية لا تقوم عليها.

وعلى النقل التقليدي السريع لتجربة الغرب: «أعطِ ما لقيصر لقيصر، وما لله لله». يجب ألا يخفى استحالة هذا التمييز في الإسلام. وفصل الدين عن الدولة، الذي أدخل الفاعلية المادية في الغرب، لا معنى له في الإسلام، حيث لا تولد الفعالية في المجال الفكري وخارجه، بل باستلهام من قوة الإسلام ومن الوحي المنزَّل»[1] اهـ.

وإذا استقرأنا الواقع التطبيقي، وجدنا أثر هذا الاقتران بين الاقتصاد والأخلاق، واضحًا وعميقًا في تاريخ المسلمين، وخاصة يوم كان الإسلام هو المؤثر الأول في حياتهم، والموجِّه الأول لنشاطهم وسلوكهم.

وسيتضح هذا جليًّا عندما نتحدث بتفصيل عن أثر القيم والأخلاق في كل جانب من جوانب الاقتصاد الأساسية، وهي: الإنتاج، والاستهلاك، والتوزيع، والتداول.

وسنفرد لكلٍّ منها بابًا خاصًّا.

* * *

(١) عن كتاب: الإسلام والتنمية الاقتصادية للكاتب الفرنسي جاك أوستروي ترجمة د. نبيل الطويل.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

اقتصاد إنساني

الاقتصاد الإسلامي ـ كما ذكرنا ـ اقتصاد رباني أخلاقي، ولكنَّه ـ إلى جوار ذلك ـ اقتصاد إنساني أيضًا.

ربما تصوَّر بعض الناس أنَّ الإنسانية تناقض الربَّانية، وأنَّهما معنيان لا يجتمعان، شأن الأمور المتضادة، كالأبيض والأسود، والليل والنهار.

وقد فنَّدنا هذا التصور أو هذا التوهم في حديثنا عن خصيصة «الإنسانية» من كتابنا: «الخصائص العامة للإسلام»[1]، وبيَّنا هناك: ألَّا تنافي بينهما، فتقدير إنسانية الإنسان هو من الربَّانية التي كرَّمت الإنسان، واعتبرته خليفة الله في الأرض.

كما أنَّ التوجه الرباني هو جزء أصيل في فطرة الإنسان، وكل مولود يولد على هذه الفطرة.

فإذا كانت أصول الاقتصاد الإسلامي مستندة إلى نصوص القرآن والسُّنَّة ـ وهي نصوص ربانية ـ فإنَّ الإنسان هو المخاطَب بهذه النصوص، وهو الذي يفهمها ويفسِّرها ويستنبط منها، ويقيس عليها، وهو كذلك الذي يحولها إلى واقع مَعيش، فينقلها من دائرة النظر إلى دائرة التطبيق.

(١) انظر: الخصائص العامة للإسلام صـ ٥٧ ـ ١٠٣، فصل: الإنسانية، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٧، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

والإنسان في هذا الاقتصاد هو الغاية، وهو الوسيلة أيضًا.

فغاية الاقتصاد الإسلامي وهدفه: تحقيق «الحياة الطيبة» ـ بكل مقوماتها وعناصرها ـ للإنسان: الإنسان في كل مراحل حياته من الطفولة إلى الشيخوخة، وفي كل ظروف حياته من صحة وسقم، ومن ضعف وقوة، ومن عُسر ويُسر، الإنسان فردًا والإنسان مجتمعًا.

وتمكين الإنسان ـ بإشباع حاجاته المشروعة ـ أن يحيا حياة ربَّانية إنسانية معًا، فيقوم بواجبه نحو ربه، ونحو نفسه، ونحو أسرته، ونحو أُمَّته، ونحو البَشرية جمعاء.

والإنسان كذلك هو صانع هذا الاقتصاد بإذن الله تعالى، فقد استخلفه الله في الأرض: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، واستعمره فيها (أي: طلب إليه عمارتها)، كما قال تعالى على لسان صالح لقومه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، ومنحه من القدرات والأدوات ما يمكنه من أداء مهمته، فعليه أن يعمل ويكدح، ويبتكر ويبدع، ولا يرتقب عونًا إلا من الله الذي لا يُضيع أجر مَن أحسن عملًا.

لن يُنزل الله ملائكة يزرعون له أو يصنعون، فإنَّ الملائكة لا تُحسن الزراعة ولا الصناعة ولا العمارة للأرض؛ لأنَّهم لم يُؤهَّلوا لذلك، ولهذا نجح آدم في معرفة الأسماء، ولم ينجحوا؛ إذ علَّمه الله، ولم يُعلِّمهم: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢].

الإنسان إذن هو غاية الاقتصاد في الإسلام، وهو وسيلته وصانعه بما علَّمه الله وآتاه من مواهب وطاقات.

وتتمثل إنسانية الاقتصاد الإسلامي في مجموعة من القِيَم التي هدى إليها الإسلام في قرآنه وسنته، وحفل بها تراثه، وتميزت بها حضارته،

QaradawiBooks.com

مثل قِيَم: الحرية والكرامة الإنسانية، والعدل وقيام الناس بالقسط، والإخاء والمحبة بين الناس، والتعاون بينهم، ومقاومة العداوة والحسد والبغضاء، فإنَّها الحالقة، لا تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين.

ومثلها: الرحمة لكلِّ الناس، وخصوصًا للضعفاء من اليتامى والمساكين وابن السبيل، والأرامل والعجزة والزَّمْنَى، وكل مَن لا يقدر على كسب معاشه بنفسه ولا بماله.

ومن ثمرات هذه القِيَم: أن أقرَّ الإسلام بالمِلْكية الفردية إذا جاءت من طرقها المشروعة، بما يترتب عليها من حقوق في المال، وحمى هذه المِلْكية بقوانينه وبأخلاقياته، وشرع للفرد أن يدافع عن ملكيته وماله ضدَّ مَن يصولون عليه، ويعتدون على حرماته، كما سيأتي تفصيل ذلك ـ إن شاء الله ـ في باب «القيم في مجال التوزيع».

توفير الحياة الطيبة للإنسان:

ومن أبرز ما تتجلى فيه المعاني الإنسانية في الاقتصاد الإسلامي: عمله على توفير الحياة الطيبة للإنسان.

فالإسلام في نهجه الاقتصادي يحث الإنسان على السعي والنشاط ويعتبره عبادة وجهادًا، ولكنَّه يهدف من وراء سعيه ونشاطه إلى هدف إنساني هو تحقيق حياة طيبة للإنسان، يتذوق فيها طعم السعادة التي ينشدها كل بشر لنفسه، ولمن يحب.

ولا عجب أن ينشد الإنسان المسلم الحياة الطيبة الهنيئة الرغيدة، فقد جعلها الله ﷻ مثوبة لأهل الإيمان والاستقامة من عباده: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟

QaradawiBooks.com

﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

والحياة الطيبة تتكون ـ في نظر الإسلام ـ من عنصرين لا غِنَى لأحدهما عن الآخر:

١ ـ عنصر مادي.

٢ ـ وعنصر معنوي.

العنصر المادي في الحياة الطيبة:

فأما العنصر المادي... فنعني به تمتع الإنسان بما أودع الله في الأرض من طيبات وزينة، فقد أكد الإسلام إباحة ذلك ومشروعيته، خلافًا لما ذهب إليه المتشددون والمتطرفون من رجال بعض الأديان، كالمانوية الفارسية، والبرهمية الهندية، والرهبانية المسيحية، ومَن تأثر بهذه النِّحَل المنحرفة من متصوِّفة المسلمين.

وما كان الله ﷻ ليُخرج هذه الطيبات والزينة، ثم يُحرِّمها على عباده، وإنَّما حرَّمها شياطين الإنس والجن، الذين قالوا: هذا حرام وهذا حلال، ليفتروا على الله الكذب؛ ولهذا نادى الله تعالى الناس جميعًا فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

أباح الإسلام للناس أن يستمتعوا بما في الأرض من خيرات، وأن ينعموا بزينة الله التي أخرج لعبادة والطيبات من الرزق، غير مطالَبين إلا بالتزام حدود ما أحلَّ الله، واجتناب ما حرَّمه.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وهو سبحانه ما أحل لهم إلا كل طيب، وما حرم عليهم إلا كل خبيث. قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة: ٤]، وقال ﷻ في بيان صفة رسوله وخصائص رسالته التي يعرفها أهل التوراة والإنجيل: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وفي عصر النبوة سرت بعض أفكار الرهبانية إلى بعض الصحابة، فحرَّم بعضهم على نفسه أكل اللحم، وبعضهم النوم على فراش، وبعضهم التزوج من النساء، وأراد بعضهم أن يخصوا أنفسهم ويلبسوا المسوح ويتبتلوا، فنزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٧، ٨٨][(١)].

وقد ذكر القرآن الكريم والسنة النبوية جملة من طيبات الحياة المادية التي امتنّ الله بها على عباده منها:

طيبات المأكل والمشرب:

١ ـ طيبات الطعام والشراب، مما لذَّ وطاب من لحم وفاكهة ولبن وعسل، وماء عذب فرات سائغ شرابه.. فلا حرج على المؤمن في الاستمتاع بها، وانتقاء أطيبها الذي تشتهيه نفسه، كما ذكر الله تعالى عن الفتية المؤمنين من أصحاب الكهف أنَّهم قالوا: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ [الكهف: ١٩]، وكان الرسول ﷺ يعجبه لحم الذراع، ويحب الحلوى، ويُستعذب له الماء.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير للآيتين (١٦٩/٣ ـ ١٧٢)، تحقيق سامي بن محمد سلامة، نشر دار طيبة، ط ٢، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

QaradawiBooks.com

ولم يطلب القــرآن في مقابل التمتع بهذه الطيبات إلا شــكر الله صاحب النعمة وتقواه سبحانه: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٨]، ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾ [سبأ: ١٥].

طيبات الملبس والتجمل:

٢ ـ طيبات اللباس والتجمل، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ [الأعــراف: ٢٦]، يمتن تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش، فاللباس مهمته ستر العورات ـ وهي السوءات ـ والرياش والريش ما يُتجمل به ظاهرًا، فالأول من الضروريات، والريش من التكميلات والزيادات، وهذا يدلنا على أنَّ الله تعالى يريد لعباده شيئًا فوق ستر العَورة، وهو التجمل والتزين، وقد جاء في الحديث الصحيــح: «**إنَّ الله جميل يحب الجمال**»[(١)]، ولهذا جاء فــي الآيــة الأخــرى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعــراف: ٣١]، وهذا ما جعل رجلًا كالحســن يتهيأ للصلاة في أبهى حُلله وأجمل ثيابه، فلما سُــئل في ذلك قال: أتزين لربــي، ثم قرأ الآيــة: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾. وكان ﷺ يقــول إذا اكتســى ثوبًا: «**الحمد لله الــذي رزقني من الرياش ما أتجمَّل به في النَّاس، وأواري عورتي**»[(٢)].

(١) رواه مسلم في الإيمان (٩١)، وأحمد (٣٧٨٩)، عن ابن مسعود.

(٢) رواه أحمد (١٣٥٣)، وقال مخرِّجوه: إســناده ضعيف. وأبو يعلى (٢٩٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائــد (٨٤٩١): فيه مختار بن نافع وهــو ضعيف. وضعفه الألبانــي في الضعيفة (٦٢٦٣)، عن علي بن أبي طالب.

QaradawiBooks.com

طيبات المسكن:

٣ ـ طيبات المسكن والمأوى التي امتنّ الله بها في قوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾ [النحل: ٨٠]، وقد ذكر القرآن في معرض الامتنان والإنعام بيوت ثمود التي نحتوها من الجبال، والتي ذكّرهم بها نبيهم صالح قائلًا: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

وكان الرسول ﷺ يحب الدار الفسيحة ويعدّها من أسباب السعادة، وكان يدعو في وضوئه كثيرًا فيقول: «**اللهم اغفر لي ذنبي ووسِّع لي في داري وبارك لي في رزقي**»، فلمَّا سأله أبو موسى: ما أكثر ما تدعو بهذه الدعوات؟ قال: «**وهل تركن من شيء؟**»[(١)]، فإنَّها جمعت بين المغفرة وسعة الدار والبركة في الرزق، فجمعت خيري الدنيا والآخرة.

طيبات المركب:

٤ ـ طيبات المركب ـ حيوانيًّا كان أو آليًّا ـ قال تعالى: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]، وقبلها قال في الأنعام: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: ٧]، وفي سورة أخرى يقول: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝ وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ فِي صُدُورِكُمۡ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾ [غافر: ٧٩، ٨٠]، وفي

(١) رواه النسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (٩٨٢٨)، وحسَّنه مخرِّجو المسند في هامش حديث (١٦٥٩٩)، وضعفه في غاية المرام (١١٢)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٢٦٥)، عن أبي موسى الأشعري.

QaradawiBooks.com

أخرى يقول: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۞ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۞ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [الزخرف: ١٢ ـ ١٤]، وقد جعل النبي ﷺ من عناصر السعادة: «المركب الصالح» أو «المركب الهنيء»، وقد كان الفقهاء قديمًا يعتبرون «الفَرَس» من الحوائج الأصلية للمسلم وليس أهنأ من السيارة الآن، تُقرِّب البعيد، وتطوي المسافات، فإن لم تكن سيارة فدراجة بخارية أو نحوها، فإن لم يتيسر المركب الهنيء الخاص، فالمفترض أن تتوافر للناس مواصلات عامة جيدة ومُيسَّرة.

طيبات الحياة الزوجية:

٥ ـ طيبات الحياة الزوجية والعائلية: قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [النحل: ٧٢]، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١].

ولم يجد القرآن غضاضة في الإشارة إلى المتاع الحسّي بين الزوجين، فإنَّه تلبية لنداء الفطرة: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، حتى إنَّه ليذكر هذا الأمر في أثناء آيات الصيام والدعاء والتعبد في شهر رمضان: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وفي الحديث: «**الدنيا كلها متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة**»[1].

(١) رواه مسلم في الرضاع (١٤٦٧)، وأحمد (٦٥٦٧)، عن عبد الله بن عمرو.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

طيبات اللهو:

٦ ـ طيبات اللهو المباح: من سماع الغناء البريء والألحان العذبة، والقيام بألعاب الفروسية والرياضة، وألعاب التسلية أو مشاهدتها، والمزح بغير الكذب، وغير ذلك من كل ما يُدخل البهجة على الحياة، والسرور على النفس، فإنَّ الجسد المستمر، والحياة الصارمة ـ على الدوام ـ لا تُطاق. وقد قال النبي ﷺ لبعض أصحابه: «**ساعة وساعة**»[(١)]، وقال عليّ بن أبي طالب: روِّحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإنَّ القلب إذا أُكْرِهَ عمي[(٢)]. وقال أبو الدرداء: إنِّي لأستجم نفسي بالشيء من الباطل (يعني: اللهو) ليكون أقوى لها على الحق[(٣)].

وكان النبي ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقًّا، وكان أصحابه يمزحون، وكان يسابق عائشة فسَبقته مرة وسبقها مرة، فقال: «**هذه بتلك**»، وقد سبَّق بين الخيل وأعطى السابق، وسمح بغناء جاريتين في بيته... وحمل عائشة لتنظر إلى الحبشة، وهم يلعبون بحرابهم في المسجد[(٤)].

---

(١) قاله لحنظلة حين رأى نفسه ـ وهو في بيته بين زوجه وولده يداعبهم ـ أقل روحانية وصفاء منه حين يكون مع الرسول ﷺ، فذهب إلى الرسول وهو يقول: نافق حنظلة. فقال له: «**يا حنظلة، لو أنكم تدومون على الحال التي تكونون عليها عندي، لصافحتكم الملائكة في الطرقات، ولكن يا حنظلة، ساعة وساعة**». والحديث: رواه مسلم في التوبة (٢٧٥٠)، وأحمد (١٩٠٤٥).

(٢) إحياء علوم الدين (٣٠/٢)، نشر دار المعرفة، بيروت.

(٣) ذكره المبرد في الكامل في اللغة والأدب (٢١١/٢)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٣، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م. يقصد بالباطل ما لا فائدة فيه إلا مجرد اللهو. انظر: السياسة الشرعية لابن تيمية صـ ١١١، نشر وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، السعودية، ط ١، ١٤١٨هـ

(٤) انظر كتابنا: ملامح المجتمع المسلم، فصل: اللهو والفنون صـ ٢٣٩ ـ ٣١٦، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٥، ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.

QaradawiBooks.com

وبهذا نرى أنَّ اللهو البريء المهذب حاجة من حاجات الفرد والجماعة، يجب أن يُيسَّر لهما... أما الإسراف فيه أو الانحراف به، ليكون معول هدم للقيم والأخلاق، وأداة تضليل وتمزيق للضمائر والأفكار... فهذا هو الحرام المحظور.

طيبات الجمال والزينة:

٧ ـ طيبات الجمال والزينة: فقد قال تعالى في معرض الإنكار على الذين حرموا الزينة والطيبات من الرزق: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۞ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣١، ٣٢].

أمر الله بني آدم بأخذ الزينة، كما أمرهم بالأكل والشرب، ليتحقق في الحياة عنصر الجمال بالزينة، وعنصر البقاء بالطعام والشراب، فلم يقصر الإسلام اهتمامه على ما ينفع، بل شمل ما ينفع وما يلذ معًا.

وقد لفت القرآن الأنظار إلى عنصر الجمال والزينة في الحياة في أكثر من موضع، كقوله تعالى في معرض الامتنان بفوائد الأنعام: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۚ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۞ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾ [النحل: ٥، ٦]... إلى أن يقول عن دوابِّ الركوب: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

فانظر كيف اهتمَّ كتاب الله بذكر الجمال والزينة، في سياق ذكر المنافع المادية المباشرة، ليرقى بالذوق الإنساني، ويغرس في وجدان المسلم الشعور بالجمال، والإحساس بنعمة الله تعالى فيه.

QaradawiBooks.com

وبعد ذلك بآيات قليلة في السورة نفسها، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [النحل: ١٤]، فالحلية شيء جميل لا شيء نافع كأكل لحم السمك الطري. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ [الرعد: ١٧]، فالمعدن يُطرق أو يُصهر أو يُصقل بواسطة النار ابتغاء أمرين: إما الانتفاع به في صناعة أو زراعة أو حرب ونحو ذلك، وهذا هو المتاع، وإما ابتغاء التجمل والتزين كالسوار والطوق والخاتم والقُرط وغيرها، وهذا هو الحلية، ومما له دلالة هنا: أنَّ القرآن قدَّم الحلية على المتاع.

إنَّ القرآن في عرضه لخصائص الأشياء، وما تقدمه من خدمة للناس، يعنى بعنصر الجمال مع عناصر النفع الاقتصادي، كقوله تعالى في معرض الامتنان بالماء وما يحيا به من الزرع والنبات والشجر: ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ﴾ [النمل: ٦٠]، ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [الحج: ٥]، ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ [قَ: ١٠]، فالبهجة في الحدائق، وفي أزواج النبات، وفي طلع النخل المنضد، كلها عناصر جمال ينبه عليها القرآن المجيد، ويوجِّه إليها المشاعر والأحاسيس، لتدرك من ورائها جمال صانعها وكماله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [النمل: ٨٨]، ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

والكواكب يذكر القرآن منافعها من الهداية للسارين، والرجم للشياطين، ولا ينسى عنصر الجمال فيها، حين يذكر في غير سورة أنَّ الله قد زيّن بها السماء: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ [الصافات: ٦]، ﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ [الحجر: ١٦]، ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ [الملك: ٥].

QaradawiBooks.com

أليست هذه الآيات الكريمة تُعَد مفاتيح الناس للفنون الجميلة الراقية، لا فنون الهبوط الحيواني الذي يقوم على استثارة الغرائز والشهوات؟

غير مرخصة للطباعة

الزهد الذي جاء به الإسلام:

هذه هي نظرة الإسلام إلى طيبات الحياة، وشرعية الاستمتاع بها.

أما الزهد الذي جاء به الإسلام، فليس هو تحريم الطيبات، ولا استدبار الحياة، ولا رفض السعي للمعيشة، أو العمل لترقية العمران.

إنَّما معناه الاستعلاء على شهوات الحياة وزخارف الدنيا، وإيثار الآخرة على الأولى، إذا تعارضتا.

إنَّه أمر يتعلق بإرادة النفس أكثر مما يتعلق بمتاع الجسم؛ ولهذا لم تكن حملة القرآن على الذين يتمتعون بطيبات الحياة الدنيا، بل على الذين «يريدون الحياة الدنيا وزينتها»، على معنى أنَّها هي أكبر همِّهم ومبلغ علمهم، ومحور تفكيرهم، وغاية سعيهم ونشاطهم.

قال تعالى: ﴿ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۞ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ ﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠]، ويقول: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۞ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۞ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٣٩]، ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

فالكلام كله موجَّه إلى ذم إرادة الحياة الدنيا، لا على مجرد الحصول عليها أو التمتع بطيباتها.

ومن هنا يقسم القرآن الناس إلى صِنفين فقط:

صِنف يريد الدنيا ولذَّاتها العاجلة.

نسخة مجانية

وصِنف يريد الآخرة ويسعى لها سعيها، ولكلٍّ منهما جزاؤه ثوابًا أو عقابًا عند الله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۞ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩].

فما هو الفَيصل بين الفريقين؟

إنَّه الإرادة، أي الباعث والغاية، لا جمع المادة ولا الحرمان منها.

فقد يكون الإنسان محرومًا من الدنيا، وهو مع ذلك مريد لها، مُوَلَّه بها، مؤثر لها، وقد تكون الدنيا في يده، ومع هذا يسخِّرها ولا تُسخِّره، ويملكها ولا تملكه، إنَّها هي التي تريده، وليس هو الذي يريدها، إنَّها أداة في يده، وليست غاية في قلبه وفكره.

كان هذا واضحًا عند سلف الأمة في خير القرون.

فلما لوَّثت الأفكار الدخيلة منابعهم الفكرية، ظهر من جهلة المتصوفة من يتنكر للحياة، ويدعو لما يشبه الرهبانية، ويرحب بالفقر ويذم الغِنَى، ويستدل ببعض الآيات والأحاديث، استدلالًا غير صحيح، بل هو من تحريف الأدلة عن مواضعها، كما استندوا إلى أحاديث موضوعة أو لا أصل لها، أو واهية أو منكرة، لا يُؤخذ منها حكم، ولا يُبنى على أساسها موقف.

من ذلك استدلالهم بالحديث القائل: «**الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر**»[1]، فليس المقصود من هذا الحديث حرمان المؤمن من طيبات الحياة، كيف والله قد أحلها له صراحة، بل جعلها جزاءً لإيمانه وعمله

(١) رواه مسلم في الزهد (٢٩٥٦)، وأحمد (٨٢٨٩)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

الصالح: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

إنَّما المراد من الحديث: أنَّ المؤمن في هذه الدنيا مبتلى بالتكليف، ومقيد بفكرة الحلال والحرام في كل ما يأخذ ويدع، فهو لا يفعل ما يشتهي بل ما ينبغي، ولا يركض وراء ما يحلو له، بل ما يليق به، فكم من أشياء يقدر عليها ويتمناها، ولكنَّه لا يُقدم عليها، خشية من الله تعالى، وابتغاء رضوانه، فهذا معنى السجن الذي يُقيِّد حرية المؤمن في الدنيا.

وأما جنة الكافر، فهي جنة في الظاهر المرئي، لجسمه لا لروحه، ينطلق فيها وراء الملذات، ولا يتقيد بتكاليف والتزامات، وإن كانت هذه الجنة المزعومة عند العارفين هي النار الحقيقية التي تكوي الروح، وتعذِّب ضمير الإنسان.

كما أنَّ المؤمن في هذه الدنيا مبتلى على قدر إيمانه وتشبثه به، ولا سيما في أيام الفتن، وفي الحديث: «**أشد الناس بلاء: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل...**»[1]، أما الكافر فهو كثيرًا ما يُستدرج من الله كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤].

ولكنَّ الله قيَّض لهذا الدين مَن ينفي عنه زيف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، فرأينا رجلًا مثل أبي الفرج ابن الجوزي، يحمل في كتبه ـ وخاصة «تلبيس إبليس» ـ على غلو المتزهدة والمتصوفة، ويرد عليهم بالكتاب والسنة، وعمل السلف الصالحين من الصحابة ومن تبعهم بإحسان.

(١) رواه أحمد (١٤٨١)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. والترمذي في الزهد (٢٣٩٨)، وقال: حسن صحيح. والنسائي في الكبرى الطب (٧٤٨١)، عن سعد بن أبي وقاص.

QaradawiBooks.com

بل رأينا من المتصوفة أنفسهم من يرد على الغلاة والمنحرفين، قولًا وعملًا، ومن كان يسلك مريديه وهم في حِرَفهم[1]، ويقول: ما أجمل أن يجعل النجار منشاره مسبحته، وأن يجعل الفلاح فأسه مسبحته، ويجعل الحداد مطرقته مسبحته!

أما موقف الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين من الزهد في متع الحياة والرضا بشظف العيش، فليس فرضًا على الناس ـ كل الناس ـ أن يسيروا على طريقتهم في خشونة المعيشة، ولم يلزموا هم الأمة بذلك.

إنَّما أرادوا أن يضربوا مثلًا للأئمة والحكام من بعدهم: أن يجعلوا الحكم مغنمًا لا مغرمًا، وتضحيةً لا مكسبًا، وأن يهوّنوا على الفقير فقره إذا اتخذ منهم قدوة.

العنصر المعنوي في الحياة الطيبة:

والحياة الطيبة لا تقوم بالجانب المادي وحده، فقد يتوافر للإنسان المطعم الهنيء، والمشرب المريء، والملبس الفاخر، والمركب الفاره، والمسكن الواسع، والمرأة الجميلة، ومع هذا كله لا تتحقق له الحياة الطيبة.

إنَّ أساس الحياة الطيبة هو سكينة النفس، وانشراح الصدر، وطمأنينة القلب، فبهذه المعاني تجمل الحياة، ويطيب العيش.

وفي الحديث: كنا في مجلس، فطلع علينا رسول الله ﷺ وعلى رأسه أثر ماء، فقلنا: يا رسول الله، نراك طيب النفس! قال: «**أجل**»، ثم خاض

(١) كما قالوا عن الشيخ الخوَّاص وغيره.

QaradawiBooks.com

القوم في ذكر الغنى، فقال رسول الله: «**لا بأس بالغنى لمن اتقى الله** ﷻ، **والصحة لمن اتقى خير من الغنى، وطيب النفس من النعيم**»[(١)].

وهكذا بيَّن لهم أنَّ الغنى لا بأس به ولا حَرَج فيه، ولكنَّ الصحة خير منه؛ ذلك أنَّ المريض الذي يعاني الآلام لا ينعم بغناه، وخير من هذا وذاك طيب النفس، فهو في الحقيقة نفحة من نعيم الخلد، يعجل الله بها في الدنيا لمن يحب من عباده، فهي من عاجل بُشرى المؤمن.

فإذا كان الإنسان يبحث عن السعادة ـ لا عن المثل الأعلى فحسب ـ فإنَّ السعادة ليست في جمع الدنيا بعضها على بعض، ولا امتلاك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، فرُبَّ رجل يملك كنوز قارون وهو محروم منها، معذَّب بها، وهي بين يديه. لقد اتخذها له ربًّا، فاتخذته لها عبدًا، أضناه التعب في جمعها، ويزداد تعبًا في حفظها، ويزداد في تنميتها، إنَّه يصبح ويمسي مهمومًا حريصًا، خانعًا طامعًا، لا يقنع بقليل، ولا يشبع من كثير، ومثل هذا هو الذي قال الله فيه: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [التوبة: ٥٥]، أصبحت أموالهم أداة تعذيب لهم، وقد طلبوها لتكون أداة هناءة ونعيم.

وفي مثل هؤلاء ورد الحديث النبوي: «**من كانت الدنيا همه: فرَّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتِب له. ومَن كانت الآخرة نيته: جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة**»[(٢)].

---

(١) رواه أحمد (٢٣١٥٨)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. وابن ماجه في التجارات (٢١٤١)، والحاكم في البيوع (٣/٢)، وصحح إسناده ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة (١٧٤)، عن عبد الله الجهني، عن عمَّه.

(٢) رواه أحمد (٢١٥٩٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. وابن ماجه في الزهد (٤١٠٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٥٩٠)، عن زيد بن ثابت.

QaradawiBooks.com

وفي عصرنا كم رأينا من أصحاب الملايين من يعيش طول عمره محرومًا ممَّا يجده الفقير والمسكين، لما يعانيه من مرض السكري، أو ضغط الدم، أو عُسر الهضم، أو ضعف الكبد، أو قرحة المعدة، أو غيرها مما يزداد انتشارًا بين الأثرياء.

كل هذا يؤكد لنا أنَّ السعادة في شيء آخر وراء وفرة الغنى، وكثرة المال، واقتناء الملايين، هذا الشيء هو الإيمان الصادق، والعمل الصالح، فهما ينبوع السعادة الحقة، والحياة الطيبة كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

أما المال ولزومه، فالذي يعني المؤمن لسعادته منه هو ما يكفيه، ويغنيه عن سؤال غيره، فهذا حسبه مع العافية والأمن. وفي الحديث: «**من أصبح آمنًا في سربه، معافًى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنَّما حيزت له الدنيا بحذافيرها**»[(١)].

* * *

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٦)، وقال: حديث حسن غريب. وابن ماجه (٤١٤١)، كلاهما في الزهد، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٣١٨)، عن عبيد الله بن محصن الأنصاري. انظر كتابنا: الإيمان والحياة، فصل: الإيمان والسعادة، صـ ٧١ ـ ٧٩، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١٨، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

اقتصاد وَسَطي

ومن القيم الرئيسة في الاقتصاد الإسلامي: قيمة الوسطية، أو التوازن، بل هذه الوسطية العادلة في الواقع هي روح هذا الاقتصاد، فكما أنَّ للإنسان روحًا يحيا به، وراء هيكله المادي الحسي، وهو سر تميزه وكرامته، كذلك للأنظمة روح يسري فيها ويميزها عن غيرها، سواء أكانت أنظمة اقتصادية أم اجتماعية أم سياسية.

الفردية أساس النظام الرأسمالي:

فروح النظام الرأسمالي يتجلى في تقديس الفرد ومصلحته الشخصية وحريته التي تكاد تكون مطلقة في تملكه المال وتنميته وإنفاقه، وخلق تلك العقلية النفعية الفردية الانتهازية، التي لا تهتم بغيرها ما لم يكن من ورائه كسب، ولا يعنيها مصلحة المجتمع ولا سيما إذا اصطدمت بمصلحته، ولا يشغلها إلا منافسة الخصوم والتغلب عليهم، تلك العقلية التي لا يهمها إلا الربح المادي بأكبر قدر ممكن، وبكل سبيل مستطاع، وخاصة من النقود التي هي الإله المعبود في ظل هذا النظام، إذ هي الوسيلة إلى القوة والمتعة، والمجد والشهرة، وأعظم المعابد لهذا الإله هي الأسواق والبنوك، وتكاد تكون قيمة الناس في المجتمع الرأسمالي بمقدار ما يملكون من تلك النقود.

فقيمة رب الألف ألف وزِدْ تزد وقيمة رب الدرهم الفرد درهم!

QaradawiBooks.com

إنَّ الفرد في هذا النظام هو محور الحركة الاقتصادية، وهو المحرِّك، وهو الهدف، وما على الدولة إلا أن تترك الحرية الكاملة لهؤلاء الأفراد ليقوموا بنشاطهم الاقتصادي، كما يريدون وكما يستطيعون، وليُجرِّب كل فرد حظه، وليُثبت كفايته وموهبته، وليتحمل نتيجة سعيه، جاءه بالربح أو بالخسارة، وما على الأفراد إلا أن يحترموا النظام العام والقانون.

يشعر الفرد في هذا النظام بقيمته وذاتيته، وتتفتح مواهبه، وتنمو شخصيته، ولكنَّه في الغالب مصاب بداء الأنانية والمادية والنفعية، محموم بالشراهة إلى التملك، كأنَّه جهنم التي يُقال لها: هل امتلأتِ؟ وتقول: هل من مزيد؟

أما المجتمع ـ وبخاصة الضعفاء والمسحوقون فيه ـ فهم مُهمَلون، أو في زوايا النسيان.

النظام الاشتراكي يسحق الفرد:

وروح النظام الاشتراكي يتمثل في سوء الظن بالفرد، ومصادرة نزعته إلى التملك والغنى، واعتبار مصلحة المجتمع ـ الذي تمثله الدولة ـ فوق كل فرد وكل شيء.

إنَّ إقرار مبدأ الملكية في زعمه هو مصدر كل جَور وكل حَيف، فلا بد من إلغائه وهدمه وهدم المنتفعين به، والمؤيدين لشرعيته، ولو بالعنف وإثارة الأحقاد والضغينة، والانقلاب الدموي، حتى تتحقق مساواة اقتصادية فعلية بين الجميع.

يعتمد النظام الاشتراكي في تحقيق أهدافه على السُّلطة، أي سلطة الدولة ـ أو دكتاتورية الدولة ـ الدولة في هذا النظام هي المحرِّك، وهي

QaradawiBooks.com

الموجِّه... لا يدخل الفرد في عمليات الإنتاج والتبادل ونحوهما كعامل أساسي فعَّال، وإنَّما ينفذ الأوامر والتعليمات الصادرة له عن السُلْطة العليا.

إنَّ وضع الأفراد في هذا النظام ـ كما قال أحد الكُتَّاب ـ أشبه بوضع الجنود وصغار الضباط المحاربين في جبهة من الجبهات، فهم لا يضعون خطة المعارك التي يخوضونها، ولا يشاركون في وضعها، وإنَّما كل عملهم أن ينفذوا ما ترسمه لهم القيادة العامة التي يخضعون لها، إن أمرت بالتقدم تقدموا، أو بالتقهقر تقهقروا، ولا يملكون أن يقولوا: لِمَ؟ وكيف؟ فضلًا عن أن يقولوا: لا.

لقد أعطى النظام الرأسمالي الفرد حتى تضخم وطغى، على حساب المجتمع ومصالحه المادية والمعنوية... وسلب النظام الاشتراكي الفرد كل ما أعطاه النظام السابق، فضمر وانكمش، وفقد الحافز والشخصية، سلبه ذلك كله، ومنحه لشيء اسمه المجتمع، الذي تجسّد في «الدولة» فتضخَّمت وطغت، وما هي في الحقيقة إلا جهاز مكوَّن من عدة أفراد، فالنتيجة أنَّ أفرادًا قليلين تضخموا وطغوا، على حساب الآخرين، وهم الأكثرية.

الوسطية العادلة أساس النظام الإسلامي:

لهذا كان روح النظام الإسلامي هو الوسطية المعتدلة التي ميَّز الله بها هذه الأمة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وتتجلَّى هذه الوسطية في التوازن المقسط الذي أقامه الإسلام بين الفرد والمجتمع، كما أقامه في كل المتقابلات الأخرى: بين الدنيا والآخرة، بين الجسم والروح، بين العقل والقلب، بين المثال والواقع، بين وازع الإيمان ووازع السلطان... إلى غير ذلك من الثنائيات المعروفة.

QaradawiBooks.com

لم يَجُر الاقتصاد الإسلامي على المجتمع ـ وبخاصة الضعفاء منه ـ كما جارت الرأسمالية.

ولم يَجُر على الفرد وحقوقه وحرياته، كما جارت الاشتراكية، وبخاصة الماركسية.

بل كان عادلًا بينهما، بلا تفريط ولا إفراط، ولا طغيان ولا إخسار، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۞ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩].

لقد أعطى كُلًّا منهما حقه، وطلب منه أداء واجبه، حاكمًا بينهما بالعدل، موزعًا عليهما التبعات بالقسط[1]، ولم يفعل ذلك تفاديًا لغلواء الاشتراكية، أو طغيان الرأسمالية، كلا، فهو سابق على كلتيهما، ولكنَّ الله الذي شرعه يعلم المفسد من المصلح، فهو شرع الله العليم الحكيم.

الاقتصاد جزء من نظام الإسلام:

إنَّ الاقتصاد الإسلامي جزء من النظام الإسلامي العام الذي يقوم على أساس الوسطية والتوازن العادل، فهو يوازن بين الدنيا والآخرة، ويوازن في الدنيا بين الفرد والجماعة، ويوازن في الفرد بين جسمه وروحه، بين عقله وقلبه، بين مثاليته وواقعيته.

وفي المجال الاقتصادي نجد تطبيق مبدأ التوازن في كل الجوانب.

فهو يوازن بين رأس المال والعمل، ويوازن بين الإنتاج والاستهلاك، ويوازن بين المنتجات بعضها وبعض، ويوازن بين مصالح المنتجين والوسطاء والمستهلكين، ويوازن بين الفئات الاجتماعية بعضها وبعض.

---

(١) انظر كتابنا: الخصائص العامة في الإسلام صـ ١٢٥ ـ ١٥٤، خصيصة الوسطية.

QaradawiBooks.com

ولكن أهم القيم الوسطية التوازنية الكبرى التي جاء بها الإسلام في مجال الاقتصاد تتعلق بجانبين من أبرز الجوانب:

الجانب الأول: يتصل بالمال بين الديانات والمذاهب والفلسفات التي تعلن الحرب عليه وعلى الدنيا والحياة وطيباتها. وبين المذاهب المادية التي تكاد تجعل المال إلهًا معبودًا، وتجعل الدنيا أكبر همِّها، ومحور اهتمامها وتفكيرها.

والجانب الآخر: يتصل بالملكية بين المسرفين في إثباتها، أيًّا كانت طرق اكتسابها، المدللين لأصحابها، فتكاد تكون لهم كل الحقوق دون أن يكون عليها واجبات... وبين الذين يحاربون الملكية، ويرونها منبع كل شر وظلم، ويعملون على إلغائها من الحياة، ومحو أصحابها من المجتمع.

وسنعرض لكل من هذين الأمرين بشيء من التفصيل المناسب لأهميتهما.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وسطية الإسلام في موقفه من المال

موقف الإسلام من الدنيا:

موقف الإسلام من المال: جزء من موقفه من الحياة الدنيا.

وموقف الإسلام من الدنيا هو الموقف الوسط المتوازن، فهو لا يميل مع الذين يرفضون الدنيا بالكلية، ويرون أنَّ هذه الحياة، وهذا العالم شر يجب الخلاص منه بالتعجيل بفنائه، وذلك بالامتناع من الزواج والإنجاب، والإعراض عن طيبات الحياة، من المأكل والمشرب والملبس والزينة وغيرها من متاع الحياة الدنيا، والانقطاع عن العمل بجِدٍ لهذه الدنيا.

وتلك هي فلسفة البراهمة في الهند، والبوذيين في الصين، والمانويين في فارس، والرواقيين في اليونان، والرهبان في النصرانية.

كما لا يميل الإسلام مع الذين يجعلون الدنيا معبودهم، اتخذوها ربًّا، فاتخذتهم لها عبيدًا، لها يكدحون، وعليها يحرصون، وفي سبيلها يتهارشون تهارش الذئاب، وعلى جيفتها يتساقطون تساقط الذباب.

وذلك هو موقف الماديين والدهريين في كل زمان، وفي كل مكان، ممَّن لا مكان للآخرة في تفكيرهم ولا اعتبارهم، الذين يقولون: إن هي إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع! ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

وهذه هي النظرة الشيوعية العقائدية للحياة، لهذا كان دستورهم ينص على: أن لا إله، والحياة مادة.

QaradawiBooks.com

وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧، ٨].

يقف الإسلام موقفًا وسطًا بين هؤلاء وهؤلاء، فهو يعتبر الدنيا مزرعة للآخرة، وطريقًا إليها، والطريق ينبغي أن يكون مريحًا وجميلًا، حتى يوصل إلى نهاية الرحلة بسلام وأمان.

وقد ذكرنا في الخصيصة الماضية: الاستمتاع بطيبات الحياة بمختلف صنوفها وألوانها.

والقرآن يقول في شأن المؤمنين: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٨].

وقال تعالى في معرض المدح: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

وقال أنس: كان أكثر دعاء النبي ﷺ: «**اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار**»(١).

وكان من دعائه ما رواه أبو هريرة: «**اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر**»(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٥٢٢)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٦٩٠)، عن أنس.

(٢) رواه مسلم في الذكر (٢٧٢٠)، عن أبي هريرة.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مرخصة
QaradawiBooks.com

وروى عنه ابن مسعود أنَّه كان يقول: «**اللهم إنِّي أسألك الهُدَى والتُّقَى والعفاف والغِنَى**»[١].

وأتاه رجل فقال: يا رسول الله، كيف أقول حين أسأل ربي؟ قال: «**قل: اللهم اغفر لي وارحمني وعافني وارزقني، فإنَّ هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك**»[٢].

وإذا كان الدعاء يجسد الخيرات والمطامح التي ينشدها المسلم في حياتيه: الدنيا والآخرة، فإنَّ الاستعاذة تجسد الشرور والمكاره التي لا يحبها المسلم، في دينه ولا دنياه.

ومن ذلك: ما رواه أنس: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجُبن والهرم، والبخل، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات**»[٣]... وفي رواية: «**وضَلَع الدين وغلبة الرجال**»[٤]. وضَلَع الدين: غلبته وشدته، وغلبة الرجال: قهرهم وسيطرتهم.

وروى عنه أبو هريرة: «**تعوَّذوا بالله من جَهْد البلاء، ودَرَك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء**»[٥].

وجَهْد البلاء: مشقته، ودَرَك الشقاء: إدراكه وإصابته.

وهكذا نجد الاستعاذة من كل أنواع الشرور والبلاء في الدارين: الأولى والآخرة.

---

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٢١)، وأحمد (٣٩٠٤)، عن ابن مسعود.
(٢) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٧)، وأحمد (١٥٨٧٧)، عن أبي مالك الأشجعي.
(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد (٢٨٢٣)، ومسلم في الذكر (٢٧٠٦)، عن أنس.
(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٦٩)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٦).
(٥) متفق عليه: رواه البخاري في القدر (٦٦١٦)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٧)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

وهذا هو التوازن الذي هو شعار الإسلام، وهو الذي فقهه الصحابة عن الله ورسوله، فعاشوا في دين لا ينعزل عن الدنيا، ودنيا لا تنفصل عن الدين، وشاع عن أكثر من واحد منهم قوله: «اعمل لدنياك كأنَّك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنَّك تموت غدًا»[1].

وكان منهم التجار الكبار والأثرياء، كابن عوف وابن عفان، ومنهم الزُّهَّاد المتقللون، كأبي الدرداء وسلمان، وجميعهم مشغولون بهداية العالَم إلى دين الله، ونشر الإسلام في أرجاء الأرض، فتلك كانت دنياهم.

وفي ضوء هذه النظرة الوسطية إلى الدنيا كانت النظرة إلى المال.

المال خير وزينة للحياة وقوام للنَّاس:

إنَّ الإسلام قد شرع للناس التمتع بطيبات الحياة وزينتها، واعتبر الحياة الاقتصادية الطيبة معوانًا على الارتقاء بالنفس، وحُسن الصلة بالله تعالى، والبر بخلقه، وبهذا بدت لنا ملامح النظرة الإسلامية إلى المال، إذ هو وسيلة إلى ذلك الخير، وما أدى إلى الخير فهو خير، فليس المال دائمًا نقمة على صاحبه، ولا هو من عطاء الأرواح الشريرة كما يزعم بعض أهل الأديان، وليس الفقر شعار الصالحين، كما ادَّعى بعض المتصوفة، بل المال قد سمَّاه القرآن «خيرًا» في مواضع من سوره، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]، أي: لحب المال، فقد بيَّن في هذه الآية أنَّ حب المال طبيعة الإنسان، وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ٢١٥]، وقوله سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]، وقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥]،

(١) رواه الحارث في مسنده (١٠٩٣) كما في البغية.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فسمَّى المال في هذه المواضع خيرًا، وهي تسمية تنبئ عن الرضا والثناء، لا عن السّخط والذَّم.

ولم يعتبر الإسلام الغِنى حائلًا بين الغَنى وارتقاء أسمى الدرجات في التقرب إلى الله، خلافًا لما يروى عن المسيح في الإنجيل من قوله للشاب الذي أراد أن يدخل معه ويتبعه: «إن أردت أن تكون كاملًا فاذهب وبع أملاكك، وأعطها الفقراء، وتعال اتبعني، فلمَّا سمع الشاب الكلمة مضى حزينًا؛ لأنَّه كان ذا أموال كثيرة»[(١)].

هنا قال يسوع المسيح لتلاميذه: «الحق أقول لكم: إنَّه يعسر أن يدخل غني إلى ملكوت السماوات، وأقول لكم أيضًا: إنَّ مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله»![(٢)] بل امتنَّ الله على رسوله بالغنى فقال: ﴿**وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ**﴾ [الضحى: ٨]، وقال الرسول ﷺ لعمرو بن العاص: «**يا عمرو، نِعِمّا بالمال الصالح للمرء الصالح**»[(٣)]، وقال: «**ما نفعني مال قط، ما نفعني مال أبي بكر**»[(٤)]، وكان من دعائه: «**اللهم إني أسألك الهُدَى والتُّقى، والعفاف والغنى**»[(٥)]، ومن استعاذاته: «**اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر**»[(٦)]، وقال لسعد بن أبي وقاص:

---

(١) إنجيل متَّى (٢٢/١٩).

(٢) إنجيل متَّى (٢٣/١٩، ٢٤).

(٣) رواه أحمد (١٧٧٦٣)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والحاكم في البيوع (٢/٢)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، عن عمرو بن العاص.

(٤) رواه أحمد (٧٤٤٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. والترمذي في المناقب (٣٦٦١)، وقال: حسن غريب. وابن ماجه في المقدمة (٩٤)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٧١٨)، عن أبي هريرة.

(٥) سبق تخريجه صـ٩٠.

(٦) رواه أحمد (٢٠٤٠٩)، وقال مخرِّجوه: إسناده قوي على شرط مسلم. وأبو داود في الصلاة (١٥٤٤)، والنسائي في السهو (١٣٤٧)، وابن خزيمة في الصلاة (٧٤٧)، عن أبي بكرة.

QaradawiBooks.com

«**إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس**»[١]، وفي حديث «الصحيحين»: «**ذهب أهل الدثور بالأجور**»[٢]، ما يدل على تفضيل الغني الشاكر على الفقير الصابر، ومثله حديث ابن مسعود: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسلَّطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها ويعلِّمها**»[٣].

وقد أكد القرآن الكريم في غير موضع أنَّ الغنى، ورغد العيش، ووفرة المال؛ كثيرًا ما تكون مثوبة عاجلة من الله تعالى للمؤمنين المتقين من عباده، على ما قدَّموا من عمل صالح، وجهاد مشكور، وسعي مبرور، كما أنَّ الفقر والجوع، وضيق الرزق، وضنك العيش، كثيرًا ما تكون عقوبات قدرية، يعجلها الله في الدنيا لمن انحرف عن صراطه المستقيم، وهَدْيه الكريم، كقوله تعالى لأبوي البشر ـ آدم وزوجه ـ وقد خرجا من جنة لا يجوع ساكنها ولا يعرى، ولا يظمأ فيها ولا يَضْحى، إلى أرض لا بد فيها من العمل والكدح، ليُحصِّل الإنسان أسباب بقائه: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ۝ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

وقال تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ۝ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الوصايا (٢٧٤٢)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨)، عن سعد بن أبي وقاص.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٨٤٣)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٩٥)، عن أبي هريرة

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٧٣)، ومسلم في صلاة المسافرين (٨١٦)، عن ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

وقال تعالى على لسان هود لقومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢].

وقال جل شأنه في شأن أهل الكتاب: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦].

وقال في أهل القرى كافة: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وهذا كما يصدق على الجماعات يصدق على الأفراد، ولئن جاء وعد الله فيها بصيغ الجمع، لقد جاء في آيات أخرى بصيغة العموم الشاملة للمفرد والجمع، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

فالمال في نظر الإسلام زينة الحياة، وعصب العمران، وقوام مصالح الناس، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، فبالمال تعمر الحياة المادية، وبالبنين تعمر الحياة الإنسانية، وقال جَلَّتْ حكمته: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥]، والقيام والقوام ما به يقوم الشيء ويثبت كالعماد.

ومن ثم يأمر الإسلام بالمحافظة على المال، وينهى عن تبذيره وإضاعته، حتى إنَّه ليحجر على حرية كل متلاف مفسد لماله، فإنَّ للجماعة في ماله نصيبًا وحقًّا، ولهذا أضاف أموال السفهاء إلى جماعة المخاطَبين، فقال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾.

ومدح القرآن المعتدلين في نفقتهم، الموازنين بين دخلهم وخرجهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾

QaradawiBooks.com

[الفرقان: ٦٧]، وذمَّ المسرفين المبذِّرين فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٧].

وليس أدل على قيمة المال وأهميته في نظر الإسلام، من إنزال الله تعالى أطول آية في كتابه في تنظيم شأن من شؤون المال، وحفظه وصيانته، وتوثيق معاملاته بالكتابة والإشهاد والرهن ونحوها، وهي الآية المعروفة بآية المداينة، وفيها يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

قال الإمام القرطبي في تفسير الآية: لمَّا أمر الله تعالى بالكتب والإشهاد وأخذ الرهان، كان ذلك نصًّا قاطعًا على مراعاة حفظ الأموال وتنميتها، وردًّا على الجهلة المتصوفة ورعاعها الذين لا يرون ذلك، فيخرجون عن جميع أموالهم، ولا يتركون كفاية لأنفسهم وعيالهم، ثم إذا احتاج وافتقر عياله، فهو إما أن يتعرض لمنن الإخوان أو لصدقاتهم، أو أن يأخذ من أرباب الدنيا وظَلَمتهم، وهذا الفعل مذموم منهي عنه. قال أبو الفرج ابن الجوزي: ولست أعجب من المتزهدين الذين فعلوا هذا، مع قلة علمهم، إنَّما أتعجب من أقوام لهم علم وعقل، كيف حثوا على هذا، وأمروا به مع مضادته للشرع والعقل. فذكر المحاسبي في هذا كلامًا كثيرًا، وشيّده أبو حامد الطوسي ونصره، والحارث عندي أعذر من أبي حامد؛ لأنَّ أبا حامد كان أفقه، غير أن دخوله في التصوف أوجب عليه نُصرة ما دخل فيه.

قال أبو حامد: فمَن راقب أحوال الأنبياء والأولياء وأقوالهم، لم يشك في أن فقد المال أفضل من وجوده، وإن صُرِف إلى الخيرات؛ إذ أقل

غير مرخصة للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

ما فيه اشتغال الهمة بإصلاحه عن ذكر الله، فينبغي للمريد أن يخرج عن ماله، حتى لا يبقى له إلا قدر ضرورته، فما بقي له درهم يلتفت إليه قلبه فهو محجوب عن الله تعالى. قال ابن الجوزي: وهذا كله خلاف الشرع والعقل، وسوء فهم المراد بالمال، وقد شرَّفه الله وعظَّم قدره، وأمر بحفظه، إذ جعله قوامًا للآدمي الشريف، فهو شريف؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥].

ونهى ﷻ أن يُسلَّم المال إلى غير رشيد فقال: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٦]، ونهى النبي ﷺ عن إضاعة المال[(١)]، وقال لسعد: «**إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس**»[(٢)]، وقال: «**ما نفعني مال كمال أبي بكر**»[(٣)]. وقال لعمرو بن العاص: «**نِعْمَ المال الصالح للرجل الصالح**»[(٤)]، ودعا لأنس، وكان في آخر دعائه: «**اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه**»[(٥)]، وقال كعب: يا رسول الله، إنَّ من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، فقال: «**أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك**»[(٦)].

قال ابن الجوزي: هذه الأحاديث مخرَّجة في الصحاح، وهي على خلاف ما تعتقده المتصوفة من أنَّ إكثار المال حجاب وعقوبة، وأنَّ حبسه ينافي التوكل، ولا ينكر أنَّه يخاف من فتنته، وأنَّ خلقًا كثيرًا

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٤٧٧)، ومسلم في الأقضية (٥٩٣)، عن المغيرة بن شعبة.
(٢) سبق تخريجه صـ٩٢.
(٣) سبق تخريجه صـ٩٢.
(٤) سبق تخريجه صـ٩٢.
(٥) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٧٨)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٨٠)، عن أم سليم.
(٦) متفق عليه: رواه البخاري في الوصايا (٢٧٥٧)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، عن كعب بن مالك.

QaradawiBooks.com

اجتنبوه لخوف ذلك، وأنَّ جمعه من وجهه ليَعزّ، وأنَّ سلامة القلب من الافتتان به يقل، واشتغال القلب مع وجوده بذكر الآخرة يندر، فلهذا خيف فتنته. فأما كسب المال: فإنَّ من اقتصر على كسب البُلغة من حلّها فذلك أمر لا بد منه، وأما من قصد جمعه والاستكثار منه من الحلال نُظر في مقصوده؛ فإن قصد نفس المفاخرة والمباهاة فبئس المقصود، وإن قصد إعفاف نفسه وعائلته، وادخر لحوادث زمانه وزمانهم، وقصد التوسعة على الإخوان، وإغناء الفقراء، وفعل المصالح، أُثيب على قصده، وكان جمعه بهذه النية أفضل من كثير من الطاعات، وقد كانت نيات خلق كثير من الصحابة في جمع المال سليمة لحسن مقاصدهم بجمعه، فحرصوا عليه، وسألوا زيادته.

ولما أقطع النبي ﷺ الزبير حُضْر[١] فرسه أجرَى الفرس حتى قام (أي: وقف) ثم رمى سوطه فقال: «**أعطوه حيث بلغ سوطه**»[٢].

وكان سعد بن عبادة يقول في دعائه: «**اللهم وسِّع عليَّ**»[٣].

وقال إخوة يوسف: ﴿**وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ**﴾ [يوسف: ٦٥].

وقال شعيب[٤] لموسى: ﴿**فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ**﴾ [القصص: ٢٧].

---

(١) أي مقدار ما تعدو فرسه عدوة واحدة. والحُضْر ـ بضم فسكون ـ والإحضار: ارتفاع الفرس في عَدْوه.

(٢) رواه أحمد (٦٤٥٨)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الخراج والإمارة (٣٠٧٢)، والبيهقي في إحياء الموات (١٤٤/٦)، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٦٧٣)، عن ابن عمر.

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٦٤/٢٠)، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، نشر دار الفكر، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

(٤) ليس هناك دليل على أنه نبي الله شعيب، فالصحيح أن شعيبًا كان قبل موسى عليه السلام.

QaradawiBooks.com

وإنَّ أيوب لما عوفي نُثِـر عليه رِجْل[١] من جـراد من ذهب، فأخذ يحثي في جيبه ويستكثر منه، فقيل له: أما شـبعتَ؟ فقال: يا رب، فقير يشـبع من فضلك! وفي رواية: «**لا غنى بي عن بركتـك**»[٢]، وهذا أمر مركوز في الطباع.

وردَّ ابـن الجوزي علـى الغزالي في قوله: «تـرك المال الحلال أفضل من جمعه»، فقال: ليـس كذلك، ومتى صـحَّ القصد فجمعه أفضل بلا خلاف عند العلماء، وكان سعيد بن المسيب يقول: لا خير فيمن لا يطلب المال؛ يقضي به دَيْنه، ويصون عِرْضه، فإن مات تركه ميراثًا لمن بعده، وخلَّف ابن المسيب أربعمائة دينار، وخلّف سفيان الثوري مائتيـن، وكان يقول: المال في هذا الزمان سـلاح، وما زال السَّـلَف يمدحون المال ويجمعونـه للنوائب وإعانة الفقـراء، وإنَّما تحاماه قوم منهـم إيثارًا للتشـاغل بالعبادات وجمع الهـمّ، فقنعوا باليسير، فلو قال هذا القائل: إنَّ التقليل منه أولى؛ قرب الأمر، ولكنَّه زاحم به مرتبة الإثم.

قال القرطبي: «قلت: ومما يدل علـى حفظ الأموال ومراعاتها إباحة القتال دونها وعليها، قال ﷺ: «**مَن قُتِلَ دون ماله فهو شهيد**»[٣]»[٤] ا. هـ.

---

(١) الرِّجْل ـ بكسر فسـكون ـ الطائفة من الشيء «أنثى»، وخص بعضهم به القطعة العظيمة من الجراد. لسان العرب مادة (ر. ج. ل).

(٢) رواه البخاري في الغسل (٢٧٩)، عن أبي هريرة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في المظالم (٢٤٨٠)، ومسـلم في الإيمان (١٤١)، عن عبد الله بن عمرو.

(٤) تفسير القرطبي (٤٢٠/٣)، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، نشر دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م. وانظر: تلبيس إبليس لابن الجوزي صـ ١٦٣، نشر دار الفكر، لبنان، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

QaradawiBooks.com

الاستعاذة من فتنة الفقر:

وممَّا يؤكد قيمة المال ومكانته في نظر الإسلام: موقف الإسلام من الفقر، واستعاذة الرسول ﷺ من شره في أكثر من حديث.

فتروي عنه عائشة رضي الله عنها أنَّه كان يقول: «**... وأعوذ بك من شر فتنة الغنى، ومن شر فتنة الفقر**»[(١)].

بل هو في بعض الأحاديث يقرن الفقر بالكفر، فيقول: «**... وأعوذ بك من الفقر والكفر**»[(٢)].

وفي حديث آخر يتعوَّذ بالله من بعض مظاهر الفقر وآثاره، وهو الجوع، فقد كان يقول: «**اللهم إنِّي أعوذ بك من الجوع، فإنَّه بئسَ الضجيع**»[(٣)].

وبيَّن الرسول الكريم أنَّ الفقر يمكن أن يوقع الإنسان فيما لا يحبه من الشر والمعصية، كابنة العم التي اضطرها القحط والجوع أن تسلم إلى ابن عمها نفسها كرهًا عنها، كما في حديث الثلاثة أصحاب الغار[(٤)].

ومثل ما أشار إليه حديث الذي تصدَّق بصدقة فأخفاها في ليال ثلاث. وفيه: «**أما صدقتُك على سارق، فلعلَّه أن يستعفَّ عن سرقته، وأما**

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٦٨)، ومسلم في المساجد (٥٨٩) عن عائشة.

(٢) رواه أحمد (٢٠٤٠٩)، وقال مخرِّجوه: إسناده قوي على شرط مسلم. والنسائي في السهو (١٣٤٧)، وابن خزيمة في الصلاة (٧٤٧)، عن أبي بكرة.

(٣) رواه أبو داود في الصلاة (١٥٤٧)، والنسائي في الاستعاذة (٥٤٦٨)، وابن ماجه في الأطعمة (٣٣٥٤)، وصحح إسناده النووي في رياض الصالحين (١٤٨٥)، وحسَّنه ابن حجر في نتائج الأفكار (٨٨/٣)، وحسَّنه الألباني في صحيح أبي داود (١٣٨٣)، عن أبي هريرة.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٣٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٥٠)، عن أبي هريرة.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

صدقتُك على زانية، فلعلَّها أن تستعفَّ عن زناها»[(١)]، وهو يومئ إلى أنَّ الفقر من أسباب الوقوع في جريمة السرقة، وفاحشة الزنى[(٢)].

وفي «صحيح مسلم» من دعائه عليه الصلاة والسلام: «**اللهم رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل والقرآن... أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عني الدَّيْن، وأغنني من الفقر**»[(٣)].

فهذا الدعاء العظيم بهذه المقدمة الهائلة، والثناء الجليل على الله، تباركت أسماؤه، لا يريد من ورائه إلا قضاء الدَّيْن عنه، وأن يغنيه من الفقر.

وقد بيَّنتُ في كتابي: «مشكلة الفقر» موقف الإسلام منه، ووضَّحت خطره على العقيدة، وعلى العبادة، وعلى التفكير، وعلى الخُلُق والسلوك، كما بيَّنتُ خطره على الأسرة، ويكفي ما أشار إليه القرآن من أن بعض الآباء قتلوا أولادهم من أجل إملاق (أي: فقر) واقع، أو خشية إملاق متوقَّع كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١]، وهو يدل بوضوح على تأثير الاقتصاد في سلوك الناس وعلاقاتهم، وهو ما لا ننكره، وقد دلَّت عليه النصوص ووقائع الحياة، إنَّما الذي ننكره على الفلسفة الماركسية: نظرتها المادية

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٢١)، ومسلم (١٠٢٢)، كلاهما في الزكاة، عن أبي هريرة.

(٢) لشيخنا محمد الغزالي بحث قيّم عن علاقة الأسباب الاقتصادية بالفضائل والرذائل في كتابه: الإسلام والأوضاع الاقتصادية.

(٣) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧١٣)، وأحمد (٨٩٦٠)، عن أبي هريرة.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الخالصة، واعتبارها الاقتصاد هو المؤثر الأوحد في الحياة، وجحود التأثيرات الدينية والخُلُقية والمعنوية، مع أنَّ أهم ما يحرك الإنسان هو فكره وعقيدته قبل أي شيء آخر، وأبرز ما يغير حياته أن يغير ما بنفسه، فإذا كانت فلسفة الماركسية تقول: غَيِّر الاقتصاد يتغير التاريخ، ففلسفة الإسلام تقول: غَيِّر نفسك ـ أو غَيِّر ما بنفسك ـ يتغيَّر التاريخ، وهو ما عبَّر عنه القرآن بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

كما بيَّنتُ في ذلك الكتاب خطر الفقر على المجتمع وتماسكه واستقراره، ونهوضه برسالته، فيلزم مراجعة هذا الفصل المهم هناك[1].

المال فتنة واختبار للأفراد والجماعات:

وإذا لم يكن المال شرًّا ولا نقمة ـ كما يزعم بعض الناس أنَّه كذلك ـ فليس هو مقياسًا لقيمة مالكه، أو عنوانًا لفضله وصلاحه، كما يزعم آخرون أنَّه كذلك، بل هو نعمة من الله يمتحن بها أصحابها: أيشكرون أم يكفرون؟ ولهذا سمَّاه الله: «فتنة» أي: اختبارًا ومحنة، كالنار للذهب، قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

ومن هنا نجد المال في يد المؤمن البار ثوابًا من الله له، كما نجده في يد الكافر الفاجر استدراجًا من الله له، ومكرًا به: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

وقال تعالى في استدراج الفجرة العتاة: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤].

---

(١) انظر كتابنا: مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام صـ ١٤ ـ ٣٧، مبحث: نظرة الإسلام إلى الفقر، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٩، ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.

QaradawiBooks.com

وردَّ القرآن على المترفين الذين وقفوا في وجه الرسالات السماوية، وزعموا أنَّ أموالهم وأولادهم تدفع عنهم عذاب الله وسخطه، فقال: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۞ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٥ ـ ٣٧].

كما ذكر القرآن في معرض الإنكار والتنديد قصة صاحب الجنَّتيْن، وما كان من غروره وادعائه، وتطاوله بماله، وافتخاره به على صاحبه، وقوله له: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۞ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۞ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٤ ـ ٣٦].

وأنكر على الإنسان أن يجعل سعة الرزق دليل كرامة من الله، ويجعل ضيقه دليل هوان منه: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۞ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٧].

فبيّن أنَّ المال في حال البَسط والتوسعة، أو القبض والتضييق، إنَّما هو ابتلاء من رب الإنسان للإنسان، لا إهانة ولا إكرام. وفي الحديث: «**إنَّ الله يعطي الدنيا مَن يحب ومَن لا يحب، ولكنَّه لا يعطي الدين إلا مَن أحب**»(١).

وقال تعالى مهددًا بعض المشركين المغرورين بأموالهم: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۞ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۞ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٤ ـ ٥٦].

(١) رواه أحمد (٣٦٧٢)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. والحاكم في الإيمان (٣٣/١)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٤): رواه أحمد ورجال إسناده بعضهم مستور وأكثرهم ثقات. عن ابن مسعود. والأرجح اعتبار الحديث موقوفًا، انظر: المنتقى (٩٦٠)، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٣، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

QaradawiBooks.com

والنتيجة من هذا: أنَّ المال لا يُمدح لذاته، ولا يُذم لذاته، وإنَّما يُذم المال حين يُؤدِّي إلى غرور مالكه به، أو طغيانه على غيره، أو استعلائه واستكباره عن الحق، أو حين يُؤخذ من غير حِلِّه، أو يُنفق في غير حقه، أو يُمسك عن مستحقه.

ومن أمثلة ذلك كثير من أغنياء مكة الذين غرَّهم مالهم، وأطغاهم غناهم، فكفروا برسول الله، وصدُّوا عن سبيل الله وهم يعلمون، كأبي جهل بن هشام الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]. ومن أسرار التعبير في الآية أنَّها لم تُعلِّق الطغيان على نفس الغنى، بل على رؤية الشخص، واعتقاده في نفسه أنَّه استغنى بماله عن غيره: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٧]... وكأبي لهب الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۞ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: ١، ٢]. وكأُبَيّ بن خلف: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۞ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ [الهمزة: ٢، ٣]، وفيه نزل: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۞ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۞ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [الليل: ٨ ـ ١١]. وكالوليد بن المغيرة الذي نزل فيه وعيد الله: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۞ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۞ وَبَنِينَ شُهُودًا ۞ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۞ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۞ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ [المدثر: ١١ ـ ١٦]، وفي سورة أخرى قال فيه: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۞ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٤، ١٥].

ومن الأمثلة التي عُنِيَ القرآن بذكرها قصة قارون، الذي ضرب الله به المثل في الغنى، والذي غرَّه المال فأطغاه، وبغى على قومه، ونسي فضل ربه: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۞ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ

QaradawiBooks.com

﴿ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٦، ٧٧].

لقد نصحوه بنصائح خمس تجمع له خيري الأولى والآخرة، وهي وصايا لكل ذي ثروة من بعده، ولكنَّه للأسف لم يصغ للنصيحة المخلصة، وركبه شيطان العُجْب والغرور: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]، وبغى على قومه، وانضم إلى عدوهم فرعون، وكوَّن معه ومع وزيره «هامان» ثالوث الطغيان والفساد، ودل على أنَّ مصالح هذه الفئة من الناس أهم عندها من القوم والأهل وكل الاعتبارات التي يحرص عليها الشرفاء من الناس، فلا غرو أن خسف الله به وبداره الأرض، ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

الناس يتفاضلون بالأعمال لا بالأموال:

الناس إذن لا يتفاضلون بما يملكون من ثروات وأموال، أو ما يتمتعون به من جاه أو سلطان، وإنَّما يتفاضلون بما استكَنَّ في قلوبهم من تقوى الله تعالى وخشيته، والإخلاص له، مهما يكن المرء صِفْر اليدين، رث الثياب، زري الهيئة، فإنَّ الله لا ينظر إلى الصور، بل إلى القلوب.

روى البخاري عن سهل بن سعد قال: مَرَّ رجلٌ على رسول الله ﷺ فقال لرجل عنده جالس: «**ما رأيك في هذا؟**». فقال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حَريّ إن خطب أن يُنكَح، وإن شفع أن يُشفّع، وإن قال أن يُسمع لقوله. قال: فسكت النبي ﷺ ثم مرَّ رجل آخر، فقال رسول الله ﷺ: «**ما رأيك في هذا؟**». قال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا

QaradawiBooks.com

حَريّ إن خطب ألا يُنكَح، وإن شفع ألا يُشفَّع، وإن قال ألا يُسمَع لقوله. فقال رسول الله ﷺ: «**هذا خير من ملء الأرض مثل هذا**»[١].

وروى مسلم في «صحيحه» عنه ﷺ قال: «**إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم ولا أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[٢].

وفي «الصحيحين» عن حارثة بن وهب أنَّه ﷺ قال: «**ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبرَّه**»[٣]، والمراد بالضعف: ضعف الحال والمال، ولهذا يستضعفه الناس ويحتقرونه ويفتخرون عليه، مع أنَّ له عند الله شأنًا، حتى لو حلف يمينًا طمعًا في كرم الله بإبراره لأبرَّ الله قسمه وحقق له سؤله.

وبهذا وأمثاله عدَّل النبي ﷺ موازينهم في تقدير الأشخاص، فلم يعد تقويمهم بما يملكون، بل بما يعملون.

وكما يُمتحن الأفراد بالمال والغنى وبسطة العيش، تُمتحن به الجماعات والأمم، فإن رعت جماعة نعمة الله، واستعملتها فيما وُهِبت له، وقامت بحقها، أدام الله عليها النعمة، بل زادها منها، وإلا نزعها منها، جزاءً وفاقًا: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٤٧).

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، وأحمد (٧٨٢٧)، عن أبي هريرة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٩١٨)، ومسلم في الجنة وصفتها (٢٨٥٣)، عن حارثة بن وهب.

QaradawiBooks.com

ومن الأمثلة التي عُنِيَ القرآن بذكرها قصة «سبأ»، وما أنعم الله به عليهم من رخاء ونعيم، لم يفوا بحقه، ولم يشكروا الله تعالى عليه، فكانت عاقبتهم أن انهار سدهم، وهلكت أموالهم، وخربت ديارهم، وتفرَّقوا في الأرض تفرقًا ضُرب به المثل: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٥ ـ ١٧].

القيم المعنوية خير وأبقى:

ومع أنَّ المال عنصر من عناصر قوة الأمم، ومُقوِّم من مقومات نهضتها وتقدمها، به تحقق مشروعاتها، وتزيد دخلها، وترفع مستوى معيشة أبنائها، وعلى قدر ما تملك منه وتستغل موارده الطبيعية، يكون ـ إلى حد كبير ـ ازدهارها في الداخل، وهيبتها في الخارج... مع هذا كله فإنَّ المال يصبح خطرًا على الأمة وعلى أبنائها، وعلى مقوماتها الروحية والخُلُقية، إذا انهمكت في طلبه وجمعه والتنافس عليه، وصار أكبر همها، وغاية سعيها، وخاصة إذا كانت أمة ناشئة في مرحلة التكوين، أو كانت أمَّة ذات رسالة في الحياة، وذات دعوة للإنسانية، ومن هنا قال الرسول ﷺ لأصحابه في أحد المواقف: «**والله، ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا، كما بُسِطت على من كان قبلكم، فتتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم**»[1].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجزية (٣١٥٨)، ومسلم في الزهد (٢٩٦١)، عن عمرو بن عوف.

QaradawiBooks.com

وعن أبي سعيد الخدري قال: جلس رسول الله ﷺ على المنبر، وجلسنا حوله، فقال: «**إنَّ مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح الله عليكم من زهرة الدنيا وزينتها**»(١).

وعنه: أنَّه ﷺ قال: «**إنَّ الدنيا حلوة خضرة، وإنَّ الله تعالى مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء**»(٢).

واتقاء الدنيا هنا مثل اتقاء النساء المراد به: التنبه لفتنتها، وليس اعتزالها، إذ لا تبتل ولا رهبانية في الإسلام.

وعن أنس: أنَّه ﷺ كان يقول: «**اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة**»(٣).

ويُهوِّن النبي ﷺ من قيمة الدنيا إذا قُرِنت بالآخرة، وقِيسَ عُمر هذه بعمر تلك، ومتاع هذه بنعيم تلك، فيقول: «**ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أُصبُعه في اليمِّ** (أي: البحر) **فلينظر: بِمَ يرجع؟**»(٤).

وهذا ما جعل بعض السلف الصالحين يقول: لو كانت الدنيا ذهبًا يفنى، والآخرة خزفًا يبقى، لآثرتُ الخزف الباقي على الذهب الفاني(٥).

فكيف والآخرة أكبر وأغلى من الذهب، والدنيا أقل وأدنى من الخزف؟!

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٦٥)، ومسلم (١٠٥٢)، كلاهما في الزكاة.

(٢) رواه مسلم في الرقاق (٢٧٤٢)، وأحمد (١١١٦٩).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٧٩٧)، ومسلم في الجهاد (١٨٠٤).

(٤) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٥٨)، والترمذي في الزهد (٢٣٢٣)، عن المستورد بن شداد.

(٥) من قول الفضيل بن عياض، انظر: المستطرف في كل فن مستظرف لأبي الفتح الأبشيهي صـ ٥١٢، نشر عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

QaradawiBooks.com

ويُحذِّر النبي ﷺ أمته من أعظم فتنة في الدنيا، وهي فتنة المال، الذي أغوى الكثيرين حبه والحرص عليه، فأصمَّهم وأعمى أبصارهم، وفي هذا يقول: «**إنَّ لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال**»(١).

وفتنة المال ليست في جمعه وكسبه من وجوهه المشروعة، إنَّما هي في حبه والحرص عليه حرصًا يجعله يكسبه من غير حِلِّه، وينفقه في غير محله، ويبخل به عن حقه، والشر كله من هذا نبع، وهذا ما حذَّر منه الحديث: «**ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشَّرَف** (يعني: الجاه والمنزلة) **لدينه**»(٢).

من أجل ذلك يُعلِّم الإسلام أبناءه أنَّ المال ليس هو كل شيء في الحياة، بحيث يحصر الإنسان كل همه فيه، وكل سعيه له، وكل حماسه ونشاطه في طلبه وجمعه، بحيث لا يدع في عقله وقلبه مكانًا للرغائب الكبيرة، التي يجب أن ترنو إليها الأبصار، وتشرئب نحوها الأعناق.

إنَّ الْمُثُل الأخلاقية العليا والقيم الروحية الرفيعة، من الإيمان والعمل الصالح والخُلُق الكريم، هي الثروة التي لا تنفد، والكنوز التي لا تفنى، والباقيات الصالحات على مرِّ الأعوام والأعصار، ولهذا يوجِّه إليها القرآن همم المؤمنين وآمالهم، بمثل قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]، وقوله:

---

(١) رواه أحمد (١٧٤٦١)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح. والترمذي في الزهد (٢٣٣٦)، وقال: حسن صحيح غريب. والنسائي في الكبرى، كتاب الرقائق (١١٧٩٥)، وابن حبان في الزكاة (٣٢٢٣)، والحاكم في الرقاق (٣١٨/٤)، وصحَّحه، ووافقه الذهبي، عن كعب بن عياض.

(٢) رواه أحمد (١٥٧٨٤)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. والترمذي في الزهد (٢٣٧٦)، وقال: حسن صحيح. وابن حبان في الزكاة (٣٢٢٨)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٥٥٧)، عن كعب بن مالك.

QaradawiBooks.com

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠]، وقوله في قصة قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٧٩، ٨٠]، وقوله تعالى لرسول ﷺ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]، فرزق ربه هنا ليس هو الموعود به في الجنة فحسب، بل ما أنعم الله به عليه من معافي الإيمان، ومنازل التقوى، ومكارم الأخلاق، وبعد ذلك ما ينتظره من نعيم مقيم، ويقول تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥].

كما تُوجِّه السُّنَّة النبوية كذلك العقول والإرادات إلى طلب الآخرة، وإيثارها على الدنيا، واعتبار هذه الحياة مزرعة لدار الخلود، يزرع الإنسان فيها اليوم ليحصد هناك غدًا.

الحياة الاقتصادية الطيبة وسيلة إلى هدف أكبر:

إنَّ الإسلام لا يغفل أبدًا العنصر المادي، وأهميته لعمارة الأرض، وتقدم الإنسان، وتحقيق الحياة الطيبة له، وإعانته على القيام بواجبه نحو من خلقه فسوَّاه، واستخلفه في الأرض، ولكنَّه يؤكد أبدًا: أنَّ الحياة الاقتصادية الطيبة وإن كانت هدفًا إسلاميًّا منشودًا، فهي ليست الهدف

QaradawiBooks.com

الأخير، بل هي في الحقيقة وسيلة إلى هدف أكبر وأبعد، وهذا فرق جوهري بين المذهب الإسلامي والمذاهب المادية الأخرى، من اشتراكية متطرفة ومعتدلة، ورأسمالية مطلقة أو مقيَّدة.

إنَّ تلك المذاهب المادية ـ من اليمين إلى اليسار ـ تقف بالإنسان عند إشباع شهوتي البطن والفَرْج، ولا تتعدى نطاق المصالح الاقتصادية الدنيا، إنَّ الرفاهية المادية هدفها الأخير، وفردوسها المنشود.

أما الاقتصاد الإسلامي فيجعل هدفه من وراء طيب الحياة ورغد العيش؛ أن يرقى الناس بأنفسهم، ويسموا بأرواحهم إلى ربهم، وألا يشغلهم الهم في طلب الرغيف، والانهماك في معركة الخبز والإدام؛ عن معرفة الله تعالى، وعبادته، وحُسن الصلة به، والاستعداد لحياة أخرى هي خير وأبقى.

إنَّ الناس إذا توافرت لهم كفايتهم، وكفاية مَن يعولونه، وأمنوا على أنفسهم وأرزاقهم، أمكنهم أن يطمئنوا في حياتهم، ويتجهوا بالعبادة الخاشعة إلى ربهم، الذي أطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف.

وعبادة الله ـ جل شأنه ـ هي الغاية الأولى التي من أجلها ذرأ الله هذا الكون، ونفخ الروح في هذا الإنسان... إنَّ الإنسان لم يُخلق من أجل الاقتصاد، ولكنَّ الاقتصاد خُلِق من أجل الإنسان، أما الإنسان فخُلِق لله تعالى، ليتوجه بعقله وقلبه إليه، وليجعل هواه تبعًا لأمره، وليصوغ حياته وأوضاعه وسلوكه وفقًا لرضاه. وهذا هو المعنى الكبير للعبادة التي خلق الله لها الإنسان: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۞ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨].

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وَسَطية الإسلام في قضية المِلْكية

كما اتضحت لنا وسيطة الإسلام في قضية المال، بين الاتجاهات الزهدية المتطرفة، والاتجاهات المادية المسرفة... نجد هذه الوَسَطية واضحة كذلك في قضية المِلْكية بين الغلاة من أنصارهم الرأسماليين الذين يُقدِّسونها، والغلاة من أعدائها الاشتراكيين الذين يقاومونها، ويُحمِّلونها وزر كل فساد وقع في التاريخ.

لقد أقرَّ الإسلام حرية التملك، وحق الملكية الخاصة، وجعلها أساس بنائه الاقتصادي؛ إذا التزمت نطاقها المسموح لها به، ووقفت عند حدود الله تعالى، فاكتسبت من طرق حلال مشروعة معروفة فصَّلتها أحكام الشرعية، ونُمِّيت كذلك بهذه الطرق الحلال المشروعة، وقد فرض الإسلام على هذه المِلْكية حقوقًا وتكاليف وواجبات شتَّى، منها: فريضة الزكاة، ونفقات الأقارب، وإغاثة الملهوف، وإعانة المضطر، والمشاركة في نوازل المجتمع مثل الجهاد بالمال، والمعاونة في تحقيق التكافل بين أفراده.

كما حرَّم الإسلام على المالك أن يستخدم المِلْك في الإفساد في الأرض أو الإضرار بالناس، إذ «**لا ضَرر ولا ضِرار**»[1]، أو تنمية المال بما

(١) رواه أحمد (٢٨٦٥)، وقال مخرِّجوه: حسن. وابن ماجه في الأحكام (٢٣٨١)، عن ابن عباس، والدارقطني في البيوع (٧٧/٣)، عن أبي سعيد الخدري، وقال النووي في الأربعين (الحديث الثاني والثلاثون): حديث حسن. رواه ابن ماجه والدارقطني وغيرهما مسندًا، ورواه مالك في الموطأ مرسلًا عن عمرو بن يحيى عن أبيه عن النبي ﷺ فأسقط أبا سعيد، وله طرق يقوي بعضها بعضًا. قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم في شرحه للحديث: وقال أبو عمرو بن الصلاح: هذا الحديث أسنده الدارقطني من وجوه، ومجموعها يقوي الحديث ويحسنه، وقد تقبله جماهير أهل العلم، واحتجوا به، وقول أبي داود: إنه من الأحاديث التي يدور الفقه عليها يشعر بكونه غير ضعيف، والله أعلم. وقال ابن الملقِّن في خلاصة البدر =

QaradawiBooks.com

يضر القيم والأخلاق، من التجارة في الأعيان المحرَّمة كالأصنام والخمر والخنزير والمخدرات، وكل المواد الضارة بصحة الإنسان أو عقله أو دينه وخُلُقه.

ومن أهم ما نهى عنه الإسلام هنا نهيًا عامًّا مؤكدًا: أكل الأموال بالباطل، أي بغير مقابل شرعي من ثمن أو عمل، أو هبة أو صدقة أو وصية أو ميراث، أو نحو ذلك مما يجيز أخذ المال.

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ [النساء: ٢٩].

ويقول ﷻ: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

يقول الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية: «الخطاب بهذه الآية يتضمن جميع أمة محمد ﷺ. والمعنى: لا يأكل بعضكم مال بعض بغير حق، فيدخل في هذا: القمار والخداع والغصوب (جمع: غصب)، وجحد الحقوق، وما لا يطيب به نفس مالكه، أو حرَّمته الشريعة ـ وإن طابت به نفس مالكه ـ كمهر البَغِيِّ، وحلوان الكاهن ـ ما يُعطَى له مقابل كهانته ـ، وأثمان الخمور والخنازير، وغير ذلك، ولا يدخل فيه الغَبْن مع معرفة البائع بحقيقة ما باع؛ لأنَّ الغَبْن (أي: مع علمه واختياره) كأنَّه هبة»[1] اهـ.

= المنير (٤٣٨/٢): وصحَّحه إمامنا ـ أي الشافعي ـ في حرملة. وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢١٠/٢): وقد استدل الإمام أحمد بهذا الحديث فقال: قال النبي ﷺ: «**لا ضرر ولا ضرار**».

(١) تفسير القرطبي (٣٣٨/٢).

QaradawiBooks.com

حتى لو حكمت له المحكمة بالمال، وهو يعلم أنَّه لا حقَّ له فيه، فحكمها لا يحل له الحرام؛ لأنَّ القاضي يحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر، وفي هذا جاء الحديث الصحيح: «**إنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحُجَّته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع، فإنَّما هي قطعة من النار، فليأخذ أو ليدع**»[١].

فإذا كان قضاء رسول الله ﷺ نفسه لا يحل الحرام لمن قضى له في الظاهر، فما بالك بغيره من القضاة؟! إنَّ قاضي المسلم هنا هو ضميره الذي يراقب الخالق قبل مراقبته المخلوقين.

حماية الإسلام للملكية الحلال وبخاصة ملكية الضعفاء:

إنَّ الإسلام يتشدد كل التشدد في اتباع طرائق التملك المشروع... فإذا تم التملك بشرائطه الشرعية فإنه يقف إلى جوار المالك ـ بحدوده وقوانينه ووصاياه ـ يحمي ملكيته أن يُعتَدَى عليها، أو على جزء منها بالقوة أو بالحيلة... ويُنذر بعذاب الدنيا والآخرة كل مَن يتعدى على هذه الملكية، وخاصة إذا كانت ملكية إنسان ضعيف، وهذا سر ما نراه من عناية القرآن بملكية اليتامى والنساء.

ففي شأن أموال اليتامى نجد الوصية بها ضمن الوصايا العشر في سورة الأنعام من القرآن المكي، قال تعالى: ﴿**وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ**﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وفي سورة الإسراء المكية ـ آية: ٣٤ ـ كرر هذه الوصية نفسها، تأكيدًا لها، وتنويهًا بأهميتها، ومعنى: ﴿**بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ**﴾: أي بالطريقة التي هي أحسن الطرق لحفظ المال

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الشهادات (٢٦٨٠)، ومسلم في الحدود (١٧١٣)، عن أم سلمة.

QaradawiBooks.com

وتثميـــره، وكأنَّ الله البر الرحيـــم لم يرض من عباده أن يســـلكوا مجرد الطريقة الحســـنة لصيانة مال اليتيم وتنميته، حتى يسلكوا الطريقة التي هي أحســـن؛ وذلك لقطع الأطماع عن مال هذا الصغير الذي فقد الأب الذي يحنو عليه ويرعى شـــأنه. قال الإمام القرطبي في تفســـيره شارحًا معنى ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾: «أي بمـــا فيه صلاحه وتثميـــره، وذلك بحفظ أصوله، وتثمير فروعه»[1].

وفي سورة النســـاء من القرآن المدني، أنزل الله جملة آيات في مطالع السورة، توصي الناس عامة ـ والأوصياء خاصة ـ بأموال اليتامى بدأها بقوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا﴾ [النساء: ٢]، وختمها بهذا الوعيد الشديد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء: ١٠].

هذه الآيـــات وأمثالها أقلقت ضمائر الصحابـــة ﷺ، فانطلق كل مَن عنده يتيم، فعزل طعامه عن طعامه، وشـــرابه عن شـــرابه، فجعل يفضل الشيء من اليتيم، فيحبسه وليه له، حتى يأكله، وكثيرًا ما يفسد ويتلف، وفي ذلك خسارة على اليتيم وعلى الولي وعلى المجتمع، فاشتدَّ ذلك عليهم... فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله آية البقرة: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

أما عناية القرآن بما يملكه النســـاء، فقد أكَّده القرآن، خشية عدوان الرجال عليه، كما كان الحال في الجاهلية العربية، وكما كان الحال عند كثير من الأمم، واستمر طرف منه إلى العصر الحديث.

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٣٤/٧).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

يقول الله تعالى في سورة النساء: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤]، فلم يبح للرجال من صداق النساء، إلا ما طبن به نفسًا، فهن صاحبات الحق فيه.

وقال تعالى في نفس السورة: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٢٠].

واجب الفرد في حماية مِلْكه من العدوان:

وهو بعد ذلك ـ يفرض على الإنسان أن يحمي مِلْكه الحلال ولا يُفرِّط فيه لظالم أو غاصب، ولو أدَّى ذلك إلى سل السيف وسفك الدم، فمع أنَّ حُرْمة الدم أعظم في نظر الشريعة من حرمة المال ـ نجدها تبيح القتال لحماية المال؛ لأنَّ أمن المجتمع واستقراره رهن باحترام النظام الذي يقوم عليه، والملكية الخاصة جزء من النظام الإسلامي الذي شرعه الله للناس، ورضيه أبناء المجتمع، والتعدي على هذه الملكية بالقوة والقهر يزلزل كيان المجتمع كله، ويهدد نظامه بالانهيار، وروابطه بالانحلال، والمتعدي على مِلْك غيره قد أهدر دم نفسه، حيث تجاوز حدود الله، وعدا على سلطان الشرع.

روى مسلم، عن أبي هريرة، قال: جاء رجل، فقال: يا رسول الله، أرأيتَ إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: «**فلا تعطه مالك**»، قال: أرأيتَ إن قاتلني؟ قال: «**قاتله**»، قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: «**فأنت شهيد**»، قال: أرأيتَ إن قتلته؟ قال: «**هو في النار**»[1].

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٤٠)، وأحمد (٨٢٩٩).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وعن عبد الله بن عمرو، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَن قُتِلَ دون ماله فهو شهيد**»[١].

وبهذا لم يكتف الإسلام بحماية الدولة وحدها للمِلْكية، بل أشرك الأفراد أيضًا في وجوب حمايتها من كل معتد أثيم.

تشريع اللُّقَطة:

ومن أجل قداسة المِلْك وحرمته في الإسلام، اهتمت شريعته بـ «اللُّقَطة» وفصَّلت أحكامها، وأُفرد لها باب أو كتاب خاص في كل كتب الفقه الإسلامي على اختلاف مذاهبه ومدارسه، واللُّقَطة هي المال الذي يضيع من مالكه ويلتقطه غيره، سواء أكان نقودًا أم متاعًا أم حيوانًا أو غير ذلك.

روى الشيخان عن زيد بن خالد قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عن اللُّقَطة، فقال: «**اعرف عفاصها ووكاءها، ثم عَرِّفها سنة فإن جاء صاحبها... وإلا فشأنك بها**»[٢].

والعفاص: هو الوعاء الذي تكون فيه اللُّقَطة. والوكاء: الخيط الذي تُربط به... أي: عليه أن يعرِّف الأمارات التي تميزها، فلا يُسلِّمها لكل مَن يدَّعيها، بل مَن يصفها وصفًا دقيقًا ويذكر علاماتها.

ومعنى تعريفها سنة: أن يعلن عنها في المجامع والمساجد والأسواق، حتى يتعالم الناس أمرها، عسى أن يبلغ ذلك صاحبها، فيجيء الملتقط فيسأل عنها...

وهذه كلها ضمانات لصيانة المال المملوك حتى لا يضيع على أربابه.

---

(١) سبق تخريجه صـ ٩٨.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٢٩)، ومسلم (١٧٢٢)، كلاهما في اللقطة، عن زيد بن خالد الجهني. والعِفَاص: الوعاء الذي تكون فيه النفقة، جلدًا كان أو غيره، والوكاء: الخيط الذي يشد به الوعاء.

QaradawiBooks.com

الـمِلْكية التي يحميها الإسلام:

ولكـــن ما المِلْكية التـــي يمنحها الإســـلام حق الحمايـــة، ويُكلِّف المجتمع والأفراد الدفاع عنها؟

إنَّ الإســـلام لا يحمي كل مِلْكية ولو جاءت من طريق حرام، وإنَّما يبسط حمايته على المِلْكية إذا جاءت من طريق مشروع، ولم تحرم لخلل في جهة إثبات اليد على المِلْك، وذلـــك أن أخذ المال ـ كما قال الإمام الغزالي ـ إما أن يكون باختيار المالك أو بغير اختياره.

فالذي يكون بغير اختياره كالإرث.

والذي يكـــون باختياره إمـــا أن لا يكون من مالك كنيـــل المعادن، أو يكون من مالك.

والذي أُخِذ من مالك: فإما أن يؤخذ قهرًا، أو يؤخذ تراضيًا.

والمأخوذ قهرًا: إما أن يكون لســـقوط عصمة المالـــك كالغنائم، أو لاستحقاق الأخذ كزكاة الممتنعين والنفقات الواجبة عليهم.

والمأخوذ تراضيًا: إما أن يؤخذ بعـــوض كالبيع والصداق والأجرة، وإما أن يؤخذ بغير عوض كالهبة والوصية.

فيحصل من هذا السياق ستة أقسام:

الأول: ما يؤخذ مـــن غير مالك كنيـــل المعادن، وإحيـــاء الموات، والاصطياد، والاحتطاب، والاستقاء من الأنهار، والاحتشاش، فهذا حلال بشرط ألا يكون المأخوذ مختصًّا بذي حُرْمة من الآدميين، فإذا انفك من الاختصاصات مَلَكها آخذها.

وتفصيل ذلك في كتاب: «إحياء الموات».

QaradawiBooks.com

الثاني: المأخوذ قهرًا ممن لا حُرْمة له، وهو الفيء والغنيمة وسائر أموال الكفار والمحاربين، وذلك حلال للمسلمين إذا أخرجوا منها الخُمْس وقسموها بين المستحقين بالعدل، ولم يأخذوها من كافر له حُرْمة وأمان وعهد.

وتفصيل هذه الشروط في كتاب: «السير» من كتاب الفيء والغنيمة وكتاب الجزية.

الثالث: ما يؤخذ قهرًا باستحقاق عند امتناع مَن وجب عليه فيؤخذ دون رضاه، وذلك حلال إذا تم سبب الاستحقاق، وتم وصف المستحق الذي به استحقاقه، واقتصر على القدر المستحق، واستوفاه مَن يملك الاستيفاء من قاض أو سلطان أو مستحق.

وتفصيل ذلك في كتاب: «تفريق الصدقات»، وكتاب: «الوقف»، و«النفقات»، إذ فيها النظر في صفة المستحقين للزكاة والوقف والنفقة، وغيرها من الحقوق، فإذا استوفيت شرائطها كان المأخوذ حلالًا.

الرابع: ما يؤخذ تراضيًا بمعاوضة، وذلك حلال إذا روعي شرط العوضين، وشرط العاقدين، وشرط اللفظين (يعني: الإيجاب والقبول) مع ما تعبَّد الشرع به من اجتناب الشروط المفسدة.

وبيان ذلك في كتاب: «البيع»، و«السَّلَم»، و«الإجارة»، و«الحوالة»، و«الضمان»، و«القراض»، و«الشركة»، و«المساقاة»، و«الشفعة»، و«الصلح»، و«الخلع»، و«الكتابة»، و«الصداق»، وسائر المعاوضات.

الخامس: ما يؤخذ عن رضا من غير عوض، وهو حلال إذا روعي فيه شرط المعقود عليه، وشرط العاقدين، وشرط العقد، ولم يؤد إلى ضرر لوارث أو غيره.

QaradawiBooks.com

وذلك مذكور في كتاب: «الهبات»، و«الوصايا»، و«الصدقات».

السادس: ما يحصل بغير اختيار كالميراث، وهو حلال، إذا كان الموروث قد اكتسب المال من بعض الجهات الخمس على وجه حلال، ثم كان ذلك بعد قضاء الدَّيْن، وتنفيذ الوصايا، وتعديل القسمة بين الورثة، وإخراج الزكاة والحج والكفَّارة إن كان واجبًا.

وذلك مذكور في كتاب: «الوصايا»، و«الفرائض».

فهذه مجامع مداخل الحلال والحرام أومأتُ إلى جملتها، ليعلم المريد أنَّه إن كانت طعمته متفرقة لا من جهة معينة، فلا يستغني عن علم هذه الأمور، فكل ما يأكله من جهة من هذه الجهات، ينبغي أن يستفتي فيه أهل العلم، ولا يَقْدُم عليه بالجهل، فإنَّه كما يقال للعالِم: لِمَ خالفت علمك؟ يقال للجاهل: لِمَ لازمت جهلك ولم تتعلم؟ بعد أن قيل لك: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»[1].

لهذا كان تحري الحلال الطيب في التملك فرضًا دينيًّا على كل مسلم مثل الصلاة والصيام، بل إنَّ العلماء يشدِّدون في حقوق العباد أكثر مما يشدِّدون في حقوق الله، وهم يقولون في ذلك: حقوق الله مبنية على المسامحة، وحقوق العباد مبنية على المشاحة، وهذا له أدلة كثيرة مبسوطة في مواضعها.

---

(١) رواه ابن ماجه في المقدمة (٢٢٤)، وأبو يعلى (٢٨٣٧)، والطبراني في الأوسط (٩)، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٨٣)، وقال المناوي في فيض القدير (٢٦٧/٤ ـ ٢٦٨): قال ابن عبد البر: طرقه كلها معلولة. وقال النووي: ضعيف وإن كان معناه صحيحًا. وقال السيوطي: جمعت له خمسين طريقًا، وحكمت بصحته لغيره، ولم أصحح حديثًا لم أسبق لتصحيحه سواه. وقال السخاوي: له شاهد عند ابن أبي شاهين بسند رجاله ثقات، ورواه نحو عشرين تابعيًّا عن أنس.

QaradawiBooks.com

رعاية حقوق الاستخلاف شرط لحماية المِلْكية:

على أنَّ هناك شـــرطًا لا بد من توافره هنا وتأكيده، وهو أنَّ الإسلام إنَّما يعطي الملكية المشروعة نفسها حق الحماية والحصانة، إذا حصَّنت هي نفسها، فرعت شروط «الاستخلاف» في «مال الله» الذي آتاها، وفقًا للنظرية الإسلامية في حقيقة تملك الفرد للمال، فإذا أخلَّ صاحب المال بشروط الخلافة أو الوكالة الممنوحة له من الله في المال، فإنَّ ماله يفقد عنصر الحصانة، ويستحق من العقوبة ما هو أهل له.

وأول شروط الاستخلاف: أن يؤدي الحقوق الواجبة عليه في ماله ـ أو في مال الله عنده ـ إن أردنا دقة التعبيـــر. وأول هذه الحقوق: الزكاة، فهي الحق المعلوم الثابت، الدوري الـــلازم في كل الظروف والأحوال. فمن أداها ـ في الظروف العادية ـ فقد حصَّن ماله، وأذهب عنه الشر، كما روي في بعض الأحاديث: «**إذ أدَّيْتَ زكاةَ مالِكَ، فقد أذهبتَ عنه شرَّه**»[(١)].

ومن أصرَّ علـــى منعها، فقـــد دلَّ على أنَّه ليس أهلًا للاســـتخلاف، وبالتالي ليس أهلًا لحماية المِلْك، وعرَّض نفسه لعقوبة شرعية قد تصل إلى حد أخذ نصـــف ماله تعزيرًا وتأديبًا، كما فـــي حديث بهز بن حكيم مرفوعًا، الذي ذكر زكاة الإبل ثم قال: «**ومَن منعها فإنَّا آخذوها وشطر ماله** ـ أو وشطر إبله ـ **عزمة من عزمات ربنا، لا يحل لآل محمد منها شيء**»[(٢)].

---

(١) رواه ابن خزيمة (٢٢٥٨)، والحاكم (٣٩٠/١)، وصححه على شرط مسلم، قال الحافظ في فتح الباري (٢٧٢/٣): رجح أبو زرعة والبيهقي وغيرهما وقفه، عن جابر مرفوعًا.

(٢) رواه أحمد (٢٠٠١٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده حســـن. وأبو داود (١٥٧٥)، والنسائي (٢٤٤٤)، وابن خزيمة (٢٢٦٦)، ثلاثتهم في الزكاة، وحسَّـــن إســـناده الألباني فـــي صحيح أبي داود (١٤٠٧)، عن معاوية بن حيدة. وانظر: موقف الفقهاء من هذا الحديث ورأينا فيه في كتابنا: فقه الزكاة (٩٤/١)، (٨٢٨/٢ ـ ٨٣١).

QaradawiBooks.com

هذا هو وضع المِلْكية في الإسلام، فموقف الإسلام هو الموقف الوَسَط العدل، بين الذين يقدسون المِلْكية مهما كان أصلها، ومهما كان تصرف أصحابها، وبين الذين يدعون إلى هدم المِلْكيات كلها، دون تفريق ولا تمييز.

تقرير المِلْكية الجماعية في الأشياء الضرورية للناس:

ومن أهم ما جاء به الإسلام هنا: تقريره لنظام المِلْكية الجماعية في الأشياء الضرورية لجميع الناس.

ومن هنا أخرج الإسلام من نطاق المِلْكية الخاصة: الأشياء التي لا يتوقف وجودها ولا الانتفاع بها على مجهود خاص، ويكون جماهير الناس محتاجين إليها، فجعل ملكيتها ملكية جماعية عامة، حتى لا يستبد بها فرد أو أفراد، فيضار المجتمع من جراء ذلك. وقد عدَّ الرسول ﷺ من هذا النوع أربعة أشياء هي: الماء والكلأ والنار والملح؛ فقال: «**المسلمون شركاء في ثلاثة: في الكلأ والماء والنار**»[١]، وروى أبو داود أنَّ رجلًا سأل النبي ﷺ، فقال: يا نبي الله، ما الشيء الذي لا يحل منعه؟ فقال: «**الماء**»، قال: يا نبي الله، ما الشيء الذي لا يحل منعه؟ قال: «**الملح**»[٢].

والمراد بالكلأ ـ كما قال الإمام الخطابي ـ: ما ينبت في موات الأرض يرعاه الناس، ليس لأحد أن يختص به دون أحد، ويحجزه عن

(١) رواه ابن ماجه في الرهون (٢٤٧٣)، وقال ابن الملقن في البدر المنير (٧٦/٧): إسناده على شرط الشيخين. وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٨٠/٣ ـ ٨١): إسناده صحيح. وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٠٠٥)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (١٥٩٤٥)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الزكاة (١٦٦٩)، وضعفه الألباني في مشكاة المصابيح (١٩١٥)، عن بهيسة عن أبيها.

QaradawiBooks.com

غيــره، وكان أهل الجاهلية إذا غزا الرجل منهــم حمى بقعة من الأرض لماشيته ترعاها، يذود الناس عنها، فأبطل النبي ﷺ ذلك، وجعل الناس فيها شَرَعًا «سواء» يتعاورونه بينهم. فأما الكلأ إذا نبت في أرض مملوكة لمالك بعينه، فهو مال له، ليس لأحد أن يشركه فيه إلا بإذنه[١].

والمراد بالمــاء: ماء الأنهــار والعيون العامة، التــي لا تظهر بجهد خاص، وليست محوزة في صهريج أو بركة أو جب أو نحوها.

والمراد بالنار: ما ذهب إليه بعض العلمــاء: أنَّه الحجارة التي تُورِي النار، يقول: لا يمنع أحد أن يأخذ منها حجرًا يقتدح به النار.

فأما النار التي يوقدها الإنسان ـ فله أن يمنع غيره من أخذها، وقال بعضهم: ليس لــه أن يمنع من يريد أن يأخذ منهــا حزمة من الحطب الذي قد احترق فصار جمرًا، وليس له أن يمنع من أراد أن يســتصبح منها مصباحًا، أو أدنى منها ضِغثًا يشــتعل بها؛ لأنَّ ذلك لا ينقص من عينها شيئًا[٢].

وقال بعــض العلماء: المــراد بالنار: مــواد الوقود التــي لا يتوقف وجودها ولا الانتفاع بها على مجهود خاص، كالحطب في الغابات وبين الأشجار البرية غير المملوكة والذي تلقيه الريح في فلاة ونحوها.

والمــراد بالملح: النوع الــذي يظهر وحده في الجبــال والصحارى ونحوها، ويمكن الحصول عليه بدون جهد ومشــقة ولا معالجة خاصة، وليس منه الملح الذي يُستخرج من الملاحات بمعالجات خاصة.

---

(١) انظر: معالم السنن للخطابي (١٢٩/٣)، نشر المطبعة العلمية، حلب، ط١، ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م.

(٢) المرجع السابق.

QaradawiBooks.com

وإنَّما خصَّت الأحاديث هذه الأشياء الأربعة؛ لأنَّها كانت من ضروريات الحياة الاجتماعية في البيئة العربية في عهد النبوة، والضروريات في حياة الجماعة تختلف باختلاف البيئات والعصور، والقياس ـ وهو أحد الأصول المهمة، والأدلة المعتبرة في التشريع الإسلامي ـ ينفسح لسواها عند التطبيق مما تتوافر فيه صفته.

ولهذا قاس الفقهاء على هذه الأشياء الأربعة المنصوص عليها: كل المعادن الظاهرة مما يتوافر فيه أمران: ضرورة الناس إليه، وسهولة الحصول عليه، أي لا يحتاج إلى جهد ومعاناة في تحصيله.

ومما يؤيد ذلك ما رواه أبو عبيد وغيره عن أبيض بن حَمَّال: أنَّه استقطع رسول الله ﷺ الملح الذي بمأرب (أي: طلب منه أن يقطعه له) فقطعه له، فلما ولّى، قيل: يا رسول الله، أتدري ما قطعتَ له؟ إنَّما أقطعته الماء العِدَّ، فرجعه منه[١].

والماء العِدّ: الدائم الذي لا ينقطع. شبه الملح بالماء العِدّ، لعدم انقطاعه، وحصوله بغير كد ولا عناء.

وفسَّر أبو عبيد إقطاعه الملح لأبيض ثم ارتجاعه منه بقوله: إنَّما أقطعه وهو عنده أرض موات، يحييها أبيض ويعمرها، فلما تبين للنبي ﷺ أنَّه ماء عِدّ ـ وهو الذي له مادة لا تنقطع، مثل: ماء العيون والآبار ـ ارتجعه منه؛ لأنَّ سُنَّة رسول الله في الكلأ والنار والماء: أنَّ الناس جميعًا فيه شركاء، فكره أن يجعله لرجل يحوزه دون الناس[٢].

(١) رواه أبو داود في الخراج والإمارة (٣٠٦٤)، والترمذي في الأحكام (١٣٨٠)، واستغربه، وابن ماجه في الرهون (٢٤٧٥)، وأبو عبيد في الأموال (٦٨٥)، عن أبيض بن حمال.

(٢) الأموال صـ ٣٥٧، تحقيق محمد خليل هراس، نشر دار الفكر، بيروت.

QaradawiBooks.com

وذكر الإمام الخطابي أنَّ المعدن الظاهر الموجود خيره ونفعه لا يقطعه أحد. قال: وفيه من الفقه أنَّ الإمام إذا تبين الخطأ في حكمه نقضه، وصار إلى ما تبين من الصواب في الحكم الثاني[١].

وقال العلامة السندي في شرح الحديث عند ابن ماجه: أعطاه الملح أولًا، ظنًّا منه أنَّه معدن يحصل منه الملح بعمل وكد، فلما ظهر خلافه رجع... وفيه دليل على أنَّ المعادن إذا كانت ظاهرة يحصل المقصود منها من غير تعب وكد لا يجوز إقطاعها، بل الناس فيها سواء كالمياه والكلأ[٢].

وكما لا يجوز إقطاع المعادن الظاهرة التي هي بمنزلة الماء العِدّ، لا يجوز أيضًا أن تُملَّك بالإحياء، وهذا متفق عليه بالنسبة للمعادن الظاهرة.

قال ابن قدامة في «المغني»: «وجملة ذلك: أنَّ المعادن الظاهرة ـ وهي التي يوصل إلى ما فيها من غير مؤنة ـ ينتابها الناس وينتفعون بها، كالملح، والماء، والكبريت، والقير (أي: الزفت)، والمومياء[٣]، والنفط، والكحل، والبرام[٤]، والياقوت، ومقاطع الطين، وأشباه ذلك، لا تُملَّك بالإحياء، ولا يجوز إقطاعها لأحد من الناس، ولا احتجازها دون المسلمين؛ لأنَّ فيه ضررًا بالمسلمين، وتضييقًا عليهم، ولأن النبي ﷺ أقطع أبيض بن حَمَّال معدن الملح، فلما قيل له: إنَّه بمنزلة الماء العِدِّ رَدَّه، كذا قال أحمد. وروى أبو عبيد، وأبو داود، والترمذي، بإسنادهم،

(١) انظر: معالم السنن للخطابي (٣/٤٣).

(٢) انظر: حقوق الإنسان في الإسلام للدكتور علي عبد الواحد وافي صـ٦١، نشر نهضة مصر، ط٥.

(٣) المومياء: مادة تجمد فتصير قارًا تفوح منه رائحة الزفت المخلوط بالماء، تلطخ به أجساد الموتى حتى تحفظ ولا تتغير. انظر: الجامع لمفردات الأدوية (٤/٦٩).

(٤) البرام: القدور من الحجارة.

QaradawiBooks.com

عن أبيض بن حَمَّال، أنَّه استقطع رسول الله ﷺ الملح الذي بمأرب، فلما ولّى، قيل: يا رسول الله، أتدري ما أقطعتَ له؟ إنَّما أقطعت له الماء العِدّ، فرجعه منه، قال: قلت: يا رسول الله، ما يُحمَى من الأراك؟ قال: «**ما لم تنله أخفاف الإبل**»، وهو حديث غريب. وروي في لفظ عنه، أنَّه قال: «**لا حِمَى في الأراك**». ورواه سعيد، فقال: حدثني إسماعيل بن عَياش، عن عمرو بن قيس المأربي، عن أبيه، عن أبيض بن حَمَّال المأربي قال: استقطعتُ رسول الله ﷺ معدن الملح بمأرب، فأقطعنيه، فقيل: يا رسول الله، إنَّه بمنزلة الماء العِدّ، يعني أنَّه لا ينقطع، فقال رسول الله ﷺ: «**فلا إذن**»، ولأنَّ هذا تتعلق به مصالح المسلمين العامة، فلم يجز إحياؤه، ولا إقطاعه، كمشارع الماء، وطرقات المسلمين».

وقال ابن عقيل: «هذا من مواد الله الكريم، وفيض جوده الذي لا غناء عنه، فلو مَلَكه أحد بالاحتجاز، ملك منعه، فضاق على الناس، فإنَّ أخذ العِوَض عنه أغلاه، فخرج عن الموضع الذي وضعه الله، من تعميم ذوي الحوائج من غير كُلْفَةٍ. وهذا مذهب الشافعي، ولا أعلم فيه مخالفًا».

قال ابن قدامة: «فأما المعادن الباطنة، وهي التي لا يوصل إليها إلا بالعمل والمؤنة، كمعادن الذهب، والفضة، والحديد، والنحاس، والرصاص، والبلُّور، والفيروزج، فإذا كانت ظاهرة، لم تُمْلَك أيضًا بالإحياء، لما ذكرنا في التي قبلها، وإن لم تكن ظاهرة، فحفرها إنسان وأظهرها، لم يملكها بذلك، في ظاهر المذهب، وظاهر مذهب الشافعي، ويحتمل أن يملكها بذلك. وهو قول للشافعي؛ لأنَّه موات لا ينتفع به إلا بالعمل والمؤنة، فَمُلِكَ بالإحياء، كالأرض، ولأنَّه بإظهاره تهيأ للانتفاع به، من غير حاجة إلى تكرار ذلك العمل، فأشبه الأرض إذا جاءها بماء أو حاطها. ووجه الأول، أنَّ الإحياء الذي يملك به، هو العمارة التي تهيأ

QaradawiBooks.com

بها المحيي للانتفاع من غير تكرار عمل، وهذا حفر وتخريب، يحتاج إلى تكرار عند كل انتفاع»[١].

واختلف الفقهاء أيضًا فيما إذا ظهر المعدن في أرض مملوكة، هل يملكه صاحبها؟ أو لا؟

والرأي الذي نرجحه هنا: ما عُرِف في مذهب مالك: أنَّ ما يخرج من باطن الأرض من فلزّات أو سوائل يكون ملكًا لبيت مال المسلمين، أي: للدولة؛ لأنَّ مصلحة الأمة أن تكون هذه الأموال لمجموعها لا لآحادها؛ لأنَّ هذه المعادن قد يجدها شرار الناس، فإن تُرِكَتْ لهم أفسدوا، وقد يؤدي التزاحم عليها إلى التقاتل وسفك الدماء، فَجُعِلَتْ تحت سلطان ولي الأمر النائب عن المسلمين، ينفق غلاتها في مصالحهم[٢].

وعلى هذا، لو عثر فرد أو مجموعة أفراد ـ شركة أو هيئة ـ على شيء من هذه المعادن من حديد أو بترول، أو نحاس أو نحوها، لا يتملكونه، ويكون مِلْكًا للجماعة كلها، أي: للدولة؛ لأنَّ مالك الأرض إنَّما يملك ما تُستعمل فيه عادة من الزرع والبناء، وليس استخراج المعادن من الانتفاع المعتاد فيها، ولأنَّ المعادن وديعة الله في الأرض، فتكون لكل خلقه، لا يختص بها إنسان دون آخر، ولأنَّها من الأمور ذات النفع العام، فهي تشبه الأمور التي ذكر الرسول ﷺ أنَّه لا يصح أن يستأثر أحد بملكيتها، ولأنَّها لا توجد إلا في مواطن خاصة، فلو أجيز تملكها تملكًا فرديًّا، لنال الناس من وراء ذلك ضرر كبير[٣].

---

(١) المغني لابن قدامة (٤٢٢/٥، ٤٢٣)، نشر مكتبة القاهرة، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

(٢) محاضرة الأساتذة عبد الوهَّاب خلاف ومحمد أبو زهرة وعبد الرحمن حسن، في حلقة الدراسات الاجتماعية عن الزكاة والوقف ونفقات الأقارب ـ الدورة الثالثة صـ ٢٥٠.

(٣) حقوق الإنسان في الإسلام الدكتور علي عبد الواحد وافي صـ ٦٢.

QaradawiBooks.com

وهذا الرأي يتفق مع روح الشريعة الإسلامية في الموازنة بين حقوق الأفراد ومصالح الجماعة.

كما يدخل في نطاق الملكيــة الجماعية ممتلكات الأوقاف الخيرية، الزراعية والعقارية، التي تميز بها المسلمون منذ عصر النبوة والصحابة، وسائر عصور الحضارة الإسلامية، من مساجد للعبادة، ومدارس للتعليم، ومستشفيات للعلاج، ودور للأيتام، وسُبُل لأبناء السبيل، وربط للصوفية، ومحلات ودكاكين وأرض زراعية للإنفاق على هذه الأمور ونحوها.

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفِ القَرَضَاوِي

القيم والأخلاق في مجال الإنتاج

- تنبيه القرآن على الثروات الطبيعية.
- العمل وإحسانه أعظم أركان الإنتاج.
- الإنتاج في دائرة الحلال.
- المحافظة على الموارد فريضة.
- هدف الإنتاج:
  - تمام الكفاية للفرد.
  - تحقيق الاكتفاء الذاتي للأمة.
  - كيف نحقق الكفاية للفرد والأمة.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

القيم والأخلاق في مجال الإنتاج

بعض الذين كتبوا في النظام الاقتصادي في الإسلام قالوا: إنَّ النظام الإسلامي ينصب اهتمامه على توزيع الأموال، وليس على إنتاجها، فالاقتصاد الإسلامي يُركِّز على التوزيع العادل للثروة، وليس له علاقة تُذكر بالإنتاج.

وهذا الكلام يحتاج إلى تحرير وبيان.

فإن كان المقصود بالإنتاج ما يتعلق بالوسائل والآلات والكيفيات، فهذا الكلام على عمومه مقبول.

أما إذا تعلَّق بالأهداف والقيم والضوابط المتعلقة بالإنتاج، فلا شك أنَّ هذا المفهوم مرفوض.

ولا بدَّ من إلقاء الضوء على هذه القضية حتى تتضح معالمها.

ترحيب الاقتصاد الإسلامي بكل ما يُيسر حياة الإنسان:

هناك في دراسة الاقتصاد ما يسميه بعض الاقتصاديين: «مادة النظام الاقتصادي»، ومادة كل نظام اقتصادي يُقصد بها وسائله الفنية والآلية التي يستخدمها في الإنتاج والنقل والمبادلة ونحوها.

QaradawiBooks.com

فقد كانت الوسائل والآلات التي يستخدمها بعض الأنظمة القديمة بدائية بسيطة، وكانت حريصة على أن تبقى كما هي، وتخشى كل تغير يطرأ عليها، فإنَّ التغيير في نظرها شر يجب تجنبه وتلافيه.

فلما جاء عصر النهضة في أوربا، تلاقت الكشوف العلمية الحديثة، مع المغامرات الفردية الطامحة، فكانت الثورة الصناعية، وكان استخدام الآلات الجبارة التي أصبحت الواحدة منها تقوم بعمل المئات بل الألوف من بني الإنسان، فآلة الخياطة مثلًا تصنع في الدقيقة سبعمائة غرزة، بينما اليد ثلاثًا وعشرين، والمنسج الحديث يقوم في اليوم بعمل (٢٠٠٠) ألفي نسَّاج، ويستطيع عامل واحد أن يراقب عشرين منسجًا، والآلة الطابعة تقوم بعمل مليون ناسخ. وهذه أرقام تُعَد الآن قديمة وما تزال الآلات تتطور وترتقي يومًا بعد يوم.

ترتب على هذه الآلات قيام المصانع الكبيرة واستخدام العمال لإدارتها والقيام عليها.

وأصبحت الأنظمة المعاصرة كلها تؤمن باستخدام هذه الوسائل والآلات الحديثة، وتتنافس في تحسينها وترقيتها وخفض تكاليفها، وتتسابق في ذلك تسابقًا جبارًا، وتُجَنِّد لذلك علماءها ومخترعيها، لا فرق في ذلك بين الأنظمة الفردية والأنظمة الجماعية.

وهذا العنصر من النظام الاقتصادي لا يتدخل الإسلام فيه، بل يدعه للناس ينظمونه وفقًا لمواهبهم وعلومهم. وحسب إمكانات عصرهم وبيئتهم؛ لأنَّه من الشؤون الفنية المتطورة المتغيرة، وفي مثل هذا ورد الحديث النبوي: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**».

ذلك أنَّ الدين إنَّما يهتم بالمقاصد أكثر مما يهتم بالوسائل، فهو يدعو

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

إلى الجهاد مثلًا، ولكنَّه لا يحدد وسائل الجهاد: أهي السيف أم المدفع أم المنجنيق أم الصاروخ... ويحث على التداوي ولكنَّه لا يحدد أدواته وكيفيته... ويحث على الزراعة، ولكنَّه لا يُقحم نفسه بتحديد وسائل الزراعة وآلاتها، فهذا من صنع العقل البشري، ومن دائرة اختصاصه.

إنَّ الدين لا يهمه أن تُحرَث الأرض بمحراث يجره ثوران، أو بمحراث آلي يُدار بالبخار أو بالكهرباء، ولا يهمه أن يُنسج الثوب على منوال يدوي أو آخر ميكانيكي.

كل ما يهمه هو تحقيق المصلحة للإنسان، ودرء الضرر عنه، وتيسير الحياة عليه، فإذا كان استعمال جهاز أو آلة يحقق نفعًا أكثر للناس، لتحسين وسائل الإنتاج التي يترتب عليها تقليل ساعات العمل على العامل، وبذله جهدًا أقل، ولتخفيض نفقات الإنتاج، مما يؤدي إلى بيع السلعة بثمن أقل، ويجعلها في متناول عدد أكبر من المستهلكين، فهذا مما يرحب به الدين ويباركه، ما دامت السلعة نفسها تقدِّم نفعًا للإنسان، وليست ضارة ولا محرَّمة.

نعم... قد يلحق بعض الناس ضرر من هذا التغير، كأن يتعطل عدد من العمال، نتيجة لاستخدام الآلات الحديثة، أو يتضرر أصحاب الآلات الصغيرة أو القديمة، نتيجة لاستخدام غيرهم آلات أضخم أو أحدث، ولكن ضرر الأُمَّة في مجموعها يكون أكبر وأعظم لو بقي كل قديم على قِدَمه، وقد قال الفقهاء: يُتحمل الضرر الأدنى لدفع ضرر أعلى، ويُتحمل الضرر الخاص لدفع ضرر عام[1].

(١) انظر: الأشباه والنظائر لابن نجيم صـ ٧٤ ـ ٧٦، نشر دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

QaradawiBooks.com

على أنَّ الدولة المسلمة عليها أن تتدخل لترفع الضرر عمن أصابه، أو تعوِّضه بقدر الإمكان تبعًا لقاعدة «الضرر يُزال»[١].

ومن هنا يتبين لنا أنَّ الدين لا يعنيه من هذا الجانب الفني الآلي، إلا ما يولده من آثار في العلاقات الإنسانية.

وإذا كان بعض الناس يظنون الأديان عامة تغفل عن التقدم العلمي المادي، والتطور الآلي، والرُّقي الصناعي، فإنَّ الإسلام يرحب بالتقدم في هذا الجانب كل الترحيب، ويفسح المجال لاستخدام العلم القائم على الملاحظة والتجربة والإحصاء، بل يبارك هذا الاتجاه ويؤيده. وقد ثبت أنَّ النبي ﷺ أحصى النفوس في عهده، وكذلك فعل عمر رضي الله عنه حين رتَّب الناس في الديوان، وفرض لهم الرواتب والأعطيات حسب بلاء كل منهم وغنائه وسابقته في الإسلام، وحاجته وحاجة أسرته، وبلغ من شغفه بالأساليب العملية أن قام بتجربة تطبيقية لمعرفة متوسط ما يكفي كل فرد من القوت والإدام، فحددها بمقدار من القمح ومقدار من الزيت معلوم.

فليس في الإسلام ما في التوراة من التطير والتشاؤم من الإحصاء، وعَدُّه نقمة وبلاء. وليس في الإسلام ما في النِّحَل الأخرى من ترك الأمور تجري في أعنتها، اتكالًا على الحظ أو البخت، أو احتجاجًا بالقضاء والقَدَر، أو ادعاء للتوكل على الله، فإنَّ الإسلام ينكر ذلك كله، ويأمر بالسعي والعمل، وأخذ الحذر، واتخاذ الأسباب، فإنَّها من قدر الله، ولا تنافي التوكل على الله، وشعاره في كل ذلك: «**اعقلها وتوكَّل**»[٢].

---

(١) ذكر الفقهاء في قواعدهم: أنَّ الضرر يزال بقدر الإمكان، وأنَّ الضرر لا يزال بضرر مثله أو أكبر منه، إلخ. انظر: الأشباه والنظائر المذكور، القاعدة الخامسة (صـ ٨٥ ـ ٩٢).

(٢) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٧)، وقال: حديث غريب. وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣٩٠/٨)، وحسنه الألباني في تخريج مشكلة الفقر (٢٢)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

تنبيه القرآن على الثروات الطبيعية

يُعرِّف علماء الاقتصاد الإنتاج بأنَّه: خلق الثروة عن طريق استغلال الإنسان لموارد البيئة، فما هي تلك الموارد؟ هناك الموارد الطبيعية، وهي هبات الله في الطبيعة التي يمكن أن تتحول إلى ثروة: هي الغلاف الغازي بعناصره المختلفة، وهي الغلاف اليابس في صورة التُّربة وفي صخور الأرض ومعادنها، وهي الغلاف المائي، وهي الغطاء النباتي الطبيعي في صوره المختلفة، وبمعنى آخر: هي الموارد الزراعية ـ المناخ والتربة ـ وهي الموارد النباتية في صورة الغابات والحشائش، وهي الموارد البحرية سواء أكانت في مناطق الرصيف القاري أو في الأعماق المحيطة، وهي في النهاية: الموارد التعدينية في صخور الأرض ومعادنها المختلفة، ولعل هناك موارد أخرى لم نستطع تحويلها إلى ثروة حتى الآن، كالموارد الشمسية أو الجاذبية مثلًا[١].

هذا ما يقرِّره الاقتصاديون، فإذا تأمَّلنا في القرآن الكريم وجدناه يدفعنا دفعًا إلى استغلال هذه الموارد. إنَّه يُنبِّه عقولنا، ويَلفت أنظارنا بقوةٍ إلى هذا الكون المحيط بنا بمائه وهوائه وبحاره وأنهاره، ونباته وحيوانه وجماده، وشمسه وقمره، وليله ونهاره، كل ذلك مُسخَّر لمنفعة

(١) قواعد الجغرافية الاقتصادية للدكتور نصر السيد نصر صـ ٢٦، ط ٢.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الإنسان، تكريمًا من الله له ونعمةً عليه، فعليه أن ينتفع بما سخَّر الله له إن كان من أهل التفكـــر والعلم، نقرأ في ذلك قولـــه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۞ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۞ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤]، ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠]، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٣].

الثروة الحيوانية:

نبَّهَ القرآن على الثروات الطبيعية ـ في مختلف صورها ـ في كثير من آياته وسوره.

ففي سورة كســـورة النحل تنبيه على الثروة الحيوانية وما ينتج عنها من لحوم وألبان وجلود وأصواف وغيرها، فقال تعالى: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [النحل: ٥]، ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [النحل: ٦٦]، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [النحل: ٨٠].

الثروة النباتية:

وفي السورة نفسها تنبيه على الثروة النباتية بقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۞ يُنۢبِتُ لَكُم

QaradawiBooks.com

بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٠، ١١].

وفي صناعة المِرَبَّات وما يتصل بها بقوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ٦٧].

وفي أهمية النحل وما ينتج عنه يقول: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۞ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩].

الثروة البحرية:

وفي السورة نفسها لفت إلى الثروة البحرية وإمكان استغلالها في صيد الأسماك واللآلئ والانتفاع بها في التجارة المحلية والدولية، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٤].

الثروة المعدنية:

ومن أبرز ما ورد في القرآن من التنبيه على الثروة المعدنية قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وفي الآية دلالة على أهمية هذا المعدن (الحديد) الخطيرة في حياة البشر في الناحيتين: العسكرية والمدنية.

وممَّا له مغزى عميق أن تسمى السورة التي ذُكِرت فيها هذه الآية سورة «الحديد».

غير مرخصة للطباعة
نسخة من
QaradawiBooks.com

كما ذكر القرآن «القِطْر» في قصة السد العظيم الذي بناه ذو القرنين: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۝ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٦، ٩٧].

وفي معرض الامتنان على سليمان وما سخَّر الله له من طاقات كونية، قال تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ [سبأ: ١٢].

الشمس والقمر:

وأكثر من ذلك كله تصريح القرآن في غير سورة: أنَّه سخَّر للإنسان الشمس والقمر، وهذا التسخير يمدُّ حبل الأمل للإنسان، ويشبع من طموحه في السيطرة على الفضاء، وتسخيره بأمر الله والانتفاع بالطاقة الشمسية، والوصول إلى القمر بل الشمس وتسخيرهما لمنفعة الإنسان، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٣٣]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢].

الانتفاع بهذه الثروات موقوف على العلم والعمل:

وقد بيَّن القرآن أنَّ الانتفاع بهذه الثروات المذخورة والمنشورة يتوقف على أمرين:

الأول: العلم القائم على التفكر واستخدام العقل الذي ميَّز الله به الإنسان، ونعني بالعلم التخصصي في شتى شؤون المعرفة ومجالات الحياة. ولعل أوضح آية في ذلك قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [فاطر: ٢٧]، ولعلَّ في ذلك إشارة إلى العلوم الفلكية

QaradawiBooks.com

وصلة السماء بالأرض ثم قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧]، إشارةً إلى علم النبات وما يتعلق به، ثم قال: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧]، وفي ذلك إشارة إلى علم الجيولوجيا، أو علم الأرض، وما يتصل به، ثم قال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ [فاطر: ٢٨]، وفيه الإشارة إلى علم البيولوجيا والحيوان بأقسامه من إنسان وحيوان وحشرات، ثم يختم الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، والأقرب لتركيب الآية أنَّ المراد بالعلماء هنا هم العلماء بالكون وآياته ودقائقه وأسراره، لا علماء الدين فحسب، كما هو المدلول العُرْفي للكلمة عند جمهور المسلمين. وفي مثل هذا جاء قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]، فالعالمون هم العلماء بالكون والإنسان.

وليس المراد من العلم حشد الذاكرة ببعض النظريات والمعلومات، ولكنَّه الفهم والهضم والتمثُّل الواعي؛ ولهذا يذكر القرآن العقل والتفكر في معرض الامتنان بهذه النعم والثروات: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]، ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

وفقهاء المسلمين يقرِّرون أنَّ كل علم تحتاج إليه الأمة في دينها أو دنياها، فإنَّ تعلمه وإتقانه فرض كفاية، بحيث إذا قام به عدد يكفي حاجاتها، ويسد ثغراتها، فقد أدَّت ما عليها، وسقط الإثم عن الجميع، وإن لم يقم أحد، إذ لم يقم عدد يكفي، فإنَّ الأمة جميعها تبوء بالإثم، وإن تفاوت نصيب كل منها، فنصيب أُولي الأمر من الإثم أكبر من نصيب العامة، ونصيب أهل العلم أكبر من الأميين... وهكذا.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

العمل واجب وحق:

والأمر الثاني هو: العمل.

فالعلم لا يؤتي أُكله ما لم يتبعه عمل، بل عمل دائب متواصل في مناكب الأرض لاستخراج خباياها، والانتفاع بثرواتها، والأكل من رزق الله فيها. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

والله تعالى منذ خلق الأرض: ﴿وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت: ١٠]، ووضع فيها كل ما يفتقر إليه الإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]، فلن تضيق الأرض بسكانها، وقد تكفل الخالق برزقهم فيها، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، غير أنَّ هذا الرزق مرهون بالسعي والعمل كما ذكرت الآيات، فمن مشى في مناكب الأرض، وانتشر فيها، وابتغى من فضل الله، كان جديرًا أن يأكل من رزق الله، ومَن قعد عن العمل والسعي ـ فردًا كان أو أمة ـ كان حريًّا أن يصيبه الحرمان، وليس في سنة الله أن يستوي القاعد والعامل، وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]، ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٦]. وسُنَّة الله في الدنيا والآخرة واحدة.

ومن هنا يجب أن نعلم أنَّ العمل في الإسلام واجب على كل قادر ـ كما أنَّه حقٌّ له ـ فلا يحل لمسلم أن يقعد عن العمل والكسب باسم التفرغ للعبادة، والتوكل على الله؛ فإنَّ السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، كما

QaradawiBooks.com

لا يحل له أن يعتمد على إعانة يُمنَحها، وهو قوي قادر على الاكتساب، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «**لا تحل الصدقة لغَنِيٍّ، ولا لذي مِرَّة** (قوة) **سَوِيٍّ**»[١].

إنَّ الإسلام ليقدس العمل الدنيوي ويعتبره حينًا ضربًا من العبادة، وتارة جهادًا في سبيل الله، إذا اقترنت به النية الصالحة، وصَحِبه الإخلاص والإتقان.

وينفي النبي ﷺ فكرة احتقار بعض الناس لبعض المهن والأعمال، ويُعلِّم أصحابه أنَّ الكرامة كل الكرامة في العمل ـ أي: عمل ـ وأنَّ الهوان والضعة في الاعتماد على معونة الناس. يقول: «**لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي الجبل فيأتي بحزمة الحطب على ظهره، فيبيعها، فيكف الله بها وجهه، خيرٌ له من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه**»[٢].

* * *

(١) رواه أحمد (٦٥٣٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده قوي. وأبو داود (١٦٣٤)، والترمذي (٦٥٢)، وقال: حسن. كلاهما في الزكاة، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٤٤)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٧٠)، ومسلم (١٠٤٢)، كلاهما في الزكاة، عن أبي هريرة.

غير مرخصة للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

العمل وإحسانه أعظم أركان الإنتاج

من المعلوم لدارس الاقتصاد الوضعي أنَّ الإنتاج تساهم فيه ثلاثة أو أربعة عناصر، كل واحد منها له نصيب، يقل أو يكثر، من العملية الإنتاجية، وهي: الأرض (أو الطبيعة)، ورأس المال، والعمل، وبعضهم أضاف: التنظيم.

وقد اختلف الباحثون في الاقتصاد الإسلامي فيما يقره الإسلام من هذه العناصر ويعتبره، وما يلغيه منها ويهمله، بناءً على نظرات واعتبارات مختلفة من هؤلاء الباحثين المخلصين.

والذي أراه ـ بعيدًا عن تقسيمات الاقتصاد الرأسمالي وتعريفاته ـ أن هذه العناصر كلها لها دورها في عملية الإنتاج.

ولكن العنصرين الأساسيين هما: الأرض، والعمل.

ونعني بالأرض: الموارد الطبيعية، التي خلقها الله لمنفعة الإنسان، وسخَّرها لتحقيق أهدافه، وزوَّده بكل ما يعينه على استخدامها.

ونعني بالعمل: كل مجهود واعٍ يبذله الإنسان، بدنيًّا أو عقليًّا، لاستغلال هذه الموارد لمنفعته، سواء أكان العامل يعمل لنفسه أم يعمل لغيره بأجر، أيًّا كان هذا الغير، فردًا أو مؤسسة أو حكومة، وسواء أكان يعمل منفردًا أم يعمل شريكًا لغيره، شريكًا بماله أو شريكًا بجهده وخبرته.

QaradawiBooks.com

وسواء أكان عمله في مجال الزراعة أم الصناعة أم التجارة، أو غيرها من الحِرَف، عالية أم دانية، يسيرة أم شاقة، تدر الوفير من الدخل، أم لا تدر إلا القليل، أو الأقل من القليل.

فالإنتاج إنَّما هو مولود نشأ من تزاوج بين الإنسان والأرض؛ لهذا قرن الله بينهما منذ قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣٩]، ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

فالأرض هي المسرح والمجال، والإنسان هو العامل الكادح.

وما يذكره الاقتصاديون عن رأس المال والتنظيم لا يخرج عن العمل.

فالتنظيم ما هو إلا عمل: تخطيطي وإداري وإشرافي.

ورأس المال من الآلات والمباني إنَّما هو نتيجة العمل، فهو عمل مختزن.

ولهذا نقول: إنَّ العنصر الأهم، والركن الأعظم في الإنتاج هو العمل، فهو الذي يستغل الأرض وما فيها من خيرات ومنافع، حتى تنتج الطيبات.

الإنتاج منذ نزل آدم إلى الأرض:

والإنتاج ـ بهذا المعنى البسيط ـ ليس وليد العصر الرأسمالي، ولا ما قبله، بل قد صحب الإنسان منذ عمر الأرض؛ لأنَّه ضروري لعيشه، فآدم أبو البشر عليه السلام هو أول المنتجين.

ولشرح ذلك نقول:

خلق الله آدم أبا البشر بيديه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته تكريمًا له، وأسكنه وزوجه الجنة، وضمن لهما فيها حياة هانئة رخيَّة،

QaradawiBooks.com

ورزقًا دارًا مباركًا، يأكلان منها رغدًا حيث شاءا، بلا مشقَّة ولا معاناة ولا طلب، ونهاهما أَنْ يقربا شجرةً واحدةً من شجر الجنة، وحذَّرهما من وسوسة الشيطان وكيده: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ۝ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٧ ـ ١١٩].

فالطعام والشراب واللباس والمأوى مكفولة لآدم بلا تعب كما تشير الآية الكريمة، وهي الحاجات الأساسية للإنسان.

ووسوس الشيطان لآدم وزوجه، ودلَّاهما بغرور، ونجح في إغرائهما بالأكل من الشجرة الممنوعة، وعصى آدم ربه، فأهبطهما الله من الجنة إلى الأرض؛ ليكون لهما ولذُرِّيتهما فيها مستقر ومتاع إلى حين.

وكان في خروج آدم من الجنة، وهبوطه إلى الأرض: تحقيق لما علمه الله وأراده، من عمارة هذه الأرض، وقيام هذه الحياة الإنسانية على ظهرها، واستخلاف آدم وذُرِّيته فيها، ليبلوهم أيهم أحسن عملًا، وليُعدَّهم في هذه الدار الفانية للخلود في دار أخرى، هي دار البقاء.

وكان على آدم وذُرِّيته أن يشقوا ويكدحوا، في سبيل الحصول على حاجاتهم التي كانت ميسَّرة في الجنة بلا عناء ولا شقاء.

ذلك أنَّ الله خلق الإنسان على طبيعة لا ينفك معها محتاجًا إلى الطعام والشراب والكساء والمأوى والتكاثر، ولم يجعله مخلوقًا روحانيًّا كالملائكة، ولا جسدًا أصم فارغًا من دفع الغريزة: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨].

فلا عجب أن يحتاج الناس جميعًا ـ حتى الأنبياء منهم ـ إلى السعي

QaradawiBooks.com

لإشباع هذا الجانب: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗ﴾ [الرعد: ٣٨].

ولما خلق الله الإنسان على هذا النحو، وأنزله إلى الأرض، هيأ له من الأسباب ما يحفظ عليه كيانه، ويحقِّق له رغائبه، وزوَّده بالمواهب والقُوَى والآلات التي تلزمه في استخراج حاجاته من هذه الأرض التي استخلفه الله عليها، واستعمره فيها، فقد قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة: ٣٠].

ومن هذه المواهب والقُوَى: العلم الذي ميز الله به آدم على الملائكة حين علَّمه الأسماء كلها، وأعده بذلك للقيام بعمارة هذه الأرض، كما أراد الله له ولذُرِّيته من بعده: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

أما المواد اللازمة لإشباع حاجات الإنسان الاقتصادية، فقد يسَّر الله سبيلها، وجعل أسبابها موفورة في هذه الأرض، منها ما هو مذخور في باطنها، ومنها ما هو مبثوث فوقها، ومنها ما هو مسخَّر لها من عالَم الأفلاك: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

ومنذ خلق الله الأرض هيأها لتكون مهبط الإنسان ومستقره ومسكنه: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ﴾ [البقرة: ١٦٤]، ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾ [فصلت: ١٠]، ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]، ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾ [لقمان: ٢٠]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ۝ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٣، ٣٤].

QaradawiBooks.com

ضمان الرزق وطلب العمل:

وقد تكفَّل الله تعالى بالرزق لكل كائن حي يدب على وجه الأرض، فقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَا﴾ [هود: ٦].

وجعل الله تعالى الإنعام بالطيبات من مظاهر ربوبيته سبحانه فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤]، كما جعله من مظاهر تكريمه تعاله للإنسان فقال: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٠].

ولكن اقتضت سُنَّة الله تعالى وحكمته في خلقه ألا ينال رزقه المضمون إلا بسعي وعمل، ومشي في مناكب الأرض العريضة وابتغاء فضل الله فيها: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]... رتَّب الله الأكل من رزقه على المشي في أرضه، فمن مشى وسعى كان أهلًا لأن يأكل من رزق ربه، ومن تقاعد وتبطَّل كان جديرًا أن يحرم: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩].

العمل أو النشاط الاقتصادي عبادة وجهاد:

من أجل ذلك يحث الإسلام على الإنتاج وممارسة النشاط الاقتصادي بكل صوره، ومختلف طرقه، من زراعة ورعي وصيد وصناعة وتجارة واحتراف بشتى أنواع الحِرَف، وكل عمل يؤدي إلى إنتاج سلعة أو خدمة تنفع الناس أو تُجمِّل حياتهم، وتجعلها أكثر بهجة وجمالًا، بل يبارك الإسلام هذا العمل الدنيوي، ويُضفي عليه قدسية العبادة لله

QaradawiBooks.com

والجهاد في سبيله، إذا صحَّت فيه النية، والتُزِمت حدود الله، ولم يَشغَل عن ذكره تعالى ولقائه وحسابه؛ لأنَّ هذا النشاط والسعي هو الذي يُمكِّن المجتمع من أداء رسالته، وتبليغ دعوته، وحماية نفسه، ويعينه على تحقيق أهدافه الكبرى، كما أنَّه يُمكِّن الفرد من إعفاف نفسه، وإغناء أهله، والبر بأقاربه، ومعونة ذوي الحاجة من قومه، والإسهام في مصالح أمته، والإنفاق في سبيل دينه وإعلاء كلمته، وهذه كلها فضائل يزكيها الدين، ولا سبيل إليها إلا بالمال، ولا سبيل إلى المال إلا بالكسب والسعي، فلا عجب أن تجيء نصوص الدين داعية إلى هذا السعي، حتى إنَّها لتجعله صلاة أو صدقة أو جهادًا في سبيل الله.

وهذا ما فقهه سلف هذه الأمة وخير قرونها، فعمرت بهم الأرض، وازدهرت بهم الحياة، وقامت على أيديهم حضارة ربانية إنسانية، جمعت بين العلم والإيمان وربطت بين الدنيا والآخرة، ووفقت بين الرُّقي المادي والسمو الروحي والأخلاقي.

مرَّ عمر بقوم فقال: ما أنتم؟ قالوا: متوكلون، قال: بل أنتم متأكلون! إنَّما المتوكل من ألقى حبَّه في الأرض وتوكَّل على ربه[١].

وأخرج البيهقي عن ابن الزبير: أشر شيء في العالم البطالة[٢].

قال المناوي في شرح حديث: «**إنَّ الله تعالى يحب المؤمن المحترِف**»[٣]:

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٦٢/٢).

(٢) فيض القدير (٢٩٠/٢)، نشر المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، ١٣٥٦هـ.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٨٩٣٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١١٨١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٢٣١): رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه عاصم بن عبيد الله وهو ضعيف. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٧٠٤)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

إنَّ الإنسان إذا تعطَّل عن عمل، يشـــغل باطنه بمباحٍ يستعين به على دينه، كان ظاهـــره فارغًا، ولم يبـــق قلبه فارغًا، بل يعيش الشـــيطان فيه ويبيض ويفرخ، فيتوالد فيه نسله توالدًا أسرع من توالد كل حيوان.

قال: وفي الحديث ذم لمن يدَّعي التصوف، ويتعطل عن المكاسب، ولا يكون له علم يؤخذ عنه، ولا عمل في الدين يقتدى به، ومَن لم ينفع الناس بحرفة يعملها يأخذ منافعهم، ويضيق عليهم معايشـــهم، فلا فائدة في حياته لهم، إلا أن يكدر الماء، ويغلي الأسعار[١].

وكان بعض مشايخ الصوفية يقول: الصوفي الذي لا حِرْفة له كالبومة الســـاكنة في الخراب، ليس منها نفع لأحد! ولما ظهر المصطفى ﷺ لم يأمر أحدًا من أصحابه بترك الحِرْفة.

وقال الخوّاص: الكامل من يسلّك النَّاس وهم في حرفهم؛ لأنَّه ما ثَمَّ سبب مشروع إلا وهو مقرِّب إلى حضرة الله تعالى، وإنَّما يُبعد النَّاس من الحضرة الإلهية عدم إصلاح نيتهم في ذلك الأمر علمًا أو عملًا[٢].

إنَّ العمـــل الدنيوي ليس مهمًّا لمعيشـــة الإنســـان الفردية فقط، بل لمصلحة الجماعة كلها، وانتظام الحياة الإنســـانية، فلا ينبغي أن يعيش الإنسان في الدنيا آخذًا، دون أن يعطيها من نفسه وجهده شيئًا، وسيأتي مزيد بيان لذلك.

إنَّ المسلم مطالَب بعمله لمعاشه، كما أنَّه مطالَب بعمله لمعاده، وهو يسأل ربه أن يؤتيه حسنة الدنيا وحســـنة الآخرة، وعمله لمعاشه ضرورة دنيوية، كما أنَّه ـ من وجه آخر ـ عبادة دينية.

---

(١) هذه الفقرة نقلها العلامة المناوي بتصرف من كلام الإمـــام الراغب في كتابه: الذريعة إلى مكارم الشريعة. وسننقلها بعد ذلك بتمامها في (العمل للمجتمع).

(٢) فيض القدير للمناوي (٢/٢٩٠، ٢٩١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

العمل مطلوب لإغناء النفس:

إنَّ عمل المسلم مطلوب شرعًا، لأكثر من اعتبار، ولأكثر من سبب.

على المسلم أن يعمل لنفسه أولًا، ليقوتها، ويغنيها بالحلال، ويعف نفسه من ذلِّ السؤال، ويحفظ ماء وجهه فلا يُراق، ويُنزِّه يده أن تظل هي السفلى.

ولهذا حرَّم الإسلام السؤال من غير حاجة، وفي الحديث: «**إنَّ المسألة لا تصلح إلا لثلاثة: لذي فقر مُدقِع**[١]، **وذي غُرم مُفْظِع، وذي دمٍ مُوجِع**[٢]»[٣].

والغرم المفظع: الدَّيْن الثقيل، والدم الموجع: الدية المرهقة.

«**إنَّ المسألة** (أي: سؤال الناس) **كَدٌّ يكُدُّ بها الرجل وجهه، إلا أن يسأل الرجل سلطانًا، أو في أمر لا بد منه**»[٤]، فلم يجز إلا سؤال ولي الأمر المسؤول عن الناس، أو في الأمر الضروري الذي لا حيلة فيه.

«**لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى، وليس في وجهه مُزْعة لحم**»[٥] أي: قطعة لحم.

---

(١) والفقر المدقع: الشديد، وأصله من الدقعاء وهو التراب، ومعناه: الفقر الذي يفضي به إلى التراب، أي لا يكون عنده ما يتقي به التراب.

(٢) الدم الموجع: كناية عن الدية يتحملها، فترهقه وتوجعه، فتحل له المسألة فيها.

(٣) رواه أحمد (١٢١٣٤)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الزكاة (١٦٤١)، والترمذي في البيوع (١٢١٨)، وقال: حسن. وابن ماجه في التجارات (٢١٩٨)، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٢٩١)، عن أنس.

(٤) رواه أحمد (٢٠٢١٩)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود (١٦٣٩)، والترمذي (٦٨١)، وقال: حسن صحيح. والنسائي (٢٥٩٩)، ثلاثتهم في الزكاة، عن سمرة بن جندب.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٧٤)، ومسلم (١٠٤٠)، كلاهما في الزكاة، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

وهذا يدلنا على أنَّ الأصل في السؤال المنع والحُرْمة[١]، إلا ما لا بد منه، وأنَّ على المسلم أن يكفي نفسه بنفسه، عن طريق العمل والكسب الشريف، وإن كان شاقًّا، وقليل المدخول، لكنَّه خير من تكفف الناس.

وفي الحديث الصحيح: «**لأن يأخذ أحدكم أَحْبُله** (جمع حبل)، **ثم يأتي الجبل، فيأتي بحزمة من حطب على ظهره، فيبيعها، فيكف الله بها وجهه، خيرٌ له من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه**»[٢].

«**لأن يغدو أحدكم، فيحتطب على ظهره، فيتصدَّق منه، ويستغني به عن الناس، خيرٌ له من أن يسأل رجلًا، أعطاه أو منعه، ذلك بأنَّ اليد العليا أفضل من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول**»[٣].

العمل مطلوب للأسرة:

وأن يعمل لأسرته ثانيًا، وهذا يتناول الرجل والمرأة كل في دائرة ما يحسنه: «**فالرجل راعٍ في أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها، والعبد راعٍ في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته...**»[٤]، و«**كفى بالمرء إثمًا أن يُضيِّع مَن يقوت**»[٥]، و«**إنَّ الله سائلٌ كلَّ راعٍ عما استرعاه، حفظ أم ضيَّع**»[٦].

(١) انظر في هذا كتابنا: مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام صـ ٥٠ ـ ٥٣.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٧٠)، ومسلم (١٠٤٢)، كلاهما في الزكاة، عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم في الزكاة (١٠٤٢) (١٠٦)، وأحمد (١٠١٥١)، عن أبي هريرة.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الجمعة (٨٩٣)، ومسلم في الإمارة (١٨٢٩)، عن ابن عمر.

(٥) رواه أحمد (٦٨٤٣)، وقال مخرِّجوه: صحيح لغيره. وأبو داود في الزكاة (١٦٩٢)، عن عبد الله بن عمرو. ورواه مسلم في الزكاة (٩٩٦)، بلفظ: «كفى بالمرء إثمًا أن يحبس عمن يملك قوته».

(٦) رواه النسائي في الكبرى في عشرة النساء (٩١٢٩)، وأبو عوانة في الحدود (٧٠٣٦)، وابن حبان في السير (٤٤٩٢)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرطهما. وصحح إسناده الحافظ في الفتح (١١٣/١٣)، وصحَّحه الألباني في غاية المرام (٢٧١)، عن أنس بن مالك.

QaradawiBooks.com

وقد ذكر القرآن عمل الفتاتين اللتين سقى لهما موسى غنمهما، وكانتا تقومان بمهمة الرعاية لغنم الأسرة، نظرًا لشيخوخة الأب وعجزه، كما قالتا: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣].

وعن كعب بن عُجْرة قال: مرَّ النبي ﷺ على رجل، فرأى أصحاب رسول الله ﷺ من جَلَده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إن كان خرج يسعى على ولده صغارًا، فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين، فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها، فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرةً، فهو في سبيل الشيطان**»[(١)].

العمل للمجتمع:

ولو لم يكن الإنسان في حاجة إلى العمل، لا هو ولا أسرته لوفرة ثمرات الحياة لديه، لكان عليه أن يعمل للمجتمع الذي يعيش فيه، فإنَّ المجتمع يعطيه، فلا بد أن يأخذ منه، على قدر ما عنده.

وهذا من المعاني الجميلة التي التفت إليها علماء الإسلام، وجعلوا العمل الدنيوي ـ من هذه الناحية ـ واجبًا شرعيًّا.

يقول الإمام الراغب تحت عنوان: «وجوب التكسب»:

«التكسب في الدنيا وإن كان معدودًا من المباحات من وجه، إنَّه من الواجبات من وجه، وذلك أنَّه لما لم يكن للإنسان الاستقلال بالعبادة

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٢٩/١٩)، وفي الأوسط (٦٨٣٥)، وفي الصغير (٩٤٠)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣٣٥/٢): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٧٠٩): رواه الطبراني في الثلاثة، ورجال الكبير رجال الصحيح.

QaradawiBooks.com

إلا بإزالة ضروريات حياته، فإزالتها واجبة؛ لأنَّ كل ما لا يتم الواجب إلا به فواجب كوجوبه.

وإذا لم يكن له إلى إزالة ضروریاته سبيل إلا بأخذ تعب من الناس، فلا بد إذن أن يُعوِّضهم تعبًا من عمله وإلا كان ظالمًا، فمن توسَّع في تناول عمل غيره في مأكله وملبسه ومسكنه وغير ذلك، فلا بد أن يعمل لهم عملًا بقدر ما يتناوله منهم، وإلا كان ظالمًا لهم، سواء قصدوا إفادته أو لم يقصدوها، فمن رضي بقليل من عملهم فلم يتناول من دنياهم إلا قليلًا، يرضى منه بقليل من العمل، ومن أخذ منهم المنافع ولم يعطهم نفعًا، فإنَّه لم يأتمر لله تعالى في قوله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، ولم يدخل في عموم قوله: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ [التوبة: ٧١]؛ ولهذا ذُمَّ مَن يدَّعي التصوف فيتعطل عن المكاسب، ولم يكن له علم يؤخذ منه، ولا عمل صالح في الدين يُقتدى به، فإنَّه يأخذ منافع الناس، ويضيق عليهم معاشهم، ولا يرد إليهم نفعًا، فلا طائل في مثلهم إلا بأن يكدروا المشارع، ويغلوا الأسعار، ولهذا الشأن كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا نظر إلى ذي سيماء سأل عنه: أله حِرْفة؟ فإن قيل: لا، سقط من عينيه.

وقد استحسن النبي ﷺ من وفد عبد القيس لمَّا سألهم، فقال: «**ما المروءة؟**» فقالوا: العفة والحِرْفة.

ومن الدلالة على قبح من هذا صنيعه: أنَّ الله تعالى ذمَّ من يأكل مال نفسه إسرافًا وبدارًا، فما حال من يأكل مال غيره على ذلك، ولا ينيلهم عوضًا، ولا يرد عليهم بدلًا؟!»[1].

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة صـ ٢٦٨، ٢٦٩، تحقيق أبو اليزيد أبو زيد العجمي، نشر دار السلام، القاهرة، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

QaradawiBooks.com

وفي موضع آخر قال الراغب: «من تعطَّل وتبطَّل انسلخ من الإنسانية، بل من الحيوانية، وصار في عداد الموتى»[١].

ومرَّ رجل على أبي الدرداء الصحابي الزاهد رضي الله عنه، فوجده يغرس جوزة، وهو في شيخوخته وهرمه، فقال له: أتغرس هذه الجوزة وأنت شيخ كبير، وهي لا تثمر إلا بعد كذا وكذا عامًا؟! فقال أبو الدرداء: وما عليَّ أن يكون لي أجرها، ويأكل منها غيري[٢]!!

وهذا هو فقه المسلم للحياة، غرس له مَن قبله فأكل وانتفع، فليغرس هو ليأكل مِن غرسه مَن بعده، وله الأجر على كل حال.

العمل للحياة والأحياء عامة:

وأكثر من ذلك أنَّ المسلم لا يعمل لنفع المجتمع الإنساني فحسب، بل يعمل لنفع الأحياء كل الأحياء، حتى الحيوان والطير، والنبي ﷺ يقول: «**في كل كبد رطْبة أجر**»[٣].

ويقول: «**ما من مسلمٍ يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة**»[٤].

العمل لعمارة الأرض:

وفوق ذلك، نجد أنَّ العمل مطلوب في الإسلام لعمارة الأرض.

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة صـ ٢٦.

(٢) شرح السنة للبغوي (١٥١/٦)، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشاويش، نشر المكتب الإسلامي، دمشق، ط٢، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في المساقاة (٢٣٦٣)، ومسلم في السلام (٢٢٤٤)، عن أبي هريرة.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في المزارعة (٢٣٢٠)، ومسلم في المساقاة (١٥٥٣)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

فهذا مقصد من المقاصد الشرعية التي نوَّه بها الإسلام، ونبَّه عليها القرآن، وأشـــاد بها حكماء هذا الدين. ومنهم الإمام الراغب الأصفهاني الذي بيَّن أنَّ الإنسان إنَّما أوجده الله لأمور ثلاثة يختص بها هذا النوع ولولاها لما وُجِدَ[1]:

أولها: عمارة الأرض، المذكورة في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

ومعنى «استعمركم»: أي طلب إليكم عمارتها، فالسين والتاء للطلب كما هو معروف.

والثاني: عبادته تعالى، المذكورة في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

والثالث: خلافته، المذكورة فـــي قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

ولا ريب أنَّ هذه الثلاثة متداخلـــة، فعمارة الأرض ـ إن صحَّت فيها النية ـ عبادة وامتثـــال لأمر الله تعالى، وهي في الوقت نفســـه قيام بحق الخلافة عن المســـتخلِف، الذي يريد عمارة أرضه لا خرابها، وصلاحها لا فسادها، فإنَّه لا يحب الفساد، ولا يحب المفسدين.

العمل لذات العمل:

على أنَّ أعجب وأروع ما جاء به الإسلام أنَّ العمل في ذاته مطلوب من المســـلم، مأمور بالقيام به، ولو لم ينتفع هـــو بثمرته، ولا أحد من أسرته أو مجتمعه، بل لو لم ينتفع به أحد قط من خلق الله: إنسان أو طير أو بهيمة، إنَّه يؤديه لحق الله تعالى، وتقربًا إليه.

(١) انظر: الذريعة إلى مكارم الشريعة صـ ٨٢، ٨٣.

QaradawiBooks.com

نجد هذا المبـــدأ العظيم في الحديث الشـــريف الذي رواه أنس عن النبي ﷺ: «**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها**»[١].

ما معنى أن يغرس الإنسان الفسيلة والســـاعة قائمة، والحياة مولِّية، وليس هناك أمل في أن يأكل أحد من ثمار هـــذا الغرس، إلا أنَّه تكريم للعمل في ذاته، وإشارة إلى أنَّه يتَعبَّد لله بالعمل، والعبادة ليس لها أجل تقف عنده: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

إنَّ العمل مطلوب، ولو لـــم ينتفع بثمرته أحد، ولكنَّه رمز لعطاء المســـلم وتواصله، واســـتمراره، فهو منتج معطاء للحياة، حتى آخر رمق فيهـــا، ولا يوجد في دين ولا مذهب ولا نظـــام تقديس للعمل أعظم من هذا.

إحسان العمل فريضة دينية:

ومن القيم المهمة في مجال الإنتاج بعد قيمة العمل: إحسان العمل وإتقانه.

فليس المطلوب في الإســـلام مجرد أن يعمل، بـــل أن يعمل عملًا حسنًا، وبعبارة أخرى: أن يحسن العمل ويؤديه بإحكام وإتقان.

فهذا الإحسان في العمل ليس نافلة أو فضلًا أو أمرًا هامشيًّا في نظر الإسلام، بل هو فريضة دينية مكتوبة على المسلم.

---

(١) رواه أحمد (١٢٩٨١)، وقال مخرِّجوه: إســـناده صحيح على شرط مســـلم. والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩)، والضياء في المختارة (٢٧١٥)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

ففي الحديث الصحيح: «**إنَّ الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليُرِح ذبيحته**»(١).

وقد استعمل الحديث لفظ: «كَتَب» الذي يفيد الفرضية المؤكدة الموثقة وقد استعملها القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨].

فمَن فرَّط في إحسان العمل فقد فرَّط في واجب ديني، وفريضة إلهية، مما كتب الله على عباده المؤمنين.

وقال ﷺ: «**إنَّ الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه**»(٢)، «**إنَّ الله يحب من العامل إذا ما عمل أن يحسن**»(٣).

بل نجد القرآن الكريم في بعض المجالات الاقتصادية لا يكتفي بطلب «العمل الحسن»، بل يأمر بـ «العمل الأحسن».

وهذا ما نلحظه واضحًا في طلب تنمية مال اليتامى، فقد نهى القرآن العزيز عن قربانه إلا بالتي هي أحسن، يعني: بالطريقة التي هي أحسن الطرق، وأمثل الأساليب في المحافظة على مال اليتيم من ناحية، والعمل على نمائه وتكاثره من ناحية أخرى.

---

(١) رواه مسلم في الصيد والذبائح (١٩٥٥)، وأحمد (١٧١١٣)، عن شداد بن أوس.

(٢) رواه أبو يعلى (٤٣٨٦)، والطبراني في الأوسط (٨٩٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٣١٢)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (١٨٨٠)، عن عائشة.

(٣) رواه الطبراني (١٩٩/١٩)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٥٨٦٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٩٣٢)، عن كليب الجرمي.

QaradawiBooks.com

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: ١٥٢، الإسراء: ٣٤]، وهذه وصية تكررت بلفظها في القرآن في سورتين: سورة الأنعام، وسورة الإسراء.

أفهام خاطئة يجب أن تُصحَّح:

ولقد فهم كثير من المتدينين بعض القيم الدينية الكبيرة وصلتها بالاقتصاد فهمًا مغلوطًا، وذلك مثل قيم: الإيمان والتقوى والصلاح والاستقامة.

فإذا قال القرآن: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

أو قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

أو قال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

أو قال: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

إذا قال القرآن ذلك فهم هؤلاء أنَّه مجرد إقامة الشعائر من الصلاة والصيام والتسبيح والتهليل والتكبير، واجتناب المحرَّمات من الخمر والميسر، وهذا لا شك جزء أساسي من الدين، ولكنَّه ليس كل الدين، ولا كل الإيمان والتقوى.

إنَّ الله كما خلق الإنسان ليعبده: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، خلقه ليكون في الأرض خليفة يعمرها بالعلم

QaradawiBooks.com

والعمل: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، ومعنى «استعمركم» أي طلب إليكم أن تعمروها، بل هذه العمارة نوع من العبادة.

إنَّ الإيمان والتقوى والصلاح والاستقامة توجب علينا أن نوازن بين ديننا ودنيانا، وأن نتعبد الله بمراعاة سُننه الكونية، وأن نعد لأعدائنا ما استطعنا من قوة، وأن نغرس ونزرع ونصنع، ونقوم بكل علم أو صناعة تحتاج إليها الأمة في دينها أو دنياها، وهو ما اعتبره فقهاء المسلمين فرض كفاية تأثم الأمة كلها بالتفريط فيه.

إنَّ التقوى المنشودة ليست مسبحة درويش، ولا عمامة متمشيخ، ولا زاوية متعبد، إنَّها علم وعمل، ودين ودنيا، وروح ومادة، وتخطيط وتنظيم، وتنمية وإنتاج، وإتقان وإحسان.

إنَّ النبي ﷺ حثَّ على إتقان أي عمل يمارسه المسلم، ولو كان قتل وزغة، ففي الحديث: «**مَن قتل وزغة في أول ضرب كُتِب له مائة حسنة، ومن قتلها في الضربة الثانية فله كذا وكذا حسنة** (أي: أقل من الأول)، **ومَن قتلها في الضربة الثالثة فله كذا وكذا حسنة**»[1]، أي: أقل من الثاني. ومعنى هذا: أنَّ الإتقان مطلوب في أي عمل ولو كان تافهًا في نظر الناس.

إنَّ الصحابة رضي الله عنهم لم يفهموا الدين على أنَّه رهبانية أو دروشة، ولم يفهموا الإيمان والتقوى على أنَّها انقطاع عن الحياة، أو انشغال عن تنميتها بالتفرغ للشعائر.

(١) رواه مسلم في السلام (٢٢٤٠)، وأحمد (٨٦٥٩)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

إنَّ عبد الرحمن بن عوف حين قابل إيثار أخيه في الإسلام سعد بن الربيع بالتعفف الكريم وقال قولته: «إنَّما أنا امرؤ تاجر، فدلُّوني على السوق»[١]، وتاجَر وربَح الملايين، لم يخرج عن دائرة الإيمان والتقوى، ولم يبعد عن زمرة المتقين، بل كان من العشرة المبشَّرين بالجنة، الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، وكان من الستة أصحاب الشورى.

إنَّ المؤمنين المتقين هم الذين يأخذون بالأسباب، ويجتهدون أن يكونوا دائمًا «أحسن عملًا»، مسلَّحين بالتوكل على الله، معتصمين بمكارم الأخلاق؛ ولهذا يبارك الله جهودهم في الدنيا ولا يضيع أجرهم في الآخرة[٢].

وقد يُخيَّل إلى بعض الناس أنَّ ما وعد الله به أهل الإيمان والاستقامة والتوبة والتقوى من بركات وثمرات، ورزق دار، وغيث مدرار، هو من باب الخوارق والكرامات، يكرم الله بها مَن شاء من عباده المتقين.

ولكنَّ الذي أراه: أنَّ ما وعد الله به إنَّما هو ثمرة إيمانهم واستقامتهم، فجزاؤهم من جنس عملهم، وهو ماضٍ على سنن الله في كونه.

ولقد بيَّنتُ ذلك من قديم، حين كتبت عن «الإيمان والحياة»، وبيَّنتُ أثر الإيمان في الإنتاج، بما يقطع لسان كل أفاك أثيم يزعم أنَّ الدين مخدِّر للشعوب، أو معوِّق للجماعات عن التنمية والنهوض.

المؤمن يخشى الله في عمله فيتقنه:

فمن لوازم الإيمان: أنَّ المؤمن لا يكتفي بالاندفاع الذاتي إلى العمل، بل يهمه أن يُجَوِّده، ويتقنه ويبذل جهده لإحسانه وإحكامه، لشعوره

(١) رواه البخاري في البيوع (٢٠٤٩)، عن أنس.
(٢) أولويات الحركة الإسلامية صـ ٥٤ ـ ٥٦، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط٦، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٦م.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

العميق، واعتقاده الجازم أنَّ الله يراقبه في عمله، ويراه في مصنعه أو في مزرعته، أو في أي حال من أحواله، وأنَّه تعالى: «**كتب الإحسان على كل شيء**»[(١)]... وقد فسَّر نبي الإسلام هذا الإحسان في جانب العبادة، فقال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك**»[(٢)].

وهذا هو شعور المؤمن في كل عمل من الأعمال ـ لا في العبادة وحدها ـ أن يؤدي العمل كأنَّه يرى الله، فإن لم يبلغ هذه المرتبة فأقل ما عليه أن يشعر أنَّ الله يراه، وشعار المؤمن دائمًا في أدائه لعمله: إنِّي أُرضي ربي.

وربه لا يرضيه منه إلا أن يقوم بعمله في صورة كاملة متقنة، وهذا ما علَّمه نبي الإسلام للمؤمنين: «**إنَّ الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه**»[(٣)]. «عملًا» أي: عمل من أعمال الدنيا أو أعمال الآخرة.

وهناك خُلُقان أصيلان يتوقف عليهما جودة العمل، وحسن الإنتاج، وهما: الأمانة، والإخلاص، وهما في المؤمن على أكمل صورة وأروع مثال، فالصانع المؤمن ـ مثلًا ـ ليس همُّه مجرد الكسب المادي من صنعته، أو إرضاء صاحب المصنع إن كان يعمل عنده بأجر، ولكنَّه أمين على صنعته يخلص فيها جهده، ويرقب فيها ربه، ويرعى حق إخوته المؤمنين وهم له أولياء، وعليه رقباء، ويرجو بعد ذلك جزاء الله في الآخرة: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

---

(١) سبق تخريجه صـ ١٥٦.

(٢) متفق عليه رواه البخاري (٥٠)، مسلم (٩)، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.

(٣) سبق تخريجه صـ ١٥٦.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

إنَّنا كثيرًا ما نقرأ في الصحف، وما نسمع من الناس، كما نشاهد نحن بأعيننا، ما تعانيه المؤسسات العامة من أجهزة تتوقف على جدتها، وأدوات تخرب على متانتها، ومصالح تُعطَّل، مع حاجة الجمهور إليها، وأعمال يكفيها يوم تستغرق أيامًا، ونتيجة ذلك أنَّ مشروعات نافعة تخفق، وجهودًا مخلصة تُبعثر، وأموالًا طائلة تضيع، وأنَّ الإنتاج العام بعد ذلك كله يتدهور أيما تدهور. وما ذلك إلا لفقدان الأمانة والإخلاص، وخراب الضمائر عند أولئك الذين لا يرجون لله وقارًا، ولا يحسبون للآخرة حسابًا.

أثر السكينة النفسية في الإنتاج:

والمؤمن ـ بمقتضى إيمانه ـ يتمتَّع في حياته بسكينة النفس، وطمأنينة القلب، وانشراح الصدر، وبسمة الأمل، ونعمة الرضا والأمن، وروح الحب والصفاء[1]، ولا ريب أنَّ لهذه الحالة النفسية أثرها في الإنتاج، فإنَّ الإنسان الشارد أو المضطرب أو القلق أو اليائس أو الحاقد أو الساخط على النَّاس والحياة، قلَّما يحسن عملًا يوكل إليه، أو ينتج إنتاجًا يقنع ويرضي.

وهذا أمر يُعرف بأدنى ملاحظة، لا يحتاج إلى إحصاء العالِم، ولا برهنة الفيلسوف.

أثر الاستقامة في الإنتاج:

والمؤمن الصادق الإيمان يقف عند حدود الله، وينتهي عما نهاه، وينأى بنفسه عن ارتكاب الموبقات، والانغماس في أوحال المحرَّمات،

(١) انظر في هذا كتابنا: الإيمان والحياة، فصل: أثر الإيمان في حياة الفرد، سكينة النفس، الأمن، الرضا، الأمل، الحب. صـ ٨٠ ـ ١٦٩.

QaradawiBooks.com

وإرسال العنان للشـــهوات، إنَّ إيمانه يأبى عليه أن يفرغ طاقته في سهر عابث، ولهو حرام، يأبى عليه أن يجري وراء قدح يفور بالخمر، أو مائدة تدور بالقمار، أو جسد يمور بالفتنة.

وبذلك يظـــل محتفظًا بحيويتـــه وطاقته الجســـدية والعصبية والعقلية والنفسية، فلا يصرفها إلا في العمل الصالح أو ما يعين عليه من لهو بريء.

وهذا كســـب كبير للفرد نفسه، ولأســـرته وأولاده، وللمجتمع الذي يعيش فيه وللحياة الإنسانية عامة.

إنَّنـــا لو أحصينـــا ما تســـتهلكه الشـــهوات المحرَّمـــة، والموبقات المحظورة، والملاهي الآثمة ـ التـــي يجتنبها المؤمنون الصادقون ـ من الطاقات الإنســـانية والمادية، لبلغت حدًّا هائلًا يفوق ما تبتلعه الحروب المدمِّرة، والأوبئة الفتَّاكة، والكوارث المخرِّبـــة، ولكنَّ الإلف والعادة هما اللـــذان هوَّنا على الناس هذه الخســـائر الفادحـــة، التي تصاب بها الإنســـانية كل يوم، بل كل ساعة، وقد نشـــرت الصحف أنَّ في أمريكا (٧٢) مليونًا يتعاطون الخمور، منهم (٢٠) مليونًا يُكلِّفون الدولة عشرات بلايين الدولارات كل سنة، بســـبب تخلفهم عن العمل، فإذا كانت هذه مغارم الخمر وحدها، فكم تبلغ مغارم الموبقات الأخرى وســـوء أثرها على الإنتاج؟!

إحساس المؤمن بقيمة الوقت:

والمؤمن أعمق الناس إحساسًا بقيمة الوقت: أنَّ الله سائله يوم الجزاء عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟ فهو لهذا يضنُّ بوقته أن يضيع في عبث، أو يُبعثر في مهب الرياح الهوج، إنَّه رأس ماله الوحيد، فكيف يضيعه ويبقى صِفْر اليدين؟ إنَّ الوقت نعمة يجب أن تُشكر بالانتفاع بها،

QaradawiBooks.com

ولا تكفر بالتفريط فيها. وقد قال عمر بـــن عبد العزيز: إنَّ الليل والنَّهار يعملان فيك فاعمل فيهما[١].

المؤمن يشعر كأن كل يوم تبزغ شمسه أو ينشق فجره، يناديه بصوت جهير: أيها الإنســان؛ أنا خلق جديد، وعلى عملك شــهيد، فتزوَّد منِّي واغتنمني بعمل الصالحات فإنِّي لا أعود أبدًا.

وهو يخشى أن تنفلت الأيام من يديه، خاوية من العمل والإنتاج، فلا يؤخِّر عمل اليوم إلى غد؛ لأنَّ للغد عمله الذي يزحمه، فلا يتسع لعمل غيره من الأيام.

وهو كذلك حريص على أن يكون يومه خيرًا من أمسه، وغده خيرًا من يومــه، وأن يطيل حياته ـ بعــد موته ـ بطول أعمالــه، ويمد عمره بامتداد الجميل من آثاره، إنَّه يحرص أن يخلــف وراءه علمًا نافعًا، أو عملًا طيبًا، أو مشروعًا مثمرًا، أو صدقة جارية، أو ذُرِّية صالحة، وعلى قدر ما يمتد ويبقى الأثر الذي يخلفه وعلى قدر ما ينتفع الناس به تكون مثوبته عند الله[٢].

* * *

(١) ذكره ابن أبي الدنيا بقوله: قال بعض الحكماء. انظر: مكارم الأخلاق صـ ٢٩، تحقيق مجدي السيد إبراهيم، نشر مكتبة القرآن، القاهرة.

(٢) انظر كتابنا: الإيمان والحياة، فصل: الإيمان والإنتاج صـ ٢٧١ ـ ٢٨٢.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الإنتاج في دائرة الحلال

ومن الأخلاقيات الأساسية في الإنتاج، الملزمة للمسلم، فردًا أو مجتمعًا: الوقوف عند ما أحلَّ الله تعالى، فلا يتعدَّاها إلى ما حرَّم الله.

صحيح أنَّ دائرة الحلال واسعة، ولكنَّ الأنفس البشرية كثيرًا ما يغلبها الطمع والشره، فلا تقنع بقليل، ولا تشبع من كثير، ولا يكفيها الحلال على كثرته وسعته، فيسيل لعابها إلى الحرام، ولا تقف عند حدود الله: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

إنَّ المنتجين في ظل الاقتصاد الوضعي لا يعرفون حلالًا من حرام، كل همِّهم منفعتهم الخاصة، وما يجلب عليهم الإنتاج من مكاسب وفوائد مادية، لا يهمهم ما ينتجون: أهو نافع أم ضار؟ طيب أم خبيث؟ ترضى عنه القيم والأخلاق، أم تنكره وتسخط عليه؟

بل هذا التساؤل نفسه غير وارد، بل هو عندهم غلط من أساسه؛ لأنَّه يربط بين الاقتصاد والأخلاق، أو بين الإنتاج والقِيَم، وهو ربط عندهم غير صحيح، وغير مقبول، وغير ذي جدوى.

أما المسلم فوضعه مغاير تمامًا.

لا يجوز لمسلم أن يزرع ما لا يحل تناوله، مثل النباتات المخدِّرة

QaradawiBooks.com

المعروفة عند الناس، كالخشخاش ـ الذي يستخرج من ثماره الأفيون ـ وكذلك الحشيش، وكل ما هو من هذا القبيل.

وكل ما يضر الناس تناوله ـ بالأكل أو الشرب، أو المضغ، أو التدخين، أو الاستعاط، أو الحقن، أو غير ذلك ـ فزراعته حرام، وتصنيعه حرام، مثل «التبغ» الذي أثبت العلم والتجربة ضرره بيقين، وحذَّرت منه كل الهيئات العلمية والطبية في العالَم، إذ لا يجوز للمسلم أن يضر نفسه، ولا أن يضارّ غيره، فلا ضَرر ولا ضِرار في الإسلام[1].

ومن المؤسف أن بعض البلاد الإسلامية، تزرع هذه المواد الضارة، والمحرَّمة، ابتغاء عَرَض الدنيا.

وزراعة «الكروم» إذا كانت بقصد عصرها، لتُستعمل خمرًا، بأن كانت جزءًا من مشروع صناعة الخمور، كما كان عليه الحال في الجزائر أيام الاستعمار الفرنسي، فهي حرام بهذه النية وهذا الربط، وبيع العنب لمن يعلم أنَّه يعصره خمرًا حرام؛ لأنَّه يعينه على نشر الإثم والرذيلة.

وصناعة الأصنام، أو التماثيل المحرَّمة، وأواني الذهب والفضة، والتحف الذهبية والفضية، وحلي الذهب للرجال، وما شابه ذلك من أدوات الترف المحرَّمة، كله حرام لأنَّ استعمالها حرام، ومَن أنتج ما حرم استعماله، كان شريك المستعمل، فإذا استعمله الآلاف أو الملايين كان شريكًا لكل واحد منهم في إثمه؛ لأنَّه سهَّل لهم سبيل الحرام، فإذا كان المرء ينوء بحمل إثمه وحده، فكيف بمن يحمل أوزار الآلاف أو الملايين؟!

(١) انظر كتابنا: فتاوى معاصرة (٦٥٤/١ ـ ٦٦٩)، فتوى: أحكام التدخين في ضوء النصوص والقواعد الشرعية، نشر دار القلم، الكويت، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

QaradawiBooks.com

وفي «الصحيح»: «**مَن سنَّ في الإسلام سُنَّة سيئة، فعليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقُصَ من أوزارهم شيء**»[١].

ومن ذلك: إنتاج كل ما لا يُستخدم إلا في الحرام، أو كان ذلك الغالب عليه عادة، وإن كان يُستعمل نادرًا في الحلال، إذ النادر لا حكم له.

أما ما يُستعمل في كل منهما، مثل بعض الملابس النسائية التي قد تستعملها المرأة في بيتها، ومع زوجها ومحارمها، فتكون حلالًا، وقد تستعملها في الخارج ومع الرجال الأجانب عنها، فتكون حرامًا، فهذه لا تحرم صناعتها، وإن كان الورع يقتضي البُعْد عنها.

ومن أعظم ما يحرم إنتاجه: كل ما يفسد عقائد الناس الصحيحة، وأخلاقهم الفاضلة، ويسلخهم من هُويتهم، ويزلزل قيمهم الدينية والخُلُقية، ويشغلهم بالهزل عن الجد، وبالباطل عن الحق، وبالدنيا عن الآخرة، مثل الإنتاج المتصل بالفن بأشكاله المختلفة: المسرحيات، والأفلام، والمسلسلات، والأغاني، وغير ذلك ممَّا يتعلق بالإعلام: المقروء، والمسموع، والمشاهَد، مما لا يتقيد بقيم ولا عقائد ولا أخلاق، ولا يفكر في حلال، ولا حرام، إنَّما كل فكره وهمه في الدخل والكسب والإيراد.

إنَّ إنتاج هذه المواد أشد خطرًا، وأبعد أثرًا، من إنتاج المسكرات والمخدرات، برغم ما نعرفه من خطرها على ضحاياها من المدمنين الضائعين.

(١) رواه مسلم في الزكاة (١٠١٧)، وأحمد (١٩١٥٦) عن جرير.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ومـــا ذلك إلا لأنَّ هـــذه خطر على الأجســـام، وتلـــك خطر على العقول، هذه خطر يُقاوَم ويُحذَر منه، وتلك خطر لا يُقاوَم، بل يُنشـــر ويُشـــاع، هذه يُعاقَب مُروِّجها، وتلك يُكَرَّم منتجها، وبائعها ومروِّجها، وكل من شارك فيها!

ثم إنَّ هذه المـــواد الإعلامية الخطرة هي التي تمهد الســـبيل لتلك الســـموم، بمختلف ألوانها وأســـمائها، فهي تخدرهم قبل المخدرات، وتسكرهم قبل المسكرات، وتميتهم قبل الموت!

فصُنَّاع هـــذه «المنتجـــات» والمســـاهمون فيها ـ مـــن كاتب النص والحوار، والمخرج، والممثل، والمطرب، والمنفذ، والمصوِّر، والمدير، والموزِّع... وغيرهم ـ مســـؤولون أمام الله عـــن جنايتهم على المجتمع، وكل من تأثَّـــر بعملهـــم: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۙ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

المحافظة على الموارد فريضة

ومن الأخلاقيات المهمة هنا: المحافظة على «الموارد» باعتبارها نعمًا من الله تعالى على خلقه، فواجبهم أن يقوموا بشكرها، ومن شكرها المحافظة عليها من التلف أو الخراب أو التلوث أو غير ذلك، ممَّا يعتبر نوعًا من الإفساد في الأرض.

والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقال تعالى لبني إسرائيل بعد أن فَجَّر لهم في التيه اثنتي عشرة عَيْنًا: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

وقال شعيب لقومه: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقبل ذلك: قال صالح لقومه: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

والإفساد في الأرض قد يكون ماديًّا، بتخريب عامرها، وتلويث طاهرها، وإهلاك أحيائها، وإتلاف طيباتها، أو تفويت منفعتها.

وقد يكون معنويًّا، بإشاعة الظلم، ونشر الباطل، وتقوية الشر، وتلويث الضمائر، وتضليل العقول.

وكلاهما شر يبغضه الله تعالى، ولا يحب أهله.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

لهذا تكرَّر في القرآن أنَّ الله ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤]، و﴿لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

وذمَّ الله اليهود بقوله: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

تعطيل الثروة الزراعية والحيوانية من عمل الشرك:

ولقد حمل القرآن على نوع من الفساد شاع لدى مشركي العرب، وهو تعطيل بعض الموارد الزراعية والحيوانية، بناءً على أوهام وأباطيل شِرْكية، ما أنزل الله بها من سلطان، وناقشهم مناقشة مفصَّلة في سورة الأنعام كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٨].

وفي سورة يونس خاطبهم بقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

الوعيد على قتل عصفورًا عبثًا:

وأكدت السُّنَّة الأمر بالمحافظة على الموارد بأساليب شتى من الترغيب والترهيب.

من ذلك قوله ﷺ: «**مَن قتل عصفورًا عبثًا، عجّ إلى الله يوم القيامة، يقول: يا ربِّ، إنَّ فلانًا قتلني عبثًا، ولم يقتلني منفعة**»[(١)].

(١) رواه أحمد (١٩٤٧٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. والنسائي في الضحايا (٤٤٤٦)، وابن حبان في الذبائح (٥٨٩٤)، وضعَّفه الألباني في بلوغ المرام (٤٦)، عن الشريد بن سويد. ويقويه الحديث التالي.

QaradawiBooks.com

«**ما من مسلم يقتل عصفورًا فما فوقها، بغير حقِّها، إلا يسأله الله ﷻ عنها**»، قيل: يا رسول الله، وما حقها؟ قال: «**أن يذبحها فيأكلها، ولا يقطع رأسها، ويرمي بها**»[(١)].

والحديثان يدلان دلالة قوية على احترام كل ذي روح من الطير والحيوان، ومنع قتله لغير حاجة ولا منفعة معتبرة، كما يرشدان إلى المحافظة على موارد الثروة، وعدم تبديدها باللهو والعبث، أي لغير منفعة اقتصادية.

بالإضافة إلى ما يدل عليه الحديثان من المحافظة على البيئة بكل ما فيها من الكائنات الحية، التي أصبح التقدم التكنولوجي خطرًا عليها.

قاطع السِّدْر في النَّار:

يؤكد هذا التوجه هذا الحديث الشريف: «**من قطع سِدْرة صوّب الله رأسه في النار**»[(٢)].

قال أبو داود بعد أن روى هذا الحديث: يعني مَن قطع سِدرة في فلاة، يستظل بها ابن السبيل والبهائم، عبثًا وظلمًا بغير حق يكون له فيها، صوّب الله رأسه في النار[(٣)].

---

(١) رواه النسائي في الصيد والذبائح (٤٣٤٩)، والحاكم في الذبائح (٢٣٣/٤)، وصحَّحه، ووافقه الذهبي، (٣١٥/١)، وحسَّنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٦٦)، وضعَّفه في غاية المرام (٤٧)، عن عبد الله بن عمرو، وقد قبلنا الحديثين لأنهما في معنى واحد. انظر: تعليقنا على الحديثين في كتابنا: المنتقى من الترغيب والترهيب (٥٧٦، ٥٧٧).

(٢) رواه أبو داود في الأدب (٥٢٣٩)، والنسائي في الكبرى في السير (٨٥٥٧)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٦١٤)، عن عبد الله بن حبشي. والمراد بالسدرة: شجرة السدر (النبق) التي يكثر وجودها في البراري.

(٣) انظر: سنن أبي داود (٣٦١/٤).

QaradawiBooks.com

وفي هذا الوعيد الشـــديد توجيه إلى المحافظة على الأشجار، ومنها أشجار البَرِّ والغابات؛ لما فيها من نفع كبير للبيئة، فلا يجوز أن تُقطع إلا بقدر وحساب، بحيث يغرس مكانها غيرُها، مما يقوم بوظيفتها.

الحفاظ على الحيوانات من العدوى:

ومن التوجيهات النبوية: حديث: «**لا يوردنَّ مُمْرض على مُصِح**»[١].

والممرض: صاحب الإبل المريضة بداء الجرب، والمصح: صاحب الإبل الصحيحة السليمة، فعندما تورد الإبل للشرب، يجب على صاحب الإبل المريضة ألا يوردها على الإبل السليمة، فتحتك بها فتعديها، وهذا توجيه لوقايتها من المرض، فإذا أصيبت، فيجب أن تُعالَج حفاظًا عليها، باعتبارها كائنًا حيًّا من ناحية، وباعتبارها مالًا ناميًا من ناحية أخرى، ولا يتم هذا الواجب إلا بطبيب بيطري متخصص، فهو مطلوب شرعًا.

إياكَ والحلوب:

ومن روائع ما ورد في السُّنَّة في المحافظة على الموارد: قول النبي ﷺ لمضيّفه الأنصاري الذي أراد إكرامه بذبح شاة: «**إياكَ والحلوب**»[٢].

قاله له حينما أخذ الرجل المدية ومضى ليذبح.

ومعنى الحديث: أنَّه عليه الصلاة والسلام نهى المضيّف أن يعمد إلى شاة ينتفع بدرها ولبنها؛ لأنَّها حلوب، فيذبحها، فيخســر درها وحليبها، ويخســرها معه المجتمع، ويغني عنها شاة أخرى غير حلوب.

---

(١) متفق عليــه: رواه البخاري في الطــب (٥٧٧٠، ٥٧٧١)، ومســلم في الســلام (٢٢٢١)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في الأشربة (٢٠٣٨)، وابن ماجه في الذبائح (٣١٨٠)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

وربما يقول بعض الناس: وماذا يؤثر ذبح شاة في موارد مجتمع أو أمة؟

والجواب: أنَّ الرسول الكريم يُربِّي الأمة على قِيَم وأخلاق معيَّنة ينبغي أن يلتزم بها الجميع، ورعاية هذه القِيَم والأخلاقيات على مستوى الأمة ذو مردود هائل، عند من يتدبرون الأمور.

الانتفاع بجلد الميتة:

وأكثر من ذلك قوله لأصحابه، وقد رأى شاة ميتة: «**لمن هذه الشاة؟**» قالوا: إنَّها شاة لمولاة ميمونة ـ أم المؤمنين ـ قال: «**هلا انتفعتم بجلدها؟**» قالوا: إنَّها ميتة، قال: «**إنَّما حُرِّم أكلها**»[(١)].

فهو ينبِّههم على الاستفادة بجلد الشاة ـ فروتها ـ بأن يُدبغ، فيطهر بالدباغ، ويُنتفع به.

لا تترك اللُّقمة للشيطان:

وأكثر من ذلك قوله ﷺ: «**إذا سقطت لقمة أحدكم، فليأخذها، وليمط عنها الأذى، وليأكلها ولا يدعها للشيطان**».

قال أنس: وأُمِرنا أن نسلت القصعة: أي نتتبع ما فيها من بقايا باللعق أو المسح، بحيث لا تُترك فيها فضلات[(٢)].

لقمة واحدة تسقط، فتُهمل وتُترك ولا يستفيد منها أحد، إلا سلال القمامة، اعتبرها النبي ﷺ قد تُرِكَتْ للشيطان، وكل ما لا يُستفاد منه خير فهو للشيطان.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٤٩٢)، ومسلم في الحيض (٣٦٣)، عن ابن عباس.

(٢) رواه مسلم في الأشربة (٢٠٣٤)، وأحمد (١١٩٦٤)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

وكان يمكن بعمل سهل أن يُنتفع بها، وهو إماطة ما أصابها من أذى من غبار ونحوه، وهذه تربية رفيعة: خُلُقية واقتصادية في الوقت نفسه.

فأين هذا مما نراه اليوم، وصناديق القمامة تمتلئ بفضلات الطعام، من اللحم والأرز والخبز وغيرها، ممَّا يتمنى كثير من المسلمين في العالم لو أصابوا شيئًا منه!

لا ينبغي أن يُستهان بهذه التوجيهات النبوية ومردودها الاقتصادي، فإنَّها ـ على مستوى الأمة الكبرى ـ يمكن أن تحقق الكثير والكثير، وتوفر للمجتمع كله الملايين، بل البلايين.

إحياء الموات:

ومن أعظم الموارد التي عُنِيَ الإسلام بالمحافظة عليها، وعمل على تنميتها، والاستفادة من خيراتها: الأرض الزراعية التي هي مصدر القوت والطعام للإنسان، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۞ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۞ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۞ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۞ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۞ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢].

ومن أفضل الأعمال التي حثَّ عليها الإسلام، ورغَّب فيها، ووعد فاعليها بأعظم المثوبة: استصلاح الأراضي البور، لما فيه من توسيع الرقعة الزراعية وزيادة مصادر الإنتاج، وقد عُرِفَ هذا الأمرُ في الفقه الإسلامي بعنوان مُعبِّر جميل هو: «إحياء الموات»، أو إحياء الأرض الميتة، قال رسول الله ﷺ: «**من أحيا أرضًا ميتةً فهي له، وما أكلت العافية**

QaradawiBooks.com

«**طُلاب الرزق» منها، فهي له صدقة**»[١]، قال أبو عبيد: العافية: من السباع والطير والناس وكل شيء يعتافه[٢].

وكان من سياسة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين: الإقطاع من هذه الأراضي البور لبعض الرجال الذين أدَّوْا خدمات ممتازة للدولة الإسلامية، فهي مكافأة لهم من جهة، وتشجيع على استصلاحها وعمرانها من جهة أخرى.

ومَن قُطِع له من هذه الأرض مساحة معيَّنة، ثم تركها بغير أن يعمرها ويصلحها كان لولي الأمر أن ينتزعها منه، ويعطيها لغيره ممَّن يقوم بإحيائها.

وقد روى أبو عبيد وغيره عن بلال بن الحارث المزني: أنَّ النبي ﷺ أقطعه العقيق ـ أرضًا بالمدينة ـ فلمَّا كان زمان عمر، قال لبلال: إنَّ رسول الله ﷺ لم يُقطِعك لتحتجزه عن الناس، وإنَّما أَقْطَعكَ لتعمل، فخُذْ منها ما قدرتَ على عمارته، ورُدَّ الباقي[٣].

وعن عبد الله بن عمر قال: كان عمر بن الخطاب يخطب على هذا المنبر يقول: «يا أيها النَّاس، من أحيا أرضًا ميتةً فهي له»، وذلك أنَّ رجالًا كانوا يحتجزون من الأرض ما لا يعمرون[٤].

---

(١) رواه أحمد (١٤٦٣٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. والترمذي في الأحكام (١٣٧٩)، وقال: حديث حسن صحيح. وابن حبان في إحياء الموات (٥٢٠٢)، عن جابر بن عبد الله.

(٢) الأموال صـ٣٦٢.

(٣) رواه أبو عبيد في الأموال (٧١٣).

(٤) المصدر السابق (٧١٤).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وكان من سُنَّة عمر تشجيع الأفراد العاملين على زيادة الإنتاج كنافع أبي عبد الله الذي كتب إلى واليه بالبصرة في شأنه يقول: «أما بعد، فإنَّ أبا عبد الله ذكر أنَّه زرع بالبصـــرة... وافتلَى أولاد الخيل (رعاها بالفلاة) حين لم يَفْتَلِها أحد من أهل البصرة، وإنَّه نعم ما رأى، فأعِنْهُ على زرعه وعلى خيلـــه، فإنِّي قد أذنت لـــه أن يزرع، وآته أرضـــه التي زرع... ولا تعرض له إلا بخير...»[١].

* * *

(١) فتوح البلدان للبلاذري صـ ٣٤٢، نشر دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٨م.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

هدف الإنتاج

هكذا رأينا الاقتصاد الإسلامي يحرص على الإنتاج، وتنميته كمًّا، ونوعًا، ولا يرضى بتعطيل الطاقات المادية ولا البشرية، بل يجندها جميعًا للإنتاج، الذي يتميز بالإتقان الذي يحبه الله، والإحسان الذي كتبه الله على كل شيء.

والسؤال هنا: لماذا ننتج؟ أو: ما الهدف الذي نبغي تحقيقه من وراء الإنتاج؟

والجواب: أنَّنا ننتج لتوفير القدر الكافي من «الطيبات» المتمثلة في السلع والخدمات التي تتحقق بها «الحياة الطيبة» التي ينشدها الإسلام للناس...

وإذا أردنا التفصيل قلنا: إنَّ الإنتاج هنا ينشد تحقيق هدفين أساسيين، وإن شئنا قلنا: ينشد هدفًا أساسيًّا على مستويين: مستوى الفرد المسلم، ومستوى الأمة المسلمة.

فبالنسبة للفرد المسلم... يهدف إلى تحقيق «تمام الكفاية» له.

وبالنسبة للأمة المسلمة... يهدف إلى تحقيق «الاكتفاء الذاتي» لها.

وهذا ما نشرحه في الصفحات التالية...

نسخة مجانية

الهدف الأول: تحقيق تمام الكفاية للفرد:

للمعيشة الإنسانية ـ في المجال الاقتصادي ـ مستويات أربعة، بعضها دون بعض.

هناك «مستوى الضرورة»، وهي الحالة التي يعيش فيها الإنسان على ما يمسك عليه الرمق، ويُبقي عليه أصل الحياة، ويدفع عنه الهلاك أو الموت.

وهي حالات الذين يعيشون في أتون المجاعات، ونرى صورهم في التلفاز أحيانًا كأنهم هياكل عظمية، أو أشباح هاربة من القبور.

وبقاء مثل هؤلاء بهذه الصورة البائسة بين البشر، نقطة سوداء في جبين الإنسانية التي تنفق عشرات المليارات على التسليح بكل أنواعه.

وهناك مستوى أحسن من هذا وهو «مستوى الكفاف»، وهو الذي يمثل الحدَّ الأدنى للمعيشة دون زيادة ولا نقصان، فلا مجال فيه للون من السعة والترفه.

وهناك مستوى أفضل من هذا، وهو الذي يسميه الفقهاء: «تمام الكفاية» للإنسان، فليس المقصود إذن هو مجرد الكفاية، بل الكفاية التامة بكل عناصرها ومقوماتها، وهذا هو المستوى الذي يريده الإسلام لأبنائه، بل لكلِّ من يعيش في ظله، مسلمًا أو غير مسلم.

قال النووي في تحديد الكفاية: قال أصحابنا: «المعتبر... المطعم، والملبس، والمسكن، وسائر ما لا بد له منه، على ما يليق بحاله، بغير إسراف ولا إقتار، لنفس الشخص ولمن هو في نفقته»[1].

(١) المجموع (١٩١/٦)، نشر دار الفكر.

QaradawiBooks.com

وإذا كان الإمام النووي قد اعتبر مستوى الكفاية على ما يليق بحال كل فرد بالمعروف، فنحن نضيف هنا عنصرًا جديدًا، وهو: ما يليق بزمانه وبيئته، فإنَّ الحاجات تتطور بتطـور الأزمنة، وتتغير بتغير البيئات. وكم من أشـياء كانت كماليـة أو ترفيهية فـي زمن ما، غدت اليـوم حاجيَّة أساسية، وكم من أشـياء تُعَد في بعض البيئات تحسـينية تُعتبر في بيئة أخرى وكأنها من الضرورات، فلا جمود في تقدير الحاجات والمطالب الاقتصادية للإنسان.

وهناك فوق ذلك: مستوى الترف، وهو مرفوض إسلاميًّا، وسنتحدث عنه بعد.

فالإسلام لا يرضى لأبنائه المستوى الدون من المعيشة، بل لا بد أن يكون هذا المستوى على نسـبة معقولة من الارتفاع، بحيث يتوافر فيها العناصر التالية:

١ ـ قدر من الغذاء الكافي، لإمداد الجسـم بالطاقة التي تلزمه للقيام بواجبه: نحو ربه كالصلوات الخمس، وواجبه نحو نفسه وأسرته ومجتمعه، والرسول ﷺ يقرِّر أنَّ للبدن حقًّا لا بد أن يُعطَاه: «**إنَّ لبدنك عليك حقًّا**»[(١)]، وينبغي أن يكون هذا الغذاء متكاملًا، بحيث يشـتمل علـى المواد التي يتطلبها الجسم «من بروتين ونشا وسكر ودهن وأملاح وفيتامين وغيرها»، ولا عجب إذا امتنَّ القرآن بذكر لحوم الأنعام والأسـماك واللبن والعسل والفاكهة وغيرها... ويكفي أن نقرأ سورة كسورة النحل، لنلمح فيها صورة للحياة التي يريد الله لعباده أن ينعموا بطيباتها.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٧٥)، ومسلم (١١٥٩)، كلاهما في الصيام، عن عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

٢ ـ قدر من الماء يكفيه للشـرب والري، ويعينه على النظافة العامة التي هي من آداب الإسلام، وعلى الطهارة الخاصة التي هي من شروط صحة الصلاة، كالوضوء من الحَدَث، والغُسْـل مـن الجنابة، فضلًا عن الاغتسال الأسبوعي الذي جاءت به السُّـنَّة: «**غُسْل الجمعة واجبٌ على كل محتلم**»[١] أي: بالغ، «**حقٌّ على كلِّ مسـلمٍ في كل سـبعة أيام يوم يغسل فيه رأسه وجسده**»[٢].

٣ ـ لباس يحقق سـتر العورة، والوقاية من حَرِّ الصيف وبرد الشتاء، وحُسن المظهر أمام الناس، كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ [الأعراف: ٢٦]، والريش: ما يحقق الزينة والجمـال، وقـال: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۚ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ﴾ [النحل: ٥]، وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي: والبرد.

وهذا يستلزم أن يتوافر لكل فرد ـ كحد أدنى ـ ملبس مناسب للشتاء، ولبس مناسب للصيف، وهذا ما أوجبه ابن حزم لكل مسلم أو ذِمِّي في ظل نظام الإسلام، وأجاز له أن يقاتل للحصول عليه.

وفوق هذا الحد الأدنى ينبغـي أن يتهيأ للمسـلم ما يتجمل به في المناسـبات كالجُمَع والأعيـاد، كما كان للنبـي ﷺ؛ وذلك لئلا يؤذي الآخرين بلباس مهنته.

٤ ـ مسكن صحي يحقق:

(أ) معنى السـكون الذي امتنَّ الله به حين قال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾ [النحل: ٨٠].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٨٧٩)، ومسلم (٨٤٦)، كلاهما في الجمعة، عن أبي سعيد الخدري.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٨٩٧)، ومسلم (٨٤٩)، كلاهما في الجمعة، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

(ب) وعنصر السعة التي جعلها النبي ﷺ من مقومات السعادة الدنيوية، فقال: «**ثلاث خصال من سعادة المرء المسلم في الدنيا: الجار الصالح، والمسكن الواسع، والمركب الهنيء**»[(١)].

(جـ) وعنصر الوقاية من أخطار الطبيعة كالمطر والشمس والعواصف ونحوها.

(د) وعنصر الاستقلال، بحيث لا تنكشف عوراته للناظرين من الغادين والرائحين، هذا الاستقلال الذي تدل عليه الآية الكريمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ [النور: ٢٧].

وهذا ما نص عليه ابن حزم أيضًا فيما افترض توافره لكل فرد حيث قال: «ومسكن يقيهم الشمس والمطر وعيون المارة»[(٢)].

والأصل أو الظاهر ـ حسبما نص عليه فقهاء الإسلام ـ أن يكون هذا المسكن مِلْكًا للإنسان، لا مُسْتأجَرًا... وهذا مستوى لا تزال كثير من الدول الغنية دون الوصول إليه.

ومما يلزم لهذا المسكن الذي ينشده الإسلام: أن يكون من السعة ووفرة الأثاث بحيث يضمن معه تنفيذ أمر النبي ﷺ بالتفريق بين الأولاد في المضاجع، إذا بلغوا عشر سنوات من عمرهم[(٣)].

---

(١) رواه أحمد (١٥٣٧٢)، وقال مخرّجوه: حديث صحيح لغيره. والبخاري في الأدب المفرد (١١٦)، والحاكم في البر والصلة (١٦٦/٤)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، عن نافع بن عبد الحارث.

(٢) المحلَّى (٢٨١/٤)، مسألة (٧٢٥)، نشر دار الفكر، بيروت.

(٣) كما في حديث: «**مروا صبيانكم بالصلاة، إذا بلغوا سبعًا واضربوهم عليها، إذا بلغوا عشرًا، وفرقوا بينهم في المضاجع**». رواه أحمد (٦٦٨٩)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. وأبو داود في الصلاة (٤٩٥)، وحسَّن إسناده النووي في خلاصة الأحكام (٢٥٢/١)، وصحَّحه ابن الملقن في البدر المنير (٢٣٨/٣).

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

كما ينبغي أن تكـــون فيه حجرة للضيف يطرأ علـــى أهل البيت من أقاربهم أو من غيرهم، وهو ما كان يســـميه الناس: «حجرة المسافرين»، وفي هذا روى مسلم في «صحيحه» عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**فراش للرجل، وفراش لامرأته، وفراش للضيف، والرابع للشيطان**»[١].

٥ ـ قـــدر من المال يدخره ليتزوج به ويكوِّن الأســـرة المســـلمة، إذ لا رهبانية في الإسلام، وقد نهى النبي ﷺ عن التبتل (أي: الانقطاع عن الزواج للعبادة)، وأعلن أنَّ الزواج من سُـــنَّته، ثم قـــال: «**من رغب عن سُـــنَّتي فليس مني**»[٢]، وخاطب الشـــباب فقال: «**يا معشـــر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنَّه أغضُّ للبصر وأحصن للفَرْج**»[٣]، وقال: «**الدنيا كلها متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة**»[٤].

وقد ذكر الفقهاء فـــي أبواب النفقات، وفي أبـــواب الزكاة من كتب الفقه: أنَّ الزواج من تمـــام الكفاية، وخصوصًا إذا كان المـــرء تائقًا له، ومحتاجًا إليه، ويخاف على نفسه العنت[٥].

٦ ـ قدر من المالـــي يعينه على طلـــب العلم الواجـــب تعلمه عليه وتوفيره لأبنائـــه وبناته: «**طلب العلم فريضة على كل مســـلم**»[٦]، ويهيئ لكل ذي فن كتبه التي يحتاج إليها في فنه.

---

(١) رواه مسلم في اللباس (٢٠٨٤)، وأحمد (١٤١٢٤)، عن جابر.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) كلاهما في النكاح، عن أنس.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٦٦)، ومسلم (١٤٠٠)، كلاهما في النكاح، عن ابن مسعود.

(٤) رواه مسلم في الرضاع (١٤٦٧)، وأحمد (٦٥٦٧)، عن عبد الله بن عمرو.

(٥) انظر كتابنا: مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام صـ ١٠٢ ـ ١٠٤.

(٦) رواه ابن ماجه في المقدمة (٢٢٤)، وأبو يعلى (٢٨٣٧)، والطبراني في الأوسط (٩)، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٨٣)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

والعلم الواجب طلبه وتعلمه قد يكون علمًا دينيًّا، وهو ما يصحح به عقيدته وعبادته ويجعله على بيِّنة من ربه، وبصيرة من أمره، وما يضبط سلوكه وفقًا للمعايير الشرعية في الحلال والحرام.

وقد يكون علمًا دنيويًّا، يتغير بتغير العصر والبيئة، وهو درجات ومستويات، أدناها الحد الذي تُلزِم به الدول أبناءها.

٧ ـ العلاج إذا مرض، استجابةً لقول الرسول ﷺ: «**يا عباد الله، تداووا فإنَّ الله لم يضع داءً إلا وضع له دواء**»[(١)]، والأصل في مثل هذا الأمر أن يكون للوجوب، وخاصة التداوي من الأمراض التي عُرِف بالتجربة دواؤها وعلاجها، ولا سيما في عصرنا هذا الذي تَقدَّم فيه علم الطب تقدمًا ملموسًا تحقق به قول الرسول ﷺ: «**ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء**»[(٢)]، «**لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برئ بإذن الله**»[(٣)].

وقد خدم الطب تقدم العلوم الأخرى من التشريح ووظائف الأعضاء والكيمياء والفيزياء، والإليكترونيات، وغيرها..

وقد يستغني الفرد عن المال الذي يحتاج إليه لتعليم أولاده أو علاجهم وعلاج نفسه، إذا كان العلم والعلاج مبذولين وميسَّرين لكافة النَّاس... وهو ما ينبغي أن تحرص عليه دولة تتخذ الإسلام منهاجًا ونظامًا. وهذا ما سار عليه المسلمون أيام ازدهار حضارتهم فكانت

---

(١) رواه أحمد (١٨٤٥٤)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٣٤٣٦)، ثلاثتهم في الطب، عن أسامة بن شريك.

(٢) رواه البخاري في الطب (٥٦٧٨)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم في السلام (٢٢٠٤)، وأحمد (١٤٥٩٧)، عن جابر.

QaradawiBooks.com

المستشـــفيات للجميع مجانًا، وكذلك العلم فـــي المدارس للجميع بلا أجر، هذه تُقدِّم غذاء العقول، وتلك تُقدِّم دواء الأبدان.

٨ ـ فضل من مال يدَّخره أيضًـــا ليحج به بيت الله الحرام، ويؤدي به فريضة العمر، ويحيي مع إخوانه المسلمين هذا الركن العظيم من أركان الإسلام: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

صحيح أنَّه ليس فرضًا على المسلم أن يطلب المال ليحقق به الاستطاعة التي جعلها الله شـــرطًا لوجوب الحج، ولكنَّ المســـلمين بوصفهم جماعة فُرِضَ عليهم أن تظل هذه الشعيرة قائمة، وأن يظل هذا الموسم عامرًا دافقًا بالمؤمنين الآتين من كل فج عميق، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله.

كما أنَّ المسلم بمقتضى إيمانه وحنينه إلى الأرض المقدسة، وشوقه إلى إقامة هذه الشعيرة العظيمة، يظل معلَّق القلب ببيت الله العتيق، راغبًا في الطواف به مع الطائفين والقائمين والركَّع السجود، ساعيًا في تحقيق هذه الرغبة بكل ما يســـتطيع، فهو بهذا حاجة من الحاجات التي يسعى المسلم لإشباعها.

وقد أدَّت هذه الأشواق والرغبات الفردية في الحج في بعض البلاد الإسلامية ـ مثل «ماليزيا» ـ إلى إقامة مؤسسة للحج تجمع من المسلمين الراغبين مدخرات سنوية وتنميها لحســـابهم، وقد نمت هذه المؤسسة، وغدت تملك عمارات شاهقة، وطاقات اقتصادية كبيرة.

هذا ما يجب أن يتوفر في ظل نظام الإســـلام لأوساط النَّاس، حتى يستطيعوا أن يؤدوا واجبهم ويشعروا بنعمة ربهم عليهم.

وحسبنا أن نقرأ بعض الآيات من سورة النحل، لنرى فيها صورة لما يجب أن تكون عليه حياة الإنســـان في الأرض، حتى يشـــكر نعمة الله،

QaradawiBooks.com

ويفهم خطابه في كتابه؛ قال تعالى: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [النحل: ٥]، ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۞ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٠، ١١]، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [النحل: ١٤]، ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ۞ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۞ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۞ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٦٦ ـ ٦٩].

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [النحل: ٨٠]، ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ [النحل: ٨١]، ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [النحل: ٧٢].

هذه حياة الإنسان كما تُصوِّرها هذه الآيات: مطاعم من لحوم الأنعام، ومن سمك البحر، ومن الزيتون والنخيل والأعناب ومن كلِّ الثمرات، ومن اللبن الخالص السائغ للشاربين، ومن المربَّات وغيرها مما يُتخذ من ثمرات النخيل والأعناب من سَكَر ورزق حسن، ومن عسل النحل مختلفًا ألوانه فيه شفاء للناس، وغيرها ممَّا رزق الله وامتنَّ به من الطيبات.

QaradawiBooks.com

وملابس تقي الحر، وبالتالي تقي البرد، من صوف الأغنام ونحوها: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ [النحل: ٥]، ودروع تقي البأس وشدة الحرب: ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١].

وبيوت جعلها الله سكنًا لا سجنًا، وزواج يجد الإنسان فيه السكينة والأنس، كما يجد فيه الذرية والنسل: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النحل: ٧٢].

الهدف الثاني: تحقيق الاكتفاء الذاتي للأمة:

والهدف الآخر للإنتاج هو: تحقيق الاكتفاء الذاتي للأمة.

بمعنى أنَّها يجب أن يكون لديها من الإمكانات والقدرات والخبرات والوسائل ما يفي بحاجاتها المادية والمعنوية، ويسد ثغراتها المدنية والعسكرية، عن طريق ما يسميه الفقهاء: «فروض الكفاية»، وهي تشمل كل علم أو عمل أو صناعة أو مهارة يقوم بها أمر الناس في دينهم أو دنياهم، فالواجب عليهم حينئذ تعلمها وتعليمها وإتقانها حتى لا يكون المسلمون عالة على غيرهم، ولا يتحكم فيهم سواهم من الأمم الأخرى.

وبغير هذا الاستغناء والاكتفاء لن تتحقق لهم العزة التي كتب الله لهم في كتابه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وبغيره لن يتحقق لهم الاستقلال والسيادة الحقيقية، وهو ما ذكره القرآن: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

ولن يتحقق لهم مكان الأستاذية والشهادة على الأمم، وهو المذكور في قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

QaradawiBooks.com

فلا عِزَّة لأُمَّة يكون سلاحها من صنع غيرها، يبيعها منه ما يشاء، متى يشاء، بالشروط التي يشاء، ويكف يده عنها أَنَّى شاء، وكيف يشاء.

ولا سيادة حقيقية لأُمَّة تعتمد على خبراء أجانب عنها في أخص أمورها، وأدق شؤونها، وأخطر أسرارها.

ولا استقلال لأُمَّة لا تملك قوتها في أرضها، ولا تجد الدواء لمرضاها، ولا تقدر على النهوض بصناعة ثقيلة، إلا باستيراد الآلة والخبرة من غيرها.

ولا أستاذية لأُمَّة، لا تستطيع أن تُبلِّغ دعوتها عن طريق الكلمة المقروءة أو المسموعة، أو المصورة المرئية إلا بشرائها من أهلها القادرين عليها، ما دامت لا تصنع مطبعة، ولا محطة إذاعة، ولا تلفاز، ولا أقمارًا صناعية!

كيف نحقق الكفاية للفرد وللأمة؟

إنَّ تحقيق تمام الكفاية للفرد والاكتفاء الذاتي للأُمَّة، لا يتم اعتباطًا، ولا ينزل رزق الله من السماء في علب.

وقد قال عمر رضي الله عنه: لا يقعدنَّ أحدكم عن طلب الرزق، ويقول: اللهم ارزقني، وقد علم أنَّ السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة[1]!

تحقيق الكفاية على مستوى الفرد:

ولهذا لا بد ـ على المستوى الفردي ـ أن يبحث كل إنسان عن العمل الذي يلائمه، ليكفي نفسه بنفسه، ولا يعيش كَلًّا على غيره، ولا

(١) انظر: الإحياء (٦٢/٢).

QaradawiBooks.com

يستنكف من أي عمل حلال شريف، وإن كان إيراده قليلًا في أول الأمر، فإنَّ القليل يكثر، والصغير يكبر، ودوام الحال من المحال، وسيجعل الله من بعد عُسْرٍ يُسْرًا، وعلى المجتمع والدولة أن يعين الفرد حتى يجد العمل الذي يغنيه، فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وكلكم راعٍ ومسؤول عن رعيته.

ولا يحل للمسلم أن يعتمد على سؤال الآخرين، أو قبول الصدقات منهم، وهو قَوِي سَوِي قادر على الكسب والعمل، فهذا ما حذَّر منه رسول الله ﷺ.

يقول: «**من سأل النَّاس أموالهم تكثرًا، فإنَّما يسأل جمرًا، فليستقل أو ليستكثر**»[١]، فصوَّر المال الذي يأخذه بغير حق في صورة الجمر الذي يُكوَى به.

وفي الحديث الآخر: «**لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مِرَّة سَوِيّ**»[٢].

ذو مرة: أي ذو قوة. وسَوِيّ: أي سليم الأعضاء من الآفات والعاهات المانعة من العمل. وفي عصرنا أمكن التغلب بواسطة العلم على أكثر عاهات المعوَّقين، وأمكن تعليمهم وتدريبهم على أعمال مناسبة لهم، فالواجب على المجتمع المسلم تيسير ذلك للمعوَّقين من أبنائه.

وفي حديث قبيصة بن المخارق رضي الله عنه حدّد الأمور التي تجيز للمسلم السؤال. يقول قبيصة: تحملتُ حَمَالة، فأتيتُ رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال:

(١) رواه مسلم في الزكاة (١٠٤١)، وابن ماجه (١٨٣٨)، كلاهما في الزكاة، عن أبي هريرة.

(٢) سبق تخريجه صـ١٤١.

QaradawiBooks.com

«**أقم حتى تأتينا الصدقة** (يعني: الزكاة) **فنأمر لك بها**»، ثم قال: «**يا قبيصة، إنَّ المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمَّل حَمَالة فحلَّت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلَّت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش** ـ أو قال: سدادًا من عيش ـ **ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجى من قومه: لقد أصابت فلانًا فاقة، فحلَّت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش** ـ أو قال: سدادًا من عيش ـ **فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحت، يأكلها صاحبها سحتًا**»[1].

فهذه هي الأمور الثلاثة التي تبيح المسألة والأخذ من الصدقة: الحَمَالة، والجائحة، والفاقة.

والحَمَالة: أن يقع قتال أو نزاع بين فريقين، فيُصلح إنسان بينهم على مال يتحمله ويلتزمه على نفسه، وقد يكون فوق طاقته، فيصبح من «الغارمين».

والجائحة: آفة تصيب مال الإنسان، كأن يحترق مسكنه أو متجره، أو يسطو عليه اللصوص، أو يذهب السيل بماله، أو نحو ذلك، فهنا تحقق الزكاة له لونًا من الضمان أو التأمين الاجتماعي.

والفاقة: الفقر والعوز والحاجة، تصيب الإنسان بعد أن كانت حاله طيبة، فيحتاج إلى إثبات ذلك، عن طريق ثلاثة من عقلاء قومه يشهدون بحاجته.

تحقيق الكفاية على مستوى الأمة:

وأما تحقيق الكفاية الذاتية على مستوى الأمة، فهذا أمر في غاية الأهمية، وله وسائله وأدواته، التي يجب على الأمة بالتضامن رعايتها نظرًا، وتطبيقها فعلًا، وبخاصة أولو الأمر الذين ولّاهم الله أمر الأُمَّة؛ من هذه الوسائل:

(١) رواه مسلم في الزكاة (١٠٤٤)، وأحمد (٢٠٦٠١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ضرورة التخطيط:

١ ـ لا بد من التخطيط القائم على الإحصاء الدقيق، والأرقام الحقيقية، والمعرفة اللازمة بالحاجات المطلوبة ومراتبها ومدى أهميتها، والإمكانات الموجودة، ومدى القدرة على تنميتها، والوسائل الميسورة لتلبية الحاجات، والتطلع إلى الطموحات.

وقد ذكر لنا القرآن الكريم نموذجًا من التخطيط امتد لخمسة عشر عامًا، قام به رسول كريم من رسل الله، هو يوسف الصديق عليه السلام، وبهذا التخطيط ـ الذي شمل الإنتاج والادخار والاستهلاك والتوزيع ـ واجه أزمة المجاعة، والسَّنوات العجاف، التي حلت بمصر، وما حولها، كما قصّ ذلك علينا القرآن الكريم في سورة يوسف.

تهيئة الطاقات البشرية وحُسن توزيعها:

٢ ـ يجب على الأمة أن تطوِّر نظامها التعليمي والتدريبي، بحيث يهيئ لها الطاقات والكفايات البشرية المتنوعة في كل مجال تحتاج إليه، وأن تُطوِّر نظامها الإداري والمالي بحيث تنمي هذه الطاقات، وتحسن تجنيدها، وتوزيعها على شتى الاختصاصات بالعدل، اهتداءً بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وملء الثغرات التي تهمل ـ عادة أو غفلة ـ بالحوافز أو بالإلزام.

ووضع كل إنسان في المكان المناسب له، والحذر من إسناد الأمر لغير أهله: «**إذا وُسِدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**»[1].

(١) رواه البخاري في العلم (٥٩)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

ومن ثم كان حرص الإسلام على الثروة البشرية، والمحافظة عليها والعمل على تنميتها: جسميًّا وعقليًّا وروحيًّا وعلميًّا ومهنيًّا، وكانت الموازنة بين الدين والدنيا دون طغيان أو إخسار.

حُسن استغلال الموارد المتاحة:

٣ ـ حُسن استغلال الموارد الاقتصادية والإمكانات المادية للأُمَّة، بحيث لا تهدر شيئًا منه، والمحافظة عليها باعتبارها أمانة يجب أن تُرعى، ونعمة يجب أن يُشكر الله تعالى باستخدامها أحسن استخدام وأمثَلَه.

ومن أجل هذا لفت القرآن أفكارنا إلى ما سخَّر الله لنا ممَّا في السماوات والأرض، وما في البر والبحر.

وحمل بشدة على الذين يهدرون أجزاء من الثروة الحيوانية، اتباعًا لأقاويل شركية خرافية، فحرَّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله، وناقشتْ ذلك سورة «الأنعام» مناقشة مطوَّلة مفصَّلة في جملة آيات.

يقول تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٢ ـ ١٤٤].

وكذلك سورة المائدة: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

QaradawiBooks.com

وقد رأينا كيف نبَّه الرسول الكريم على وجوب الانتفاع بأي مادة خام[١]، وعدم إهدارها وتضييعها، وإن استهان الناس بها، مثل جلد الشاة الميتة.

بل إنَّ النبي ﷺ ليحذر من التفريط حتى في اللُّقمة تسقط من آكلها، فينبغي أن يميط عنها الأذى ويأكلها، ولا يدعها للشيطان. كما ينبغي له أن يلعق الصفحة أو يُلِعقها، ولا يدع الفضلات تُلقَى في سلال القمامات، سرفًا واستهتارًا.

ومما يجدر التنبيه عليه هنا: توجيه النبي ﷺ إلى زراعة الأرض لمن قدر أن يزرعها بنفسه، أو بإعارتها لمسلم آخر يستطيع أن يزرعها.

وفي هذا جاء الحديث: «**من كانت له أرض فليزرعها، فإن لم يستطع أن يزرعها، وعجز عنها، فليمنحها أخاه المسلم**»[٢].

وإذا تيسر له المزارعة عليها بجزء شائع من غلَّتها فهو حسن أيضًا، من باب التعاون بين مالك الأرض والفلاح المزارع، أشبه بالمضاربة التي يتعاون فيها رأس المال والجهد، كما يمكن إجارتها بمال معلوم، كما هو رأي جماعة من الفقهاء، وإن كنَّا لا نرجحه[٣].

وقد زارع النبي ﷺ اليهود على أرض خيبر بالشطر ممَّا يخرج منها.

وقال عمر بن عبد العزيز: «زَارِعوا على الأرض بنصفها، بثلثها، بربعها... إلى عُشرها، ولا تدعوا الأرض خرابًا»[٤].

---

(١) انظر: ما كتبناه من قبل عن المحافظة على الموارد.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الهبة (٢٦٣٢)، ومسلم في البيوع (١٥٣٦)، عن جابر.

(٣) انظر كتابنا: الحلال والحرام صـ ٢٨٧ ـ ٢٩٥، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م.

(٤) المحلَّى (٥٠/٧)، مسألة (١٣٢٩).

QaradawiBooks.com

كما رأينا كيف أنكر الرسول ﷺ بشدة على من قتل عصفورًا عبثًا، وأخبر أنَّه سيشكو إلى الله قاتله يوم القيامة قائلًا: يا ربِّ، قتلني عبثًا ولم يقتلني منفعة![١]

ويلحق بالعصفور كل المباحات التي يُحصل عليها بالصيد ونحوه، من ثروة برية أو بحرية، فلا يجوز العبث بها، ولا المساس بها بغير ما فيه منفعة الناس. ومثل ذلك كل الثروات الحيوانية والزراعية والمعدنية.

كما أنكر النبي عليه الصلاة والسلام ـ في حديث آخر ـ استخدام الشيء في غير ما خُلِق له بالفطرة أو بالعادة.

فقد جاء في «الصحيح»: «أن رجلًا ركب بقرة فتكلمت، فقالت: ما لهذا خُلِقتُ! إنما خُلِقتُ للحرث!»[٢].

فهل تكلَّمت بلسان الحال، وقد يكون أبلغ من لسان المقال؟ أو هو كلام حقيقي من باب الخوارق، وهو الظاهر من سياق الحديث، وما ذلك على الله بعزيز.

المهم هنا، ما يشير إليه الحديث من الحث على استخدام الشيء فيما خُلِقَ له.

ويحسن بنا هنا أن نشير إلى قوله تعالى في الوصية بمال اليتيم: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

(١) سبق تخريجه صـ ١٦٩.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الحرث والمزارعة (٢٣٢٤)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨٨)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

وقد تكرَّر ذلك في القرآن بهذه الصيغة نفسها، فلم يكتف القرآن منَّا أن نقرب مال اليتيم بطريقة حسنة وحسب، بل بالتي هي أحسن، فإذا كانت هناك طريقتان لتنمية مال اليتيم والمحافظة عليه: إحداهما حسنة جيدة، والأخرى أحسن منها وأجود، كان الواجب علينا أن نستخدم التي هي أحسن وأجود، بل حرام علينا ألَّا نستخدم إلا التي هي أحسن، كما هو مفهوم التعبير بالنهي وأسلوب القصر.

ومال الأُمَّة في مجموعه أشبه بمال اليتيم، والدولة التي ترعاه ومؤسساتها المسؤولة عنه أشبه بولي اليتيم، كما شبَّه عمر نفسه مع بيت المال بولي اليتيم: إن استغنى استعفّ، وإن افتقر أكل بالمعروف. ولهذا يجب أن نحافظ على أموال الأمة وثرواتها، ونعمل على تنميتها بالتي هي أحسن.

تنويع الإنتاج وفق حاجة الأمة:

٤ ـ ومن القيم المطلوبة في الإنتاج في ظل اقتصاد إسلامي: أن يتنوع الإنتاج ويتعدد، وفق حاجات الأمة المتنوعة، ومطالبها المتعددة: علمية وعملية، زراعية وصناعية، فنية ومهنية، مدنية وعسكرية.

فإذا كان «المنتجون» في الاقتصاد الرأسمالي الغربي، يبحثون عمَّا يحقق لهم الربح أولًا، بل أعلى عائد منه ما أمكن ذلك، بغض النظر عن حاجة الأُمَّة أو عدم حاجتها. فإنَّ «المُنتِج المسلم» يهمه ـ قبل كل شيء ـ ما ينفع الناس، وما يحتاج إليه الناس؛ لأنَّه يعمل لآخرته كما يعمل لدنياه، ويسعى لإرضاء مولاه، قبل أن يُرضي هواه.

وأولى الناس برضوان الله ومثوبته: مَن وجد ثغرة في اقتصاد الأمة قد أُغفلت، فعمل على سدِّها.

QaradawiBooks.com

فمن المقرر لدى فقهاء المسلمين: أنَّ كل علم أو عمل، أو حرفة أو مهارة، يحتاج إليها جماعة المسلمين، ففرض كفاية عليهم أن يتقنوها ويقوموا بها، بحيث تكتفي الأمة اكتفاءً ذاتيًّا، تستغني به عن غيرها، ولا تكون عالة على سواها، ممَّن لا يدين بدينها، وقد لا يضمر لها ودًّا ولا خيرًا.

وإذا لم يتنبه الأفراد بفطرتهم ووعيهم الذاتي إلى مثل هذه الفروض الكفائية، فواجب أولي الأمر أن يخططوا لتنويع الإنتاج وتوجيهه، حتى يُلَبِّي كل حاجات المجتمع المسلم، ومطالبه المادية والمعنوية.

ولقد نبَّه القرآن الكريم على ضرورة التخصص، وذلك حين نفر الناس للجهاد متحمسين، وغفلوا عن طلب العلم والتفقه في الدين؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وكما لا يجوز ترك التفقه في الدين اشتغالًا بالجهاد، كذلك لا يجوز ترك العلوم والصناعات الأخرى الضرورية لحياة الناس انشغالًا بالفقه، وهذا ما عاب به الإمام الغزالي أهل عصره، حيث يوجد في البلد الواحد عشرات المشتغلين بالفقه، ولا يوجد فيه إلا طبيب من أهل الذمة!

ولقد أنزل الله في كتابه سورةً سميت: «سورة الحديد»، ذكر الله فيها آية دلَّت على أهمية هذا المعدن في حياة الناس الدينية والدنيوية، وأشارت إلى منافعه المدنية والحربية، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]، ففي قوله: «بأس شديد» إشارة إلى أهمية الحديد للصناعة الحربية، وفي قوله: «منافع للناس» إشارة إلى أهميته في الصناعة المدنية، وإن كان الذي يؤسف له: أنَّ أمة سورة الحديد لم تتقن صناعة الحديد، لا في المجال الحربي، ولا في المجال المدني.

QaradawiBooks.com

ومن واجب المسلمين أن يُنفِّذوا أمر الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وخيل عصرنا تتمثل في الدبابات والمدرعات وغيرها، ولا يمكن تنفيذ الآية الكريمة وما في معناها من النصوص إلا بإنتاج صناعي متقدم، وهو يحتاج إلى علوم تهيئ له، وتكنولوجيا تخدمه، فلا بد من توافرها جميعًا، وتيسير أسبابها، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ولقد حثَّت الأحاديث النبوية الشريفة على الزراعة، ورغَّبت فيها بأبلغ أساليب الترغيب.

وحثَّت كذلك على الصناعة، ورغبت فيها بأبلغ أساليب الترغيب.

وحثَّت على التجارة، حثها على الزراعة والصناعة.

وما ذلك إلا ليتكامل الإنتاج في كل هذه النواحي، ولا تُترك ناحية يظهر فيها ضعف الأمة، وافتقارها إلى غيرها، فيُتحَكم فيها من خلالها ويُمسَك بتلابيبها.

وانظر إلى هذا الحديث الذي رواه ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «**إذا تبايعتم بالعِينة[1]، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلَّط الله عليكم ذلًّا لا ينزعه، حتى ترجعوا إلى دينكم**»[2].

---

(١) العِينة: أن يبيع السلعة بثمن معلوم لأجل، ثم يشتريها منه في الحال بأقل منه، تحايلًا على أكل الربا، فهو بيع صوري، السلعة فيه غير مقصودة، وإنَّما هي وسيلة للتحليل فقط.

(٢) رواه أحمد (٤٨٢٥)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف لانقطاعه. وأبو داود في البيوع (٣٤٦٢)، وقال ابن القطان في بيان الوهم والإيهام (٢٩٦/٥): رجاله ثقات، وقوَّاه ابن القيم في تهذيب سنن أبي داود (١٠٤/٥)، وصحَّحه الألباني في غاية المرام (١٦٠)، عن ابن عمر. وقد تكلَّمنا عليه في كتابنا: بيع المرابحة للآمر بالشراء صـ ٥٧، ٦٢، ٦٣، نشر دار القلم، الكويت، ط٢، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م.

QaradawiBooks.com

والعِينة: معاملة صورتها بيع، وحقيقتها ربا، وأخذ أذناب البقر: رمز إلى الاستكانة، وإخلاد كل امرئ إلى شؤونه الخاصة، وأخذ كل واحد بذَنب بقرته، والاكتفاء بالزراعة، وإهمال الصناعة، وخصوصًا الحربية، وهذا نقص في الكفاية الإنتاجية للأمة يُعرِّضها للخطر، ولا سيما إذا أضيف إلى ذلك ترك الجهاد في سبيل الله.

ولقد رأينا المسلمين في عصور الالتزام والازدهار ـ في مجال الإنتاج ـ يحرصون على الأعمال النافعة، ويمتنعون عن تربية الخنازير، وصناعة الخمور، وصناعة الأصنام والتماثيل، وغير ذلك من الأشياء التي حرمها الإسلام، على الرغم ممَّا قد يكون وراءها من مكاسب مغرية.

ورأيناهم يتقرَّبون إلى الله تعالى بالزراعة والغرس، والصناعات والحرف المختلفة، حتى إنَّ كثيرًا من كبار العلماء في شتى التخصصات والعلوم الإسلامية، ليُنسَبون إلى حرفهم وصناعاتهم؛ ولهذا عرف تاريخ الطبقات والتراجم عندنا أمثال: الخصَّاف، والجصَّاص، والقفَّال، والخرَّاز، والبزَّار، والخيَّاط، والصبَّاغ، والبزَّاز، والزيَّات... وغيرهم.

وكان العلماء الربانيون يوصون مريديهم ومَن استنصحهم أن يشتغل أحدهم بصناعة مهمة، ليكون في قيامه بها كافيًا عن المسلمين أمرًا مهمًّا في الدين[1].

ومن بدائع ما ذكروا: اختلافهم: أيُّ الحِرَف والأعمال أفضل وأكثر تحصيلًا للثواب من الله تعالى: الزراعة، أم الصناعة، أم التجارة؟

ففي فضل كل منها وردت نصوص وأحاديث وآثار.

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٨٣/٢).

QaradawiBooks.com

فبعضهم قال: أفضلها الزرع والغرس، لما ورد في فضلهما من أحاديث، حتى إنَّ الزارع والغارس ليؤجر على ما يؤكل من ثمره وجناه ـ ولو لم يقصده ـ حتى ما يأكله الطير والحيوان، ويظل أجره ممتدًّا ما انتفع به منتفع من خلق الله ـ من إنسان أو حيوان ـ إلى يوم القيامة.

وبعضهم قال: بل الصناعة أفضل، لما ورد من حديث: «**ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإنَّ نبي الله داود كان يأكل من عمل يده**»(١).

وحديث: «**خير الكسب كسب يد العامل إذا نصح**»(٢).

وبعضهم قال: بل التجارة أفضل، لما ورد أنَّ: «**التاجر الصدوق يحشر مع النبيين والصِّدِّيقين والشهداء**»(٣).

ولأنَّ الخيرة من كبار الصحابة ﷺ كانوا تجارًا، مثل: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، وغيرهم.

والذي رجحه المحققون: هو التفصيل في الجواب، دون التعميم والإطلاق؛ ومن هنا قالوا:

إنَّ الأفضل منها ما اشتدت حاجة الناس إليه، وانشغل الناس عنه، فإذا انصرف الناس عن الزراعة إلى الصناعة أو التجارة، لكثرة مكاسبهم

---

(١) رواه البخاري في البيوع (٢٠٧٢)، عن المقدام بن معديكرب.

(٢) رواه أحمد (٨٤١٢)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. وابن المنذر في الأوسط (٨٢٦٣)، والبيهقي في الآداب (٧٨١)، ووثق المنذري رواةَ أحمد في الترغيب والترهيب (١١٦١)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه الترمذي (١٢٠٩)، وقال: حديث حسن. والدارمي (٢٥٨١)، والدارقطني (٢٨١٣)، ثلاثتهم في البيوع، وحسَّنه ابن القطان في الوهم والإيهام (٤/٤٧٨ ـ ٤٧٩)، وقال الذهبي في الميزان (٣/٤١٣): جيد الإسناد صحيح المعنى، عن أبي سعيد الخدري.

QaradawiBooks.com

بها، مع مسيس حاجتهم إلى الأقوات والثمار، كانت الزراعة أفضل، وأعظم مثوبة عند الله.

وإذا انصرف الناس عن الصناعات والحِرَف، وأصبحوا فيها عالة على غيرهم من غير المسلمين، كان العمل في هذا الميدان أولى وأعظم أجرًا.

وإذا احتاج الناس إلى التجارة، لانقطاع الطرق، أو لوجود مخاطر شديدة، أو لقِلَّة المكاسب بها، أو لغلبة بعض الأفراد أو الفئات على الأسواق، وتلاعبهم بالأسعار، واحتكارهم للسلع والأقوات، وحاجة الناس إلى تجار صالحين غير جشعين ولا مستغلين، تكون التجارة هنا أفضل، وأعظم أجرًا.

ومن اللازم هنا ـ لكي تكتفي الأُمَّة اكتفاءً ذاتيًّا ـ أن يتم التنسيق بين جوانب الإنتاج المختلفة، فلا يطغى فرع على فرع، ولا يُهمل جانب لحساب جانب آخر، فلا يحسن أن تُوجَّه العناية إلى الزراعة مثلًا، في حين يُهمل أمر الصناعة، أو العكس، أو يُوجَّه التعليم لتخريج أطباء، ويُنسى المهندسون، أو العكس، أو يُهتم بالهندسة المدنية أو الميكانيكية، وتُغفل الهندسة الإلكترونية أو النووية... أو يُعنى بالجوانب النظرية، والكفايات العقلية العالية، وتُغفل الجوانب العملية، والمهارات اليدوية، والخبرات المتوسطة والدنيا... وهكذا.

لهذا أكدنا على ضرورة التخطيط القائم على الدراسة والإحصاء لمعرفة حاجات المجتمع من كل تخصص للعمل على تلبيتها، والتعرف على أوجه النقص لاستكمالها.

QaradawiBooks.com

ويجب في ميدان الإنتاج تقديم الأهم على المهم، والمهم على غير المهم. أو ـ على حدِّ تعبير الأصوليين ـ تقديم «الضروريات» التي لا تقوم الحياة إلا بها، على «الحاجيات» التي تكون الحياة بدونها شاقة وعسيرة، وتقديم «الحاجيات» على «التحسينات»، أو ما نسميه بلغة العصر «الكماليات».

فلا يجوز لمجتمع أن يزرع الفواكه الغالية الثمن، التي لا تهم غير الأثرياء والمترفين، في حين يهمل زراعة القمح أو الذرة أو الأرز، التي هي القوت اليومي للجماهير.

ولا يجوز إقامة مساكن اصطياف للأثرياء على الشواطئ، وترك بناء المساكن الضرورية للفقراء.

ولا يجوز الاهتمام بصناعة العطور وأدوات الزينة و«المكياج»، في حين لا تتجه الهمة إلى صناعة أدوات الزراعة، أو الري، أو السيارات، أو صناعة الدواء الضروري للصحة، أو السلاح الضروري للدفاع عن الحوزة.

أما إنتاج ما يضر بالفرد أو بالمجتمع، ماديًّا أو معنويًّا، جسميًّا أو روحيًّا، فهو مرفوض حتمًا، ومحظور شرعًا، مثل زراعة الكروم لتُعصر خمرًا، أو زراعة الخشخاش أو الحشيش وغيره من مصادر المخدرات، أو زراعة التبغ «أو تصنيعه»، أو القات[1]، ونحوها، ممَّا فيه استخدام نِعَم الله تعالى في معصية الله أو ضرر خلقه.

(١) مما يؤسف له أشد الأسف: أن نحو (٣٠٪) ثلاثين في المائة من أرض اليمن تُزرع بالقات، الذي إن لم يضر فلا نفع له، إلا إضاعة الأوقات، وإشاعة الكسل، وكان الأولى أن تزرع بالحبوب والخضراوات والفواكه ونحوها مما ينفع الناس. انظر كتابنا: فتاوى معاصرة، فتوى حكم تناول القات (٥٦١/٢ ـ ٥٦٦)، نشر دار الوفاء، المنصورة، ط ٣، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

QaradawiBooks.com

تشغيل الثروة النقدية:

٥ ـ ومن الواجب على المجتمع المسلم: أن يخرج بالنقود من قمقم «الكنز»، إلى باحة الحركة، والعمل، فإنَّ النقود لم تُخلق لتُحبس وتُكتنز، إنَّما خُلِقت لتتداول، وتنتقل من يد إلى يد: ثمنًا لبيع، أو أجرًا لعمل، أو عين يُنتفع بها، أو رأس مال لشركة أو مضاربة، فهي وسيلة لأغراض شتى، وليست هي غرضًا في ذاتها، ولا يجوز أن يحولها النَّاس إلى وثن يعبدونه ويطوفون به، فهذا سبب التعاسة والشقاء: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم**»[(١)].

ولقد تحدَّث الإمام الغزالي في «الإحياء» عن وظيفة النقود في الحياة الاقتصادية حديثًا سبق به فلاسفة الاقتصاد في العصر الحديث. فقد ذكر أنَّ الله تعالى خلق الدراهم والدنانير (يعني: النقود) لتتداولهما الأيدي، وليكونا حاكمين متوسطين بين الأموال بالعدل، ولحكمة أخرى، وهي: التوسل بهما إلى سائر الأشياء؛ لأنَّهما عزيزان في أنفسهما، ولا غرض في أعيانهما، ونسبتهما إلى سائر الأشياء واحدة، فمَن مَلَكها فكأنَّه مَلَك كل شيء، لا كمن مَلَك ثوبًا فإنَّه لم يملك إلا الثوب... فكل من عمل فيهما عملًا لا يليق بالحكم، بل يخالف الغرض المقصود بالحكم (أي: بين الأموال) فقد كفر نعمة الله فيهما، فإذن مَن كنزهما فقد ظلمهما، وأبطل الحكمة فيهما، وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن يمتنع عليه الحكم بسببه... فأخبر الله تعالى الذين يعجزون عن قراءة الأسطر الإلهية، المكتوبة على صفحات الموجودات، بكلام سمعوه حتى وصل إليهم المعنى بواسطة الحرف

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٨٦، ٢٨٨٧)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

والصوت، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1] [التوبة: ٣٤].

وقد فرض الله الزكاة على النقود في كل حَـوْل، نمَّاها مالكها أم لم ينمِّها، لتكون حافزًا قويًّا يدفعه إلى تنميتهـا وتحريكها، حتى لا تأكلها الزكاة بمرور الأعوام[2].

وهذا ما أمر به الحديث الأوصياء على أموال اليتامى أمرًا صريحًا: أن يبتغوا في أموال اليتامى ويتجروا فيها حتى لا تأكلها الزكاة.

وقد ذهب بعض الصحابة إلـى أنَّ المال الذي أديـت زكاته فليس بكنز، وإن كان مدفونًا تحت الأرض.

جاء هذا عن عمر وابنه عبد الله رضي الله عنهما.

وهذا لم يصح مرفوعًا عن النبـي ﷺ، وهو خلاف ظاهر اللغة، كما تفيده كلمة «كنز»، فإنَّ معناها الأصلي الدفن والخبء.

* * *

(١) انظر: الإحياء (٤/٨٠ ـ ١٤١).
(٢) انظر: فقه الزكاة (١/٣٢٥).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفِ القَرَضَاوِي

غير مرخصة للطباعة

القيم والأخلاق
في مجال الاستهلاك

- الإنفاق على الطيبات ومحاربة الشُّح والتقتير.
- مقاومة الترف والسرف والتبذير.
- القانون بجوار الإرشاد والتوجيه.

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

القيم والأخلاق... في مجال الاستهلاك

إنَّ معظم الاقتصاديين جعلوا أكبر همِّهم هو الإنتاج، وركَّزوا جهودهم في زيادته وتحسينه كمًّا ونوعًا.

ولكنَّ زيادة الإنتاج وحدها لا تكفي لأن يحيا الناس حياة طيبة، فقد يبدَّد هذا الإنتاج ـ كله أو جله أو نصفه ـ في أمور لا يصح بها جسم، ولا تطمئن بها نفس، ولا يزكو بها خُلُق، ولا تسعد بها أسرة، ولا يستقيم عليها مجتمع.

تصور بلدًا ينفق نصف موارده أو ثلثها في شرب الخمور وألوان الأنبذة والمُسْكرات، أو المخدرات المحطمة للأبدان والأنفس والإرادات[1].

إنَّه لا قيمة لإحسان الإنتاج إذا لم يحسن الناس استهلاك ما ينتجون.

لهذا كان لا بد من توجيه عناية كبرى إلى المستهلِك ـ أي: إلى الإنسان ـ الذي ينتفع بالإنتاج، لا بد أن يتعلم ويحسن عن طريق الوعي والتربية: ماذا يستهلك؟ وكم يستهلك؟ وكيف يستهلك؟ ولِمَ يستهلك؟ ومتى يستهلك؟

(١) قالوا: إن المُسْكرات في الولايات المتحدة الأمريكية تكلف الشعب والدولة ما يُقدَّر بمبلغ خمسة وسبعين مليار دولار سنويًّا!.

QaradawiBooks.com

إنَّ التنمية الاقتصادية قد تكون بأن تجعل الناس يزيدون الإنتاج من ألف إلى ألفين (١٠٠٠ ـ ٢٠٠٠)، وقد تكون بأن تجعلهم ينقصون الاستهلاك من ألفين إلى ألف (٢٠٠٠ ـ ١٠٠٠)، إذا كان هذا النقص لا يخل بحاجاتهم ومطالب حياتهم. أريد بهذا ألا تحرمهم من حلال طيب كانوا يتمتعون به في قصد واعتدال، بل تحول بينهم وبين شهوات محظورة كانوا يسترسلون فيها، أو الإسراف في حلال لا حاجة إليه.

وبذلك توفر طاقات كانت تتبدى سُدًى، وتضيع عبثًا، فتتحول إلى عمل آخر، وإلى جهد بنَّاء، في ركن من أركان الحياة.

ومثل ذلك في الحظر أن ينتج الناس «الطيبات» ولا يتمتعون بها، بل يحرمون أنفسهم منها، وينتجوا الكثير من «زينة الله» التي أخرج لعباده، ومع هذا لاينتفعون بها، وهذا ما أنكره القرآن أشدَّ الإنكار: ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ** ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وقد تكون التنمية بزيادة الإنتاج وترشيد الاستهلاك معًا، وهذا هو منهج الإسلام.

وسنتحدث عن ذلك في فصلين: أولهما عن الإنفاق على الطيبات ومحاربة التقتير، والآخر عن محاربة الترف والسرف والتبذير.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الإنفاق على الطيبات ومحاربة الشُّح والتقتير

الإنفاق على الطيبات في اعتدال:

إنَّ إنتاج الطيبات مطلوب، وتملك المال مشروع، في الإسلام.

ولكنَّ تملك المال ليس غاية في ذاته، وإنَّما هو وسيلة إلى التمتع بزينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، ووسيلة إلى تحقيق مصالح عامة للجماعة، لا تتم إلا بالمال الذي جعله الله للناس قيامًا.

فأما أن يملك الإنسان المال ليمسكه ويكنزه، ويكاثر بجمعه وعدده، ويحرم نفسه وأهله من ثمراته، أو يحرم الجماعة من المشاركة في خيراته، فهذا انحراف عن هدي الله، وسنن المؤمنين، وتنكُّر لحق الاستخلاف، الذي قرره الله تعالى بقوله: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

ثم إنَّ الإنفاق أو الاستهلاك هو الذي يدفع الجماعة لتنتج، حتى تلبِّي الحاجات، وتشبع المطالب، ولو كفَّ الناس عن الاستهلاك، وغلب عليهم الشُّح والإمساك، لتعطلت عجلة الإنتاج، وتأخَّر المجتمع عن غيره، لعدم وجود قوة شرائية، تستخدم ما ينتج من سلع.

ولهذا تسعى بعض الدول الصناعية لمساعدة بعض الدول النامية، وإقراضها عشرات الملايين، بل مئاتها، وليس ذلك حبًّا لها، ولا ابتغاء

QaradawiBooks.com

مثوبة الله فيها، بل لتخلق منها قدرة شرائية لبضائعها، فهي تصنع بقروضها ـ وأحيانًا معوناتها ـ سوقًا لمصنوعاتها.

وجوب الإنفاق:

والأمر بالإنفاق عقب الأمر بالإيمان بالله ورسوله، يدل بوضوح على أنَّ الأمر للوجوب لا لمجرد الإرشاد أو الندب.

واقتران الإيمان بالإنفاق كثير في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾؟ [النساء: ٣٩].

والقرآن يجعل الإنفاق صفة أساسية من صفات المؤمنين، كإقامة الصلاة التي هي عمود الدين، كما قال تعالى في وصف المتقين في مطلع سورة البقرة: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣].

وفي سورة الأنفال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤].

وفي القرآن المكي نقرأ مثل قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

وقد اختلف المفسِّرون في تحديد المراد بهذا الإنفاق: أهو الزكاة المفروضة؟ أم صدقة التطوع؟ أم النفقة على الأهل؟ ورجَّح المحققون أنَّ اللفظ يشمل كل إنفاق، واجبًا كان أو مستحبًّا، على النفس والأهل، أو في خير الجماعة، وفي سبيل الله[1].

(١) انظر: تفسير القرطبي للآية الثالثة من سورة البقرة (١٧٩/١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ومن أسرار التعبير القرآني: أنَّه جعل الإنفاق المطلوب مما رزق الله أي بعض مـا رزق الله، ومعنى هـذا: أنَّه ينفق البعـض، ويدخر البعض الآخر، ومن أنفق بعض ما يكتسب، فقلَّما يفتقر، وقد صح أنَّ النبي ﷺ كان يدخر لأهله قوت سـنتهم[١]؛ فهذا لا ينافي التوكل على الله تعالى، ولا الزهد في الدنيا؛ لأنَّه من الأخذ بالأسباب المشروعة.

وإذا تعوَّدت الأمـة الادخار، وأصبح هذا خُلُقًـا عامًّا لها، اجتمعت لديها مقادير هائلـة من الأموال، تسـتطيع أن توظفها فيمـا يعود على المجتمع كلـه بالخير وأبـرك الثمرات، وتسـد به ثغرات فـي الحياة الاقتصادية، بدل أن تلجأ إلى الاستدانة من الخارج بالربا، الذي يمحقه الله، والذي آذن الله تعالى مرتكبيه بحرب الله ورسـوله، ونحن نرى آثار هذا المحق وهـذه الحرب، في هـذه المليارات من الديـون وخدمتها وفوائدها، التي أرهقت شـعوبنا ومجتمعاتنا، حتى أمست تحاول توفية الديون بديون أخرى، على نحو ما قال الشاعر قديمًا:

إذا ما قضيتَ الدَّيْنَ بالدَّيْنِ لم يكن قضاءً، ولكن كان غُرمًا على غُرم![٢]

وجهتا الإنفاق المطلوب:

ومن هنا يتبين لنا أنَّ للإنفاق وجهتين:

الوجهة الأولى: الإنفاق في سبيل الله.

والوجهة الأخرى: الإنفاق على النفس والأهل.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في النفقات (٥٣٥٧)، ومسلم في الجهاد (١٧٥٧)، بلفظ: عن عمر، أن النبي ﷺ كان يبيع نخل بني النضير، ويحبس لأهله قوت سنتهم.

(٢) نسبه الزمخشري لثعلبة بن عمير الحنفي. انظر: ربيع الأبرار (٣٢٥/٤)، نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.

QaradawiBooks.com

الإنفاق في سبيل الله:

الوجهة الأولى الإنفاق في سبيل الله، وقد جاءت الدعوة إلى هذا الإنفاق في القرآن في أساليب وصور شتَّى:

جاءت في صورة الأمر والتحذير، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقد جاء في الحديث تفسير التهلكة بكفِّ اليد عن النفقة في سبيل الله، والاشتغال بتثمير المال الخاص، وترك الجهاد في سبيل الله. فقد قال أبو أيوب الأنصاري: إنَّما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما أعزَّ الله الإسلام وكثر ناصروه، فقال بعضنا لبعض سرًّا: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله أعزَّ الإسلام، وكثر ناصروه، فلو أنَّا أقمنا في أموالنا وأصلحنا ما ضاع منها! فأنزل الله ما يرد علينا ما قلنا... وكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها، وتركنا الغزو[1]، فالتهلكة: الاشتغال بالمصالح الخاصة عن قضايا الأمة العامة.

وجاءت في صورة الإنكار والتحريض: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟ [الحديد: ١٠].

وجاءت في صورة الترغيب في حسن الثواب: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

ومثلها قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ۖ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

---

(١) رواه أبو داود في الجهاد (٢٥١٢)، والترمذي في تفسير القرآن (٢٩٧٢)، وقال: حسن صحيح غريب، والنسائي في الكبرى في التفسير (١٠٩٦١)، وابن حبان في السير (٤٧١١)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح. والحاكم في الجهاد (٤٨/٢)، وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي.

QaradawiBooks.com

وجاءت في صورة الوعيد الشديد بعقوبة الله تعالى وأليم عذابه، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

وهذه الآيات وأمثالها هي التي جعلت أصحاب الرسول ﷺ يتجهون إليه بالسؤال: ماذا ينفقون؟ ذكر القرآن هذا السؤال منهم مرتين، وكأنَّهم قصدوا في إحدى المرتين السؤال عن المصرف، فقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥]... وقصدوا في المرة الثانية السؤال عن قدر المنفق، فكان الجواب: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]... والعفو: هو الفضل عن الغِنَى، إذ «**لا صدقة إلا عن ظهر غنى**»[1]، كما قال ﷺ، ومعنى هذا أنَّ سياسة الإسلام في الإنفاق ألا تطغى النفقة العامة على النفقة الخاصة، وليُبقي الإنسان لنفسه وعياله ما يسعهم، وما لا يحتاج معه إلى سؤال غيره. وهذا ما عبَّر عنه المثل الشعبي السائر: «إذا البيت احتاج الزيت، يحرم على الجامع»!

ولكن لا شك أنَّ هناك حالات خاصة يرتقي فيها بعض النَّاس درجات ودرجات، ويعلو بإيمانه ويقينه وأشواقه العليا، على مطالبه الدنيا، وحاجاته المادية، فيجود بالشيء وهو محتاج إليه، ويُقدِّم غيره

(١) رواه البخاري في الزكاة (١٤٢٦)، وأحمد (٧١٥٥)، عن أبي هريرة.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

على نفسه من باب الإيثار الذي أثنى الله على أهله بقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، ويُقدِّمون حقوق النفقة العامة على حق النفقة الخاصة، يقينًا بما عند الله، واحتسابًا لمثوبته في الآخرة، وإخلافه في الدنيا.

وهذا ما صنعه الصِّدِّيق أبو بكر رضي الله عنه، كما حكى ذلك عمر رضي الله عنه، قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق، فوافق ذلك مالًا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر، إن سبقته يومًا! فجئتُ بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «**ما أبقيتَ لأهلك؟**» قلت: مثله، قال: وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال رسول الله ﷺ: «**ما أبقيتَ لأهلك؟**» قال: أبقيتُ لهم الله ورسوله! قلت: لا أسابقك إلى شيء أبدًا[1].

وإنَّما فعل ذلك أبو بكر، وقبله رسول الله منه؛ لقوة إيمانه بربه، وتوكله عليه، وثقته به، وقوة إيمان أهله وأسرته بما يؤمن به، وصبرهم على ما يصبر عليه، فإذا لم يستيقن ذلك من نفسه وأهله، فلا يجوز له أن يخرج عن ماله، ويبقى عالةً على غيره.

وفي هذا روى جابر قال: كنا عند رسول الله ﷺ، إذ جاءه رجل بمثل بيضة من ذهب، فقال: يا رسول الله، أصبتُ هذه من معدن، فخذها، فهي صدقة، ما أملك غيرها، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ثم أتاه من قِبَلِ ركنه الأيمن، فقال مثل ذلك، فأعرض عنه، ثم أتاه من قِبَلِ ركنه الأيسر، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ثم أتاه من خلفه، فأخذها رسول الله ﷺ

(١) رواه أبو داود في الزكاة (١٦٧٨)، والترمذي في المناقب (٣٦٧٥)، وقال: حديث حسن صحيح. والحاكم في الزكاة (٤١٤/١)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، والبزار (٢٧٠)، وقوَّاه، عن عمر.

QaradawiBooks.com

فحذفه بها، فلو أصابتــه لأوجعته ـ أو لعقرته ـ فقال رســول الله: «**يأتي أحدكم بما يملــك، فيقول: هذه صدقة، ثم يقعد يســتكف الناس** (أي: يتعرض لســؤالهم وأخذ صدقتهم ببطن كفه)؛ **خيــر الصدقة ما كان عن ظهر غِنًى**»[(١)]، وفي رواية: «**خذ عنا مالك، لا حاجة لنا به**»[(٢)].

قال الإمام الخطابي: «في الحديث من الفقــه: أنَّ الاختيار للمرء أن يستبقي لنفســه قوتًا، وألا ينخلع من مِلْكه أجمع مرة واحدة؛ لما يُخاف عليه من فتنة الفقر، وشــدة نــزاع النفس إلى ما خرج مــن يده، فيندم، فيذهب ماله، ويبطل أجره، ويصير كَلًّا على الناس.

وإنَّما لم ينكر على أبي بكر الصديــق ﷺ خروجه من ماله أجمع؛ لما علمه من صحة نيته، وقوة يقينــه، ولم يخف عليه الفتنة، كما خافها على الرجل الذي رد عليه الذهب»[(٣)].

أنواع الإنفاق في سبيل الله:

ولا شك أنَّ الإنفاق في سبيل الله، منه ما هو واجب، كما تدل عليه آيات الأمر أو الإنــكار أو الوعيد... ومنه ما هو مســتحب، وداخل في أعظم القُرُبات إلى الله تعالى.

والإنفاق الواجــب، منه ما هو معيَّن محــدود المقادير والمصارف، كالزكاة التي فرضها الإســلام وجعلها ثالث أركانه العظام... ومنه ما هو

(١) رواه أبو داود (١٦٧٣)، وابن خزيمة (٢٤٤١)، والحاكم (٤١٣/١)، وصححه على شرط مسلم، ثلاثتهم في الزكاة، وقال ابن الملقن في البدر المنير (٤١٦/٧): إسناده جيد، لولا عنعنة ابن إسحاق، عن جابر.

(٢) رواه أبو داود (١٦٧٤)، وابن حبان (٣٣٧٢) كلاهما في الزكاة.

(٣) معالم السنن (٧٧/٢ ـ ٧٨).

QaradawiBooks.com

غير معيَّن ولا محدَّد، بل يُترك لضمائر الأفراد أو لحاجات المجتمع مثل واجب التكافل، والجهاد بالمال... وسيأتي تفصيل ذلك عند الحديث عن التوزيع.

الإنفاق على النفس والأهل وهدي الإسلام فيه:

الوجهة الثانية: الإنفاق على النفس والأهل ومَن يعولهم الإنسان، فلا يجوز للمسلم أن يحرم نفسه وعائلته من الطيبات وهو قادر عليها، سواء أكان دافعه إلى ذلك هو الزهد والتقشف أم الشُّح والبخل.

فالقرآن الكريم ينكر على أدعياء الزهد، ودعاة التنطع، الذين يُحرِّمون على أنفسهم ما أحلَّ الله، فيقول مخاطبًا أفراد الإنسانية جميعًا: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۞ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ﴾ [الأعراف: ٣١، ٣٢].

وهذه الأوامر الإلهية: «خذوا زينتكم» و«كلوا واشربوا...» تفيد الوجوب لا الإباحة كما فهم بعض العلماء، ومثله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۞ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ [المائدة: ٨٧، ٨٨].

والإمام الشاطبي يقول في مثل هذه الأوامر: إنَّها من المباح بالجزء، المطلوب بالكل، على وجه الندب أو الوجوب[1].

(١) انظر: الموافقات (٢٢٦/١، ٢٢٧)، تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، نشر دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

QaradawiBooks.com

فهذه الأوامر الصريحة من الله ﷻ توجب التمتع بالطيبات أكلًا وشربًا وتزينًا في الجملة، لا في التفصيلات.

وكما أنكر القرآن الشظف والحرمان، إذا كان بدافع التزهد والتعبد، أنكره إذا كان الدافع هو الشحُّ بالمال، والحرص على الدنيا، فقد أنكر الرسول ﷺ الشُّح، وجعله إحدى المهلكات[١]، وقال: «**إياكم والشُّح، فإنَّما هلك من كان قبلكم بالشح؛ أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا**»[٢].

ولا شك أن شُحَّ الإنسان على نفسه وعلى أسرته داخل في الذم، فإنَّ من شكر نعمة الله ﷻ استعمالها فيما خُلِقَتْ له، ومنه أن يظهر أثر هذه النعمة عليه، وهذا ما يحبه الله تعالى، ويكره خلافه، ونحن البشر ـ ولله المثل الأعلى ـ لو كان لنا خادم أو تابع، نكسوه بأحسن اللباس، وهو لا يُرى في المجالس إلا في الرث البالي، لعددنا ذلك منه نكرانًا للجميل، أو سوءًا في التصرف.

ولهذا حين جاء رجل إلى النبي ﷺ وعليه ثوب دون، قال له: «**ألك مال؟**» قال: نعم، قال: «**من أي المال؟**» قال: من كل المال قد أعطاني الله تعالى، قال: «**فإذا آتاك الله مالًا فليُرَ أثر نعمة الله عليك وكرامته**»[٣].

---

(١) إشارة إلى حديث: «**ثلاث مهلكات: شُحٌّ مطاع، وهوًى متبع، وإعجاب المرء بنفسه**». رواه البزار (٧٢٩٣)، والطبراني في الأوسط (٥٤٥٢)، وأبو نعيم في الحلية (١٦٠/٢)، والبيهقي في الشعب باب الخوف من الله (٧٤٥)، وقال الألباني: في صحيح الترغيب والترهيب (٤٥٣): حسن لغيره، وقال المنذري في الترغيب والترهيب باب الترغيب في الأذان وما جاء في فضله (٦٥٤): هو مروي عن جماعة من الصحابة، وأسانيده وإن كان لا يسلم شيء منها من مقال فهو بمجموعها حسن إن شاء الله تعالى، عن أنس.

(٢) رواه أحمد (٦٤٨٧)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود في الزكاة (١٦٩٨)، والنسائي في الكبرى في التفسير (١١٥١٩)، عن عبد الله بن عمرو.

(٣) رواه أحمد (١٥٨٨٧)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وأبو داود في =

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

ولا حَرَج على المسلم أن يتأنق في ملبسه، وأن يحرص على أن يكون ثوبه حسنًا، ونعله حسنًا، وأن يبتغي الجمال في كل شيء، فقد روى مسلم، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»، فقال رجل: إنَّ الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا، ونعله حسنًا؟ قال: «**إنَّ الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس**»[(١)].

بطر الحق: رده ودفعه، وغمط الناس: احتقارهم وازدراؤهم.

وقد رواه الحاكم، وفيه أن الرجل قال: يا رسول الله، إنِّي ليعجبني أن يكون ثوبي جديدًا، ورأسي دهينًا، وشِراك نعلي جديدًا، حتى ذكر علاقة سوطه! فقال ﷺ: «**ذاك جمال، والله جميل يحب الجمال، ولكن الكبر من بطر الحق، وازدرى الناس**»[(٢)].

وهكذا بيَّنت السنة النبوية: أنَّ الله تعالى جميل يحب الجمال، كما أنَّه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، كما تأكد ذلك في أكثر من حديث: «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**»[(٣)].

وهذا التوجيه النبوي ينطبق على المأكل والمشرب والمسكن، وسائر مطالب المعيشة، كما ينطبق على الملبس والزينة التي ورد فيها الحديث.

= اللباس (٤٠٦٣)، والنسائي في الزينة (٥٢٢٤)، وصحَّحه الألباني في غاية المرام (٧٥)، عن مالك الجشمي.

(١) سبق تخريجه صـ٧١.

(٢) رواه الحاكم في الإيمان (٢٦/١)، وصحح إسناده، وقال الذهبي: احتجا برواته. عن ابن مسعود.

(٣) رواه الترمذي في الأدب (٢٨١٩)، وحسنه، والطيالسي (٢٣٧٥)، والحاكم في الأطعمة (١٣٥/٤)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٢٦٠)، عن عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

ومن بخل بماله على نفسه، وأهله، فهو أجدر أن يبخل به على ذوي القُربَى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، وعلى المصالح العامة للجماعة الإسلامية، التي كثيرًا ما يُعبَّر عنها بـ «سبيل الله».

لقد نهى الله عن التقتير، وغل اليد عن النفقة، كما نهى عن السرف والتبذير سواء، فإنَّ العدل في الاعتدال، والخير في التوسط، والفضيلة بين الإفراط والتفريط. قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

وليس من حق المسلم أن يُعِنت أهله وأولاده، ويقتر عليهم في معيشتهم، وهو ذو طَوْل وسعة، فقد قال ﷺ: «**كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته... فالرجل في أهل بيته راع ومسؤول عن رعيته**»[(١)]، وقال: «**إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيَّع**»[(٢)]، وقال: «**كفى بالرجل إثمًا أن يضيع من يقوت**»[(٣)].

ودستور القرآن في إنفاق الإنسان على أهله تحدده هذه الآية الكريمة الواضحة: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧]، وفي معناها: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، والمعروف هنا ما تعرفه الفطر السليمة، والعقول الرشيدة، ويقرِّه أهل الفضل والرأي في المجتمع عند الخلاف فيه.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجمعة (٨٩٣)، ومسلم في الإمارة (١٨٢٩)، عن ابن عمر.

(٢) رواه النسائي في الكبرى في عشرة النساء (٩١٢٩)، وأبو عوانة في الحدود (٧٠٣٦)، وابن حبان في السير (٤٤٩٢)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرطهما، وصحح إسناده الحافظ في الفتح (١١٣/١٣)، وصحَّحه الألباني في غاية المرام (٢٧١)، عن أنس بن مالك.

(٣) سبق تخريجه صـ ١٥٠.

QaradawiBooks.com

وقد أباح الإسلام للزوجة أن تأخذ من مال زوجها بغير إذنه إذا قتر في نفقته عليها وعلى أولادها، ما يكفيها وإياهم بالمعروف.

ففي «الصحيح» أنَّ هندًا بنت عتبة ـ أم معاوية ـ قالت: يا رسول الله، إنَّ أبا سفيان رجل شحيح، وليس يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، فقال: «**خذي ما يكفيكِ وولدك بالمعروف**»(١).

ومن النساء من يغلبهن الشُّح، فيبالغن في الحرص على مال الزوج، مبالغة تفضي بهن إلى التقتير في المعيشة، والبخل بالمال عن حقه؛ ولهذا توجه الرسول المعلم ﷺ، إلى بعض ربَّات البيوت محذرًا من عاقبة هذا الحرص المذموم، فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «**لا توكي فيوكَى عليكِ**»(٢)، وفي رواية: «**أنفقي** ـ أو انْفَحِي أو انْضَحِي ـ **ولا تُحصي، فيُحصي الله عليكِ، ولا تُوعي فيُوعي الله عليكِ**»(٣).

والألفاظ الثلاثة ـ أنفقي وانفحي وانضحي ـ مدلولها واحد، والإيكاء: سد رأس الوعاء بالوكاء وهو الرباط، فهو يقول: لا تمنعي ما في يدك فتنقطع مادة بركة الرزق عنك، وهذا في معنى الحديث القدسي: «**أنفق يا ابن آدم يُنفَق عليك**»(٤)، وحديث «الصحيحين»: «**اللهم أعط منفقًا خلفًا، وأعط ممسكًا تَلَفًا**»(٥).

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في النفقات (٥٣٦٤)، ومسلم في الأقضية (١٧١٤)، عن عائشة.

(٢) رواه البخاري في الزكاة (١٤٣٣).

(٣) رواه مسلم في الزكاة (١٠٢٩).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في النفقات (٥٣٥٢)، ومسلم في الزكاة (٩٩٣)، عن أبي هريرة.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠) كلاهما في الزكاة، عن أبي هريرة.

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

إنَّ النفقة على النفس والأهل من باب العادات في الإسلام، ولكنَّ المسلم في استطاعته أن يجعلها من باب القربات والعبادات، إذا صحَّت نيته، وابتغى بها وجه الله تعالى، وفي حديث «الصحيحين» أنَّ رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبي وقاص: «**إنك ما تنفق من نفقة تبتغي بها وجه الله إلا كان لك بها صدقة، حتى اللقمة ترفعها إلى فِي امرأتك**»(١).

وعن أبي مسعود الأنصاري عن النبي ﷺ قال: «**إذا أنفق المسلم نفقة على أهله وهو يحتسبها** (أي: يبتغي أجرها من الله) **كانت له صدقة**»(٢).

والإسلام يجعل النفقة على الأهل والعيال مقدَّمة على النفقة على الفقراء والمساكين وفي سبيل الله وابن السبيل.

يقول الرسول ﷺ فيما رواه أبو هريرة: «**أفضل الصدقة ما ترك غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول**»(٣).

وعنه أيضًا: «**خير الصدقة ما كان عن ظهر غِنًى، وابدأ بمن تعول**»(٤).

وقال فيما رواه أبو أُمامة: «**يا ابن آدم، إنَّك أن تبذل الفضل خير لك، وأن تمسك شر لك، ولا تلام على كَفاف، وابدأ بمن تعول**»(٥).

والفضل: ما زاد على قدر الحاجة، والكفاف: ما كان على قدر الحاجة؛ سمي بذلك لأنَّه يكف عن الحاجة إلى الناس.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الفرائض (٦٧٣٣)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨)، عن سعد بن أبي وقاص.

(٢) متفق عليه، رواه البخاري في النفقات (٥٣٥١)، ومسلم في الزكاة (١٠٠٢).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في النفقات (٥٣٥٥)، ومسلم في الزكاة (١٠٤٢) عن أبي هريرة.

(٤) رواه البخاري في الزكاة (١٤٢٦)، عن أبي هريرة.

(٥) رواه مسلم في الزكاة (١٠٣٦)، والترمذي في الزهد (٢٣٤٣).

QaradawiBooks.com

وفي «الصحيح»: «**دينار أنفقته في سبيل الله** (أي: في الجهاد)، **ودينار أنفقته في رقبة** (أي: في إعتاق رقبة من الرق)، **ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجرًا: الذي أنفقته على أهلك**»[١].

وأخرج مسلم من حديث أبي قلابة، عن أبي أسماء، عن ثوبان، عن النبي ﷺ: «**أفضل دينار ينفقه الرجل: دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه على دابته في سبيل الله، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله**»[٢]... قال أبو قلابة: بدأ بالعيال، وأي رجل أعظم أجرًا من رجل ينفق على عياله يعفهم وينفعهم الله به؟!

قال الطبري: البداءة في الإنفاق بالعيال، يتناول النفس؛ لأنَّ نفس المرء من جملة عياله، بل هي أعظم حقًّا عليه من بقية عياله، إذ ليس لأحد إحياء غيره بإتلاف نفسه[٣].

ومن عناية الإسلام بالنفقة على الأهل والأقارب والخدم ونحوهم، نجد كتب الفقه الإسلامي جميعًا، تخصص كتابًا بينها يبحث في «النفقات» ووجوبها، وشروطها وأدلتها ومقاديرها، بتفصيل وسعة... وتشمل النفقة على الزوجة والأولاد والأبوين والأجداد والجدّات، وآخرين من الأقارب الفقراء، على خلاف بين المذاهب... وكذلك كتب الحديث المرتبة على أبواب الفقه.

ومن لطائف الفقه الإسلامي أنَّه لم ينسَ في هذا المقام الحيوانات التي يملكها الإنسان قالوا: يجب على مالك البهيمة إطعامها وسقيها،

(١) رواه مسلم في الزكاة (٩٩٥)، وأحمد (١٠١١٩)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في الزكاة (٩٩٤)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٦١)، عن ثوبان.

(٣) فتح الباري (٤٩٩/٩)، تحقيق محب الدين الخطيب، نشر دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

QaradawiBooks.com

للحديث المتفق عليه: «**عُذِّبت امرأة في هِرّة حبستها، حتى ماتت جوعًا، فدخلت فيها** (أي: بسببها) **النار، قال الله: لا أنتِ أطعمتيها ولا سقيتيها حين حبستيها، ولا أنت أرسلتيها فأكلت من خشاش الأرض**»[(١)].

فإن عجز عن نفقتها أجبر على حلٍّ من ثلاثة: بيعها، أو إجارتها، أو ذبحها إن كانت تؤكل، إزالةً لضررها وظلمها؛ ولأنَّها إذا تُرِكت بلا نفقة تتلف، وإضاعة المال منهي عنه، فإن أبى فِعْل شيء من ذلك فعل الحاكم الأصلح من الثلاثة، أو اقترض عليه، وأنفق عليها، كما لو امتنع من أداء الدَّيْن[(٢)].

الدار الواسعة الكثيرة المرافق:

ومن الإنفاق ـ أو الاستهلاك ـ المشروع: إنفاق الإنسان في بناء دار أو مسكن له ولعياله، تتميز بما ذكرناه ـ في حديثنا عن مجال الإنتاج ـ بالسعة والجمال وكثرة المرافق.

ولقد كان من دعاء النبي ﷺ عند الوضوء: «**اللهم اغفر لي ذنبي، ووسِّع لي في داري، وبارك لي في رزقي**»، فقيل له: ما أكثر ما تدعو بهذه الدعوات يا رسول الله! قال: «**وهل تركن من شيء**»[(٣)].

ومن المعروف: أنَّ الأدعية النبوية تمثل مطامح الإنسان المسلم، ومطالب حياتيه: الدنيوية والأخروية، وتُجسِّد أشواقه الروحية، وضروراته

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المساقاة (٢٣٦٥)، ومسلم في السلام (٢٢٤٢) عن ابن عمر.
(٢) انظر على سبيل المثال: مطالب أولي النُّهَى (٦٦٢/٥)، نشر المكتب الإسلامي، ط ٢، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.
(٣) سبق تخريجه صـ ٧٢.

QaradawiBooks.com

المادية، وهنا نجد في هذا الدعاء: المغفرة للذنب، وهي مطلب أخروي، والسعة في الدار، والبركة في الرزق، وكلاهما مطلب دنيوي.

كما أنَّ الرسول ﷺ في حديث آخر اعتبر من مقومات السعادة «المسكن الواسع»، وذلك حين قال: «**أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء، وأربع من الشقاوة: المرأة السوء، والجار السوء، والمركب السوء، والمسكن الضيِّق**»[(١)].

وقد روي هذا الحديث بطريق أخرى، ذكرت من عناصر السعادة ثلاثة لا أربعة، فكان منها كذلك الدار الواسعة الكثيرة المرافق، وعكسها ـ في أسباب الشقاء ـ الدار الضيقة القليلة المرافق.

يقول الحديث: «**ثلاث من السعادة، وثلاث من الشقاء، فمن السعادة: المرأة الصالحة، تراها فتعجبك، وتغيب عنها فتأمنها على نفسها ومالك، والدابة تكون وطيئة فتُلحقك بأصحابك، والدار تكون واسعة كثيرة المرافق، ومن الشقاء: المرأة تراها فتسوؤك، وتحمل لسانها عليك، وإن غبت عنها لم تأمنها على نفسها ومالك، والدابة تكون قطوفًا** (أي: بطيئة السير)، **فإن ضربتها أتعبتك، وإن تركتها لم تُلحقك بأصحابك، والدار تكون ضيقة قليلة المرافق**»[(٢)].

---

(١) رواه ابن حبان في النكاح (٤٠٣٢)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري. والبيهقي في شعب الإيمان (٩١٠٩)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٨٢)، عن سعد بن أبي وقاص.

(٢) رواه الحاكم في النكاح (١٧٥/٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد من خالد بن عبد الله الواسطي إلى رسول الله ﷺ، تفرد به محمد بن بكير، عن خالد إن كان حفظه فإنه صحيح على شرط الشيخين. وقال الذهبي: محمد قال أبو حاتم: صدوق يغلط. وقال يعقوب بن شيبة: ثقة. عن سعد بن أبي وقاص.

QaradawiBooks.com

ومن سعة هذه الدار أن يكون فيها مجال لتطبيق التوجيه النبوي في التفريق بين الأولاد في المضاجع إذا بلغوا عشر سنين، فيكون للبنين حجرتهم، وللبنات حجرتهن، ويكون لكل طفل فراشه ـ أي: سريره ـ الخاص، هذا هو الوضع الشرعي الأمثل، فإن عجز أن يكون لكل طفل سريره، فعلى الأقل يكون له غطاؤه المستقل.

ومن سعتها: أن يكون فيها مكان للضيوف الطارئين من الأهل أو الأصهار أو الأقارب، أو الغرباء الطارئين، الذين لهم حق الضيافة التي قررها الإسلام وجعلها للضيف، وخصوصًا في الأماكن التي لا توجد بها فنادق واستراحات عامة.

وفي الحديث: «**أيما مسلم أضاف قومًا، فأصبح الضيف محرومًا، كان حقًّا على كل مسلم نصره، حتى يأخذ بقِرَى ليلته من زرعه وماله**»[(١)].

وفي «صحيح مسلم»: «**فراش للرجل، وفراش لامرأته، وفراش للضيف، والرابع للشيطان**»[(٢)]، وهذا لمن لا ولد له، وإنَّما كان الرابع للشيطان؛ لأنَّه زيادة بلا حاجة ولا مصلحة.

ومن المطلوب في دار الإسلام، بل من المطلوب في كل شيء في حياته ـ أن تكون جميلة، فقد قال ﷺ: «**إنَّ الله جميل يحب الجمال**»[(٣)].

والجمال في هذه الأمور يختلف باختلاف العُرف، ولا بأس بشيء من الزخرفة والتجميل المعقول، دون دخول في دائرة السَّرف والترف

(١) رواه أحمد (١٧١٩٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وأبو داود في الأطعمة (٣٧٥٠)، والطبراني (٢٦٣/٢٠)، والبيهقي في الجزية (٣٣٢/٩)، عن المقدام بن معديكرب.

(٢) رواه مسلم في اللباس (٢٠٨٤)، وأحمد (١٤١٢٤)، عن جابر.

(٣) سبق تخريجه صـ٦٩.

QaradawiBooks.com

والتوسعات التي هدفها المكاثرة والمفاخرة، حتى إنَّ بعض القصور تتكلف الملايين، بل عشرات الملايين، بل مئات الملايين، حتى إنَّ منها: ما وضعت في جدرانه الأحجار الكريمة النفيسة، ومنها: ما طُلِي أو طُعِّم بالفضة والذهب.

ولا يشوش على ما ذكرناه: ما جاء في حديث جبريل المشهور عن أشراط الساعة وأماراتها، فقد ذكر النبي ﷺ منها: «**أن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان**»[(١)]، فالحديث لا ينكر على البنيان المتطاول ـ رأسيًّا أو عموديًّا ـ يرتفع ويشهق، ولو نطح السحاب، أو يتطاول ـ أفقيًّا ـ بالامتداد والتوسع، حتى إنَّ القصر الواحد ليأخذ مساحة قرية كاملة، إنَّما الذي ينكره الحديث هو الانقلاب الاجتماعي والاقتصادي المفاجئ في حياة النَّاس، فيهبط الثراء الهائل فجأة على بعض النَّاس الذين لم يتوقعوه ولم يحلموا به، ولم يكدحوا في اكتسابه، فيفقدهم هذا التغير السريع التوازن في حياتهم وفي سلوكهم وعلاقاتهم، وهو ما شهدناه في كثير من أغنياء الحرب، وأثرياء النفط، وغيرهم ممَّن نزلت عليهم الأموال فجأة، كأنَّما أمطرتهم بها السماء.

وأما ما جاء عن خبَّاب بن الأرت رضي الله عنه، وهو من السابقين الأولين في الإسلام، حين دخل عليه بعض التابعين وهو يبني حائطًا له، فقال: «**إنَّ المسلم ليؤجر في كل شيء ينفقه، إلا في شيء يجعله في هذا التراب**»[(٢)] ـ أي: ما يُنفق في البناء ـ فهو من قوله وليس مرفوعًا إلى النبي ﷺ، وقد قاله في لحظة من لحظات الاستعلاء على الدنيا والزهد

(١) متفق عليه: رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٧٧)، ومسلم في الإيمان (٩)، عن عمر.
(٢) رواه البخاري في المرضى (٥٦٧٢).

QaradawiBooks.com

فيها، وهو مخالف لما في الصحيحين من حديث سعد بن أبي وقاص عن النَّبي ﷺ، قال: «**إنَّك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها، حتى ما تجعل في فم امرأتك**»[(١)]. وعند أحمد: «**المؤمن يؤجر في كل شيء، حتى في اللقمة يرفعها إلى في امرأته**»[(٢)].

وقد حمل العلماء قوله على ما زاد عن الحاجة وتوسع فيه من البنيان.

إنَّ الذي يُنكَر من البنيان هو: قصور الترف والتنعم الزائد التي تشغل الإنسان عن ربه وآخرته، وتطغيه على الفقراء والضعفاء من الناس، وهو ما أنكره نبي الله هود على قومه عاد، حتى دعاهم إلى عبادة الله وحده، وترك ما كان يعبد آباؤهم من الآلهة والأوثان، والإعراض عن حياة المترفين، وبطش الجبارين، قائلًا: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۞ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۞ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۞ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۞ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۞ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٤].

فالإنكار هنا ليس على مجرَّد البناء الرفيع، بل على العبث به، وليس على اتخاذ المصانع ـ أي القصور والبروج المشيدة ـ بل على العيش فيها عيش مَن يُخلَّد، لا عيش مَن يموت.

يقول العلامة ابن كثير: «اختلف المفسِّرون في الريع بما حاصله: أنَّه المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة، يبنون هناك بنيانًا محكمًا هائلًا باهرًا، ولهذا قال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً﴾ أي معلمًا

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٥٦)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨).
(٢) رواه أحمد (١٤٨٧)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن.

QaradawiBooks.com

مشـــهورًا ﴿تَعۡبَثُونَ﴾، أي: وإنَّما تفعلون ذلك عبثًا لا للاحتياج إليه، بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة؛ ولهذا أنكر عليهم نبيهم ذلك؛ لأنَّه تضييع للزمان، وإتعاب للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي فـــي الدنيا ولا فـــي الآخـــرة، ولهذا قـــال: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ﴾ أي لكي تقيموا فيها أبدًا، وذلك ليس بحاصل لكم، بل زائل عنكم كما زال عمَّن كان قبلكم، وقوله: ﴿وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ﴾ يصفهم بالقوة والغلظة والجبروت»[(١)].

ومن هنا نجد نبي الله صالحًا يذكِّر قومه ثمود بما مَنَّ الله عليهم من تمكينهم من اتخاذ القصور في الســـهول، ونحت البيـــوت في الجبال، ويعتبر ذلـــك مـــن آلاء الله عليهـــم، التي يجـــب أن تُقابَل بالشـــكران لا بالكفران، وبالطاعة لا بالعصيان، يقول الله تعالى على لســـان صالح: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

المهم في دار المسلم ألا يَقتني فيها شـــيئًا ممَّا حرَّمه الله عليه، مثل الأواني والتحف الفضية والذهبية، والتماثيـــل، ولا يقتني الكلاب لغير حاجة، حتى لا يحرم بيته من دخول الملائكة إليه[(٢)].

* * *

(١) من تفسير ابن كثير (١٥٢/٦، ١٥٣).

(٢) انظر كتابنا: الحلال والحرام في الإسلام، فصل: في البيت، صـ ١٠٦ ـ ١٣٣.

QaradawiBooks.com

محاربة السرف والترف

إذا كان المنهج الإسلامي قد أوجب على صاحب المال أن ينفق منه على نفسه وأهله وفي سبيل الله، وحرَّم عليه التضييق والتقتير، فإنَّ الشق الثاني من هذا المنهج العادل: أنَّه حرَّم الإسراف والتبذير، ذلك أنَّه وضع قيودًا، وحدَّ حدودًا للاستهلاك والإنفاق، فكما أنَّ المسلم مسؤول عن ماله: من أين اكتسبه؟ هو مسؤول عنه أيضًا: فيمَ أنفقه؟ كما علَّمه النبي ﷺ[1].

وكما أنَّ المسلم ليس حُرًّا في أن يكسب ماله من حرام، فإنَّه ليس حُرًّا في أن ينفق ماله في حرام، بل ليس له أن يسرف في الحلال، فيبعثر الأموال، ذات اليمين وذات الشمال، فهذا خروج على حدود الاستخلاف في مال الله تعالى، وتفريط في حق الوكالة عن مالك المال وخالقه.

لقد أباح الإسلام للمسلم التمتع بطيبات الحياة الدنيا، مخالفًا الرهبانية المسيحية، والمانوية الفارسية، والصوفية الهندية، وغيرها من

(١) إشارة إلى حديث: «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه**». رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤١٧)، وقال: حسن صحيح. وأبو يعلى (٧٤٣٤)، والبيهقي في المدخل (٤٩٤)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٢٦)، عن أبي برزة الأسلمي.

QaradawiBooks.com

المذاهب التي تجمِّد الحياة، وتعوق ازدهار العمران: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف: ٣٢]، ولكنَّه قيَّد هذه الإباحة بألا تتجاوز حدود الاعتدال إلى السرف والترف، فقال تعالى: ﴿ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾ [الأنعام: ١٤١]، ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾ [الأعراف: ٣١]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٧].

إنَّ ترشيد الإنفاق والاستهلاك سُنَّة إسلامية حميدة، سواء في المأكل أو في المشرب، أو في الملبس أو في المسكن أو في أي جانب من جوانب الحياة، وقد مرَّ النبي ﷺ على سعد بن أبي وقاص، وهو يتوضأ، فقال له: «**لا تسرف**»، فقال: أوَ في الماء سرف يا رسول الله؟ قال: «**نعم، وإن كنتَ على نهرٍ جارٍ**»[(١)].

وهذا الذي روي في هذا الحديث نعرف قيمته في عصرنا، حيث تقل المياه، ويكثر استهلاكها، وأمست قِلَّتها خطرًا يهدد البشرية، حتى يقال: إنَّ الحروب القادمة ستكون من أجل الماء، ويتنادى العقلاء في أقطار العالَم بوجوب التقليل من استهلاك المياه، والرشد في استخدامها، فإنَّ أكثر الناس ـ للأسف ـ يسيئون استخدامها، ويسرفون في استعمالها لغير ضرورة.

وفي الأخبار والآثار الواردة ـ فضلًا عن الآيات القرآنية ـ حث على القصد والاعتدال في النفقة.

---

(١) رواه أحمد (٧٠٦٥)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف، وابن ماجه في الطهارة (٤٢٥)، وضعَّفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (٩٦)، ثم حسنه الألباني في الصحيحة (٣٢٩٢)، عن عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

ففي الحديث: «**الهدي الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءًا من النبوة**»[١].

كما روي: «**الاقتصاد في النَّفقة نصف المعيشة**»[٢].

«**من فقه الرجل قصده في معيشته**»[٣].

«**ما عال من اقتصد**»[٤]، أي: ما افتقر مَن أنفق قصدًا، ولم يجاوزه إلى الإسراف، وهذا كما يصدق على الفرد، يصدق على الأمة.

وقال ميمون بن مهران: «التودُّد إلى النَّاس نصف العقل، وحُسن المسألة نصف الفقه، ورفقك في معيشتك تكفي عنك نصف المؤنة»[٥].

إنَّ الأمة التي تعمل بهذه التوجيهات النبوية الرشيدة جديرة ألا يصيبها الفقر والعَيْلة.

---

(١) رواه أحمد (٢٦٩٨)، وقال مخرِّجوه: حسن لغيره. وأبو داود في الأدب (٤٧٧٦)، وحسن إسناده ابن حجر في فتح الباري (٥٠٩/١٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٩٩٣) عن ابن عباس.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٦٧٤٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦١٤٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٢٧): رواه الطبراني في الأوسط، وفيه مخيس بن تميم عن حفص بن عمر، قال الذهبي: مجهولان. عن ابن عمر.

(٣) رواه أحمد (٢١٦٩٥)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٣٠٨): رواه أحمد، وفيه أبو بكر بن أبي مريم، وقد اختلط، وضعفه الألباني في الجامع الصغير (١٢٠٨٧)، عن أبي الدرداء.

(٤) رواه أحمد (٤٢٦٩)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف، والطبراني في الكبير (١٠٨/١٠)، والأوسط (٥٠٩٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٨٤٨): رواه أحمد، والطبراني في الكبير والأوسط، وفي أسانيدهم إبراهيم بن مسلم الهجري، وهو ضعيف. عن ابن مسعود.

(٥) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤٣٦٣).

QaradawiBooks.com

من روائع الترشيد في الاستهلاك:

ومن روائع ما جاء في ترشيد الاستهلاك: ما مرَّ بنا في حديثنا عن الإنتاج، وواجب المحافظة على الموارد، وهو قوله ﷺ فيما رواه عنه أنس: «**إذا سقطت لقمة أحدكم، فليمط عنها الأذى، وليأكلها ولا يدعها للشيطان**»، قال: وأمرنا أن نسلُت القصعة، وقال: «**إنكم لا تدرون في أي طعامكم البركة**»[(١)].

فهذا توجيه نبوي كريم إلى أدب من آداب الطعام، ربما يستنكف منه المترفون والمستكبرون، ومقتضاه: ألا يستحقر الإنسان نعمة من نعم الله تعالى عليه مهما تكن قليلة، أو تافهة في نظره، ولو كانت هذه النعمة لقمة تسقط من الإنسان خطأ، فينبغي له أن يزيل عنها ما علق بها من أذى إن كان، ويأكلها، ولا يدعها تذهب هدرًا بلا فائدة، فمثل هذا الإهدار للنعمة يُعبِّر عنه الشارع بأنَّه يذهب للشيطان، فكل ما لا فائدة فيه، ولا يُنتفع به فمآله إلى الشيطان.

كما يأمر هذا الحديث المسلم: أن «يسلُت» الصحفة: أي يتتبع ما فيها من الطعام ويمسحها بالإصبع ونحوها، ومثل ذلك أن يتتبعها بالملعقة وما شابهها، بحيث لا تبقى فيها فضلة تُرمَى.

ونحو هذا أمره ﷺ بلعق الأصابع والصحفة[(٢)].

فإنَّما قال ذلك؛ لأنَّهم كانوا يأكلون بأيديهم، والمقصود: تعويدهم ألَّا يبقوا فضلات في أواني طعامهم.

---

(١) رواه مسلم في الأشربة (٢٠٣٤)، وأحمد (١١٩٦٤)، عن أنس.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأطعمة (٥٤٥٦)، ومسلم في الأشربة (٢٠٣١)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

ومعنى هذا: ألا تبقى فضلات تُلقَــى في القمامة ولا ينتفع بها أحد، في حين أنَّ هناك من الناس ملايين يحتاجون إليها، وإلى الأقل منها.

وقد يقول قائل: ما قيمة لقمة تسقط، أو فضلة تبقى في صحفة؟!

ولكن الذي ينظر إلى الموضوع من أفق أوسع، أعني على مستوى الأمة المسلمة في مشارق الأرض ومغاربها، ومستوى وجبات ثلاث كل يوم، يعلم أن ذلك يُقدَّر في مجموعه وفي النهاية بعشرات بل بمئات من الملايين!

التنفير من الاستدانة:

وعلى الإنسان المسلم أن يوازن دخله وخرجه، أو بين إيراده ونفقاته، حتى لا يضطر إلى الاستدانة، وذل الاستقراض من الغير.

وقد نفَّر الإسلام من الدَّيْن بأساليب شتَّى.

ففي «الصحيح»: «**يُغفر للشهيد كل ذنب إلا الدَّيْن**»[١].

وعن محمد بن عبد الله بــن جحش قال: كان رســول الله ﷺ قاعدًا حيث توضع الجنائز، فرفع رأســه إلى السماء، ثم خفض بصره، فوضع يده على جبهته، فقال: «**ســبحان الله، سبحان الله! ما أنزل من التشديد؟**» قال: فعرفنا وســكتنا، حتى إذا كان الغد سألت رســول الله ﷺ، فقلت: ما التشديد الذي نزل؟ قال: «**في الدَّيْن، والذي نفسي بيده، لو قُتِلَ رجل في سبيل الله، ثم عاش، ثم قُتِلَ، ثم عاش، ثم قُتِلَ، وعليه دَيْن، ما دخل الجنة حتى يقضي دَيْنه**»[٢].

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٨٨٦)، وأحمد (٧٠٥١)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه النسائي في البيوع (٤٦٨٤)، والحاكم (٢٤/٢)، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٨٠٤).

QaradawiBooks.com

وهذا يدل على خطر حقوق العبـــاد، وبخاصة الحقوق المالية، حتى إنَّ الشهادة في سبيل الله ـ وهي أسمى ما يطلبه المؤمنون ـ لا تقوى على تكفيرها وحدها، بل حتى لو افترض تكرارها، كما ذكر هذا الحديث.

ولهذا كان الرسول ﷺ في أول أمره يمتنع عن الصلاة على الميت إذا مات وعليـــه دَيْن، ولم يتـــرك وفاءً فـــي تركته، ما لم يتكفـــل أحد من المسلمين بالوفاء بدَيْنه، وقد صحَّت في ذلك عدة أحاديث.

وعن عقبة بن عامر: أنَّ رســـول الله ﷺ قال: «**لا تُخِيفُوا الأنفس بعد أمنها**»، قالوا: يا رسول الله، وما ذاك؟ قال: «**الدَّيْن**»[(١)].

وروى الشيخان، عن أنس، عن النبي ﷺ في دعاء ذكره: «**اللهم إني أعوذ بك من الهَمِّ والحَزَن، والعجز والكســـل، والجُبْن والبخل، وضَلَع الدَّيْن، وغَلَبة الرجال**»[(٢)].

وضَلَع الدَّيْن: هو الذي لا يجد دائنه من حيث يؤديه، وهو مأخوذ من قول العرب حِمْـــلٌ مُضْلِع، أي: ثقيل، ودابة مضلـــع، أي: لا تقوى على الحمل.

قال العلماء: وإنَّما كان الدَّيْن شَـــيْنًا ومذلة؛ لما فيه من شغل القلب والبال، والهم اللازم في قضائه، والتذلل للغريم عند لقائه، وتحمل منَّته بالتأخير إلى حين أدائه، وربما يَعِد من نفسه بالقضاء فيخلف، أو يحدِّث الغريم بســـببه فيكذب، أو يحلـــف له فيحنث... إلى غيـــر ذلك، ولهذا كان عليه السلام يتعوَّذ من المأثم والمغرم ـ وهو الدَّيْن ـ فقيل له: يا رسول الله،

(١) رواه أحمد (١٧٣٢٠)، وقال مخرِّجوه: حديث حسن. وأبو يعلى (١٧٣٩)، والحاكم وصححه (٢٦/٢)، ووافقه الذهبي.

(٢) سبق تخريجه صـ ٩٠.

QaradawiBooks.com

ما أكثر ما تتعوَّذ من المغرم؟! فقال: «**إنَّ الرجل إذا غرِم حدَّث فكذب، ووعد فأخلف**»[١].

وأيضًا فربما قد مات، ولم يقض الدَّيْن فيرتهن به، كما قال عليه السلام: «**نسمة المؤمن مرتهنة في قبره بدَيْنه، حتى يُقضَى عنه**».

وكل هذه الأسباب مشائن في الدِّين، تذهب جماله، وتنقص كماله»[٢].

وكما أنَّ الديون خطر على الفرد، حتى إنَّها لتشين دِينه، وتنغص عليه دنياه، فهي كذلك خطر على المجتمع وعلى الأمة، وكم رأينا في عصرنا مجتمعات استمرأت الاستقراض من الآخرين، فسقطت في شباك الأقوياء، وأدخلوها في أحابيلهم، فغرقت في دوَّامة الديون بالمليارات وعشرات المليارات، ولو تعوَّدت الاعتماد على الله تعالى، ثم على النَّفس، وصمَّمت على أن تعيش بالقليل مما تملك، ولو مع بعض التقشف والحرمان من الكماليات والترفيات، حتى يصلب عودها، ويكتمل بناؤها، لكان ذلك خيرًا لها، وأرضى لربها، وأعود بالنفع العام عليها.

المحافظة على الأصول الثابتة:

ولا ينبغي للمسلم أن يتوسع في إنفاقه بحيث يحتاج إلى بيع داره أو عقاره من أجل مطالبه الاستهلاكية؛ لذا كان من المهم هنا: ضرورة الحرص والمحافظة على ما نسميه في عصرنا: «الأصول الثابتة» من

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الاستقراض (٢٣٩٧)، ومسلم في المساجد (٥٨٩)، عن عائشة رضي الله عنها. وهو دليل على تأثير الجانب الاقتصادي في السلوك، وهو ما لا نجحده.
(٢) تفسير القرطبي (٤١٦/٣، ٤١٧).

QaradawiBooks.com

الأرض الزراعية، والعقارات المبنية، ومثلها الآن المصانع ونحوها، فلا ينبغي التفريط فيها من غير ضرورة موجبة.

فعن عمرو بن حريث، قال: قدمت المدينة، فقاسمت أخي، فقال سعيد بن زيد، إنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا يبارك في ثمن أرض ولا دار**»(١).

وفي هذا تحريض على استبقاء هذه الأصول، وعدم بيعها لغير ضرورة قاهرة أو حاجة ماسَّة، فإنَّ هذه الأصول كلَّما كثرت واتسعت زادت بها ثروة الأُمَّة في مجموعها.

حتى إنَّ السنة النبوية لتوجه المسلم إذا باع شيئًا من هذه الأصول ألا يضيع ثمنه في المستهلكات والمتطلبات اليومية، بل ينبغي عليه أن يجعل ثمنه في شراء أصول مثلها، حتى يبارك الله له فيها، وإلا حرم من البركة.

فعن حذيفة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: «**مَن باع دارًا ثم لم يجعل ثمنها في مثلها، لم يُبَارك له فيها**»(٢).

وعن سعيد بن حريث رضي الله عنه، أنَّه ﷺ قال: «**مَن باع منكم دارًا أو عقارًا، فليعلم أنَّه مال قَمِن ـ أي: جدير ـ ألا يُبارَك له فيه، إلا أن يجعله في مثله**»(٣).

---

(١) رواه أحمد (١٦٥٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٥٣٩): رواه أحمد، وفيه قيس بن الربيع؛ وثقه شعبة، والثوري، وغيرهما، وقد ضعفه ابن معين، وأحمد، وغيرهما.

(٢) رواه ابن ماجه في الرهون (٢٤٩١)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٨٨/٣): إسناده ضعيف، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٠٢٠).

(٣) رواه أحمد (١٨٧٣٩)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. وابن ماجه في الرهون (٢٤٩٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦١٢٠).

QaradawiBooks.com

حملة القرآن على الترف والمترفين:

ومن هنا أعلن القرآن حملةً شعواء على الترف والمترفين، لم تر مثلها البشرية من قبل في كتاب دين أو دنيا، والترف هو الإغراق في التنعم والتوسع في أسباب الرفاهية.

والترف في القرآن أول سمات أهل النار، الذي استحقوا سخط الله وعذابه الأليم: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ۝ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٤١ ـ ٤٦].

فالمترفون في نظر القرآن أعداء كل رسالة، وخصوم كل إصلاح وتقدم، وأتباع كل قديم، ولو كان ضلالًا.

فمنذ عهد نوح ـ شيخ المرسلين ـ نجد هذه الطبقة المستكبرة تقف في وجه دعوته، مستصغرة شأن الذين اتبعوه من الفقراء الذين لا مال لهم ولا جاه، وتبلغ بهم الوقاحة أن يطلبوا إليه طرد هؤلاء «الأراذل» في رأيهم ليسوغ لهم أن يتبعوه: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧]، ويرد نوح على تعنتهم وتوقحهم فيقول: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۝ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ [هود: ٢٩، ٣٠].

واستمر موقف هذه الطبقة بعد قوم نوح، الذي أهلكهم الله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ

QaradawiBooks.com

أَفَلَا تَتَّقُونَ ۞ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [المؤمنون: ٣١ ـ ٣٣].

وهكذا مضى المترفون على هذا السَّنن إلى أن بُعِث النبي ﷺ، فكانوا أول من كذَّبَ وعارض. فوجَّه إليهم القرآن وعيده في عدد من السور المكية، في مثل قوله تعالى: ﴿ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾ [المزمل: ١١]، ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٣].

إنَّهم يريدون أن يظلوا غارقين في النعمة والمتاع الأدنى، يأكلون ويتمتعون كما تأكل الأنعام، لاهية قلوبهم، مشغولة عقولهم، فليس لديهم فراغ لهدف كبير ولا لمَثَل أعلى، ولا لدعوة تقتضي منهم التعفف عن مطاوعة الشهوات، وبذل الجهد والوقت، والجهاد بالنَّفس والمال، لهذا كان أيسر طريق عليهم التكذيب والجحود، واتخاذ الآباء تكأة لهم فيما يزعمون. يقول القرآن في موقف كفار قريش: ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ۞ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٩، ٣٠].

ويقرر القرآن موقف المترفين من الرسالات الإلهية بصفة عامة فيقول: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤].

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٤].

إنَّ الترف مفسد للفرد؛ لأنَّه يشغله بشهوات بطنه وفَرْجه، ويلهيه عن معالي الأمور ومكارم الأخلاق، ولأنَّه يقتل فيه روح الجهاد والجد

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

والخشونة، ويجعله عبدًا لحياة الدعة والرفاهية. وفي هذا يقول الرسول ﷺ: «**تَعِس عبدُ الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القَطِيفة، وعبد الخَمِيصة**»(١).

والترف مفسد للجماعة، منذر بانهيارها؛ ولهذا قرنه القرآن الكريم بالظلم والإجرام: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

وسر ذلك أنَّ الأقلية المترفة إنَّما تسرق بترفها حقوق الأكثرية المحرومة ظلمًا، وتسمن على حساب هزالها إجرامًا. قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

ومن هنا كان الترف في نظر القرآن من أظهر أسباب الانحلال الاجتماعي، والتدمير المعنوي للأمة، ولا سيما إذا كثر المترفون، أو أصبحوا أصحاب السُّلْطة، قال تعالى مقررًا هذه السُّنَّة الاجتماعية: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

في الآية قراءتان: «أمَّرنا مترفيها» ـ بتشديد الميم، أي: جعلناهم أُمراءً وحُكَّامًا، فطغوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد، فصبَّ عليهم ربك سَوْط عذاب، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣]، وفي الحديث: «**إذا وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله فانتظِر الساعة**»(٢).

(١) رواه البخاري في الجهاد (٢٨٨٦)، عن أبي هريرة.
(٢) رواه البخاري في العلم (٥٩)، عن أبي هريرة.

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

وأما قراءة التخفيف المشهورة فمعناها: أمرناهم بالطاعة والعدل، ففسقوا عن أمر الله، وفعلوا الفواحش، ما ظهر منها وما بطن، فاستحقوا عقوبة الله تعالى.

وعن ابن عباس وغيره: أمرنا مترفيها: أكثرنا عددهم[١]. واستشهدوا له بحديث: «**خير المال مُهْرة مأمورة**»[٢]. أي: كثيرة النسل.

وكل هذه المعاني صحيحة، ولا مانع أن تكون كلها مرادة من الآية.

كما حدَّثنا القرآن أنَّ الترف كان هو المسؤول الأول عمَّا أصاب كثيرًا من الأمم التي غرقت في التنعم والترف، فنزل بها عقاب الله وبلاؤه، وحرمت من النصر، وحقَّت عليها كلمة العذاب، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ۝ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٤، ٦٥]، ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ۝ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ۝ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ١١ ـ ١٣].

والترف معلوم للناس بالفِطرة والعُرف، وهو يختلف باختلاف ثروة كل أمة، ودخل الفرد العادي فيها.

وقال الإمام الرازي: المترف: المتنعم الذي أبطره النعمة وسعة العيش[٣].

فجعل الترف مكوَّنًا من جانب مادي وهو التنعم، وجانب معنوي، وهو البطر.

---

(١) رواه الطبري في التفسير (٤٠٤/١٧).

(٢) رواه أحمد (١٥٨٤٥)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف. والطبراني (٩١/٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٣٢٠): رجال أحمد ثقات. عن سويد بن هبيرة.

(٣) ذكره الرازي في التفسير (٣١٤/٢٠)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٢٠هـ.

QaradawiBooks.com

ومع هذا حرَّم الإسلام بعض أشياء محدَّدة، تُعَد أمثلة بارزة للترف، ومن ذلك:

١ ـ أواني الذهب والفضة: فقد روى الشيخان عن أم سلمة، عن النَّبي ﷺ: «**الذي يأكل ويشرب في آنية الفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم**»[(١)].

وفي رواية لمسلم: «**إن الذي يأكل أو يشرب في آنية الفضة والذهب...**».

وفي رواية له: «**من شرب في إناء من ذهب أو فضة فإنما يجرجر في بطنه نارًا من جهنم**»[(٢)].

والجرجرة: صوت الماء.

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: إنَّ النبي ﷺ نهانا عن الحرير والديباج، والشرب في آنية الذهب والفضة، وقال: «**هنَّ لهم في الدنيا، وهي لكم في الآخرة**»[(٣)].

وفي رواية عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تلبسوا الحرير ولا الديباج، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها**»[(٤)].

والديباج: نوع من الثياب سَداه ولُحْمته من الحرير.

ومثل ذلك أن تُتخذ هذه الأواني زينة وتحفة، لا للاستعمال في الأكل والشرب.

وأشدُّ من ذلك في الحرمة: التماثيل الفضية والذهبية؛ لأنَّ الإثم فيها

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأشربة (٥٦٣٤)، ومسلم في اللباس والزينة (٢٠٦٥).
(٢) رواه مسلم في اللباس والزينة (٢٠٦٥) (٢).
(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الأشربة (٥٦٣٢)، ومسلم في اللباس والزينة (٢٠٦٧).
(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الأطعمة (٥٤٢٦)، ومسلم في اللباس والزينة (٢٠٦٧) (٥).

QaradawiBooks.com

مزدوج، لحرمة التماثيل نفسها أولًا، ثم لحرمة اتخاذها من الذهب والفضة ثانيًا.

٢ ـ مفارش الديباج والحرير الخالص، فعن حذيفة قال: نهانا النبي ﷺ أن نشرب في آنية الذهب والفضة، وأن نأكل فيها، وعن لبس الحرير والديباج، وأن نجلس عليه[١].

وعن صفوان بن عبد الله بن صفوان، قال: استأذن سعد رضي الله عنه على ابن عامر، وتحته مرافق من حرير، فأمر بها فرُفعت، فدخل عليه، وهو على مُطْرف من خز، فقال له: استأذنت وتحتي مرافق من حرير، فأمرتُ بها فرفعت، فقال له: نِعْمَ الرجل أنت يا ابن عامر، إن لم تكن ممَّن قال الله فيهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]، واللهِ، لأن أضطجع على جمر الغَضا[٢] أحب إليَّ من أن أضطجع عليها[٣].

المرافق: جمع مرفقة، وهي شيء يتكأ عليه، شبيه بالمخدة.

٣ ـ حلي الذهب وملابس الحرير بالنسبة للرجال، فقد قال رسول الله ﷺ في شأنها: «**إنَّ هذين حرام على ذكور أمتي**»[٤].

وقال: «**لا تلبسوا الحرير، فإنَّ مَن لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة**»[٥].

---

(١) رواه البخاري في اللباس (٥٨٣٧).

(٢) الغضى: شجر، وإنما قال: جمر الغضى؛ لكون نارها قوية، وجمرها لا يخمد في ساعة.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في العقيقة (٢٥١٢٩)، والحاكم في التفسير (٤٩٤/٢)، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٠٥٥).

(٤) رواه أحمد (٩٣٥)، وقال مخرِّجوه: صحيح لشواهده. وأبو داود في اللباس (٤٠٥٧)، والنسائي في الزينة (٥١٤٤)، وصحح إسناده النووي في رياض الصالحين (٨٠٦)، وصحَّحه الألباني في مشكاة المصابيح (٤٣٩٤)، عن علي بن أبي طالب.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري (٥٨٣٤)، ومسلم (٢٠٦٩)، كلاهما في اللباس، عن عمر.

QaradawiBooks.com

ورأى خاتمًا من ذهب في يد رجل، فنزعه وطرحه، وقال: «**يَعمِد أحدكم إلى جمرة من نار، فيجعلها في يده**[1]!!».

ومثل الخاتم: قلم الذهب، وساعة الذهب و«ولاعة» الذهب... إلخ.

حملة القرآن على الإسراف والتبذير:

كما حمل القرآن على الترف حمل أيضًا على الإسراف والتبذير في آيات كثيرة من سوره.

وقد يسأل سائل: ألا تغني الحملة على التَّرَف عن الحملة على السَّرَف؟

والجواب: أنَّ السَّرَف والتَّرَف ليسا لفظين مترادفين يُغنِي أحدهما عن الآخر. والذي يظهر أنَّ بينهما عمومًا وخصوصًا. فالتَّرَف لا بد أن يصحبه سَرَف في العادة، والسَّرَف لا يلزم أن يكون معه تَرَف، فكم من أناس ينفقون أموالهم في المسكرات أو المخدرات أو ألوان التبغ «الدخان» أو نحو ذلك ممَّا أدمنوا فيه، ومع هذا يعيشون في بيوتهم وأهليهم عيشة بائسة متقشفة، فهؤلاء مسرفون غير مترفين، وبهذا نستطيع أن نقول: إنَّ كل مترف مسرف ولا عكس.

نهى القرآن عن الإسراف في الإنفاق والاستمتاع بالطيبات، وأعلن أن الله تعالى لا يحبُّ المسرفين. والإسراف: هو تجاوز الحد المناسب؛ ولهذا دمغ القرآن بهذا الوصف طغاة الكفار الذين تجاوزوا الحدود في كفرهم، وعصيانهم، كفرعون الذي قال في شأنه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ

(١) رواه مسلم في اللباس والزينة (٢٠٩٠)، عن ابن عباس.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: ٣١]، وكقوم لوط الذين وصفهم على لسان نبيهم بقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١].

ومثل الإسراف: التبذير، الذي يعني بعثرة المال وبذره هنا وهناك في غير مصلحة ولا ابتغاء مثوبة.

عمد القرآن إلى أبلغ الأساليب وأروعها تصويرًا في الدعوة إلى الاقتصاد والاعتدال في الإنفاق، والتنفير من الإسراف والتبذير أو البخل والتقتير.

فيتخذ حينًا أسلوب المدح والثناء على المقتصدين المعتدلين في حياتهم فيجعلهم من عباد الرحمن الذين يُجزَون الغُرْفة (الجنة) بما صبروا، ويُلقَّون فيها تحيةً وسلامًا، خالدين فيه حسنت مستقرًّا ومُقامًا، ووصف هؤلاء بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، والإقتار هو التضييق والبخل.

ولكي نعلم أهمية هذا الوصف في نظر القرآن، علينا أن نلقي نظرة على ما سبقه وما يلحقه من أوصاف، فنجد قبله قوله تعالى في عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ۝ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤، ٦٥]، وبعده يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]، فالقرآن يريد بهذا أن يجعل الاقتصاد في النفقة خُلُقًا دينيًّا أصيلًا من أخلاق الشخصية المسلمة.

وأحيانًا يتخذ القرآن أسلوب النهي المقترن بالتعليل والتصوير، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٦، ٢٧].

QaradawiBooks.com

قال الفخر الرازي في «تفسيره»: قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾، والتبذير في اللغة: إفساد المال وإنفاقه في السَّرف، قال في القاموس: بذَّره تبذيرًا: خرَّبه وفرَّقه إسرافًا.

قال عثمان بن الأسود: كنت أطوف في المسجد مع مجاهد حول الكعبة، فرفع رأسه إلى أبي قبيس[١]، وقال: لو أنَّ رجلًا أنفق مثل هذا في طاعة الله لم يكن من المسرفين، ولو أنفق درهمًا واحدًا في معصية الله كان من المسرفين[٢].

وأنفق بعضهم نفقة في خير فأكثر، فقيل له: لا خير في السَّرَف، فقال: لا سَرَف في الخير.

وعن عبد الله بن عمرو قال: مرَّ رسول الله ﷺ بسعد وهو يتوضأ، فقال: «**ما هذا السرف يا سعد؟**» فقال: أَوَفي الوضوء سرف؟ قال: «**نعم، وإن كنتَ على نهرٍ جارٍ**»[٣].

قال الرازي: ثم نبَّه الله تعالى على قُبح التبذير بإضافته إياه إلى أفعال الشياطين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧]، والمراد من هذه الأخوة: التشبُّه بهم في هذا الفعل القبيح؛ وذلك لأنَّ العرب يسمون الملازم للشيء: أخًا له، فيقولون: «فلان أخو الكرم والجود»، و«أخو السفر» إذا كان مواظبًا على هذه الأعمال، وقيل: قوله:

---

(١) جبل في مكة.

(٢) رواه الفاكهي في أخبار مكة (٣٥٣)، تحقيق د. عبد الملك عبد الله دهيش، نشر دار خضر، بيروت، ط ٢، ١٤١٤هـ.

(٣) رواه أحمد (٧٠٦٥)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف. وابن ماجة في الطهارة (٤٢٥)، وضعفه الألباني في الإرواء (١٤٠)، ثم حسنه في الصحيحة (٣٢٩٢).

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

﴿إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: قرناءهم في الدنيا والآخرة كما قال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]، أي: قرناءهم من الشياطين.

ثم إنَّه تعالى بيَّن صفة الشيطان فقال: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٧]، ومعنى كون الشيطان كفورًا لربه: هو أنَّه يستعمل بدنه في المعاصي، والإفساد في الأرض، والإضلال للناس، وكذلك كل مَن رزقه الله مالًا أو جاهًا، فصرفه إلى غير مرضاة الله تعالى، كان كفورًا لنعمة الله تعالى[1].

وقال الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]: «أما كونه ملومًا؛ فلأنَّه يلوم نفسه، وأصحابه أيضًا يلومونه على تضييع المال بالكلية، وإبقاء الأهل والولد في الضرِّ والمحنة، وأما كونه محسورًا؛ فقال الفرّاء: تقول العرب للبعير: هو محسور إذا انقطع سيره، وحسرت الدابة إذا سيّرها حتى ينقطع سيرها، ومنه قوله تعالى: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤]، وجمع الحسير: حَسْرى ـ مثل: قَتْلَى، وَصَرْعَى.

وقال القفَّال: المقصود تشبيه حال من أنفق كل ماله ونفقاته بمن انقطع في سفره بسبب انقطاع مطيته؛ لأنَّ ذلك المقدار من المال كأنَّه مطيته، يحمل الإنسان، ويبلغه إلى آخر الشهر أو السنة، كما أنَّ ذلك البعير يحمله ويبلغه إلى آخر المنزل، فإذا انقطع ذلك البعير وسط الطريق صار عاجزًا متحيِّرًا، فكذلك إذا أنفق الإنسان مقدار ما يحتاج إليه في مدة شهر بقي في وسط ذلك الشهر عاجزًا متحيِّرًا، ومن فعل

(١) تفسير الفخر الرازي (٣٢٨/٢٠، ٣٢٩).

QaradawiBooks.com

هذا لحقه اللوم من أهله، والمحتاجين إلى إنفاقه عليهم، بسبب سوء تدبيره، وترك الحزم في مهمات معاشه»[١].

إتلاف المال أو إهماله وإضاعته:

ومن الإسراف المحظور: تعمد إتلاف المال، أو إهماله، والتقصير في رعايته حتى يتلف، ويدخل ذلك ـ أول ما يدخل ـ في إضاعة المال التي نهى عنها النبي ﷺ.

ومن أمثلة ذلك: إهمال الحيوان حتى يهلك من الجوع أو المرض، وإهمال الزرع حتى تأكله الآفات، وإهمال الحبوب والثمار والأطعمة حتى يتلفها العفن أو السوس، وإهمال الثياب حتى تبليها «العتَّة»، وإهمال المباني والمرافق حتى تهلكها عوادي الزمن، ومن ذلك إضاءة الأنوار نهارًا حيث لا حاجة إليها، وترك صنابير المياه مفتوحة حيث تصبُّ في غير حاجة، وإلقاء فضلات الطعام في القمامة وفي الناس مَن يحتاج إلى لقيمات يُقمن صلبه، وترك الثياب الصالحة للاستعمال لمجرد خرق صغير بها، أو مرور زمن عليها، وفي المجتمع من يحتاج إلى خِرْقة تستر عَوْرته أو تقيه الحر والقر.

ومن إضاعة المال: ترك الأرض الصالحة للزراعة دون استغلالها، وترك الوسائل المستطاعة لزيادة إنتاجها ـ كمًّا ونوعًا ـ دون استخدامها، وكذلك إهمال الثروة الحيوانية مع إمكان تنميتها، وتوسيع نطاق الانتفاع بها، بلحومها وألبانها وما يُستخرج منها، وبما أشار القرآن إليه من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها.

(١) تفسير الفخر الرازي (٣٢٩/٢٠، ٣٣٠).

QaradawiBooks.com

ومن أجل النهي عن إضاعة المال أنكر النبي ﷺ، على مَن تركوا الشاة الميتة فلم ينتفعوا بجلدها، فقد روى الشيخان، عن ابن عباس أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ بشاة ميتة فقال: «**هلا استمتعتم بإهابها؟**» (جلدها)، قالوا: إنَّها ميتة! قال: «**إنَّما حُرِّم أكلها**»[(١)].

ومن أجل ذلك أيضًا عنون البخاري في «صحيحه» فقال: باب: هل تُكسر الدِّنان التي فيها خمر أو تخرَّق الزِّقاق (أي: القِرَب التي فيها الخمر)؟ وقال الحافظ ابن حجر في «شرحه»: لم يبين الحكم؛ لأنَّ المعتمد فيه التفصيل، فإن كانت الأوعية يُراق ما فيها، وإذا غُسِلت طهُرت وانتُفِعَ بها، لم يجز إتلافها، وإلا جاز[(٢)].

وقال الحافظ في شرح حديث البخاري: «**إنَّ الله كره لكم إضاعة المال**»[(٣)]: وشرح قوله: «**إضاعة المال**»: الأكثر حملوه على الإسراف في الإنفاق، وقيَّده بعضهم بالإنفاق في الحرام، والأقوى: أنَّه ما أُنفق في غير وجوهه المأذون فيها شرعًا، سواء أكانت دينية أو دنيوية، فمنع منه؛ لأنَّ الله تعالى جعل الأموال قيامًا لمصالح العباد، وفي تبذيرها تفويت تلك المصالح، إما في حق مضيِّعها، وإما في حق غيره، ويُستثنى من ذلك كثرة إنفاقه في وجوه البر لتحصيل ثواب الآخرة، ما لم يُفوِّت حقًّا أخرويًّا أهم... والحاصل في كثرة الإنفاق ثلاثة أوجه:

الأول: إنفاقه في الوجوه المذمومة شرعًا فلا شك في منعه.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في البيوع (٢٢٢١)، ومسلم في الحيض (٣٦٣)، عن ابن عباس.

(٢) انظر: فتح الباري (١٢١/٥، ١٢٢).

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٧٥)، ومسلم في الأقضية (٥٩٣)، عن المغيرة بن شعبة.

QaradawiBooks.com

والثاني: إنفاقه في الوجوه المحمودة شرعًا، فلا شك في كونه مطلوبًا بالشرط المذكور «ألا يُفوِّت حقًّا أهم».

والثالث: إنفاقه في المباحات بالأصالة كملاذّ النفس، فهذا ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: أن يكون على وجه يليق بحال المنفق، وبقدر ماله، فهذا ليس بإسراف.

والثاني: ما لا يليق به عُرْفًا، وهو ينقسم أيضًا إلى قسمين:

أحدهما: ما يكون لدفع مفسدة، إما ناجزة أو متوقعة، فهذا ليس بإسراف.

والثاني: ما لا يكون في شيء من ذلك، فالجمهور على أنَّه إسراف، وذهب بعض الشافعية إلى أنَّه ليس بإسراف.

قال الحافظ: والذي يترجح أنَّه ليس مذمومًا لذاته، لكنَّه يفضي غالبًا إلى ارتكاب المحذور كسؤال الناس، وما أدَّى إلى المحذور فهو محذور.

وقال الباجي من المالكية: يُكره كثرة إنفاق المال في مصالح الدنيا، ولا بأس به إذا وقع نادرًا لحادث يحدث، كضيف أو عيد أو وليمة... وممَّا لا خلاف في كراهته: مجاوزة الحد في الإنفاق على البناء زيادة على قدر الحاجة، ولا سيما إذا أضاف إلى ذلك المبالغة في الزخرفة... وأما إضاعة المال في المعصية فلا يختص بارتكاب الفواحش، بل يدخل فيها سوء القيام على البهائم حتى تهلك، ودفع مال مَن لم يُؤنس منه الرشد إليه، وقسمة ما لا يُنتفع بجزئه كالجوهرة النفيسة...

وقال السبكي الكبير: الضابط في إضاعة المال: ألَّا يكون لغرض ديني ولا دنيوي، فإن انتفيا حرم قطعًا، وإن وُجِد أحدهما وجودًا له بال،

QaradawiBooks.com

وكان الإنفاق لائقًا بالحال، ولا معصية فيه، جاز قطعًا، وبين الرتبتين، وسائط كثيرة لا تدخل تحت ضابط...[١].

قيود الإسلام على الإنفاق نوعان:

وممَّا ذكرنا يتبين لنا قيود الإسلام على الإنفاق نوعان:

الأول: قيود تتعلق بنوع الشيء المنفَق وكيفه وصفته.

الثاني: قيود تتعلق بكمِّه ومقداره.

١ ـ قيود على الكيف والصفة:

فمن النوع الأول؛ أعني القيود التي وضعها الإسلام على الاستهلاك ممَّا يتعلق بالكيف والنوع، بِغَضِّ النظر عن مقداره المنفَق، قلّ أو كثر: ما إذا كان الإنفاق في الأمور التي حرَّمها الإسلام مثل: الخمور والمسكرات بأنواعها، والمخدرات بصنوفها وأسمائها، ويقرب منها ألوان التبغ التي تضر البدن، وتستعبد الإرادة، وتضيع المال، ومثل الميسر المحرَّم بنص القرآن والسُّنَّة، والتماثيل التي حرَّمها الرسول ﷺ، فكل إنفاق في هذه المحرَّمات إسراف وتبذير ينهى عنه الإسلام، مهما يكن المنفَق درهمًا واحدًا، ومهما يكن لدى المنفِق كنوز قارون.

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

«قال ابن مسعود: التبذير: الإنفاق في غير حق. وكذا قال ابن عباس.

(١) فتح الباري (١٠/٤٠٨، ٤٠٩).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق، لم يكن مبذِّرًا، ولو أنفق مُدًّا في غير حق كان مبذِّرًا.

وقال قتادة: التبذير: النفقة في معصية الله تعالى وفي غير الحق وفي الفساد»[١].

٢ ـ قيود على الكم والمقدار:

ومن النوع الآخر: أن ينفق ما يحتاج إليه ممَّا لا يحتمله دخله، كأن يكون دخله سبعة فينفق عشرة، في غير حاجة مُلِّحة، إذ معنى هذا الاضطرار إلى الدَّيْن، وهو هَمٌّ بالليل، ومذلَّةٌ بالنهار، وقد كان النبي ﷺ يستعيذ بالله من غَلَبة الدَّيْن، ويراه دافعًا إلى سوء خُلُق صاحبه وسلوكه، فيقول: «**إنَّ الرجل إذا غرم** (أي: استدان) **حدَّث فكذب أو وعد فأخلف**»[٢]... ومن هنا وصف القرآن عباد الرحمن بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٧].

قال ابن كثير: أي ليسوا بمبذِّرين في إنفاقهم، فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهليهم فيُقصِّرون في حقِّهم، فلا يكفونهم، بل عدلًا خيارًا، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا[٣]. وكما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، أي: لا تكن بخيلًا مَنُوعًا، ولا تُسرف في الإنفاق،

---

(١) الآثار رواها الطبري في تفسيره (١٧/٤٢٨، ٤٢٩)، الآثار رواها الطبري في تفسيره (١٧/ ٤٢٨، ٤٢٩)، تحقيق محمود وأحمد شاكر، نشر دار التربية والتراث، مكة المكرمة، وانظر: تفسير ابن كثير (٥/٦٩).

(٢) سبق تخريجه صـ٢٣٣.

(٣) تفسير ابن كثير (٦/١٢٣، ١٢٤).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فتعطي فوق طاقتك، وتُخرج أكثر من دخلك، فتقعد إن بخلت ملومًا، يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك، كما قال زهير بن أبي سلمى في معلقته:

ومَنْ يَـكُ ذا مالٍ فَيَبْخَـلْ بمالِهِ على قومِهِ يُستَغْنَ عَنْهُ ويُذْمَمِ![1]

ومتى بسطتَ يدك فوق طاقتك، قعدت بلا شيء تنفقه، فتكون كالحسير، وهو الدابة التي قد عجزت عن السير، فوقفت ضعفًا وعجزًا، فإنَّها تسمى: الحسير، أي: الكليل، كقوله تعالى: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤]، أي: كليل عن أن يرى عيبًا[2].

فالإسراف مُضرّ بالفرد وبالجماعة، والتقتير كذلك، فإنَّه يؤدي إلى ضمور العمران، وجمود الحياة، وانتشار الكساد، والخير في الوَسَط الذي دعا إليه الإسلام.

ومن هذا النوع أن يخرج في النفقة والاستمتاع بالطيبات عن حدِّ الاعتدال والتوسط، الذي هو شأن المسلم، وشأن الأُمَّة الإسلامية كلها في كل شيء، سواء أكان دخله قليلًا أم كثيرًا، كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

قال ابن عباس: أحلَّ الله الأكل والشرب ما لم يكن سرفًا أو مخيلة[3] ـ أي: اختيالاً. فالسرف يتعلق بالظاهر، والاختيال يتعلق بالباطن وصلاح كليهما مطلوب.

---

(١) انظر ديوانه صـ١١٠، شرح أ. علي حسن فاعور، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

(٢) تفسير ابن كثير (٧٠/٥).

(٣) رواه الطبري في تفسيره (٣٩٤/١٢).

QaradawiBooks.com

وعن عبد الله بن عمرو: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**كلوا واشربوا والبسوا وتصدَّقوا من غير مَخِيلَة ولا سَــرَف؛ فإنَّ الله يحــبُّ أن يرى نعمته على عبده**»[١].

وقال ﷺ: «**ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًّا من بطنه، حسب ابن آدم أكلات يُقِمن بها صلبه، فإن كان فاعلًا لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشــرابه، وثلث لنَفَسه**»[٢].

أهداف الإسلام من تقييد الاستهلاك:

وهذا النوع من التقييد في الاستهلاك والإنفاق يقصد به الإسلام إلى عدة أهداف عملية وتربوية:

تربية خُلُقية:

الأول: أنَّه لون من التربية النفســية الخُلُقية، فليس من خُلُق المؤمن التوسع الشديد في المآكل والمشــارب إلى الحد الذي يجعله من أهل الترف والتنعم، ويلحقه بحطب جهنم من الكفار الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام؛ ولهذا يقتصد المؤمن في تناول طيبات الدنيا، ويجعل بينه وبين الحرام سِترًا من الحلال.

---

(١) ذكره البخاري معلَّقًا بصيغة الجزم (١٤٠/٧). ووصله أحمد (٦٦٩٥)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. والنسائي في الزكاة (٢٥٥٩)، وابن ماجه في اللباس (٣٦٠٥).

(٢) رواه أحمد (١٧١٨٦)، وقال مخرّجوه: رجاله ثقات، غير أن يحيى بن جابر الطائي تكلموا في سماعه من المقدام، فإن صح ســماعه منه فالحديث صحيح، وإلا فمنقطع. والترمذي في الزهد (٢٣٨٠)، وقال: حديث حسن صحيح. وابن ماجه في الأطعمة (٣٣٤٩)، والحاكم في الرقاق (٣٣١/٤)، وصححه، ووافقه الذهبي، وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح (٥٢٨/٩)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٢٦٥)، عن المقدام بن معديكرب.

QaradawiBooks.com

ولهذا روى معاذ بن جبل أنَّ رسول الله ﷺ لمَّا بعث به إلى اليمن قال له: «**إياك والتنعم؛ فإنَّ عباد الله ليسوا بالمتنعِّمين**»(١).

ويعني بالتنعم: التوسع في أسباب الرفاهية التي تؤدي إلى الترف وحياة المترفين، الذي جاء فيهم الحديث: «**شرار أمتي الذين غُذُّوا بالنعيم، الذين يأكلون ألوان الطعام، ويلبسون ألوان الثياب، ويتشدَّقون في الكلام**»(٢).

وهي صورة مُعبِّرة عن أولئك العاطلين المترَفين الذين لا هَمَّ لهم إلا مضغ الطعام، ومضغ الكلام.

وقد جاء في الأثر: من الإسراف أن تأكل كل ما اشتهيت!

ورأى عمر في يد جابر بن عبد الله درهمًا، فقال: ما هذا الدرهم؟ قال: أريد أن أشتري به لأهلي لحمًا قَرِموا إليه (أي: اشتدت شهوتهم له ـ والقَرَم: شدة الشوق للحم حتى لا يصبر عنه)، فقال عمر: أكلَّما اشتهيتهم اشتريتم؟!! ما يريد أحدكم أن يطوي بطنه لابن عمِّه وجاره؟!! أين تذهب عنكم هذه الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾؟ [الأحقاف: ٢٠]. رواه الحاكم(٣)، ورواه مالك، عن يحيى بن سعيد(٤).

---

(١) رواه أحمد (٢٢١٠٥)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٧٦٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٨٣٥): ورواته ثقات، وحسَّنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢١٤٦).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الغيبة (١٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٢٨١)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٠٨٧): حسن لغيره. عن فاطمة الزهراء.

(٣) رواه الحاكم في التفسير (٤٥٥/٢) شاهدًا لحديث قبله، وقال الذهبي: القاسم واه. عن ابن عمر.

(٤) رواه مالك في صفة النبي (١٦٧٤) تحقيق الأعظمي.

QaradawiBooks.com

ورواه البيهقي: أنَّ عمر قال لجابر: ما هذا يا جابر؟ قال: قرم أهلي، فابتعت لهم لحمًا بدرهم، فجعل عمر يردِّد: قرم أهلي! حتى تمنيت أن الدرهم سقط مني ولم ألق عمر[١].

ونقل المنذري عن الحليمي تعقيبًا على الآية التي استشهد بها عمر، وهي ممَّا خاطب الله بها الكفار: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ...﴾ [الأحقاف: ٢٠]. قال الحليمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا الوعيد من الله تعالى، وإن كان للكفار الذين يقدمون على الطيبات المحظورة؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾، فقد يخشى مثله على المنهمكين في الطيبات المباحة؛ لأنَّ من يُعَوِّدها مالت نفسه إلى الدنيا، فلم يؤمن أن يرتبك في الشهوات والملاذ، كلما أجاب نفسه إلى واحدة منها دعته إلى غيرها، فيصير إلى أن لا يمكنه عصيان نفسه في هوى قط، وينسد باب العبادة دونه، فإذا آل به الأمر إلى هذا لم يبعد أن يقال له: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا ...﴾ الآية، فلا ينبغي أن تعوَّد النفس ما تميل به إلى الشره، ثم يصعب تداركها، ولتُرَضْ من أول الأمر على السداد، فإنَّ ذلك أهون من أن تُدرَّب على الفساد، ثم يجتهد في إعادتها إلى الصلاح، والله أعلم[٢].

وحسبنا في هذا الحديث الصحيح المشهور: «**المسلم يأكل في مِعًى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء**»[٣]، وهو تصوير بليغ لقصد المؤمن وتعففه وقناعته، ولشراهة الكافر واستغراقه في شهواته.

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٥٢٨٥)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢١٤٤): حسن لغيره. عن جابر.

(٢) انظر كتابنا: المنتقى في الترغيب والترهيب (١٢٠/٢، ١٢١).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الأطعمة (٥٣٩٣)، ومسلم في الأشربة (٢٠٦٠، ٢٠٦١)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

وقد روى مسلم: أنَّ النَّبي ﷺ أضاف ضيفًا كافرًا، فأمر له الرسول بشاةٍ فحُلِبَتْ، فشرب حِلابها، ثم أخرى فشرب حِلابها، ثم أخرى فشرب حِلابها... حتى شرب حِلاب سبع شياه، ثم إنَّه أصبح فأسلم، فأمر له رسول الله بشاةٍ، فشرب حِلابها، ثم أخرى فلم يستتمَّه، فقال رسول الله ﷺ: «**إن المؤمن ليشرب في مِعًى واحد، والكافر يشرب في سبعة أمعاء**»[(١)].

تربية اجتماعية:

الثاني: أنَّه لون من التربية الاجتماعية، فإنَّ مما يزيد بؤس البائسين، ويضاعف ألم الحرمان على المحرومين في المجتمع، أن يروا الواجدين يسرفون في الاستمتاع بطيبات الحياة ما كان يمكن أن يكفيهم، وقد يفضل عنهم، وخصوصًا إذا كان في الأمة من لا يجد ما يمسك الرمق، أو يطفئ الحرَق، وإذا استمر هذا الحال تأججت قلوب المحرومين حقدًا وضغنًا على المترفين المسرفين، وانقسم المجتمع إلى طبقات متناحرة متحاسدة.

وقد رُوي أنَّ عمر بن عبد العزيز علم أن قريبًا له اشترى خاتمًا فصُّهُ بألف درهم، فكتب إليه مستنكرًا: «بلغني أنَّك اشتريت خاتمًا فصُّهُ بألف درهم، فإذا جاءك كتابي هذا، فبعه، وأطعم بثمنه ألف جائع، واشتر خاتمًا فصُّهُ من حديد، واكتب عليه: رحم الله امرأً عرف قدر نفسه»[(٢)]!

وقد رأينا قول عمر الفاروق لجابر: «ما يريد أحدكم أن يطوي بطنه لابن عمِّه وجاره»[(٣)]. ومعناه: أن يرعى المرء في إنفاقه واستهلاكه صلته

(١) رواه مسلم في الأشربة (٢٠٦٣)، والبخاري في الأطعمة (٥٣٩٧) مختصرًا، عن أبي هريرة.
(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (٨٩/١٠).
(٣) سبق تخريجه صـ ٢٥٢.

QaradawiBooks.com

الإنسانية بالمجتمع، فإنَّ المجتمع ليس إلا جارًا وابن عم، قريبًا أو بعيدًا، ولهؤلاء احتياجاتهم في السُّوق، وأكثرهم لا يستطيع مجاراته، فعليه أن يذكر للقريب قرابته، وأن يجعل الجوار آصرة تدعوه أن يكف عن رغباته الاستهلاكية رفقًا بهم، فيخلي لهم السوق ليجدوا الأسعار في المستوى الذي يناسبهم[١].

وليس هناك شيء أعون على غلاء الأسعار، واختفاء السلع من الأسواق، وإتاحة الفرصة للمحتكرين والمستغلين، من الاستسلام لجموح الرغبة في الشراء، والتسابق المجنون على الاستمتاع بأي ثمن كان، كما قال عمر: «كلَّما اشتهيتم اشتريتم!»، حتى يصبح الشراء ذاته عند بعض الناس لذَّة بل غاية، ولو لغير حاجة، ولغير منفعة! وبعض الناس يصبح شراء الشيء الغالي الثمن متعة له، بل هدفًا، ليشبع في نفسه رغبة المفاخرة والمكاثرة، وليس شيء أعون على الرخاء، وخفض الأسعار من تعود القناعة والتعفف، وكف النفس عن الشراء وإن رغبت، كما قال أحد الحكماء، وقد قيل له: إنَّ الشيء الفلاني غلا، فقال: أرخصوه، قالوا: وكيف نرخصه؟ قال: بالتَّرْك!

وفي هذا قال الشاعر[٢]:

وإذا غلا شيءٌ عليَّ تركتُه ... فأراه أرخص ما يكون إذا غلا!

(١) انظر: الثروة في ظل الإسلام لأستاذنا البهي الخولي صـ ١٥٩، نشر دار القلم، الكويت، ط ٤، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

(٢) هو محمود الوراق، كما في المنتحل للثعالبي (١٧٥/١)، تحقيق الشيخ أحمد أبو علي، المطبعة التجارية، الإسكندرية، ١٣١٩هـ ـ ١٩٠١م.

QaradawiBooks.com

تربية اقتصادية:

الثالث: أنَّه لون من التربية الاقتصادية للفرد وللأمة المسلمة، فإنَّ الإسراف في الاستهلاك يذهب بكل المحاولات لزيادة الإنتاج، ويبدد أموالًا كثيرة في الكماليات وتوافه الحياة، فضلًا عن المحظورات والموبقات، فأما إذا أصبح الاعتدال في الإنفاق والاقتصاد في الاستهلاك خُلُقًا عامًّا في الأمة، فهناك تتوفر أموال ضخمة، وتتحول من مجال الإنفاق الاستهلاكي إلى مجال الإنفاق الإنتاجي، وهذا هو فقه الحياة؛ ولهذا ذكر الحافظ ابن كثير في «تفسيره» ما رواه الإمام أحمد عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**من فقه الرجل قصده في معيشته**»[1].

إنَّ التربية الاقتصادية مطلوبة في كل حال، وكل عصر، ولكنها ألزم ما تكون في عصرنا، الذي أسرف الناس فيه في الاستهلاك، حتى جاروا على الطبيعة، وما فيها من خضرة، وجاروا على البيئة ومكوِّناتها، وجاروا على حق الأجيال القادمة، ولم يعالجوا هذا بالقصد والاعتدال في الإنفاق والاستهلاك، كما هو شأن أولي الألباب، بل بالدعوة إلى تحديد النسل، وإيقاف الإنجاب، ومجابهة فطرة الله التي فطر الناس عليها، حتى إنَّ بعضهم للأسف أعطوا للمرأة ـ كل امرأة ـ حق الإجهاض متى شاءت، ولم يراعوا للحياة الإنسانية حُرْمة، حمايةً للإباحية والدعارة الفاجرة، على حساب الأجِنَّة في بطون أمهاتها، عدوانًا على هذا المخلوق الضعيف، الذي لا يملك الدفاع عن نفسه، وهذه هي مَوْءُودة القرن العشرين والحادي والعشرين!

وهذه الدعوة إلى إيقاف الإنجاب، وتحديد النسل بصورة جماعية، إنَّما هي مؤامرة من القوى الكبرى التي يتناقص فيها الإنجاب يومًا بعد

(١) سبق تخريجه صـ ٢٢٩.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

يوم، نتيجةً للانغماس في الشهوات، والفرار من تحمل مسؤولية الرعاية والتربيـــة... على حين ينمو النســـل فـــي العالَم الثالث عامـــة، والعالَم الإسلامي خاصة، وهو قِصاص الفطرة من هؤلاء، فهم يريدون أن يوقفوا نمو العالَم كله، ليظلوا هم وحدهم المستمتعين بخيراته.

وأولى من هذا كله وأحق: القصد في اســـتهلاك الطيبات، والوقوف فيها عند حدود الله فيما أحلَّ وحرَّم، وهذا ما أمر به الإسلام.

وذكر ابن كثير أيضًا ما رواه أحمد بســـنده، عن عبد الله بن مســـعود مرفوعًا: «**ما عال مَن اقتصد**»[(١)]، أي: ما افتقر، وهو يصدق على الجماعة كما يصدق على الفرد.

وذكـــر ما رواه البزار بســـنده عـــن حذيفة قال: قال رســـول الله ﷺ: «**ما أحســـن القصد في الغِنَى، وما أحســـن القصد في الفقر، وما أحسن القصد في العبادة**»[(٢)]. اهـ.

وعن عمار بن ياسر أنَّ النبي ﷺ كان يقول في دعائه: «**وأسألك القصد في الفقر والغنى**»[(٣)].

وقال أبو بكر: إنِّي لأكره أن يأكل الرجل رزق أيام في يوم واحد[(٤)]! ومثله طبعًا مَن يأكل رزق أشخاص لشخص واحد.

---

(١) سبق تخريجه صـ٢٢٩.

(٢) رواه البزار (٢٩٤٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٨٥٠): رواه البزار من رواية سعيد بن حكيم، عن مسلم بن حبيب، ومســـلم هذا لم أجد من ذكره إلا ابن حبان في ترجمة سعيد الراوي عنه، وبقية رجاله ثقات، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٩٨٤). وانظر: تفسير ابن كثير (١٢٤/٦).

(٣) رواه أحمد (١٨٣٢٥)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح. والنسائي في السهو (١٣٠٥).

(٤) العقد الفريد (٢٢٧/٧)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.

QaradawiBooks.com

تربية صحية وجسمية:

الرابع: أنَّه لون من التربية الصحية الجسمية؛ فإنَّ الإسراف في المطاعم والمشارب يفضي إلى التخمة والسمنة، وأمراض المعدة والهضم؛ ولهذا قال القدماء: «المعدة بيت الداء، والحِمْية رأس الدواء».

وقال بعض السلف: جمع الله الطب كلَّه في نصف آية: ﴿**وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟**﴾ [الأعراف: ٣١][1]، وهو يعني الطب الوقائي، فدرهم وقاية خير من قنطار علاج، كما قيل.

وعن جَعدة الجشميّ رضي الله عنه قال: رأيت النبي ﷺ يشير بيده إلى بطن رجل سمين، ويقول: «**لو كان هذا في غير هذا، كان خيرًا لك**»![2]، وما أرقها وألطفها من نصيحة معبِّرة بليغة!

إنَّ الإسلام يريد المؤمن القوي، فهو أحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، والقوة تشمل عناصر شتى من أبرزها: قوة الجسم، وهذه القوة تتمثل في عدة أشياء: في السلامة من الأمراض، وفي القدرة على الحركة، وفي الخشونة والاستعداد للتحمل.

ولهذا كانت السمنة ضدَّ هذا كله. ومن أجل هذا كرهها الدين، وخصوصًا إذا جاءت من الإفراط في الشبع، والإسراف في تناول الطيبات.

---

(١) تفسير ابن كثير (٤٠٦/٣).

(٢) رواه أحمد (١٥٨٦٨)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف، والطبراني (٢٨٤/٢)، والحاكم في الأطعمة (١٢٢/٤)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي.

QaradawiBooks.com

روى عمران بن حصين عن النبي ﷺ: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يأتي من بعدهم قوم يتسمَّنون، ويحبون السِّمَن...**».

وبيَّن لهم الرسول الكريم أنَّ ضخامة الأجسام وسمنها لا قيمة لها عند الله، فعن أبي هريرة عنه ﷺ: «**إنَّه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة**»[١].

إنَّ السمنة المفرطة مباءة للأسقام المتنوعة، فضلًا عمَّا فيها من إصابة الجسم بالكسل والترهل والعجز عن أعمال الجهاد وغيرها ممَّا يقتضي مرونة البدن وسرعة حركته.

وإذا كان الإسلام ينكر الإسراف في العبادة من صيام النهار، وقيام الليل، وتلاوة القرآن، ونحوها، لما في المبالغة فيها من حيف على حق البدن، وحظ الإنسان في الراحة اللازمة، فما بالكم في الإسراف في المباحات؟

ولهذا أنكر النبي ﷺ على بعض الصحابة، مثل عبد الله بن عمرو حين غلا في صيامه وقيامه وتلاوته، وردَّه إلى منهج الاعتدال، قائلًا له: «**فإنَّ لبدنك عليك حقًّا** (أي: في الراحة)، **ولعينك عليك حقًّا** (أي: في النوم)، **ولأهلك عليك حقًّا** (أي: في الإمتاع والإعفاف)»[٢].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٢٩)، ومسلم في صفة القيامة (٢٧٨٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٧٥)، ومسلم (١١٥٩)، كلاهما في الصوم، عن عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

فلا عجب أن يُعنى الإسلام بصحَّة الإنسان، بتوجيهه إلى الاعتدال في تناول الطيبات، دون إسراف في الحلال، ولا تجاوز إلى الحرام، وهذا أول الطريق إلى حفظ الصحة.

تربية عسكرية وسياسية:

الخامس: أنَّه لون من التربية العسكرية والسياسية للأُمَّة، فإنَّ الأُمَّة التي يفْرط أبناؤها في التنعم، ويركنون إلى الدعة والسعة، قلَّما ينهض بهم دين، أو تقوم بهم دنيا، أو يتحرر بهم وطن، أو ترتفع بهم راية، وخاصة إذا كان أعداؤهم أُولي قوة وأُولي بأس شديد.

فإنَّ الترف يقتل في أصحابه روح الجندية، ويقضي على قوة المقاومة والمصابرة في أنفسهم، كما أنَّ بقية المحرومين من أبناء الأُمَّة لا يجدون من الحماسة في صدورهم ما يدفعون به عن أُمَّة يأكل خيرها المترفون، ويشقى فيها العاملون، على نحو ما قال المثل الشعبي: «في همِّكم مدعوون، وفي فرحكم منسيون»، وهو ما عبَّر عنه الشاعر العربي قديمًا محتجًّا على أهله وأُسرته:

وإذا تكون كريهة أُدعَى لها وإذا يُحاس الحيس[1] يُدعى جندبُ![2]

والحيس: طعام شهي لدى العرب، يُصنع من الدقيق والسمن والسكر، وكانوا يخصون به أخاه جندبًا، أما هو فيُدعَى عند الحرب والشدائد.

---

(١) الحَيس: طعام يصنع من الدقيق والسكر، كالعصيدة ونحوه من المعجَّنات. يريد: أن أخاه جُندبًا له الشهيُّ من الطعام، أما هو، فله شدائد الأعمال.

(٢) البيت لهنيء بن أحمر الكناني، كما في معجم الشعراء للمرزباني صـ ٤٥٠، تحقيق د. ف. كرنكو، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م، وجمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري (٤٢٤/١)، نشر دار الفكر، بيروت.

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

وإنَّ من أهم ما يُطلب اليوم في تحرير الأمم والشعوب من سيطرة الكبار على الصغار، ومن هيمنة الأقوياء على الضعفاء: قدرة الضعفاء والصغار من الشعوب على التحكم في استهلاكها بالتقليل منه أو الامتناع إن اقتضى الأمر. والتعفف عن التعامل مع مَن يعاديها، أو يريد لها السوء، وذلك بمقاطعة بضائعه ومنتجاته مقاطعة تامة، فهذا سلاح قوي فعَّال، وخصوصًا إذا استُخدم على مستوى أُمَّة كالأُمَّة الإسلامية.

ويسرني أن أسجل هنا هذه السطور القوية من دراسة للأستاذ الدكتور توفيق الشاوي يقول فيها:

«إنَّ العالَم الآن في مرحلة جديدة أصبحت فيه المصالح الاقتصادية والمالية هي العامل الأول في العلاقات الدولية، صارت الدول الكبرى تحتكر السيطرة العالَمية وتتخذها وسيلة لتنمية ثرواتها على حساب الشعوب الأخرى ـ ونجحت في فرض ما يسمى باقتصاد السوق الذي تعتبر اتفاقيات «الجات» عنوانًا لما تميَّز به ـ وخاصة إلزام الدول بعدم فرض رسوم جمركية لحماية مشروعاتها وصناعاتها الناشئة ـ وعدم تقديم دعم مالي لمنتجاتها الوطنية ـ وبذلك جُرِّدَ الاقتصادُ الوطني من كل حماية، وأصبح مجرَّدًا من كل سلاح يدفع به غزو السوق المحلي من جانب منتجات الدولة الغنية، التي تتمتع بجميع الميزات لاكتساح السوق الوطني، والقضاء على الإنتاج المحلي الناشئ الضعيف.

لقد تحوَّلت الشعوب الصغيرة والدول الناشئة إلى مجرد مجتمعات استهلاكية وسوق لبضائع الدول المتقدمة ومنتجاتها ـ سواء أكانت زراعية أو صناعية ـ وتفرض عليها التبعية والخضوع لقرارات الدول الصناعية ـ سواء في النواحي الاقتصادية والمالية أو النواحي السياسية

QaradawiBooks.com

والعسكرية ـ وهذا هو الاستعمار الجديد الذي تواجهه الشعوب الصغيرة الناشئة إذا استسلمت له ولم تجد وسيلة لمقاومته.

في نظرنا أنَّ السلاح الوحيد الذي يجب أن نلجأ إليه هو «المقاطعة الشعبية»؛ لأنَّها هي التي تمكِّن الشعوب الصغيرة والناشئة من الدفاع عن منتجاتها وصناعاتها المهددة بالغزو الاقتصادي، الذي تمارسه الدول الكبرى والغنية، التي تتبع سياسة الإغراق لإبادة المشروعات الوطنية، سواء أكانت زراعية أو صناعية.

ولا يمكن أن تنجح الشعوب الصغيرة في هذه المقاطعة، إلا إذا كانت لديها إرادة قوية، تستمدها من مقوِّماتها الذاتية وطاقتها العقيدية، ومنبع ذلك في منطقتنا هو الإسلام الذي يُزوِّد شعوبنا بهذه الإرادة، وهذه الوحدة، التي تمكنها من الاعتماد على ذاتها في هذه المعركة الاقتصادية للدفاع عن اقتصادها ومنتجاتها الوطنية.

ومن حسن الحظ أنَّ الصحوة الإسلامية قد فتحت لشعوبنا طريق النهضة السياسية والاقتصادية، فلا بد من الاعتماد عليها في هذه المرحلة لبناء اقتصادنا والدفاع عن كياننا، وأن نوجِّه جميع الطاقات الجماهيرية لتقوم بدورها في حماية منتجاتها، بعد أن جُرِّدَتِ الدول والحكومات من سلاح الدعم وسلاح الحماية الجمركية.

إنَّ بعض فصائل التيار الإسلامي قد دفعها اليأس والإحباط الذي تواجهه إلى السير في طريق العنف لمقاومة السُّلْطة المحلية والوطنية، التي تتهمها بأنَّها تنفِّذ قرارات تفرضها عليها القوى الكبرى، حتى إنَّ البعض أصبح يعتبرها مجرد عميل للقُوَى الأجنبية، التي تفرض سيطرتها على بلادنا وعلى العالَم كله.

QaradawiBooks.com

لكنَّ هذا الطريق يُغرق مجتمعنا في مستنقعات الفتن الداخلية التي لا تنتهي، ولا تؤدي إلى أي نتيجة، بل تهدد أمتنا بالتمزيق والانهيار الشامل الذي لا يمكن الخروج منه...

لهذا فإنَّنا نعتقد أنَّ العناصر التي تتورط في العنف والفتنة، يمكن صرفها عن طريق العنف إذا فُتِح أمامها طريق المقاومة السلمية، الذي يبدأ بالمقاطعة الشعبية ـ لمواجهة طغيان القُوَى الأجنبية المعادية، التي يعتقدون أنَّها هي التي تُسخِّر السُّلْطات المحلية، لتنفيذ سياستها المعادية لنا في جميع قضايا العالَم العربي والإسلامي، سواء في داخل مصر أو في فلسطين أو البوسنة أو كشمير أو الصومال أو السودان أو اليمن أو الجزائر... إلخ.

بهذا يكون للدعوة للمقاطعة الشعبية مزايا اقتصادية وسياسية تبرر المسارعة بإعداد الأفراد والجماهير لها، والاعتماد على العقيدة والقيم الإسلامية والوطنية في الدعوة لها، وإعداد جهاز فني من الخبراء لتوجيه الجماهير للقيام بواجبها بإخلاص وعزم، يزداد كلما وجدت قيادة تكون محل ثقتها وقدوة لها». اهـ.

إن شعوبنا في حاجة إلى تربية اقتصادية تعلمها: التعفف عن الحرام والاقتصاد في الحلال، والقناعة بالقليل، والصيام والجوع عند اللزوم، تحريرًا لإرادة الأمة من التبعية، وتثبيتًا لسيادتها واستقلالها.

تأكيد وجوب الاعتدال في الإنفاق عند الأزمات:

ويتحتم الاعتدال في الإنفاق ويتأكد إذا قلَّت الموارد، كما في أيام القحط والمجاعات، وهو ما أشار إليه القرآن في قصة يوسف عليه السلام في إطار الخطة «خمس عشرية» التي وضعها للخروج من الأزمة: من تقليل

QaradawiBooks.com

الاستهلاك في السنوات السبع الخصبة حتى يكون هناك مجال للادخار: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: ٤٧].

ثم تقليل الاستهلاك مرة أخرى في السنوات السبع العجاف، بحكم الضرورة وتوزيع المدخَّر على سنوات الأزمة جميعًا: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [يوسف: ٤٨]. وفي التعبير بقوله: ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ ما يدل على أنَّ ما يُستهلك إنَّما يتم بحساب وتقدير، فهم الذين يقدِّمون، وهذا دليل القصد، وفيه دليل لمشروعية تدخل الدولة لتقييد الاستهلاك في أيام الشدائد، للمصلحة العامة، وحفاظًا على الموارد القليلة من أجل عموم النَّاس.

وقد همَّ أمير المؤمنين عمر الفاروق في عام المجاعة، أن يضيف إلى كل بيت عندهم بقايا الخصب مثلهم في العدد، ممن ساء حالهم، ونضبت مواردهم، وقال: إنَّ الناس لا يهلكون على أنصاف بطونهم.

وهو ما أومأ إليه الحديث النبوي: «**طعام الاثنين كافي الثلاثة، وطعام الثلاثة كافي الأربعة**»[(١)].

وفي رواية: «**طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي الثمانية**»[(٢)].

حرية الفرد ومصلحة الجماعة:

وإذا كان الأصل في الشريعة الإسلامية أنَّ الأفراد أحرار فيما يستهلكونه من الطيبات التي أحلَّها الله، فإنَّ هذا الأصل مقيَّد بعدم

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأطعمة (٥٣٩٢)، ومسلم في الأشربة (٢٠٥٨)، عن أبي هريرة.
(٢) رواه مسلم في الأشربة (٢٠٥٩)، وأحمد (١٤٢٢٢)، عن جابر.

QaradawiBooks.com

الإضرار بالمصلحة العامة، فإذا اقتضت المصلحة العامة أن يُقيَّد هذا الحق لظروف طارئة، وأحوال عارضة، رآها أولو الأمر، فإنَّ الشرع يساندهم فيما يتخذون من إجراءات مناسبة.

وقد روى ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ في «سيرة عمر بن الخطاب»: أنَّه منع النَّاس ـ في وقت ما من خلافته ـ من أكل اللحم يومين متتالين في الأسبوع، حيث كان اللحم قليلًا لا يكفي جميع الناس بالمدينة، فرأى علاجًا لذلك أن يمنع الذبح.

وكان يأتي «مَجْزَرَة» الزبير بن العوَّام بالبقيع ـ ولم يكن بالمدينة سواها ـ فإن رأى من خرج عن هذا المنع ضربه بالدرة، وقال له: «هلَّا طويت بطنك يومين!»[1].

وفي عصرنا يسهل هذا بإغلاق «المجزرة» تمامًا، ومنع الجزَّارين وغيرهم من الذبح فيها تلقائيًّا، كما هو معمول به في بعض الأقطار.

الاعتدال في الإنفاق الحكومي:

وإذا كان الاعتدال مطلوبًا في نفقة الفرد على نفسه، فهو مطلوب كذلك في النفقات الحكومية، ابتداءً من رئيس الدولة فمن دونه، بل ينبغي على إمام المسلمين ـ أميرهم ورئيسهم ـ أن يكون أسوة لهم في التعفف عن مال الدولة، والتقلل من مظاهر النعيم والأبهة.

وقد كان النبي ﷺ ـ وهو إمام المسلمين ـ أول من يجوع وآخر من يشبع. قال أبو هريرة: خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز

(١) محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (٣٧٧/١)، تحقيق عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن، نشر عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة، ط١، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

QaradawiBooks.com

الشعير[١]. وقالت عائشة: ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام متوالية، ولو شئنا لشبعنا، ولكنَّه كان يؤثر على نفسه[٢].

ورفض أن يتخذ فراشًا وطيئًا، وكانت وسادته حشوها ليف، ونام على الحصير حتى أثَّر في جنبه، وتوفي وهو يلبس كساءً ملبدًا وإزارًا غليظًا.

وكذلك كان أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم حتى قال عمر: ما أنا وهذا المال ـ مال الدولة ـ إلا كولي اليتيم، إن استغنيتُ استعففت، وإن افتقرتُ أكلت بالمعروف[٣].

وقال أنس: رأيت عمر رضي الله عنه، وهو يومئذ أمير المؤمنين، وقد رَقَعَ بين كتفيه برقاع ثلاث لَبَّدَ بعضها على بعض[٤].

وقال عبد الله بن شداد: رأيت عثمان رضي الله عنه يوم الجمعة، على المنبر، عليه إزار عَدَنِيٌّ ثمنه أربعة دراهم أو خمسة![٥]

ولا نريد من رؤسائنا وأمرائنا أن يكونوا مثل أولئك الأكابر، ولكن نريد منهم أن يتقوا الله في المال العام، ولا يحابوا به الأقارب والأصهار والموالين وأبواق النفاق، ولا ينفقوه على السيارات الفارهة، والمكاتب الفاخرة، والاستقبالات الباهرة، والولائم الدسمة، والأسفار المُكَلِّفة، والأحفال المبالغة، وغيرها وغيرها، ممَّا يبتلع الملايين ولا مسوغ له.

(١) رواه البخاري في الأطعمة (٥٤١٤)، عن أبي هريرة.
(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٣٩٦)، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب (١٨٩٩).
(٣) رواه ابن أبي شيبة في السير (٣٣٥٨٥)، وصحح إسناده ابن حجر في فتح الباري (١٥١/١٣).
(٤) رواه مالك في الموطأ (٣٤٠٠)، تحقيق الأعظمي.
(٥) رواه الطبراني (٧٥/١)، وحسَّن إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٤٩٢)، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٠٨٤).

QaradawiBooks.com

إنَّ كثيرًا من الملوك والرؤساء والأمراء في ديارنا يحسبون أنَّ مال الدولة مِلْك لهم، ومن حقهم أن يتصرفوا فيه كيف يشاؤون، وقلَّما يوجد مَن يحاسبهم.

حتى البلاد التي توجد فيها هيئات برلمانية ورقابية ومحاسبية، لا تستطيع أن تمس ما يتعلق برئيس الدولة، أو بجهاز مخابراته، وأجهزة أمنه، أو بالجيش وما يُنفق عليه.

وهناك جهات يُنفق فيها المال بغير حساب، وبدون تقيد، ولا يكاد يسائلها أحد، مثل الإعلام والرياضة وأمن الدولة، أي أمن الحاكم ونظامه وجماعته.

على حين يُقتَّر كل التقتير، ويُضيَّق أشد التضييق على جهات أخرى، مثل: التعليم، والصحة، والمواصلات، والخدمات الأساسية لجمهور الناس، على نحو ما قيل: «تقتير هنا وإسراف هناك»!

إنَّ الشرع يوجب الموازنة بين المصالح بعضها وبعض، وتقديم الضروري منها على الحاجيّ، وتقديم الحاجيّ على التحسيني، وتقديم ما يخدم الجمهور الأعظم من الناس على ما يخدم فئة محدودة، وما فيه مصلحة الفقراء والمستضعَفين على ما فيه مصلحة الكبراء والموسرين[1].

إنَّ الإسراف مذمومٌ بكل حال، وعلى كل مستوى وصَعيد.

وأكثر ما يكون الإسراف مذمومًا، حين يكون من المال العام وميزانية الدولة، فإنَّ الواجب فيه الاقتصاد والحرص التام على كل درهم ودانق منه؛ لأنَّه مِلْك المسلمين جميعًا.

(١) انظر كتابنا: ملامح المجتمع المسلم صـ ٢٢٠، ٢٢١، نشر مكتبة وهبة، القاهرة.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ويروى أنَّ أبا جعفر المنصـــور رأى يومًا قنديلًا معلقًا، مضاءً بالنهار في سرب بداره معتم قليلًا، فأمر بأن يُطفأ، ولا يوقد إلا في وقت الحاجة من الليل أو آخر النهار؛ لأنَّ الزيت ـ كما قال ـ يذهب ضياعًا، ولا وجه للتضييع في شيء وإن قَلّ[١].

وقد فهم كاتب المنصور أنَّه فعل ذلك شُحًّا وبُخلًا؛ ولهذا ذهب إلى فضول موائده فباعها ظنًّا أنَّ ذلك يرضيه وأخبره بذلك، فسأله المنصور: ماذا كان يصنـــع بها قبل ذلك؟ فقـــال: كان الخدم والحشـــم والغلمان يأكلون مما يفضل، وما بقي يتصدَّق به على الفقراء والمساكين، فقال له المنصور: فأَجْرِ الأمر علـــى ما كان جاريًا عليه، وليس ســـبيل القنديل سبيل ذلك[٢].

* * *

(١) الخراج في الدولة الإسلامية للدكتور ضياء الدين الريس صـ ٣٩٧، نشر دار الأنصار، القاهرة، ط ٤، ١٩٧٧م، نقلًا عن الوزراء والكُتَّاب للجهشياري صـ ١٣٩.

(٢) المرجع نفسه.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

تدخل القانون بجوار الإرشاد والتوجيه

والإسلام لا يكتفي في هذا الباب بالوصايا والإرشادات التي تقوم على الترغيب والترهيب، وتعتمد على الضمير الديني فحسب، بل يتخذ ـ إلى جوار ذلك ـ القانون وسيلة فعَّالة للأخذ على أيدي المترفين، وسد أبواب الترف في وجوههم، فهو يمنع صناعة الخمور كما يمنع استيرادها والتجارة فيها، وكذا يفعل ذلك بالنسبة لأواني الذهب والفضة، وكل ما حرَّم الله من اللهو والخلاعة والقمار والسهرات الحمراء، ويدخل ذلك في صلب القانون الإسلامي الذي يحكم الأمة، ويلزم الدولة حراسته والقيام على تنفيذه، ومعاقبة كل متجاوز له.

الحجر في الفقه الإسلامي:

وأكثر من ذلك أنَّنا نجد في الفقه الإسلامي ـ بكل مذاهبه ـ بابًا يسمى: «باب الحجر»، ويَعْنُون به منع الإنسان من التصرف في ماله، وهو نوعان:

النوع الأول: حجر على الإنسان لمصلحة نفسه:

أي لصيانة ماله من الضياع والتبديد إذا أطلقت يده فيه، وذلك كالصبي والمعتوه والمبذِّر.

نسخة مجانية

والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ [النساء: ٦].

وقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ [النساء: ٥].

وقد اختلف المفسِّرون في المراد بالسفهاء في الآية، فقيل: المراد: الأولاد الصغار لا تعطوهم أموالكم فيفسدوها وتبقوا بلا شيء، وقيل: النساء، وردَّه بعضهم بأنَّ العرب تقول في النساء: سفائه أو سفيهات.

وعن ابن عباس أنَّ السفهاء هم الصبيان والنساء معًا، قال: لا تدفع مالك الذي هو سبب معيشتك إلى امرأتك وابنك، وتبقى فقيرًا تنظر إليهم وإلى ما في أيديهم، بل كن أنت الذي تنفق عليهم.

وعن أبي موسى الأشعري: السفهاء هنا كل مَن يستحق الحَجْر، أي سواء أكان سبب الحَجْر الصغر أم الجنون أم سوء التصرف في المال وإتلافه.

وقال الطبري بعد أن حكى أقوال المفسِّرين: الصواب عندنا أنَّها عامة في حقِّ كل سفيه، صغيرًا كان أو كبيرًا، ذكرًا كان أو أنثى، والسفيه هو الذي يضيع المال ويفسده بسوء تدبيره.

ولكن الخطابي والقرطبي وغيرهما مالوا إلى أنَّ المراد بالسفهاء هنا: الكبار المتلفون للمال؛ لأنَّ القرآن جعل السفه قسيمًا للصغر ونحوه في آية البقرة؛ إذ قال: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

QaradawiBooks.com

فأثبت الولاية على السفيه كما أثبتها على الضعيف، وكان معنى الضعيف راجعًا إلى الصغير، ومعنى السفيه راجعًا إلى الكبير البالغ؛ لأنَّ السفه اسم ذم، ولا يذم الإنسان على ما لا كسب له فيه ولا حيلة كالصِّغَر، ولهذا ورد أنَّ القلم قد رُفِع عن الصغير حتى يكبر، فالذم والحَرَج منفيان عنه.

النوع الثاني: الحجر لمصلحة الغير:

هو حجر لحق الغير، كالحجر على المدين المفلس، لحق غرمائه المطالبين، ودفعًا للضرر عنهم، وكما روى كعب بن مالك أنَّ رسول الله ﷺ حجر على معاذ وباع ماله[١]، مع ما كان لمعاذ من فضل ومكانة عند رسول الله ﷺ، ولكنَّه كان سخيَّ اليد، يبسطها كل البسط، ولا يرد سائلًا، حتى ذهب ماله وكثرت ديونه، وطالب الدائنون بحقهم، فباع الرسول ﷺ ماله، وكذلك صنع عمر بأُسَيْفِعِ جهينة[٢]، حيث باع ماله وقسمه بين غرمائه، وعليه أجمع الصحابة.

ولم يمنع هذا النوع من الحجر إلَّا أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ، الذي لم ير الحجر على الكبير ـ وإن كان سفيهًا أو مفلسًا ـ احترامًا لآدميته، وصيانةً لحريته وحقه في التصرف[٣]، ولكنَّ قوله ـ كما قال القرطبي ـ ضعيف

(١) رواه الدارقطني في الأقضية (٤٥٥١)، والحاكم في البيوع (٥٨/٢)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في البيوع والأقضية (٢٣٣٦٩).

(٣) لم ير أبو حنيفة الحجر إلا لحق الجماعة، فأجاز الحجر على المفتي الماجن، والطبيب الجاهل، والمكاري (أي: المقاول) المفلس، وذلك لضرر الأول في الأديان، وضرر الثاني في الأبدان، وضرر الثالث في الأموال. انظر: الاختيار (٩٦/٢)، نشر مطبعة الحلبي، القاهرة، ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م.

QaradawiBooks.com

في النظر والأثر؛ إذ الكبير ما دام لا يحسن النظر لنفسه في ماله، ولا يؤمَن منه إتلافه في غير وجهه، فهو يشبه الصبي... والمال ليس خالص حقه حتى يتصرف فيه كما يشاء، فهو مستخلَف فيه وأمين عليه، ولأسرته ومجتمعه حق فيه... والمديان قد تعلق بماله حق الغرماء، وإذا كان في الحجر ضرر على حرية الفرد، فإنَّ في تركه حر التصرف ضررًا بمصالح العامة، ومن قواعد الشريعة: أنَّ الضرر الخاص يُتحمل لدفع الضرر العام، وأنَّ الضرر الأعلى يُدفع بالضرر الأدنى[1].

* * *

غير مرخصة للطباعة

(١) انظر في هذا الموضوع: تفسير القرطبي (٢٧/٥)، وما بعدها، وفتح الباري (٦٨/٥)، وانظر: باب الحجر في كتب الفقه المقارن والمذهبي.

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرضَاوِي

القيم والأخلاق
في مجال التداول

- موقف الإسلام من السوق.
- منع التجارة في المحرَّمات.
- الصدق والأمانة والنصيحة.
- العدل وتحريم الربا.
- الرحمة وتحريم الاحتكار.
- السماحة والأخوة والصدقة.
- زاد التاجر إلى الآخرة.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

موقف الإسلام من السوق

يُقصد بالتداول عند الاقتصاديين: مجموع العقود والعمليات التي يتبادل الناس من خلالها الأعيان والمنافع، وبعبارة أخرى: السلع والخدمات، عن طريق البيع والشراء، والإيجار والاستئجار والجعالة والوكالة والوساطة والشركة ونحوها من أدوات المعاوضات والتجارة.

والتداول في الاقتصاد الإسلامي ليس سائبًا، بل يجري على نسق متميِّز عمَّا عند الشيوعيين الذي ألغَوْا حرية السوق، وعمَّا عند الرأسماليين الذين تركوا السوق حرَّة حريَّة مطلقة، أو شبه مطلقة، فكانت فرصة الأقوياء لالتهام الضعفاء، ومجال الأذكياء الماكرين، لافتراس الغافلين من الجماهير.

فلا يخفى أنَّ أيَّ نظام اقتصادي يقر مبدأ «الحريَّة» لا بد أن يعتمد على «السوق»، ففيها تلتقي الإرادات الحرة، راغبة في البيع أو الشراء، وتبادل المنافع والسلع، يعرض الناس فيها ما يستغنون عنه، ويطلبون ما يحتاجون إليه.

وفي السوق تتحدَّد الأسعار للأشياء، وفقًا لقانون «العرض والطلب» أحيانًا، وتبعًا لعوامل ومؤثرات أخرى في بعض الأحيان.

QaradawiBooks.com

وقد اهتم الرسول ﷺ بالسوق، وأسس في المدينة سوقًا يستقل بها المسلمون عن السوق التي كان يسيطر عليها يهود بني قينقاع[١].

وكان يمر عليها ﷺ بين حين وآخر، فيرشد ويعلِّم، ويحذِّر ويزجر، ويراقب ويؤدب.

وإذا كانت السوق في النظام الرأسمالي تكاد تكون حرَّة، لا سُلطان لأحد فيها إلا للمقدرة والمهارة الاقتصادية، التي لا تكاد تُدخل القيم والأخلاق في اعتبارها، أو الدين في حسبانها، فإنَّ شعار كل فرد فيها أن يحظى بأكبر قدر من الربح لنفسه، وأن يتخذ أقصر السبل للحصول عليه.

قد يكون ذلك باحتكار السلعة التي يحتاج الناس إليها، حتى يشتد طلبهم لها، وإلحاحهم في طلبها، فإذا بذلوا أغلى الأسعار أُخرجت من مكامنها، قد يفعل ذلك الفرد حينًا، وقد تتفق جماعة المنتجين أو التجار بإخفاء السلعة، فلا يعرضونها، إلا عندما ترتفع أثمانها ارتفاعًا باهظًا.

وقد يكون ذلك بتطفيف الكيل والميزان، فإذا كان المرء شاريًا استوفى، وإذا كان بائعًا أخسر ونقص، وقد يكون لدى أحدهم مكيالان، أحدهما كبير للشراء، والثاني صغير للبيع.

وقد يكون ذلك ببخس السلعة وتنقيص ثمنها، فتباع بأقل ممَّا تستحق في نظر الناس باستغفال صاحبها، كتلقيه بعيدًا عن السوق، أو تواطؤ جماعة على الحط من قيمة بضاعته وذمها، حتى يرضى ببيعها بالدون والثمن البخس.

---

(١) رواه ابن شبة في تاريخ المدينة (٣٠٤/١)، تحقيق فهيم محمد شلتوت، ١٣٩٩هـ. ولفظه: عن عطاء بن يسار قال: لما أراد رسول الله ﷺ أن يجعل للمدينة سوقًا أتى سوق بني قينقاع، ثم جاء سوق المدينة فضربه برجله وقال: «هذا سوقكم، فلا يضيق، ولا يؤخذ فيه خراج».

QaradawiBooks.com

وقد يكون الأمر بالعكس، أي بخداع بعض الناس ليشتري السلعة، بأكثر من ثمنها الحقيقي، كأن يتواطأ بعض الأفراد على الزيادة المفتعلة في ثمن سلعة ما يتظاهرون بأنَّهم يريدون شراءها، ويتنافسون في إغلائها، وهم في الحقيقة لا يريدون إلا خداع الآخرين من المُشْتَرِين الطيبين، وهو ما يسمى: «النجش».

وقد يكون ذلك بإخفاء عيوب السلعة الباطنة، فيخدع المشتري بظاهرها المزيّن، فإذا ذهب إلى منزله، اكتشف الغش الذي لبّس عليه، والغبن الذي وقع فيه.

وقد يكون ذلك باستغلال الطيبة والغفلة والاسترسال عند بعض الناس، الذين لا يماكسون ولا يساومون، فيبيع لهم بأكثر من السعر المألوف، أو يشتري منهم بأدنى منه، مع الغبن الفاحش في البيع أو الشراء.

وإذا كانت السوق في ظل النظام الرأسمالي على هذا النحو الذي ذكرناه، فإنَّ السوق في ظل النظام الإسلامي بريئة من كل ما ذكرناه وما لم نذكره، ممَّا فيه ظلم لأحد المتبايعين، أو إكراه له على البيع أو الشراء بطريق ظاهر أو خفي، أو أكل لماله بالباطل على أي وجه من الوجوه.

لقد وقف الإسلام الموقف الوَسط من السوق، أو من التجارة بين المذهبين أو الفريقين. وقد وقف الناس ـ من قديم ـ من التجارة مواقف مختلفة:

فمنهم مَن حمل عليها وأنكر على أصحابها، واعتبرها كسبًا غير مباح، وأكلًا للمال بالباطل، وبعض هؤلاء ينظر إلى الجانب الأخلاقي، فيراها عملًا لا يخلو من طمع واحتكار وغش، وربح على حساب الآخرين من المنتجين والمستهلكين.

QaradawiBooks.com

وتلك كانت نظرة الكنيسة الأووبية في العصور الوسطى إلى التجارة[١].

ومنهم من ينظر إلى الجانب الاقتصادي فيراها عملًا لا إنتاج فيه، كل ما فيها تكثير للوسائط بين المنتج والمستهلك، وإضافة مكاسب وعمولات وأجور تُحسب في النهاية على المستهلك المطحون.

ولهذا ترى الاشتراكية الماركسية أن تتولى الدولة نفسها مهمة التجارة، وتقوم هي بالوساطة بين المنتج والمستهلك، وبما أنَّ الدولة هي التي تملك كل وسائل الإنتاج وتديرها، فقد سهل عليها أن تتولى بيع هذا الإنتاج، وتسويقه في الداخل أو الخارج.

وبجوار هؤلاء يوجد فريق أو مذهب آخر يدعو إلى حرية التجارة، وتركها للقوانين الطبيعية، وإطلاق العنان للتجار، يبيعون ويشترون ويتنافسون، ويربحون ويخسرون، بدون تدخل من إرادة خارجية، إلا إرادة السوق نفسها، وهذا هو موقف الاتجاه الليبرالي التقليدي، والذي قامت عليه الرأسمالية الغربية.

ونرى موقف الإسلام في هذه القضية ـ كموقفه في كل القضايا ـ هو الموقف العدل الوسط، الذي لا غلو فيه ولا تقصير، ولا طغيان ولا إخسار.

إنَّه لا يقدس حرية التجارة، كما يقدسها دعاة المذهب الفردي أو النشاط الحر، ولا يدع للتجار الحبل على الغارب، ليتحكموا في المنتج، فيشتروا منه بأبخس الأثمان، ويتحكموا في المستهلك ليبيعوا له بأغلى الأسعار، شأن المطففين: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۞ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ٢، ٣].

(١) انظر كتابنا: الحلال والحرام في الإسلام، فصل: الكسب والاحتراف، موقف الكنيسة من التجارة صـ ١٤٩.

QaradawiBooks.com

كما أنَّ الإســـلام هنا لا يرتضي موقف الماركســـية من السوق أو من التجارة، فيتحكم فيها تحكمًا مركزيًّا، ويلغي تجارة الأفراد، وتصبح الدولة هي الرأسمالي الأكبر، المتسلط على الأرزاق، تسلطه على الأعناق.

إنَّما يقر الإسلام «الحرية المنضبطة» الحرية المقيَّدة بالعدل وضوابط الدين والأخلاق، وبهذا نرى: أنَّ أبرز ما يميز نظام «التداول» أو التبادل، أو التجارة الإســـلامي هو: جملة من المبادئ والقيم الأخلاقية والدينية والإنسانية، تعتبر ركائز أساسية لبناء سوق إسلامية نظيفة، ملتزمة بالمُثُل العليا، والوقوف عند حدود الله، تُحلُّ ما أحلَّه وتُحرِّم ما حَرَّمه.

من هذه المبادئ والقيم ما سنذكره في الفصول التالية.

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

منع التجارة في المحرمات

من أول ما نبَّه عليه الإسلام وأكَّده هنا: منع الاتِّجار في المحرَّمات، بيعًا أو شراءً أو نقلًا أو توسُّطًا أو قيامًا بأي عملية من عمليات تسهيل تداول السلعة المحرَّمة.

وفي هذا روى الجماعة عن جابر مرفوعًا: «**إن الله تعالى حرَّم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام**»، وفيه: «**قاتل الله اليهود، إنَّ الله لمَّا حرَّم عليهم شحومها** (أي: البقر والغنم) **جَمَلوه** (أي: أذابوه)، **ثم باعوه وأكلوا ثمنه**»[(١)].

وقال ﷺ: «**وحُرِّمَتِ التجارةُ في الخمر**»[(٢)].

وتأكيدًا لهذا: لعن النبي ﷺ: الخمر، وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وآكل ثمنها[(٣)].

ذكره العلَّامة مجد الدين ابن تيمية في «منتقى الأخبار» في «باب تحريم بيع العصير ممَّن يتخذه خمرًا، وكل بيع أعان على معصية»[(٤)].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في البيوع (٢٢٣٦)، ومسلم في المساقاة (١٥٨١)، عن جابر. وانظر: نيل الأوطار (١٦٨/٥، ١٦٩)، نشر عصام الدين الصبابطي، نشر دار الحديث، مصر، ط١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في البيوع (٢٢٢٦)، ومسلم في المساقاة (١٥٨٠)، عن عائشة.

(٣) رواه أحمد (٤٧٨٧)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح بطرقه وشواهده. وأبو داود في الأشربة (٣٦٧٤)، وابن ماجه في الأشربة (٣٣٨٠)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٢٧٧٧)، عن ابن عمر.

(٤) انظر: نيل الأوطار (١٨٣/٥).

QaradawiBooks.com

ومثل الخمر: المخدِّرات من الأفيون والحشيش وألوان السموم البيضاء ـ كما يسمونها ـ من الهيروين والكوكايين وغيرهما، ممَّا يُشترى بمئات الملايين من ثروة الأمة، ويهدِّد الملايين من أبنائها بالموت السريع أو البطيء، المادي أو المعنوي. وقد قال عمر بمحضر من الصحابة: الخمر ما خامر العقل، أي: لابسه وأخرجه عن طبيعته المدركة المميزة الحاكمة، ولا ريب أنَّ هذه المخدِّرات تفعل ذلك بالعقل، وتصنع بالجسم أكثر ممَّا تصنعه المسكرات: فلو لم تدخل في الخمر بالنص لدخلت فيها بالقياس، بل إنَّ تحريمها ينبغي أن يكون من باب أولى.

والبائع هنا أو التاجر: أشد خطرًا وأعظم جُرمًا من المتعاطي؛ فكثيرًا ما يكون هؤلاء المتعاطون ضحية جهلهم أو طيشهم أو غباوتهم، في مقابلة كيد هؤلاء، الذين ينصبون لهم الشباك حتى يوقعوهم في حبالها.

ويدخل في ذلك: كل مادة مضرة بالناس، وإن لم ينص الشرع على تحريمها بصفة خاصة، فقد حرَّم الإسلام الضَّرر والضِّرار، وبات ذلك من القواعد القطعية الشرعية، المستنبطة من نصوص القرآن، ومن استقراء جزئيات الأحكام، وعبَّر عنها الحديث النبوي القائل: «**لا ضَرر ولا ضِرار**»[1]، وكلَّما زاد ضرر الشَّيء تضاعفت حرمته، وعظم إثمه، ولا سيما ما يضر الإنسان في جسمه وعقله ونفسه، ويتفاقم الإثم والعقاب عند الله كلَّما كثر عدد المتضررين به، واتسع نطاق المستهلكين له، وخصوصًا إذا كانوا من الفقراء والضعفاء من الناس الذين لا حَوْل لهم ولا طَوْل.

(١) سبق تخريجه صـ ١١١.

QaradawiBooks.com

ومن ذلك: الأغذية الفاسدة، والأشربة الفاسدة، التي انتهى أمد صلاحيتها، أو التي لا تصلح غذاءً للآدميين، وكل الأدوية المحظورة، والمواد الضارة ولا سيما المحمَّلة بالإشعاع، وكل ما حذَّر أهل الاختصاص من تناوله؛ لأنَّه من أسباب الإصابة بالسرطان، أو بغيره من الأمراض والأوجاع التي أفقدت الإنسان صحَّة جسمه، وراحة نفسه، وطمأنينة عيشه.

ومن المواد المحرَّمة: الأواني الذهبية والفضية، التي صحَّت الأحاديث بتحريمها، وأنَّ الذي يأكل أو يشرب فيها إنَّما يجرجر في بطنه نار جهنم، وهي تجسيد للترف الذي حاربه القرآن.

ومثل ذلك: إذا اتُّخِذت هذه الأواني «تحفًا» ولم يُؤكل ويُشرب فيها، بل ينبغي أن يكون تحريمها من باب أولى، فتلك تؤدي وظيفة ما يُستفاد منها بشيء، وهذه لا يُستفاد منها إلا الخيلاء والمباهاة تجاه الأغنياء، مع ما فيها من كسر قلوب الفقراء.

وتزداد الحرمة إذا كانت في صورة «تماثيل» لما استفاضت به الأحاديث في الوعيد على تصويرها، وعلى اقتنائها[1].

إنَّ هذه الأواني والتحف والتماثيل النفيسة، التي تمتلئ بها قصور الملوك والأمراء والأثرياء، إنَّما هي ضرب من «الكنز»، وأهلها داخلون في ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

ومن المواد المحرَّمة «المواد الإعلامية» التي تروِّج الفكر الملوث، واللهو المحظور، وتسوِّق الفن المسموم، في أفلام ومسلسلات، وأغاني

(١) انظر كتابنا: الحلال والحرام في الإسلام صـ ١٠٦ ـ ١٣٣، فصل: في البيت.

QaradawiBooks.com

ومصوَّرات، وصحف ومجلات، وكتب ومنشـــورات، من كل ما يُقرأ أو يُسمَع، أو يُشاهد.

وهذه في رأيي أشـــدُّ خطرًا من الأغذية التالفة، والأشـــربة الملوثة، والمخدرات القاتلة؛ لأنَّ تلك تعمل في الأجسام، وهذه تعمل في العقول والأنفس، وهـــي تمهد لتلك، وتفتح لها الطريـــق، وتفقد أبناء المجتمع «المناعة»، التي تمنحهـــم المقاومة ضد الضيـــاع والانهيار. فهي «إيدز» الحياة العقلية والنفسية للأمة.

ومن المواد التي يحرم شـــراؤها وبيعها وتداولها وترويجها: ما جاء من قِبَل الأعداء المحاربين لله ولرسوله ولجماعة المسلمين، من أي شيء زرعوه أو صنعوه، أو سوَّقوه، أو كان لهم فيه نفع بأي صورة من الصور، كما هو الشأن في بضائع الكيان الصهيوني العدواني المغتصب، وكذلك الصرب المتوحشون المعتدون الذي لا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمة... فكل مَـــن يروِّج بضاعتهم فهـــو عون لهم على ظلمهـــم، وولي لهم في باطلهم. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

إنَّ هذا النوع من التعامل هو لون من التعـــاون على الإثم والعدوان، الذي حرَّمه الله تعالى ونهى عنه في كتابه الكريم، حين قال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

* * *

QaradawiBooks.com

الصدق والأمانة والنصيحة

الصدق:

في مقدمة قيم التبادل: الصدق رأس أخلاق الإيمان، وأبرز خصائص المؤمنين، بل خصائص النبيِّين، وبغيره لا يقوم دين، ولا تستقر دنيا، وعكسه الكذب رأس شُعَب النفاق، وخصال المنافقين، وآفة الأسواق التجارية في عالمنا. فأكثر ما يشوب التجارة: الكذب والتزييف، ولبس الحق بالباطل، سواء أكان كذبًا في بيان مزايا السلعة، وتفضيلها على غيرها، أم في الإخبار عن سعر شرائها، أو سعر بيعها لآخرين، أم في كثرة الطالبين لها... إلخ.

لهذا كان أهم وصف للتاجر المرضي عند الله تعالى أنَّه «التاجر الصدوق»، وفي الحديث: «**التاجر الصدوق الأمين مع النبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء**»[(١)].

وكان هذا الصدق من أسباب البركة على البائع والمشتري جميعًا، كما في الحديث الصحيح: «**البيِّعان** (أي: البائع، والمشتري) **بالخيار ما لم يتفرَّقا، فإن صدق البيِّعان وبيَّنا، بُورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا، فعسى أن يربحا ربحًا، ويمحقا بركة بيعهما**»[(٢)].

---

(١) سبق تخريجه صـ ١٩٧.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٧٩)، ومسلم (١٥٣٢)، كلاهما في البيوع، عن حكيم بن حزام.

QaradawiBooks.com

وأعظم ما يُذَم الكـــذب: إذا صاحَبَه الحلف بـــالله تعالى، فهذه هي اليمين الكاذبة، أو الفاجرة، أو الغموس «التي تغمس صاحبها في الإثم، في الدنيا وفي النار في الآخرة».

والشـــرع يكره كثرة الحلف في البيـــع، وإن كان صادقًا؛ لما فيه من استهانة باسم الله، ولما يُخشى على المكثر منه من التورط في الكذب، فكيف إذا كان الحلف كذبًا من أول الأمر؟!

يقول الرســـول ﷺ: «**أربعة يبغضهـــم الله: البيَّاع الحـــلاف، والفقير المختال، والشيخ الزاني، والإمام الجائر**»[(١)].

ويقول: «**ثلاثـــة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: أُشَـــيْمط زانٍ، وعائل مســـتكبر، ورجل جعل اللهَ بضاعته؛ لا يبيع إلا بيمينه، ولا يشتري إلا بيمينه**»[(٢)].

الأشيمط: الذي اختلط بياض شعره بسواده من الكبر. والعائل: الفقير.

فانظر إلى هذا التصوير لهذا المســـكين الذي اســـتخف باسم «الله» وجعله بضاعةً له، وأداةً لترويج صفقاته، فهو أســـرع شـــيء إلى اليمين والحلف بالله لتنفيق السلعة.

وهذه هي آفة تجار الدنيا، الذين شـــغلهم الربـــح الأدنى عن الربح الأعلى، وألهتهم المكاسب الفانية عن المآثر الباقية. وهم الذين حذَّرهم

---

(١) رواه النسائي في الزكاة (٢٥٧٦)، وابن حبان في الحظر والإباحة (٥٥٥٨)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٦٣)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٢٤٦/٦)، وفي الأوسط (٥٥٧٧)، وفي الصغير (٨٢١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٣٣٤): رواه الطبراني فـــي الثلاثة... ورجاله رجال الصحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٧٢)، عن سلمان الفارسي.

QaradawiBooks.com

النبي ﷺ، حين خرج يومًا، فرأى النَّاس يتبايعون، فقال: «**يا معشر التُّجَّار**»، فاستجابوا لرسول الله ﷺ، ورفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه، فقال: «**إنَّ التُّجَّار يُبعثون يوم القيامة فُجَّارًا، إلا مَنِ اتقى الله وبرّ وصدق**»(١).

وفي حديث آخر: «**إنَّ التُّجَّار هم الفُجَّار**»! قالوا: يا رسول الله، أليس قد أحلَّ الله البيع؟ قال: «**بلى، ولكنَّهم يحلفون فيأثمون، ويُحدِّثون فيكذبون**»(٢).

وعن أبي سعيد قال: مرَّ أعرابيٌّ بشاة، فقلت: تبيعها بثلاثة دراهم؟ فقال: لا، واللهِ، ثم باعها (أي: بالدراهم الثلاثة)، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**باع آخرته بدنياه**»(٣).

نسي هؤلاء التحذير النبوي: «**إياكم وكثرة الحلف في البيع؛ فإنَّه ينفِّق، ثم يمحق**»(٤)، أي: يمحق البركة.

ولهذا شدَّدت الأحاديث النبوية في كل من ينفِّق سلعته بالأيمان الباطلة.

روى مسلم في «صحيحه» عن أبي ذر مرفوعًا: «**ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم**»، قال: فقرأها

---

(١) رواه الترمذي في البيوع (١٢١٠)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في التجارات (٢١٤٦)، وابن حبان (٤٩١٠)، وقال الأرناؤوط: حسن لغيره. والحاكم (٦/٢)، وصححه ووافقه الذهبي، كلاهما في البيوع، وحسنه الألباني في الصحيحة (٩٩٤)، عن رفاعة بن رافع.

(٢) رواه أحمد (١٥٥٣٠)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح. والحاكم في البيوع (٧/٢)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، عن عبد الرحمن بن شبل.

(٣) رواه ابن حبان في البيوع (٤٩٠٩)، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن. وحسَّنه الألباني في غاية المرام (١٧١).

(٤) رواه مسلم في المساقاة (١٦٠٧)، وأحمد (٢٢٥٤٤)، عن أبي قتادة الأنصاري.

QaradawiBooks.com

رسول الله ﷺ ثلاث مرات، فقلت: خابوا وخسروا، مَن هم يا رسول الله؟ قال: «**المسبل، والمنَّان، والمنفِّق سلعته بالحلف الكاذب**»[١].

المسبل: الذي يطيل إزاره اختيالًا وكبرًا. والمنَّان: الذي يمن بصدقته، فيبطلها كما قال الله[٢]. والمنفِّق سلعته: يروِّجها.

وفي عصرنا اخترعوا وسيلة لتنفيق السلع أشد تأثيرًا من الأَيْمان، فقد كانت الأيمان قديمًا تؤثر في النـــاس لغلبة العنصر الديني على حياتهم، واعتقادهم أن مَن في قلبه بقية إيمان لا يجترئ على الحلف بالله كاذبًا.

أما اليـــوم فأيمان العصـــر هي: الإعلانـــات، التي تغـــري الناس بالأوصاف الخلابة، والأســـاليب الجذَّابة، بالكلمات المكتوبة حينًا، وبالصوت والصورة والنغم حينًا آخر، فتخدعك عن نفسك، وتبغضك فيما عنـــدك، وتدفعك إلـــى أن تشـــتري ما لا حاجة بـــك إليه، بل ما لا قدرة لك عليـــه، فيلجأ الناس إلى أن يشـــتروا بالدَّيْن، وهو هَمٌّ بالليل، ومذلَّةٌ بالنهار.

وقد جاء في الأثر في وصف التُّجَّار الأبرار: «إنَّهم الذين إذا باعوا لم يَمدحوا، وإذا اشـــتروا لم يَذمُّوا»[٣]، ومَن لنا لهـــؤلاء في دنيا تقوم على الدعاية والادعاء؟!

الأمانة:

ومن القيـــم المرتبطة بالصدق والمُتمِّمة لـــه: الأمانة: وهي خُلُق من

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٠٦)، وأحمد (٢١٣١٨)، عن أبي ذر.

(٢) حيث قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ...﴾ [البقرة: ٢٦٤].

(٣) رواه البيهقي في شـــعب الإيمان (٤٥١٣)، وأبو القاســـم الأصبهاني في الترغيب والترهيب (٧٩٦)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٩١٧)، عن معاذ بن جبل.

QaradawiBooks.com

أخلاق الإيمان كذلك، فقد وصف الله المؤمنين المفلحين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

كما أنَّ الخيانة خُلُق من أخلاق النفاق، وفي «الصحيحين»: «**أربع مَن كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومَن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»[(١)].

وفي «الصحيحين»: «**ثلاث مَن كُنَّ فيه فهو منافق، وإن صام وصلَّى وزعم أنَّه مسلم: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**»[(٢)]، والله تعالى لا يحبُّ الخائنين، ولا يهدي كيد الخائنين.

ومقتضى الأمانة: أن يرد كلَّ حقٍّ إلى صاحبه قَلَّ أو أكثر، ولا يأخذ أكثر ممَّا له، ولا ينقص من مستحقات الآخرين ما هو لهم، من ثمن أو أجر أو جعالة أو عمولة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

وفي البيوع التي تُعرف باسم: «بيوع الأمانة» مثل: «بيع المرابحة» يجب أن يصارح البائع المشتري بما قامت به عليه السلعة من ثمن ومصروفات، دون تزيد، أو تحايل.

وأهم ما تحتاج إليه الأمانة: حالة الشركة، والمضاربة والوكالة، ونحوها من العقود التي يدع أحد الطرفين فيها الأمر للطرف الآخر، مؤتمنًا إياه على التصرف لصالحهما، بما يرضي الله سبحانه. فإذا تصرف لصالح نفسه وحدها، ولو على حساب صاحبه؛ فقد خان الأمانة.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨)، كلاهما في الإيمان، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩)، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

وفي الحديث: «**يقول الله ﷻ: أنا ثالث الشريكين، ما لم يخن أحدهما صاحبه، فإذا خان أحدهما صاحبه؛ خرجت من بينهما**»[١]، وزاد رزين فيه: «**وجاء الشيطان**».

وفي رواية أخرى للحديث: «**يد الله على الشريكين، ما لم يخن أحدهما صاحبه، فإذا خان أحدهما صاحبه رفعها عنهما**»[٢].

النصيحة:

وممَّا يكمل قيمة الصدق والأمانة ويؤكدها هنا: النصيحة، ويراد بها: أن يحب الخير والمنفعة للآخرين، كما يحبُّها لنفسه، ويُبيِّن لهم ما في السلعة من عيوب خفية يعرفها هو، ولكنَّ المشتري لا يستطيع أن يبصرها؛ لأنَّها لا تظهر إلا بعد مدة، مثل العيب في أساس البناء، أو في مواصفات «المسلّح»، أو في مادة الشيء المصنوع، أو في كيفية صنعه، أو غير ذلك.

وقد جعل النبي ﷺ النصيحة هي الدين كله، حين قال: «**الدين النصيحة: لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم**»[٣].

وعن جرير بن عبد الله قال: أتيت رسول الله ﷺ، فقلت: أبايعك على الإسلام، فشرط عليَّ: «**والنصح لكل مسلم**»، فبايعته على هذا، وربِّ هذا المسجد[٤].

---

(١) رواه أبوداود (٣٣٨٣)، والدارقطني (٢٩٣٣)، والحاكم (٥٢/٢)، وصححه، ووافقه الذهبي، ثلاثتهم في البيوع، وضعفه الألباني في غاية المرام (٣٥٧)، قال ابن الملقن في البدر المنير (٧٢١/٦): هذا الحديث جيد الإسناد، عن أبي هريرة.

(٢) رواه الدارقطني في البيوع (٢٩٣٤)، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (١١١٤)، عن سعيد بن حيان مرسلًا.

(٣) رواه مسلم في الإيمان (٥٥)، وأحمد (١٦٩٤٠)، عن تميم الداري.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٥٨)، ومسلم (٥٦)، كلاهما في الإيمان.

غير مرخصة للطباعة
نسخة علمية
QaradawiBooks.com

وعن عقبة بن عامر مرفوعًا: «**المسلم أخو المسلم، ولا يحل لمسلم إذا باع من أخيه بيعًا فيه عيب إلا بيَّنه**»(١).

وعن أبي سِبَاعٍ قال: اشتريت ناقة من دار واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، فلما خرجت بها أدركني يجر إزاره، فقال: اشتريتَ؟ قلت: نعم، قال: أُبيِّن لك ما فيها، قلت: وما فيها؟ إنَّها لسمينة ظاهرة الصحة، قال: أردتَ بها سفرًا، أو أردتَ بها لحمًا؟ قلت: أردتُ بها الحج، قال: فارتجعها، فقال صاحبها: ما أردتَ إلى هذا أصلحك الله! تفسد عليَّ؟ قال: إنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يحل لأحد يبيع شيئًا إلا بيَّن ما فيه، ولا يحل لمن علم ذلك إلا بيَّنه**»(٢).

ويقابل النصيحة من التاجر المسلم: الغش، الذي لا يليق بمؤمن، وذلك بعرض السلعة عرضًا يغطي عيوبها، ولا يظهر إلا محاسنها، مما قد يوقع عوام الناس في شرائها، على توهم السلامة والكمال فيها، وهي ليست كذلك.

وهذا ما حذَّر منه النبي ﷺ بقوله وفعله.

أما قوله فقد قال: «**مَن حمل علينا السلاح فليس منَّا، ومَن غَشَّنا فليس منَّا**»(٣).

وأما فعله، فقد مرَّ ﷺ على صُبرة طعام، فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللًا، فقال: «**ما هذا يا صاحب الطعام**»؟! قال: أصابته السماء

(١) رواه ابن ماجه في التجارات (٢٢٤٦)، والحاكم في البيوع (٨/٢)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٧٠٥).

(٢) رواه أحمد (١٦٠١٣)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. والحاكم في البيوع (٩/٢، ١٠)، وصحح إسناده ووافقه الذهبي، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٧٧٤): حسن لغيره.

(٣) رواه مسلم في الإيمان (١٠١)، وأحمد (٩٣٩٦)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

يا رسول الله (يعني: المطر)، قال: «**أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس؟ مَن غَشَّنا فليس منا**». وفي رواية: «**من غش فليس منا**»[(١)].

وهذه الكلمة: «**ليس منَّا**» تدل على أنَّ هذا الغش من الكبائر؛ لأنَّه ﷺ لا يبرأ ممَّن ارتكب صغيرة تكفِّرها الصلوات الخمس، بل يكفِّرها مجرد اجتناب الكبائر، وهو يشمل الغش في البيع، وفي الإجارة، وفي الشركة، وفي الاستصناع والمقاولات، وفي سائر المعاملات المادية والمعنوية.

ومن صنوف الغش: التدليس على المشتري المسترسل الذي لا علم له بالسوق، ولا بأسعار الأشياء، واستغلال غفلته وطيبة قلبه، ليبيع له بأكثر من سعر المثل، ومثله البائع، فيشتري منه بأقل من سعر المثل، ومثله المؤجر والمستأجر، والشريك ورب المال والمضارب، الذي تُستغَل سذاجته وجهله بحال السوق، فيغبنه ابن السوق المدرَّب غبنًا فاحشًا، لا يُتسامح في مثله، فيكون حرامًا.

ولقد ضرب السَّلَف الصالح لهذه الأمة أمثلة رائعة في التقيد بهذه القيم، نذكر شيئًا منها، لنعرف كيف تتحول القيم إلى واقع، والإيمان إلى عمل.

فقد كان الصحابة والسلف رضي الله عنهم يرون إظهار عيوب السلعة من النصيحة التي بها يصح دين المسلم ويستقيم، وكان جرير بن عبد الله إذا قام إلى السلعة يبيعها، بصَّر المشتري بعيوبها، ثم خيَّره، وقال: إن شئتَ فخذ، وإن شئتَ فاترك، فقيل له: إنك إذا فعلت هذا لم ينفذ لك بيع فقال: «إنَّا بايعنا رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم»[(٢)].

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٠٢)، والترمذي في البيوع (١٣١٥)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧)، ومسلم (٥٦)، كلاهما في الإيمان، عن جرير بن عبد الله.

QaradawiBooks.com

وقد ذكرنا واقعة واثلة بن الأسقع آنفًا.

وقال الإمام الغزالي معقِّبًا على ذلك: «فقد فهموا من النصح ألا يرضى لأخيه إلا ما يرضاه لنفسه، ولم يعتقدوا أنَّ ذلك من الفضائل وزيادة المقامات، بل اعتقدوا أنَّه من شروط الإسلام الداخلة تحت بيعتهم، وهذا أمر يشق على أكثر الخلق، فلذلك يختارون التخلي للعبادة والاعتزال عن الناس؛ لأنَّ القيام بحقوق الله مع المخالطة والمعاملة مجاهدة لا يقوم بها إلا الصِّدِّيقون»[١].

التدليس بإخفاء سعر الوقت:

ويدخل في ذلك أو يقرب منه: التدليس في سعر الوقت، فالواجب ـ كما ذكر الغزالي ـ أن يصدق في سعر الوقت ولا يخفي منه شيئًا، فقد نهى رسول الله ﷺ عن تلقي الركبان[٢]، ونهى عن النجش[٣].

أما تلقي الركبان، فهو أن يستقبل الرفقة، ويتلقى المتاع، ويكذب في سعر البلد، فقد قال ﷺ: «**لا تتلقوا الركبان، ومَن تلقاها فصاحب السلعة بالخيار بعد أن يقدم السوق**»[٤]، وهذا الشراء منعقد، ولكنَّه إن ظهر كذبه ثبت للبائع الخيار، وإن كان صادقًا ففي الخيار خلاف، لتعارض عموم الخبر مع زوال التلبيس[٥].

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/٧٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢١٦٢)، ومسلم (١٥١٥)، كلاهما في البيوع، عن أبي هريرة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢١٤٢)، ومسلم (١٥١٦)، كلاهما في البيوع، عن ابن عمر.

(٤) رواه مسلم (١٥١٩)، وأبو داود (٣٤٣٧) كلاهما في البيوع، عن أبي هريرة.

(٥) أقول: واتباع الخبر أولى.

QaradawiBooks.com

ونهى أيضًا أنْ يبيعَ حاضرٌ لبادٍ[١]، وهو أن يقدم البَدَوي البلد ومعه قوت يريد أن يتسارع إلى بيعه، فيقول له الحضري: اتركه عندي حتى أغالي في ثمنه، وأنتظر ارتفاع سعره. قال الغزالي: «وهذا في القوت محرَّم، وفي سائر السلع خلاف، والأظهر تحريمه؛ لعموم النهي، ولأنَّه تأخير للتضييق على الناس على الجملة، من غير فائدة للفضولي المضيِّق».

«وأما النجش فهو: أن يتقدم إلى البائع بين يدي الراغب المشتري، ويطلب السلعة بزيادة، وهو لا يريدها، وإنَّما يريد تحريك رغبة المشتري فيها، فهذا إن لم تجر مواطأة مع البائع، فهو فعل حرام من صاحبه، والبيع منعقد، وإن جرى مواطأة ففي ثبوت الخيار خلاف، والأَوْلى إثبات الخيار؛ لأنَّه تغرير بفعل ضاهى التغرير في المصرّاة وتلقي الركبان».

وقال الإمام الغزالي: «فهذه المناهي تدل على أنَّه لا يجوز أن يلبّس على البائع والمشتري في سعر الوقت، ويكتم منه أمرًا لو علمه لما أقدم على العقد، ففعل هذا من الغش الحرام، المضاد للنصح الواجب.

فقد حُكي عن رجل من التابعين، أنَّه كان بالبصرة وله غلام بالسوس، يجهز إليه السكر، فكتب إليه غلامه: إنَّ قصب السكر قد أصابته آفة هذه السنة، فاشتر السكر، قال: فاشترى سكرًا كثيرًا، فلمَّا جاء وقته ربح فيه ثلاثين ألفًا، فانصرف إلى منزله فتفكر ليلته، وقال: ربحت ثلاثين ألفًا وخسرت نصح رجل من المسلمين، فلمَّا أصبح غدا إلى بائع السكر، فدفع إليه ثلاثين ألفًا، وقال: بارك الله لك فيها، فقال: ومن أين صارت لي؟ فقال: إنِّي كتمتك حقيقة الحال، وكان السكر قد غلا في

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢١٤٠)، ومسلم (١٥١٥)، كلاهما في البيوع، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

ذلك الوقت، فقال: رحمك الله قد أعلمتني الآن، وقد طيبتها لك، قال: فرجع بها إلى منزله وتفكر وبات ساهرًا، وقال: ما نصحته، فلعله استحيا منِّي فتركها لي، فبكر إليه من الغد، وقال: عافاك الله، خذ مالك إليك فهو أطيب لقلبي، فأخذ منه ثلاثين ألفًا».

قال الإمام الغزالي: «فهذه الأخبار في المناهي والحكايات تدل على أنَّه ليس له أن يغتنم فرصة، وينتهز غفلة صاحب المتاع، ويخفي من البائع غلاء السعر أو من المشتري تراجع الأسعار، فإن فعل ذلك كان ظالمًا تاركًا للعدل والنصح للمسلمين، ومهما باع مرابحة بأن يقول: بعت بما قام عليّ أو بما اشتريته، فعليه أن يصدق، ثم يجب عليه أن يخبر بما حدث بعد العقد من عيب أو نقصان، ولو اشترى إلى أجل وجب ذكره، ولو اشترى مسامحة من صديقه أو ولده يجب ذكره؛ لأنَّ المعامل يعول على عادته في الاستقصاء أنَّه لا يترك النظر لنفسه، فإذا تركه بسبب من الأسباب فيجب إخباره، إذ الاعتماد فيه على أمانته»[1].

تحريم الغبن الفاحش:

قال الغزالي: «وينبغي ألَّا يغبن صاحبه بما لا يتغابن به في العادة، فأما أصل المغابنة فمأذون فيه؛ لأنَّ البيع للربح، ولا يمكن ذلك إلا بغبن ما، ولكن يراعى فيه التقريب، فإن بذل المشتري زيادة على الربح المعتاد، إما لشدة رغبته أو لشدة حاجته في الحال إليه، فينبغي أن يمتنع من قبوله، فذلك من الإحسان، ومهما لم يكن تلبيس لم يكن أخذ الزيادة ظلمًا، وقد ذهب بعض العلماء إلى أنَّ الغبن بما يزيد على الثلث يوجب الخيار، ولسنا نرى ذلك، ولكن من الإحسان أن يحط ذلك الغبن.

(١) إحياء علوم الدين (٢/٧٨، ٧٩).

QaradawiBooks.com

ويروى أنَّــه كان عند يونس بن عبيد حلــل مختلفة الأثمان: ضرب قيمة كل حُلَّــة منها أربعمائة، وضربٌ كل حُلَّــة قيمتها مائتان، فمرَّ إلى الصلاة وخلّف ابن أخيه في الدكان، فجاء أعرابي وطلب حُلَّة بأربعمائة، فعرض عليه من حُلل المائتين، فاستحســنها ورضيها، فاشتراها فمضى بها وهي على يديه، فاســتقبله يونس فعرف حُلَّته، فقال للأعرابي: بكم اشتريتَ؟ فقال: بأربعمائة، فقال: لا تساوي أكثر من مائتين، فارجع حتى تردَّها، فقال: هذه تســاوي في بلدنا خمســمائة وأنا أرتضيها، فقال له يونس: انصرف فإنَّ النصح في الدين خير من الدنيا بما فيها، ثم ردَّه إلى الدكان، ورد عليه مائتي درهم، وخاصم ابن أخيه في ذلك وقاتله وقال: أمــا اســتحييتَ؟ أمــا اتقيــتَ الله؟ تربح مثــل الثمن وتتــرك النصح للمسلمين؟ فقال: واللهِ، ما أخذها إلا وهو راضٍ بها. قال: فهلَّا رضيت له بما ترضاه لنفسك؟

وهذا إن كان فيه إخفاء سعر وتلبيس، فهو من باب الظلم، وقد سبق ـ يعني: أنَّه محرَّم ـ وفي الحديث: «**غَبْن المسترسل حرام**»[1].

وكان الزبير بن عدي يقول: أدركت ثمانية عشر من الصحابة ما منهم أحد يحسن يشــتري لحمًا بدرهم، فغبن مثل هؤلاء المسترسلين ظلم، وإن كان من غير تلبيس فهو من ترك الإحســان، وقلَّما يتم هذا إلا بنوع تلبيس وإخفاء سعر الوقت».

(١) رواه الطبرانــي (١٢٦/٨)، وقال الهيثمي فــي مجمع الزوائد (٦٣٢٣): فيه موســى بن عمير الأعمى، وهو ضعيف جدًّا. عن أبي أمامــة. والبيهقي في البيوع (٣٤٩/٥)، عن جابر. وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء صـ ٥٢٤: أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف، والبيهقي من حديث جابر بسند جيد وقال: «ربا» بدل «حرام».

QaradawiBooks.com

ثم ضرب الغزالي مثلًا للإحسان المحض في المعاملة، وهو أمر فوق العدل الواجب، بما روى عن محمد بن المنكدر: أنَّه كان له شقق بعضها بخمسة وبعضها بعشرة، فباع غلامه في غيبته شقة من الخمسيات بعشرة، فلمَّا عرف لم يزل يطلب ذلك الأعرابي المشتري طول النهار حتى وجده، فقال له: إنَّ الغلام قد غلط فباعك ما يساوي خمسة بعشرة، فقال: يا هذا، قد رضيتُ، فقال: وإن رضيتَ فإنَّا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا، فاختر إحدى ثلاث خصال: إما أن تأخذ شقة من العشريات بدراهمك، وإما أن نرد عليك خمسة، وإما أن ترد شقتنا وتأخذ دراهمك، فقال: أعطني خمسة، فرد عليه خمسة، وانصرف الأعرابي.

قال الغزالي: «فهذا إحسان في ألَّا يربح على العشرة إلا نصفًا أو واحدًا على ما جرت به العادة في مثل ذلك المتاع في ذلك المكان، ومَن قنع بربح قليل كثرت معاملاته، واستفاد من تكرُّرها ربحًا كثيرًا، وبه تظهر البركة.

وكان عليّ رضي الله عنه يدور في سوق الكوفة بالدرة ويقول: معاشر التجار، خذوا الحقَّ تسلموا، لا تردوا قليل الربح فتُحرموا كثيره.

وقيل لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: ما سبب يسارك؟ قال: ثلاث: ما رددتُ ربحًا قط، ولا طُلِبَ مني حيوان فأخَّرت بيعه، ولا بعتُ بنسيئة، ويقال: إنَّه باع ألف ناقة، فما ربح إلا عقلها: باع كل عقال بدرهم، فربح فيها ألفًا، وربح من نفقته عليها ليومه ألفًا»[1]. اهـ.

* * *

(١) إحياء علوم الدين (٢/٧٩، ٨٠).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

العدل وتحريم الربا

العدل:

ومن أعظم القِيَم التي قررها الإسلام هنا، وفي سائر مجالات الاقتصاد الإسلامي: «العدل» أو «القِسْط»، وحسبنا أنَّ القرآن جعل غاية رسالات السماء جميعًا: القيام بالقسط، أي العدل. وأنَّ «العدل» اسم من أسماء الله تعالى.

وضد العدل: الظلم والْجَوْر، وهو أمر حرَّمه الله تعالى على نفسه، كما حرَّمه على عباده: «**يا عبادي، إنِّي حرَّمتُ الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرَّمًا فلا تظالموا**»[1].

والله تعالى يحب المقسطين، ويكره الظالمين، بل يلعنهم: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

ولهذا حرَّم الإسلام كل معاملة تشتمل على ظلم، وفرض توافر العدالة المحكمة في كل تعامل أو تعاقد.

ومن أجل هذا نهى عن بيوع الغرر، لما فيه من جهالة قد يضار أحد طرفي العقد من جرَّائها، فيكون ذلك ظلمًا له، ما لم يكن الغرر يسيرًا، يُتساهل في مثله، بخلاف الغرر الفاحش.

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٧)، عن أبي ذر.

QaradawiBooks.com

كما نهى عن كل معاملة فيها غبن، ما لم يكن يسيرًا يتسامح الناس في مثله، أما الغبن الفاحش فلا، وكذلك ورد النهي عن «بيع المضطر»[١]، وفسَّره الإمام الخطابي بأن يضطر إلى البيع لدَيْن يركبه، أو مؤنة ترهقه، فيبيع ما في يده بالوكس، من أجل الضرورة، فهذا سبيله في حق الدين والمروءة: أن لا يبايع على هذا الوجه، وأن لا يفتات عليه في ماله، ولكن يُعَان ويُقرَض، ويُسهَّل إلى الميسرة، حتى يكون له في ذلك بلاغ، فإنَّ عقد البيع ـ مع الضرورة ـ على هذا الوجه، جاز في الحكم ولم يفسخ (يعني: أنَّه نافذٌ قضاءً، وإن كان مذمومًا ديانة)، قال: وفي إسناد الحديث رجل مجهول (شيخ من بني تميم)، إلَّا أنَّ عامة أهل العلم قد كرهوا البيع على هذا الوجه[٢]، يعني أنَّه مجمع عليه، لما فيه من مظنة الظلم والبخس.

ومدار النهي على استغلال حاجة المضطر وشراء الشيء منه بأقل من ثمن مثله، وهو الثمن العادل.

تحريم الربا:

ومن أبرز مظاهر العدل هنا: «تحريم الربا» الذي آذن القرآن مرتكبيه بحربٍ من الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

فدلَّ هذا النص القرآني على أنَّ أساس تحريم الربا هو منع الظلم لكل واحد من الطرفين فلا يَظلم ولا يُظلم.

---

(١) رواه أحمد (٩٣٧) وقال مخرجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في البيوع (٣٣٨٢)، عن علي بن أبي طالب.

(٢) معالم السنن (٨٧/٣).

QaradawiBooks.com

وعدّه النبي ﷺ من «**السبع الموبقات**»[١]، أي: المهلكات للفرد وللجماعة، في الدنيا والآخرة، ولعن آكله وموكله وكاتبه وشاهديه، وقال: «**هم سواء**»[٢]، أي: في أصل الإثم، وإن تفاوتت مرتبة كل منهم فيه.

واعتبره إحدى رذيلتين إذا شاعت في مجتمع حلَّت به نقمة الله ﷻ: الربا، والزنى: «**إذا ظهر الزنى والربا في قرية فقد أحلُّوا بأنفسهم عذاب الله** ﷻ»[٣].

وما ذلك إلَّا أنَّ الربا أكل لمال الغير بلا جهد ولا مخاطرة، وتحيز للمال في مقابل العمل، ومحاباة للأغنياء على حساب الفقراء، وإهدار للجانب الإنساني في سبيل الكسب المادي.

وقد ذمَّت الأديان كلها الربا، حتى اليهود حرَّموه فيما بين بعضهم وبعض، وإن أجازوه في تعاملهم مع غيرهم من الأمم، على طريقتهم في قولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥].

والنصرانية حرَّمته تحريمًا قاطعًا في مصادرها الأصلية.

وكذلك أنكره المشرِّعون والفلاسفة القدامى، مثل «سولون»، واضع قانون أثينا القديم، و«أفلاطون» كذلك.

أما «أرسطو» فاعتبر الفائدة ـ أيًّا كان مصدرها ـ كسبًا غير طبيعي، إذ تؤخذ من عمل الغير، ويرى «أنَّ النقد لا يلد النقد» ومَن استولده بالعمل كان أحق بنتاجه.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الوصايا (٢٧٦٦)، ومسلم في الإيمان (٨٩)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في المساقاة (١٥٩٨)، وأحمد (١٤٢٦٣)، عن جابر بن عبد الله.

(٣) رواه الطبراني (١٧٨/١)، والحاكم في البيوع (٣٧/٢)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، وقال ابن حجر في الفتح (١٩٣/١٠): في سنده مقال. عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

وقال بعض الفلاسفة: المرابون أشبه شيء بذكور النحل، يعيشون على عمل الغير، ولا يعملون[١].

وقد تحدَّث كثير من فلاسفة الاقتصاد في عصرنا عن الربا، وبيَّنوا مخاطره وأضراره الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وقال أحدهم: إنَّ مجتمعنا يسلك نهجًا قويمًا إذا استطاع أن يخفض معدل الفائدة إلى الصفر ـ أي: يلغيها نهائيًّا. قاله الاقتصادي البريطاني الشهير «لورد كينز».

كما بيَّن المفكرون المسلمون مساوئ الربا وآثاره الضَّارَّة على الحياة في جوانبها المختلفة أمثال الأساتذة: المودودي، ودراز، وعيسى عبده، والعربي، وأبي السعود، وأبي زهرة، والصِّدِّيقي، وغيرهم.

تبريرات رأسمالية:

وقد حاول الاقتصاديون الرأسماليون تبرير مشروعية الفائدة، بأنَّ صاحب النقود يمكنه بدلًا من إقراضها أن ينفقها في إشباع حاجاته الحاضرة التي هي أشد إلحاحًا عليه من حاجاته المستقبلة، ولكنَّه يضحي بحاجاته الحاضرة، ويفضل الانتظار، وبذلك يتكون رأس المال نتيجة لهذا الانتظار، ولا بد لهذه التضحية أو لهذا الانتظار من ثمن، وهذا الثمن هو الفائدة، فالفائدة إذن هي عائد الانتظار أو عائد رأس المال.

ونوقش هذا التبرير بأنَّ الأساس الذي بُنِي عليه أساس ضعيف، لا يصمد للنقد؛ لأنَّ الادخار «وهو تعبير آخر للانتظار أو للتضحية بالحاجات الحاضرة»، لا يتم في جميع الحالات بدافع التضحية بالحاجات الحاضرة، إذ قد تصل حاجات الشخص جميعًا إلى درجة

(١) انظر: بحوث في الربا للشيخ محمد أبو زهرة، نشرته دار البحوث العلمية.

QaradawiBooks.com

الإشـــباع فيفيض عن حاجاته مال كثير، وهنا لا يوجد انتظار أو حرمان، فعلام يتقاضى مثل هذا الشـــخص فائدة، ما دام أنَّـــه لا يعاني حرمانًا من عدم إشباع حاجاته الحاضرة، ولا يكابد انتظارًا لإشباع حاجاته المستقبلة؟

وقد قال بحق أحد الكُتَّاب الاقتصادييـــن: لا يمكن اعتبار كل فائدة مجرد ثمـــن الانتظار والتضحية بالاســـتهلاك الحال وتأجيله لمســـتقبل معلوم، وإذا أقرض شخص مليونًا من الجنيهات الإسترلينية بسعر (١٠٪) لمدة ســـنة، وحصل على فائدة مقدارها (١٠٠,٠٠٠) جنيهٍ في نهاية السنة، فهل يمكن أن يقال: إنَّ هذا المبلغ تعويض عن تأجيله اســـتهلاك ما كان يمكن أن يستهلكه لو أراد أن يســـتبدل بالادخار والإقراض الإقبال على الإنفاق؟ وقد يُعتبـــر هذا المبلغ تعويضًا عن الحرمـــان من إنفاق مليون جنيه، وتأجيل هذا الإنفاق ليحل بعد سنة؟ وهل يستطيع عاقل أن ينفق مليونًا من الجنيهات على ســـلع استهلاك في ســـنة من السنين؟ إنَّه إن استطاع ما استحق أن يملك هذا المبلغ! وإن ملكه فلا يعتبر حرمانه من استهلاكه حقًّا في أن يحصل على (١٠٠,٠٠٠) جنيهٍ في السنة[1].

شُبهةٌ لأنصار الربا:

يقول أنصار مشـــروعية الربا: إنَّ الربح الذي يحصل عليه المقترض من عمله في المال الذي اقترضه، إنَّما ينشأ وليدًا من التزاوج بين العمل ورأس المال، فكيف تخوِّلون للعمل حقًّا في الربح، ولا تخوِّلون للمال حقَّه فيه، مع أنَّه زوجه وشريكه في هذا النتاج؟

(١) انظر: محاضرة الخطوط الكبرى للنظام الاقتصادي في الإســـلام للأستاذ ياقوت العشماوي صـ ٢٢٧، من المحاضرات العامة للموســـم الثقافي الأول للإدارة العامة للثقافة الإســـلامية بالأزهر، ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٩م.

QaradawiBooks.com

ويجيب شيخنا الدكتور محمد عبد الله دراز عن هذه الشُّبهة فيقول:

«أما أنَّ الربح ليس ثمرة عنصر واحد، بل ثمرة عنصرين متزاوجين، فذلك حق لا شبهة فيه، غير أنَّ المعارضين قد فاتهم شيء جوهري، وهو أنَّه بمجرد عقد القرض أصبح العمل ورأس المال في يد شخص واحد، ولم يبق للمقرض علاقة مَّا بذلك المال، بل صار المقترض هو الذي يتولى تدبيره تحت مسؤوليته التامة، لربحه أو لخسره، حتى إنَّ المال إذا هلك أو تلف فإنَّما يهلك أو يتلف على ملكه، فإذا أصررنا على إشراك المقرض في الربح الناشئ وجب علينا في الوقت نفسه أن نشركه في الخسارة النازلة، إذ كل حق يقابله واجب، أو كما تقول الحكمة النبوية: «**الخراج بالضمان**»[1]، أما أن نجعل الميزان يتحرك من جانب واحد فذلك معاندة للطبيعة... ومتى قبلنا اشتراك رب المال في الربح والخسارة معًا، انتقلت المسألة من موضوع القرض إلى صورة معاملة أخرى، وهي الشركة التضامنية الحقيقية بين رأس المال والعمل، وهذه الشركة لم يغفلها القانون الإسلامي، بل أساغها ونظمها تحت عنوان: «المضاربة» أو «القراض»، غير أنَّه لكي يقبل رب المال الخضوع لهذا

(١) رواه أحمد (٢٤٢٢٤)، وقال مخرِّجوه: حديث حسن. وأبو داود (٣٥٠٨، ٣٥٠٩، ٣٥١٠)، وقال: هذا إسناد ليس بذاك، والترمذي (١٢٨٥)، وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي (٤٤٩٠)، ثلاثتهم في البيوع، وابن ماجه في التجارات (٤٤٤٢)، وقال الحافظ في بلوغ المرام صـ ١٣٥: رواه الخمسة، وضعفه البخاري وأبو داود، وصححه الترمذي، وابن خزيمة، وابن الجارود، وابن حبان، والحاكم، وابن القطان.

والمراد بالخراج: الغلة والمنفعة، فمَن اشترى دارًا مثلًا ـ فأجَّرها، وأخذ أجرتها، أو دابة فأكراها، وأخذ كراءها، ثم وجد بها عيبًا قديمًا، فله أن يردها إلى بائعها، وتكون الغلة والدخل الذي جاء منها للمشتري؛ لأن المبيع كان مضمونًا عليه، ولو هلك في تلك المدة لهلك على مسؤوليته، فقوله: «**الخراج بالضمان**» أي: ملك الخراج والمنفعة بضمان الأصل.

QaradawiBooks.com

النوع من التعامل يجب أن يكون لديه من الشجاعة الأدبية ما يواجه به المستقبل في كل احتماله، وهذه فضيلة لا يملكها المرابون؛ لأنَّهم يريدون ربحًا بغير مخاطرة، وذلك هو ما يسمى: تحريف قواعد الحياة، ومحاولة تبديل نظمها.

هكذا إذا سرنا وفقًا للأصول والمبادئ الاقتصادية في أدق حدودها كانت لنا الخيرة بين نظامين اثنين لا ثالث لهما: فإما نظام يتضامن فيه رب المال والعامل في الربح والخسر، وإما نظام لا يشترك فيه معه في ربح ولا خسر. ولا ثالث لهما إلا أن يكون تلفيقًا من الجور والمحاباة»[1].

إيفاء الكيل والميزان بالقسط:

ومن العدل الذي أوجبه الله تعالى: إيفاء الكيل والميزان بالقسط، وهو ما تكرَّر في القرآن الأمر به؛ ففي الوصايا العشر من سورة الأنعام: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وفي وصايا الحكمة من سورة الإسراء: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥].

وحين قدم النبي ﷺ إلى المدينة، وجدهم يطففون في الكيل والوزن، فأنزل الله وعيدًا شديدًا في شأن هؤلاء المطففين، فقال: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ١ ـ ٦].

---

(١) انظر: دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية للدكتور محمد عبد الله دراز صـ ١٦٨، ١٦٩، فصل: الربا في نظر القانون الإسلامي، نشر دار القلم، الكويت، ط ٣، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

QaradawiBooks.com

ومن القصص التي كررها القرآن وبيَّن عاقبة أهلها: قصة مَدْين، قوم شعيب عليه السلام، وكيف شاع فيهم هذا اللون من فساد التعامل، فجاء شعيب يدعوهم إلى العدل ويردهم إلى الرشد. فبعد أن يدعوهم إلى عبادة الله وحده، ما لهم من إله غيره، يُخوِّفهم من مغبة هذا التطفيف، ويأمرهم بالإيفاء وعدم الإخسار: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ۞ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء: ١٨١، ١٨٢].

بخس الناس أشياءهم:

وممَّا حذَّرهم منه كذلك: بخس الناس أشياءهم، وهي آفة أخرى من آفات السوق، التي تسودها الأنانية، ويهيمن عليها الظلم.

يقول تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۞ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٤، ٨٥].

فاعتبر التطفيف والبخس من الإفساد في الأرض.

يقول الإمام القرطبي: «البخس: النقص، وهو يكون في السلعة بالتعييب والتزهيد فيها، أو المخادعة عن القيمة، والاحتيال في التزيد في الكيل والنقصان منه، وكل ذلك من أكل المال بالباطل، وكل ذلك منهي عنه في الأمم المتقدمة والسالفة، على ألسنة الرسل»[1].

(١) تفسير القرطبي (٢٤٨/٧).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

إكراه الناس على سعر لا يرضونه بغير مسوغ:

ومن العدل هنا: عدم إجبار الناس على البيع بسعر معيَّن، إذا سارت السوق سيرًا طبيعيًّا، فلا احتكار فيها، ولا تلاعب بالأسعار، ولا تسلط من الأقوياء على رقاب الضعفاء، وإن غلت بعض الأشياء، لقِلَّة الشيء، أو لكثرة الخلق، تبعًا لما يسميه الاقتصاديون: «قانون العرض والطلب»، فهنا تُترك السوق للعدالة الفطرية، ولا يتدخل ولي الأمر بإكراه الناس على البيع بثمن لا يرضونه، ولم يصدر منهم ولا من غيرهم أي تعدٍّ أو انحراف يوجب ذلك.

وهذا هو ما صنعه النبي ﷺ حين امتنع عن التسعير، وقد طلبوا إليه ذلك، كما في حديث أنس: قال الناس: يا رسول الله، غلا السعر، فسعِّر لنا، فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله هو المسعِّر القابض الباسط الرازق، وإنِّي لأرجو أن ألقى الله، وليس أحد منكم يطلبني بمظلمة في دم ولا مال**»[1]، فاعتبر التدخل ـ لغير حاجة ـ لونًا من الظلم يبرأ إلى الله تعالى منه.

أما إذا تدخلت في السوق عوامل الاحتكار والاستغلال والتلاعب بحاجات الناس ـ كما هو الشائع في عصرنا ـ فإنَّ التسعير جائز، بل واجب، في هذا الحال؛ لأنَّه إلزام للناس بالعدل الذي ألزمهم الله به، كما بيَّن ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية بأوضح بيان، وسنعرض ذلك في موضعه.

(١) رواه أحمد (١٤٠٥٧)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وأبو داود (٣٤٥١)، والترمذي (١٣١٤)، كلاهما في البيوع، وابن ماجه في التجارات (٢٢٠٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٤٦)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

مطل الغني ظلم:

ومن العدل الذي أوجبه الإسلام: الوفاء بالدَّيْن في موعده، ما دام مليئًا موسرًا، إبراءً للذمة، وأداءً للحق، والتزامًا بالعقد، ووفاءً بالعهد، فإذا مطل دائنه فلم يوفه دَيْنه وهو قادر، فهو ظالم يستحقُّ عقوبة الظالمين في الدنيا والآخرة.

يقول ﷺ: «**مطل الغني ظلم**»(١).

وفي عقوبته في الدنيا يقول: «**لَيُّ الواجد يُحلُّ عِرضه وعقوبته**»(٢).

و«الواجد»: هو القادر على الدفع. و«ليُّه»: مطله. ومعنى «يُحلُّ عِرضه» أي: يجيز التشهير به، وذكره بسوء معاملته. و«عقوبته»: حبسه.

أما عقوبة الآخرة، فهي شديدة؛ لأنَّه أمر يتعلق بحقوق العباد، وهي مبنية على المشاحّة، لا على المسامحة، وأخشى ما يُخشى على المدين أن يموت وعليه دَيْن، ولم يدع في تركته ما يوفيه.

وفي الحديث: «**إنَّ من أعظم الذنوب عند الله أن يلقاه بها عبد، بعد الكبائر التي نهى الله عنها: أن يموت الرجل، وعليه دَيْن لا يدع له قضاء**»(٣).

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الحوالات (٢٢٨٧)، ومسلم في المساقاة (١٥٦٤)، عن أبي هريرة.

(٢) علقه البخاري في صحيحه (١١٨/٣) في الاستقراض باب لصاحب الحق مقال، فقال: ويذكر عن النبي ﷺ... ووصله أحمد (١٧٩٤٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده محتمل للتحسين. وأبو داود في الأقضية (٣٦٢٨)، والنسائي في البيوع (٤٦٨٩)، وابن ماجه في الصدقات (٢٤٢٧)، والحاكم في الأحكام (١٠٣/٤)، وصحح إسناده ووافقه الذهبي، وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح (٦٢/٥)، عن عمرو بن الشريد.

(٣) رواه أحمد (١٩٤٩٥)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف، وأبو داود في البيوع (٣٣٤٢)، عن أبي موسى الأشعري.

QaradawiBooks.com

ومن أعظم الوعيد على ذلك: ما صحَّ أنَّ الشهادة في سبيل الله على رفيع منزلتها عند الله، لا تُسقط تبعة الدَّيْن عن المدين، ففي «صحيح مسلم»: «**يُغفر للشهيد كل ذنب إلا الدَّيْن**»[١].

ويشتد الإثم إذا كان الدائن صاحب الحق من فئات الشعب الضعيفة والمسحوقة، حيث لا سند له ولا جاه ولا قوة، يواجه بها المدين، القوي المكين.

أورد الحافظ المنذري في كتابه: «الترغيب والترهيب» حديث خولة بنت قيس امرأة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهما قالت: كان على رسول الله ﷺ وسْقٌ من تمر لرجل من بني ساعدة، فأتاه يقتضيه، فأمر رسول الله ﷺ رجلًا من الأنصار أن يقضيه، فقضاه تمرًا دون تمره، فأبى أن يقبل، فقال: أترد على رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، ومَن أحق بالعدل من رسول الله ﷺ؟ فاكتحلت عينا رسول الله ﷺ بدموعه، ثم قال: «**صدق، ومَن أحق بالعدل مني؟ لا قدّس الله أمة لا يأخذ ضعيفها حقَّه من شديدها، ولا يُتَعْتِعَهُ**»، ثم قال: «**يا خولة؛ عديه واقضيه، فإنَّه ليس من غريم يخرج من عند غريمه راضيًا إلا صلَّت عليه دواب الأرض، ونون البحار، وليس من عبد يلوي غريمه ـ وهو يجد ـ إلا كتب الله عليه في كل يوم وليلة إثمًا**»[٢].

---

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٨٨٦)، وأحمد (٧٠٥١)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٢٣٣/٢٤)، والأوسط (٥٠٢٩)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٦٨٧): فيه حبان بن علي، وقد وثقه جماعة، وضعفه آخرون. وانظر: الترغيب والترهيب (٢٧٩٩).
وقد روي الحديث بألفاظ مختلفة عن عدد من الصحابة تدل على صحة أصل القصة والحديث.

QaradawiBooks.com

«تَعْتَعَه»: أقلقه وأتعبه بكثرة ترداده إليــه ومطله إياه. و«نون البحار»: حوتها. و«يلوي غريمه»: يمطله ويسوفه.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا قُدستْ أمة لا يُعطَى الضعيف فيها حقَّه غير متعتَع**»[1].

* * *

(١) رواه ابن ماجه في الصدقات (٢٤٢٦)، وأبو يعلى (١٩٠١)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٦٨/٣): إسناده صحيح رجاله ثقات، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٩٦٩).
والحديث يدل على أن الأمة التي تضيع فيها حقوق الضعفاء أمة لا خير فيها ولا يباركها الله.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مرخصة
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الرحمة وتحريم الاحتكار

الرحمة:

ومن القِيَم المهمَّة في هـــذا المجال: «الرحمة» التي جعلها الله عنوانًا لرســـالة محمد ﷺ حين خاطبه فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ووصف الرسول بها نفسه، فقال: «**إنَّما أنا رحمة مهداة**»(١).

وجعلها شـــرطًا لنَيْل رحمة الله، فقال: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا مَن في الأرض يرحمكم من في السماء**»(٢)، وهنا يوجب الإسلام الرحمة بالخلق، فلا يجعل التاجر أكبر همِّه، وغاية سعيه: الحصول على أكبر قدر من الربح لخزانته، أو رصيده في المصرف، وإن كان ذلك على حساب جهود الناس، وبخاصة الضعفاء منهم الذين لا يملكون مزاحمة أهل القوة واليسار بالمناكب.

---

(١) رواه الحاكم في الإيمان (٣٥/١)، وصحَّحه على شرطهما، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٩٠)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٦٤٩٤)، وقال مخرِّجوه: صحيح لغيره. وأبو داود في الأدب (٤٩٤١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٤)، وقال: حسن صحيح. والحاكم في البر والصلة (١٥٩/٤)، وقال: بعد أن ذكره مع أحاديث عدة في الباب: وهذه الأحاديث كلها صحيحة، ووافقه الذهبي. وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩٢٥)، عن عبد الله بن عمرو.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

إنَّ الإسلام يريد أن يقيم ـ في ظل القِيَم ـ سوقًا إنسانية، يرحم الكبير فيها الصغير، ويأخذ القوي بيد الضعيف، ويتعلَّم الجاهل فيها من العالِم، وينكر الناس فيها على الباغي والظالم.

أما السوق في إطار الحضارة المادية والفلسفة الرأسمالية، فليست إلا غابة مصغَّرة أو مطوَّرة، يفترس القوي فيها الضعيف، ويدوس الكبير فيها الصغير، البقاء فيها للأقوى والأقتل، لا للأصلح والأمثل.

تحريم الاحتكار:

ومن هنا حرَّم الإسلام «الاحتكار»، وهو أحد عنصرين تقوم عليهما الرأسمالية الجشعة المتسلطة، والعنصر الآخر هو: الربا.

ويُقصد بالاحتكار: حبس السلع عن التداول في السوق، حتى تغلو أثمانها، ويزداد الإثم هنا إذا كان الاحتكار جماعيًّا تواطأ عليه تجار هذا النوع من البضائع، ومثله أن يحتكر تاجر واحد الصنف كله لحسابه، فيتحكم في السوق كما يشاء.

قال ﷺ: «**من احتكر فهو خاطئ**»[(١)].

وفي بعض ألفاظه: «**لا يحتكر إلا خاطئ**» أي آثم، وهي الكلمة التي دمغ القرآن بها الطغاة الجبارين، فرعون وهامان وأعوانهما فقال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القصص: ٨].

وقال ﷺ: «**من احتكر طعامًا أربعين يومًا، فقد برئ من الله، وبرئ الله منه**»[(٢)].

---

(١) رواه مسلم في المساقاة (١٦٠٥)، وأحمد (١٥٧٥٨)، عن معمر بن عبد الله القرشي.

(٢) رواه أحمد (٤٨٨٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. وابن أبي شيبة في البيوع (٢٠٧٦٩)، =

QaradawiBooks.com

وقال عليّ رضي الله عنه: «من احتكر طعامًا أربعين يومًا قسا قلبه»[1].

وسر ذلك: أنَّه ينظر إلى مصلحة نفسه، ولا يبالي بضرر المجموع، فكلَّما حدث رخص ساءه وآلمه، وكلَّما سمع بغلاء سرَّه وأبهجه. فلا غرو أن تتسرب الرحمة من قلبه، وأن تغزوه الأنانية والقسوة.

والقسوة آفة تنزل بالإنسان من أفق الإنسانية إلى حضيض السَّبُعِيَّة أو الوحشية، وقد ذمَّ الله بني إسرائيل قديمًا بقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

واعتبرها القرآن عقوبة إلهية يُبتلَى بها من عصى الله وانحرف عن نهجه، كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣].

والاحتكار مبعثه الأنانية والقسوة على خلق الله به؛ لأنَّ المحتكر يريد أن يوسع ثروته بالتضييق على خلق الله، وأن يبني قصوره من جماجم البشر، وأن يمص دماءهم لتجري في عروقه أو في رصيده ألوفًا وملايين!

ما الذي يحرم احتكاره من السلع؟

وللفقهاء هنا خلاف حول أمرين: الجنس الذي يحرم احتكاره من السلع ما هو؟ والوقت الذي يحرم فيه الاحتكار.

= وأبو يعلى (٥٧٤٦)، والحاكم في البيوع (١١/٢)، وذكره ضمن عدة أحاديث، وقال: هذه الأحاديث الستة طلبتها وخرجتها في موضعها من هذا الكتاب احتسابًا لما فيه الناس من الضيق والله يكشفها وإن لم يكن من شرط هذا الكتاب. وقال الذهبي: عمرو بن الحصين العقيلي تركوه، وأصبع بن زيد الجهني فيه لين، عن ابن عمر.

(١) نقل ذلك الغزالي في إحياء علوم الدين (٧٢/٢، ٧٣).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فمن الفقهـــاء من قصر الاحتكار على «الأقــوات» لا يتجاوزها. قال الغزالي: «أما ما ليس بقوت ولا هو معين على القوت، كالأدوية والعقاقير والزعفران وأمثاله، فلا يتعدى النهي إليه، وإن كان مطعومًا. وأما ما يعين على القوت كاللحم والفواكه وما يسد مسدًّا يغني عن القوت في بعض الأحــوال، وإن كان لا يمكن المرادفة عليه، فهــذا في محل النظر، فمن العلماء من طرد التحريم في السمن والعسل والشيرج والجبن والزيت، وما يجري مجراه»[1].

ويُفهم من كلام الغزالــي هنا أنَّهم يعتبرون «القــوت» محصورًا في الطعام الجاف مثــل الخبز والأرز بــلا ســمن ودون إدام، حتى الجبن والزيت والسمسم ونحوها اعتبرت خارج دائرة القوت.

وهذا الذي ذكروه من القــوت، لا يكتفي به الطــب الحديث غذاءً صحيحًا للإنســان، إذ لا بد أن تتوافر في الغــذاء الصحي جملة عناصر ضرورية، منها: البروتينات والدهنيات والفيتامينات، وإلا أصبح الإنسان عُرضة لأمراض سوء التغذية.

كما أنَّ الأدوية في عصرنا أصبحت أمــرًا ضروريًّا للناس، ولم تكن كذلك في الزمن الماضي، وكذلك الملبوســات ونحوها، فالإنسان كما يحتاج إلى الغذاء، يحتاج إلى الكساء.

وحاجات الناس تتطور بتطور أنماط حياتهم، وكم من أمر تحسيني أو كمالي أصبح حاجيًّا، وكم من حاجي غدا ضروريًّا.

والأرجح ـ في رأيي ـ تحريم الاحتكار لكل ما يحتاج إليه الناس، طعامًا كان أو دواءً أو لباسًا، أو أدوات مدرسية أو منزلية، أو مهنية، أو غير ذلك.

(١) إحياء علوم الدين (٢/٧٣).

QaradawiBooks.com

والدليل على ذلك عموم الحديث: «**لا يحتكر إلا خاطئ**»[١]، «**من احتكر فهو خاطئ**»[٢]، والنص على منع احتكار الطعام، والوعيد عليه خاصة، لا ينفي ذلك العموم.

وعِلَّة النهي أيضًا تؤكد ذلك، وهي الإضرار بعموم الناس، نتيجة حبس السلعة، وحاجة الناس ليست إلى الطعام وحده، وخصوصًا في عصرنا، فالإنسان في حاجة إلى أن يطعم ويشرب، ويلبس ويسكن، ويتعلم، ويتداوى، ويتنقل، ويتواصل مع غيره بشتَّى الوسائل.

ومن هنا أرجح قول الإمام أبي يوسف: «كل ما أضرَّ بالناس حبسه فهو احتكار»[٣].

وكل ما تشتد حاجة الناس إليه يكون احتكاره أشد إثمًا، وفي مقدمة ذلك الطعام، وفي مقدمة الطعام القوت الضروري.

الوقت الذي يحرم فيه الاحتكار:

وكذلك الخلاف في الوقت الذي يحرم فيه الاحتكار، فمن العلماء من طرد النهي في جميع الأوقات، ولم يفرق بين وقت الضيق ووقت السعة، آخذًا بعموم النهي، وعليه عمل الورعين من السَّلَف.

قال الغزالي: «ويحتمل أن يُخصص بوقت قلة الطعام، وحاجة الناس إليه حتى يكون في تأخير بيعه ضرر ما، فأما إذا اتسعت الأطعمة، وكثرت واستغنى النَّاس عنها، ولم يرغبوا فيها إلا بقيمة قليلة، فانتظر صاحب

(١) سبق تخريجه صـ ٣٣.

(٢) سبق تخريجه صـ ٣١٠.

(٣) البناية شرح الهداية (٢١٣/١٢)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

QaradawiBooks.com

الطعام ذلك، ولم ينتظر قحطًا، فليس في هذا إضـــرار، وإذا كان الزمان زمان قحط، كان في ادخار العســـل والسمن والشـــيرج وأمثالها إضرار، فينبغي أن يُقضَى بتحريمه، ويعوّل في نفي التحريم وإثباته على الضِّرار، فإنَّه مفهوم قطعًـــا من تخصيص الطعام، وإذا لم يكـــن ضِرار، فلا يخلو احتكار الأقـــوات عن كراهية، فإنَّـــه ينتظر مبادئ الضِّـــرار، وهو ارتفاع الأســـعار، وانتظار مبادئ الضِّرار محذور كانتظار عَيْـــن الضِّرار، ولكنَّه دونه، وانتظار عَيْن الضِّرار أيضًا هو دون الإضرار، فبقدر درجات الإضرار تتفاوت درجات الكراهية والتحريم.

وعن بعض السَّلَف: أنَّه كان بواسط، فجهَّز سفينة حنطة إلى البصرة، وكتب إلى وكيله: بِعْ هذا الطعام يوم يدخل البصرة، ولا تؤخِّره إلى غد، فوافق ســـعة في الســـعر، فقال له التجـــار: لو أخرته جمعـــة ربحت فيه أضعافه، فأخَّره فربح فيه أمثاله، وكتب إلـــى صاحبه بذلك، فكتب إليه صاحب الطعام: يا هذا، إنَّا كنا قنعنا بربح يسير مع سلامة ديننا، وإنَّك قد خالفت، وما نحب أن نربح أضعافه بذهاب شيء من الدين، فقد جنيت علينا جناية! فإذا أتاك كتابي هـــذا فخذ المال كله، فتصدَّق به على فقراء البصرة، وليتني أنجو من إثم الاحتكار كفافًا لا عليَّ ولا لي»[1].

* * *

(١) إحياء علوم الدين (٢/٧٣).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

السماحة والأخوة والصدقة

السماحة:

ومن القِيَم الخُلُقية المطلوبة هنا: السماحة والتجاوز والتيسير، والبُعد عن الكزازة والمضايقة والمشاحَّة والتعسير، وهي القِيَم التي تسود دنيا التجارة، والروح التي تهيمن على السوق، ولا سيما تحت وطأة الرأسمالية الجشعة القاسية، التي لا تعرف إلا الربح هدفًا، والمغالبة طريقًا.

عن جابر بن عبد الله، أنَّ النبي ﷺ قال: «**رحم الله عبدًا سمحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا اقتضى**»[1] أي: طالب بحقه.

وعن أبي هريرة: أنَّ رجلًا أتى النبي ﷺ يتقاضاه، أغلظ له (أي: للنبي ﷺ) فهمَّ به أصحابه، فقال رسول الله ﷺ: «**دعوه، فإنَّ لصاحب الحقِّ مقالًا**»، ثم قال: «**أعطوه سنًّا مثل سِنِّه**». أي: من الإبل. قالوا: يا رسول الله، لا نجد إلا أمثل من سنه. قال: «**أعطوه، فإنَّ خيركم أحسنكم قضاءً**»[2].

(١) رواه البخاري في البيوع (٢٠٧٦)، وابن ماجه في التجارات (٢٢٠٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الوكالة (٢٣٠٦)، ومسلم في المساقاة (١٦٠١).

QaradawiBooks.com

ومن هذا أخذا العلماء: أنَّ رد الدَّيْن أو القرض بزيادة عليه: أمر مشروع، بل ممدوح شرعًا؛ لأنَّه من مكارم الأخلاق، ما لم يكن مشروطًا من قبل، فإذا دخله الشرط فهو ربا.

ومن السماحة: إنظار المدين المعسر، وإعطاء فرصة أو أكثر، حتى يرتب أموره، ويقدر على الوفاء بالتزامه. قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

ومعنى «تصدقوا»: تنازلوا عن بعض الدَّيْن أو كله.

وصحَّت الأحاديث باعتبار هذا الإنظار من أجَلِّ القُربات إلى الله، وتسلك صاحبها فيمن يظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

فعن أبي اليسر قال: أبصرت عيناي هاتان ـ ووضع إصبعيه على عينيه ـ وسمعت أذناي هاتان ـ ووضع إصبعيه في أذنيه ـ ووعاه قلبي هذا ـ وأشار إلى نياط قلبه ـ رسول الله ﷺ يقول: «**من أنظر معسرًا أو وضعَ له** (تنازلَ له عن جزء من الدَّيْن) **أظلَّه الله في ظله**»[(١)].

وفي رواية: «**إنَّ أول الناس يستظل في ظل الله يوم القيامة: لَرَجلٌ أنظر معسرًا، حتى يجد شيئًا، أو تصدَّق عليه بما يطلبه، يقول: ما لي عليك صدقة، ابتغاء وجه الله، ويخرق صحيفته**»[(٢)] يعني: يمزق سند الدَّيْن (الإيصال أو الكمبيالة).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**مَن يسَّر على معسر في الدنيا، يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة**»[(٣)].

---

(١) رواه مسلم في الزهد (٣٠٠٦)، وأحمد (١٥٥٢١).

(٢) رواه الطبراني (١٦٧/١٩)، وحسَّن إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٦٧٠).

(٣) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٩)، وأحمد (٧٤٢٧).

QaradawiBooks.com

وعن أبي قتادة الأنصاري: أنَّه طلب غريمًا له، فتوارى عنه، ثم وجده، فقال: إنِّي معسـر! قال: آلله؟ قال: آلله، قال: فإنِّي سـمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**من سـرَّه أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة، فلينفس عن معسر، أو يضع عنه**»[(١)].

وقصَّ علينا النبي ﷺ قصة تاجر ممَّن كان قبلنا كان من خُلُقه السماح والتجاوز، مع المتعاملين معـه، فكان أهلًا لأن يتجاوز الله عنه، رغم أنَّه لم يُعرف بصلاح ولا تقوى.

فعن جابر: قال رسول الله ﷺ: «**غفر الله لرجل كان قبلكم، كان سهلًا إذا باع، سهلًا إذا اشترى، سهلًا إذا اقتضى**»[(٢)].

وعن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «**تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم، فقالوا: عملتَ من الخير شـيئًا؟ قال: لا، قالوا: تذكَّر، قال: كنت أدايـن الناس، فآمـر فتياني أن ينظـروا المعسـر، ويتجوزوا عن الموسر، قال: قال الله: تجاوزوا عنه**»[(٣)].

وفي روايـة: «**كنـت أبايـع النـاس، وكان مـن خُلُقـي الجواز (المسامحة)، فكنت أُيسِّر الموسـر، وأنظر المعسر، فقال الله تعالى: أنا أحق بذلك منك، تجاوزوا عن عبدي**»[(٤)].

---

(١) رواه مسلم في المساقاة (١٥٦٣).

(٢) رواه أحمد (١٤٦٥٨)، وقال مخرِّجوه: صحيح. والترمذي في البيوع (١٣٢٠)، وقال: حسـن صحيح غريب. رواه البخاري في البيوع بلفظ: «رحم الله رجلًا سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى».

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في البيوع (٢٠٧٧)، ومسلم في المساقاة (١٥٦٠).

(٤) رواه مسلم في المساقاة (١٥٦٠) (٢٩).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

رعاية حقوق الأخوة:

ومن القيم المطلوبة هنا كذلك: رعاية حقوق الأخوة، فإذا كانت السوق الرأسمالية لا تعرف العواطف، ولا تُدخل الاعتبارات الأدبية في المجال الاقتصادي، والأرقام وحدها هي التي تحكم، والربح هو الذي يرجح، فإنَّ الإسلام يراعي ذلك ولا يهمله بحال.

ولهذا إذا تفاهم بعض الناس على صفقة، وقبل البائع أن يبيع، والمشتري أن يشتري، وإن لم يتم إيجاب وقبول بالفعل، فالإسلام يمنع هنا: أن يأتي طرف جديد، يحاول أن يختطف منه الصفقة، بأن يزيد في الثمن، ويغري البائع بترك ما اتفق عليه مع الآخر ابتداءً.

وفي هذا يقول ﷺ: «**لا يبع الرجل على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه**»[(١)].

«**لا يبع الرجل على بيع أخيه، حتى يبتاع أو يَذَر**»[(٢)].

«**لا يبع الرجل على بيع أخيه، ولا يسوم على سوم أخيه**»[(٣)].

«**لا يبع الرجل على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه، إلا أن يأذن له**»[(٤)].

فما لم يترك المشتري الأول الصفقة اختيارًا، أو يتنازل عنها له، وُدًّا وكرمًا، فلا يحل له أن يفسد عليه صفقته.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في البيوع (٢١٤٠)، ومسلم في النكاح (١٤١٣)، عن أبي هريرة.
(٢) رواه النسائي في البيوع (٤٥٠٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٥٨٨)، عن ابن عمر.
(٣) رواه مسلم (١٤١٣)، وابن ماجه (١٩٢٩)، كلاهما في النكاح، عن أبي هريرة.
(٤) رواه مسلم (١٤١٢)، وأحمد (٤٧٢٢)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

الصدقة غير المقدَّرة:

ومن القيم التي حثَّ عليها الإسلام في مجال التجارة والتبادل: التصدق بما تطيب به النَّفس، تطهيرًا لما يشوب المعاملات التجارية؛ من اللغو، والحلف، وربما الكذب أحيانًا.

فعن قيس بن أبي غَرزة، قال: كنا في عهد رسول الله ﷺ نسمَّى «السماسرة» فمرَّ بنا رسول الله ﷺ، فسمَّانا باسم هو أحسن منه، فقال: «**يا معشر التجار، إن البيع يحضره اللغو والحلف، فشوبوه بالصدقة**»[(١)].

وفي بعض رواياته: «**يحضره الكذب والحلف**»، أو «**اللغو والكذب**»[(٢)].

وهذه الصدقة غير مقدَّرة، بل موكولة لضمير المسلم في مقدارها وفي وقتها.

وقد احتج الإمام ابن حزم[(٣)] ومن وافقه من أهل الظاهر بهذا الحديث على عدم وجوب الزكاة على التجار، وزعموا أنَّه لو كان تجب فيها صدقة، كما تجب في سائر الأموال الظاهرة لأمرهم بها النبي ﷺ، ولم يقتصر على قوله: «**فشوبوه بالصدقة**»، «**أو بشيء من الصدقة**».

ورد عليهم الإمام الخطابي بقوله: «وليس فيما ذكروه دليل على ما ادَّعوه؛ لأنَّه إنَّما أمرهم ليكون كفَّارة عن اللغو والحلف، فأما الصدقة

---

(١) رواه أحمد (١٦١٣٤)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود (٣٣٢٦)، والترمذي (١٢٠٨)، وقال: حسن صحيح. كلاهما في البيوع، والنسائي في الأيمان والنذور (٣٧٩٨)، وابن ماجه في التجارات (٢١٤٥)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٧٤٤).

(٢) رواه أبو داود في البيوع (٣٣٢٧)، والنسائي في الأيمان والنذور (٣٧٩٩).

(٣) المحلَّى (٤/٤١).

QaradawiBooks.com

المقدَّرة التي هي رُبع العُشـــر الواجبة عند تمام الحَوْل، فقد وقع البيان فيها من غير هذه الجهة. وقد روى سمرة بن جندب أنَّ رسول الله ﷺ كان يأمرهم أن يخرجوا الصدقة عن الأموال التـــي يعدونها للبيع، وقد ذكره أبو داود في كتاب الزكاة، ثم هو عمل الأمة، وإجماع أهل العلم، فلا يُعَد قول هؤلاء معهم خلافًا»[١] ا.هـ.

وقد رددنا على ابـــن حزم ومن وافقـــه في كتابنا: «فقـــه الزكاة» فليُرجع إليه[٢].

ومنهج الإســـلام: أنَّه لا يدع شيئًا يشـــوبه النقص بدون أن يجعل له جبرًا وتعويضًا، كما في الصوم الذي نهى فيه عن اللغو والرفث والصخب والجهل، ولكن لأنَّ الصيام قلما يخلو من هذه الأشـــياء، شـــرع صدقة الفطر تطهيرًا وتكفيرًا. كما قال ابن عباس: «فرض رســـول الله ﷺ صدقة الفطر طُهْرة للصائم من اللغو والرفث، وطُعْمة للمساكين»[٣].

* * *

(١) معالم السنن (٥٤/٣).

(٢) انظر: فقه الزكاة، زكاة الثروة التجارية (٣٢٥/١ ـ ٣٥٠).

(٣) رواه أبو داود (١٦٠٩)، وابن ماجه (١٨٢٧)، والحاكم (٥٦٨/١)، وصححه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، ثلاثتهم في الزكاة، والدارقطني فـــي زكاة الفطر (٦١/٣)، وقال: ليس فيهم مجروح. وحسن إسناده النووي في المجموع (١٢٦/٦)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

زاد التاجر إلى الآخرة

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ﴾:

ومن القِيَم التي لا يجوز إغفالها: أنَّ التجارة والبيع وعقد الصفقات، وكسب الملايين، لا تجيز للمسلم أن يغفل عن ذكر ربه، أو ينشغل عن إقامة شعائره، وأداء فرائضه، وبخاصة الصلاة التي هي الصلة الدائمة بين المرء وربه.

ولهذا وصف الله رُوَّاد بيوته التي أذن أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه، بقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ۝ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

وقال في صلاة الجمعة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة: ٩ ـ ١١].

فهذا هو شأن المسلم: يعمل لدنياه، ويسعى لكسب عيشه يبيع ويشتري، ويتناول الأعيان والمنافع، لا حَرَج عليه في ذلك، ولو كان في يوم الجمعة، إذ لم يُحرِّم الإسلام العمل في الجمعة، كما حرَّمته اليهودية في السبت.

QaradawiBooks.com

لكنَّه إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة نفض يده من دنياه وتجارته، ومن كل ما يشغله، ونهض مسرعًا لتلبية النداء.

فإذا فرغ من الصلاة، عاد من جديد، ينتشر في الأرض، ويبتغي من فضل الله، وهو في هذه الحال لا يغفل عن ذكر الله.

إنَّ عيب كثير من أهل التجارة، أنَّهم يغرقون إلى أذقانهم في دوَّامة الماديات والأرقام والمكاسب، ويكاد لا يذكر مقام الله وجلال وجهه وعظيم سلطانه، أو يستحضر الآخرة وما فيها من سؤال وحساب، وثواب وعقاب، وجنة ونار.

زاد التاجر المسلم إلى الآخرة:

ونختم هذا الفصل بما ذكره الإمام الغزالي في «إحيائه» من كتاب: «الكسب والمعيشة» في الباب الخامس: في شفقة التاجر على دينه فيما يخصه ويعم آخرته وهو مهم على طوله. قال رضي الله عنه:

«ولا ينبغي للتاجر أن يشغله معاشه عن معاده، فيكون عمره ضائعًا وصفقته خاسرة، وما يفوته من الربح في الآخرة لا يفي به ما ينال في الدنيا، فيكون اشترى الحياة الدنيا بالآخرة، بل العاقل ينبغي أن يشفق على نفسه، وشفقته على نفسه بحفظ رأس ماله، ورأس ماله دينه وتجارته فيه. قال بعض السلف: أولى الأشياء بالعاقل أحوجه إليه في العاجل، وأحوج شيء إليه في العاجل أحمده عاقبة في الآجل. وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه في وصيته: إنَّه لا بد لك من نصيبك في الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج، فابدأ بنصيبك من الآخرة، فخذه فإنَّك ستمرّ على نصيبك من الدنيا فتنظمه. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [القصص: ٧٧]،

QaradawiBooks.com

أي: لا تنس في الدنيا نصيبك منها للآخرة، فإنَّها مزرعة الآخرة، وفيها تكتسب الحسنات.

غير مرخصة للطباعة

أمور سبعة ينبغي مراعاتها:

وإنَّما تتم شفقة التاجر على دينه بمراعاة سبعة أمور:

الأول: تصحيح النية: حُسن النية والعقيدة في ابتداء التجارة، فليَنْوِ بها الاستعفاف عن السؤال، وكف الطمع عن الناس استغناءً بالحلال عنهم، واستعانة بما يكسبه على الدين، وقيامًا بكفاية العيال ليكون من جملة المجاهدين به، ولينو النصح للمسلمين، وأن يحب لسائر الخلق ما يحب لنفسه، ولينو اتباع طريق العدل والإحسان في معاملته كما ذكرناه، ولينو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل ما يراه في السوق، فإذا أضمر هذه العقائد والنيات كان عاملًا في طريق الآخرة، فإن استفاد مالًا فهو مزيد، وإن خسر في الدنيا ربح في الآخرة.

الثاني: القيام بفرض الكفاية وما هو مهم في الدين: أن يقصد القيام في صنعته أو تجارته بفرض من فروض الكفايات، فإنَّ الصناعات والتجارات لو تُرِكَتْ بطلت المعايش وهلك أكثر الخلق؛ فانتظام أمر الكل بتعاون الكل، وتكفل كل فريق بعمل، ولو أقبل كلهم على صنعة واحدة لتعطلت البواقي وهلكوا، وعلى هذا حمل بعض الناس قوله ﷺ: «**اختلاف أُمَّتي رحمة**»[1]، أي: اختلاف هممهم في الصناعات والحِرَف.

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء صـ ٣٦: في رسالته الأشعرية تعليقًا، وأسنده في المدخل من حديث ابن عباس بلفظ «اختلاف أصحابي لكم رحمة». وإسناده ضعيف. وقال السبكي فيما نقله عنه المناوي في القدير (٢٠٩/١): وليس بمعروف عند المحدثين ولم أقف له على سند صحيح ولا ضعيف ولا موضوع. وانظر كلامنا على الحديث في كتابنا: الصحوة الإسلامية =

QaradawiBooks.com

ومن الصناعات ما هي مهمة، ومنها ما يُستغنى عنها لرجوعها إلى طلب النعم والتزين في الدنيا، فليشتغل بصناعة مهمَّة ليكون في قيامه بها كافيًا عن المسلمين مُهمًّا في الدين...

فأما عمل الملاهي والآلات التي يحرم استعمالها؛ فاجتناب ذلك من قبيل ترك الظلم، ومن جملة ذلك خياطة الخيَّاط القباء من الإبريسم (الحرير) للرجال، وصياغة الصائغ مراكب الذهب، أو خواتيم الذهب للرجال، فكل ذلك من المعاصي، والأجرة المأخوذة عليه حرام؛ ولذلك أوجبنا الزكاة فيها، وإن كنا لا نوجب الزكاة في الحلي؛ لأنَّها إذا قصدت للرجال فهي محرَّمة، وكونها مهيأة للنساء لا يلحقها بالحلي المباح، ما لم يقصد ذلك بها فيكتسب حكمها من القصد.

وقد ذكرنا أنَّ بيع الطعام وبيع الأكفان مكروه؛ لأنَّه يوجب انتظار موت الناس وحاجتهم بغلاء السعر، ويكره أن يكون جزَّارًا، لما فيه من قساوة القلب، وأن يكون حجَّامًا أو كنَّاسًا لما فيه من مخامرة النجاسة، وكذا الدبَّاغ وما في معناه[1].

وكره ابن سيرين الدلالة، وكره قتادة أجرة الدلال؛ ولعل السبب فيه قِلَّة استغناء الدلال عن الكذب والإفراط في الثناء على السلعة لتروجيها، ولأنَّ العمل فيه لا يتقدر، فقد يقل وقد يكثر، ولا ينظر في مقدار الأجرة

= بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم صـ ٤٩، ٥٠، تحت عنوان: الاختلاف رحمة. نشر دار الشروق، القاهرة، ط ٣، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٧م.

(١) ولكن لا بد للناس من هذه الحِرَف، فيلزم مَن يقوم بها، وعلى كل حال الكراهة هنا تنزيهية تزول بأدنى حاجة.

QaradawiBooks.com

إلى عمله، بل إلى قدر قيمة الثوب، هذا هو العادة، وهو ظلم، بل ينبغي أن ينظر إلى قدر التعب[١].

وكرهوا شراء الحيوان للتجارة؛ لأنَّ المشتري يكره قضاء الله فيه، وهو الموت الذي بصدده لا محالة وحلوله. وقيل: بع الحيوان واشتر الموتان.

وكرهوا الصرف؛ لأنَّ الاحتراز فيه عن دقائق الربا عسير، ولأنَّه طلب لدقائق الصفات فيما لا يقصد أعيانها، وإنَّما يقصد رواجها، وقلَّما يتم للصيرفي ربح إلا باعتماد جهالة معامله بدقائق النقد؛ فقلَّما يسلم الصيرفي وإن احتاط.

ويكره للصيرفي وغيره كسر الصحيح والدنانير، إلا عند الشك في جودته أو عند ضرورة. قال أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ: ورد نهي عن رسول الله ﷺ[٢]، وعن أصحابه في الصياغة من الصحاح، وأنا أكره الكسر، وقال: يشتري بالدنانير دراهم، ثم يشتري بالدراهم ذهبًا ويصوغه.

واستحبوا تجارة البَزِّ؛ قال سعيد بن المسيب: ما من تجارة أحب إليَّ من البَزِّ، ما لم يكن فيها أيمان. وقد روي: «**خير تجارتكم البَزّ، وخير صناعتكم الخرز**»[٣]، وفي حديث آخر: «**لو اتَّجر أهل الجنة لاتَّجروا في**

(١) هذا كلام مهم في تقدير الأجر: أن يكون للمعاناة والتعب دخل في تقديره، ومن هنا كانت كراهية السَّلَف لأجرة السمسار أو الدلال، فإنه يأخذ نسبة معينة من المبيع أو المستأجَر، وقد يكون الشيء بالملايين، فيأخذ عشرات الألوف دون أن يبذل جهدًا يقابلها.

(٢) إشارة إلى الحديث: نهى نبي الله ﷺ أن تكسر سكة المسلمين الجائزة بينهم، إلا من بأس. رواه أحمد (١٥٤٥٧)، وقال مخرِّجوه: إسناده تالف. وأبو داود في البيوع (٣٤٤٩)، وابن ماجه في التجارات (٢٢٦٣).

(٣) قال العراقي في تخريج الإحياء صـ ٥٢٩، لم أقف له على إسناد، وذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب.

QaradawiBooks.com

البز، ولو اتجر أهل النار لاتجروا في الصرف»[١]، وقد كان غالب أعمال الأخيار من السلف عشر صنائع: الخرز، والتجارة، والحمل، والخياطة، والحذو، والقصارة، وعمل الخفاف، وعمل الحديد، وعمل المغازل، ومعالجة صيد البر والبحر، والوراقة.

قال عبد الوهَّاب الورَّاق: قال لي أحمد بن حنبل: ما صنعتك؟ قلت: الوراقة، قال: كسب طيب، ولو كنتُ صانعًا بيدي لصنعتُ صنعتك، ثم قال لي: لا تكتب إلا مواسطة، واستبق الحواشي وظهور الأجزاء...

وكره السلف أخذ الأجرة على كل ما هو من قبيل العبادات وفروض الكفايات، كغسل الموتى ودفنهم، وكذا الأذان وصلاة التراويح، وإن حُكم بصحة الاستئجار عليه، وكذا تعليم القرآن وتعليم علم الشرع؛ فإنَّ هذه أعمال حقها أن يتجر فيها للآخرة، وأخذ الأجرة عليها استبدال بالدنيا عن الآخرة ولا يُستحب ذلك.

الثالث: الاهتمام بسوق الآخرة: ألَّا يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة، وأسواق الآخرة المساجد. قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٧]، وقال الله تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور: ٣٦]، فينبغي أن يجعل أوّل النهار إلى وقت دخول السوق لآخرته فيلازم المسجد ويواظب على الأوراد.

كان عمر رضي الله عنه يقول للتجار: اجعلوا أول نهاركم لآخرتكم وما بعده لدنياكم.

---

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء صـ ٥٢٩: رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس، من حديث أبي سعيد بسند ضعيف. وروى أبو يعلى، والعقيلي في الضعفاء الشطر الأول من حديث أبي بكر الصِّدِّيق.

QaradawiBooks.com

وكان صالحو السلف يجعلون أول النهار وآخره للآخرة، والوسط للتجارة، ولم يكن يبيع الهريسة والرؤوس بكرة إلا الصبيان وأهل الذمة؛ لأنَّهم كانوا في المساجد بعد... وفي الخبر: «**تلتقي ملائكة الليل والنهار عند طلوع الفجر وعند صلاة العصر، فيقول الله تعالى وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وجئناهم وهم يصلون**»[1]... ثم مهما سمع الأذان في وسط النهار للأولى والعصر، فينبغي أن لا يعرج على شغل، وينزعج عن مكانه، ويدع كل ما كان فيه، فما يفوته من فضيلة التكبيرة الأولى مع الإمام في أول الوقت لا توازيها الدنيا بما فيها، ومهما لم يحضر الجماعة عصى عند بعض العلماء. وقد كان السلف يبتدرون عند الأذان ويخلون الأسواق للصبيان وأهل الذمة، وكانوا يستأجرون بالقراريط لحفظ الحوانيت في أوقات الصلوات، وكان ذلك معيشة لهم. وقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿**لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ**﴾ [النور: ٣٧]، أنَّهم كانوا حدَّادين وخرَّازين؛ فكان أحدهم إذا رفع المطرقة أو غرز الإشفي فسمع الأذان لم يخرج الإشفي من المغرز ولم يوقع المطرقة ورمى بها وقام إلى الصلاة.

الرابع: ملازمة ذكر الله: أن لا يقتصر على هذا بل يلازم ذكر الله سبحانه في السوق، ويشتغل بالتهليل والتسبيح، فذكر الله في السوق بين الغافلين أفضل...

قال الحسن: ذاكر الله في السوق يجيء يوم القيامة له ضوء كضوء القمر، وبرهان كبرهان الشمس. ومَنِ استغفر الله في السوق غفر الله له بعدد أهلها.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٥٥)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٣٢)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

وكان عمر رضي الله عنه إذا دخل السوق قال: اللهم إنِّي أعوذ بك من الكفر والفسوق، ومن شرِّ ما أحاطت به السوق، اللهم إني أعوذ بك من يمين فاجرة وصفقة خاسرة.

وقال أبو جعفر الفرغاني: كنَّا يومًا عند الجنيد، فجرى ذكر ناس يجلسون في المساجد، ويتشبهون بالصوفية، ويقصرون عما يجب عليهم من حق الجلوس، ويعيبون مَن يدخل السوق؛ فقال الجنيد: كم ممَّن هو في السوق حكمه أن يدخل المسجد، ويأخذ بأذن بعض مَن فيه فيخرجه ويجلس مكانه، وإنِّي لأعرف رجلًا يدخل السوق وِرْده كل يوم ثلاثمائة ركعة وثلاثون ألف تسبيحة! قال: فسبق إلى وهمي أنَّه يعني نفسه.

فهكذا كانت تجارة مَن يتجر لطلب الكفاية لا للتنعم في الدنيا؛ فإنَّ مَن يطلب الدنيا للاستعانة بها على الآخرة كيف يدع ربح الآخرة، والسوق والمسجد والبيت له حكم واحد، وإنَّما النجاة بالتقوى؛ قال ﷺ: «**اتق الله حيثما كنت**»[1]، فوظيفة التقوى لا تنقطع عن المتجرِّدين للدِّين كيفما تقلَّبت بهم الأحوال، وبه تكون حياتهم وعيشتهم، إذ فيه يرون تجارتهم وربحهم. وقد قيل: «مَن أحب الآخرة عاش، ومَن أحب الدنيا طاش، والأحمق يغدو ويروح في لاش، والعاقل عن عيوب نفسه فتَّاش».

الخامس: القناعة وقلة الحرص: ألَّا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة، وذلك بأن يكون أول داخل وآخر خارج، وبأن يركب البحر في

(١) رواه أحمد (٢١٣٥٤)، وقال مخرِّجوه: حسن لغيره. والترمذي في البر والصلة (١٩٨٧)، وقال: حديث حسن صحيح. وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٩٧)، عن أبي ذر.

QaradawiBooks.com

التجارة، فهما مكروهان، يقال: إنَّ من ركب البحر فقد استقصى في طلب الرزق. وفي الخبر: «**لا يُركب البحر إلا لحج أو عُمْرة أو غزو**»[١].

وكان عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يقول: لا تكن أول داخل في السُّوق ولا آخر خارج منها، فإنَّ بها باض الشيطان وفرّخ[٢]...

وتمام هـذا الاحتراز أن يراقب وقت كفايته، فـإذا حصل كفاية وقته انصرف واشـتغل بتجارة الآخرة. هكذا كان صالحو السـلف، فقد كان منهم من إذا ربح دانقًا انصرف قناعة به. وكان حماد بن سلمة يبيع الخز في سفط بين يديه، فكان إذا ربح حبتين رفع سفطه وانصرف... وقد كان فيهم من ينصرف بعد الظهر، ومنهم بعد العصر، ومنهم من لا يعمل في الأسبوع إلا يومًا أو يومين. وكانوا يكتفون به.

السادس: اتقاء الشـبهات: ألَّا يقتصر على اجتناب الحرام، بل يتقي مواقع الشبهات، ومظان الريب، ولا ينظر إلى الفتاوى بل يستفتي قلبه، فإذا وجد فيه حزازة اجتنبه، وإذا حمل إليه سـلعة رابه أمرها سأل عنها حتى يعرف، وإلا أكل الشبهة...

---

(١) رواه أبو داود في الجهاد (٢٤٨٩)، وقال المنذري في مختصر سنن أبي داود (٢٤٨٩): حديث مضطرب، وقال الألباني في الضعيفة (٤٧٨): منكر، عن عبد الله بن عمرو.
وقد أصبح ركـوب البحر في عصرنا من ضروريات الاتصال، وقـد قلَّت مخاطره عما كان قديمًا، وزاد عصرنا ركوب الجو، وهو أهم وأوسع مدى.

(٢) انظر: قـوت القلوب (٤٤٨/٢)، تحقيق عاصـم إبراهيم الكيالي، نشـر دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م. ورواه الطبراني (٢٤٨/٦) عن سلمان الفارسي مرفوعًا، وقال الهيثمي في المجمع (٦٣٢٨): فيه القاسم بن يزيد، فإن كان هو الجرمي فهو ثقة، وبقية رجاله رجال الصحيح، وأصله عند مسـلم في فضائل الصحابة (٢٤٥١) عن سلمان الفارسي قوله بلفظ: «لا تكونن إن استطعت، أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها، فإنها معركة الشيطان، وبها ينصب رايته».

QaradawiBooks.com

وقال ﷺ: «**إن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾»[1] [البقرة: ١٧٢]، فإنه كان عليه السلام لا يسأل عن كل ما يُحمل إليه[2].

وإنَّما الواجب أن ينظر التاجر إلى من يعامله، فكل منسوب إلى ظلم أو خيانة أو سرقة أو ربا فلا يعامله، وكذا الأجناد والظلمة لا يعاملهم ألبتة، ولا يعامل أصحابهم وأعوانهم؛ لأنَّه معين بذلك على الظلم.

وحكي عن رجل أنَّه تولى عمارة سور لثغر من الثغور. قال: فوقع في نفسي من ذلك شيء ـ وإن كان ذلك العمل من الخيرات، بل من فرائض الإسلام ـ ولكن كان الأمير الذي تولى في محلته من الظلمة. قال: فسألت سفيان رضي الله عنه فقال: لا تكن عونًا لهم على قليل ولا كثير؛ فقلت: هذا سور في سبيل الله للمسلمين! فقال: نعم، ولكن أقل ما يدخل عليك أن تحب بقاءهم ليوفوك أجرك؛ فتكون قد أحببت بقاء مَن يعصي الله، وقد جاء في الخبر: «**مَن دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يُعصى الله في أرضه**»[3]، وفي الحديث: «**إن الله ليغضب إذا مُدِحَ الفاسق**»[4]...

---

(١) رواه مسلم في الزكاة (١٠١٥)، وأحمد (٨٣٤٨)، عن أبي هريرة.

(٢) إشارة إلى حديث: أن رسول الله ﷺ وأصحابه مروا بامرأة، فذبحت لهم شاة، واتخذت لهم طعامًا، فلما رجع قالت: يا رسول الله، إنا اتخذنا لكم طعامًا، فادخلوا فكلوا، فدخل رسول الله ﷺ وأصحابه، وكانوا لا يبدؤون حتى يبتدئ النبي ﷺ، فأخذ النبي ﷺ لقمة، فلم يستطع أن يسيغها. فقال النبي ﷺ: «**هذه شاة ذبحت بغير إذن أهلها**». فقالت المرأة: يا نبي الله، إنا لا نحتشم من آل سعد بن معاذ، ولا يحتشمون منا، نأخذ منهم، ويأخذون منا. رواه أحمد (١٤٧٨٥)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. عن جابر بن عبد الله.

(٣) لم أقف عليه مرفوعًا. إنما رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (٦٠٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٩٨٦)، من قول الحسن البصري.

(٤) رواه أبو يعلى في معجمه (١٧١)، وابن أبي الدنيا في الصمت (٢٢٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٥٤٣)، وضعَّف إسناده العراقي في تخريج الإحياء صـ ٥٣٢، عن أنس.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ودخل سفيان على المهدي وبيده درج أبيض، فقال: يا سفيان، أعطني الدواة حتى أكتب، فقال: أخبرني أي شيء تكتب، فإن كان حقًّا أعطيتك.

وطلب بعض الأمراء من بعض العلماء المحبوسين عنده أن يناوله طينًا ليختم به الكتاب، فقال: ناولني الكتاب أولًا حتى أنظر ما فيه.

فهكذا كانوا يحترزون عن معاونة الظلمة، ومعاملتهم أشد أنواع الإعانة: فينبغي أن يجتنبها ذوو الدين ما وجدوا إليه سبيلًا.

وبالجملة فينبغي أن ينقسم الناس عنده إلى من يُعامَل ومن لا يُعامَل، وليكن من يعامله أقل ممَّن لا يعامله في هذا الزمان.

قال بعضهم: أتى على الناس زمان كان الرجل يدخل السوق ويقول: من ترون لي أن أعامل من الناس؟ فيقال له: عامل من شئت، ثم أتى زمان آخر كانوا يقولون: عامل من شئت إلا فلانًا وفلانًا، ثم أتى زمان آخر فكان يقال: لا تعامل أحدًا إلا فلانًا وفلانًا، وأخشى أن يأتي زمان يذهب هذا أيضًا. وكأنه قد كان الذي كان يحذر أن يكون! إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

السابع: المراقبة والمحاسبة للنفس: ينبغي أن يراقب جميع مجاري معاملته مع كل واحد من معامليه، فإنَّه مراقَب ومحاسَب، فليعدَّ الجواب ليوم الحساب والعقاب في كل فعلة وقولة أنَّه لِمَ أقدم عليها؟ ولأجل ماذا؟ فإنَّه يقال: إنَّه يوقف التاجر يوم القيامة مع كل رجل كان باعه شيئًا وقفة، ويحاسَب عن كل واحد، فهو محاسَب على عدد مَن عامله.

قال بعضهم: رأيت بعض التجار في النوم، فقلت: ماذا فعل الله بك؟ فقال: نشر عليَّ خمسين ألف صحيفة، فقلت: هذه كلها ذنوب، فقال: هذه

QaradawiBooks.com

معاملات الناس، بعدد كل إنســان عاملته في الدنيا: لكل إنسان صحيفة مفردة فيما بيني وبينه من أول معاملته إلى آخرها.

فهذا ما على المكتسب في عمله من العدل والإحسان والشفقة على الدين، فإن اقتصــر على العدل كان مــن الصالحيــن، وإن أضاف إليه الإحســان كان من المقرَّبين، وإن راعى مع ذلك وظائف الدين كان من الصِّدِّيقين، والله أعلم بالصواب»[1].

* * *

(١) إحياء علوم الدين (٢/٨٣ ـ ٨٧).

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفِ القَرَضَاوِي

غير مرخصة للطباعة

القيم والأخلاق في مجال التوزيع

- قيمة الحرية وأساس الإيمان بها.
- المِلْكية الفردية أبرز مظاهر الحرية.
- الميراث أبرز حقوق المِلْكية.
- قيمة العدل ومعناه والحاجة إليه.
- حاجة الناس إلى الكتاب والميزان لمعرفة العدل.
- من العدل تفاضل الأرزاق وتكافؤ الفرص.
- من العدل توفية العاملين حقوقهم.
- من العدل إقامة تكافل شامل.
- من العدل تقريب الفوارق بين الناس.

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

القيم والأخلاق... في مجال التوزيع

من أهم المجالات في الاقتصاد ـ ولعلها أهمها ـ مجال التوزيع، حتى ذهب بعض الكاتبين في الاقتصاد الإسلامي إلى أنَّه يُعنى أول ما يُعنى بالتوزيع، ولا علاقة له بالإنتاج.

ويركز التوزيع في الاقتصاد الرأسمالي على ما بعد الإنتاج، أي على ما ينشأ من العملية الإنتاجية لأي مشروع، في صورة نقود أو أثمان، فيوزع الناتج على عناصر الإنتاج التي أسهمت في إنتاجه، وهي أربعة.

١ ـ الأجور: للعمال، وكثيرًا ما يُستغل فيها حاجة العامل، ويُعطى دون أجر مثله.

٢ ـ الفائدة: مقابل رأس المال النقدي، الذي أُقْرِضَ لصاحب المشروع.

٣ ـ الريع: أي الإيجار للأرض التي قام عليها المشروع.

٤ ـ الربح: للمنظم الذي يقوم بعملية التنظيم والإدارة للمشروع ويتحمل مسؤوليته.

ونتيجة للتفاوت فيما يمتلكه الأفراد من العناصر المشاركة في الإنتاج، يتفاوت ما يحصل عليه كل منهم من دخل.

QaradawiBooks.com

والإسلام يرفض البند الثاني من هذه الأربعة، وهو الفائدة، فقد اتفق علماء المسلمين، وأجمعت مجامع الفقه المعاصرة على أنَّ الفائدة هي الربا المحرَّم، بل هو من الكبائر السبع الموبقات، وممَّن لعن النبي ﷺ: آكله، وموكله، وكاتبه، وشاهديه، وممَّن آذن القرآن فاعله بحرب من الله ورسوله[1].

أما الثلاثة الأخرى، فالإسلام يجيزها إذا استوفت شروطها، وتحققت بضوابطها.

وأما الاقتصاد الاشتراكي، فالإنتاج في ظل نظامه خاضع للتخطيط المركزي، ومصادر الإنتاج كلها مملوكة للدولة، والعمالة كلها في يد الدولة، وتحت سلطانها، فالأساس في توزيع الدخل هو ما يقرره المجتمع ممثلًا في الدولة، وليس ما تحدِّده السوق، والدولة هي التي تخطط الإنتاج القومي، وهي التي تضع الخطة العامة للتوزيع بكل أنواعه: من أجور ورواتب وفائدة وريع.

وقد عاب الاشتراكيون على المجتمعات الرأسمالية: أنَّها مجتمعات القِلَّة الغنية المترَفة، والكثرة الفقيرة المتعبة، وأنها تهتم بإنتاج السلع الكمالية والتَّرفيهية، التي تحقق الإشباع للأغنياء، والأرباح العالية للرأسماليين، كإنتاج الأثاث الفاخر، وأدوات الزينة، وألوان الترف، دون الاهتمام بإشباع حاجات الجماهير الغفيرة من الفقراء والكادحين. وقد تنتج الأشياء النافعة كالقمح أو الزبد، أو غيرها، ثم إذا وجدت سعرها رخيصًا قامت بإهلاكه، فألقته في البحر أو أحرقته، حتى يستمر السعر غاليًا كما تريد.

---

(١) انظر كتابنا: فوائد البنوك هي الربا الحرام، نشر دار الوفاء.

QaradawiBooks.com

وفي سلطان النظام الرأسمالي قامت احتكارات كبيرة ورهيبة، أصبحت أحيانًا شركات متعددة الجنسيات، حتى إنَّ بعضها غدا دولة داخل الدولة، فهي لا تخضع للحكومات المحلية، بل كثيرًا ما تُخضعها لرغباتها ومصالحها بالرشوة السافرة والمقنّعة. فلا أحد يستطيع أن يفرض عليها نوع الإنتاج، ولا قدر الأرباح، فهي المتحكمة في الإنتاج والأسعار.

ونقد الاشتراكيين للرأسماليين صحيح، ولكنَّهم حاربوا باطلًا بما هو أبطل منه، فانتقلوا تحت وطأة الاشتراكية من احتكار الرأسمالية إلى احتكار أفظع وأشنع، وهو احتكار الدولة، التي ملكت كل وسائل الإنتاج، من أراض ومصانع ومناجم، واستولت على الأرباح، ولم تردها ـ كما زعموا ـ على العمال الذين كانوا يحلمون بالجنة الموعودة لهم في ظل الاشتراكية.

ولم تقض على التفاوت الفاحش الذي عُرِفَ في الرأسمالية، بل وُجِدَ فيها تفاوت رهيب في الأجور بين الحدين: الأعلى والأدنى، حتى بلغ في الجيل الثالث عام (١٩٦٢م)، حسب إحصائية «بيير لاروك» نسبة (١ ـ ٥٠) أي أنَّ أكبر مرتب يساوي خمسين ضعفًا من مرتب الصغير في روسيا[١].

والاقتصاد الإسلامي قد برئ من مظالم الرأسمالية والاشتراكية كلتيهما، وأقام فلسفته ونظامه على دعائم أخرى، ركَّز فيها على توزيع ما قبل الإنتاج، أي على توزيع مصادر الإنتاج، ولمن تكون مِلْكيتها؟ وما حقوق هذه المِلْكية وواجباتها؟

(١) انظر: نظرية التوزيع للدكتور رفعت العوضي صـ ٢٨٧، نشر الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م، وعدالة توزيع الثروة للأستاذ عبد السميع المصري صـ ١١٠ ـ ١١٣، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٦م.

QaradawiBooks.com

وليس معنى هذا أنَّه لا يهتم بعوائد الإنتاج، فهو يهتم بها كذلك، كما سنرى في عنايته بتوفية العاملين حقوقهم وأجورهم العادلة، كما قد أدَّوْا واجباتهم.

كما أنَّه يرفض الفوائد الربوية رفضًا حاسمًا، وقد بيَّن الاقتصاديون المعاصرون أضرارها حتى من الناحية الاقتصادية البحتة[1].

ويقوم التوزيع في الاقتصاد الإسلامي على قيمتين إنسانيتين كبيرتين أساسيتين:

القيمة الأولى: الحرية.

والقيمة الثانية: العدل.

وسنتحدث عن كل منهما بالتفصيل المناسب في الصحائف التالية.

* * *

(١) انظر في ذلك: رأي الدكتور «شاخت» الاقتصادي الألماني المعروف، ومدير بنك الرايخ الألماني سابقًا، نقله الشهيد سيد قطب في العدالة الاجتماعية في الإسلام صـ ١٣٤، وما بعدها، نشر عيسى الحلبي، ط٦.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

قيمة الحرية وأساس الإيمان بها

أساس الإيمان بالحرية:

القيمة الأولى في مجال التوزيع هي: الحرية.

ولكن لماذا يقر النظام الإسلامي الحرية في حياة الناس الاقتصادية؟

ولماذا يرفض الدكتاتورية الاقتصادية المتسلطة على الأعناق، المتحكمة في الأرزاق.

إنَّ أساس ذلك يرجع إلى أمرين مهمين:

١ ـ إيمانه بالله جلَّ شأنه.

٢ ـ إيمانه بالإنسان.

أولًا: الإيمان بالله وتوحيده:

فأما الإيمان بالله فجوهره في الإسلام هو التوحيد، وعقائده ومبادئه تتلخص في هذه الكلمة «لا إله إلا الله»، كما يتلخص الكتاب الضخم في العنوان.

ولا يكفي في التوحيد أن يعتقد الإنسان أنَّ الله وحده هو خالق السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما ومَن فيهما، فقد كان أكثر عُبَّاد

الأصنام يعتقدون ذلك، ولم يغنهم ذلك عند الله شيئًا، ولم يعتدّ القرآن ذلك إيمانًا، بل عدَّهم مشركين كافرين: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨].

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٩].

إنَّما حقيقة التوحيد أن يُفرَد الله وحده بالعبادة والاستعانة، كما علَّم الله المؤمنين أن يعلنوا كل يوم سبع عشرة مرة ـ على الأقل ـ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، أي: لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا بك. وعبادة الله تعالى تعني طاعة أمره، والانقياد لحكمه، والخضوع لسلطان شرعه. ولا يبقى هذا التوحيد إذا اتخذ الناس غير الله ربًّا، أو اتخذوا غير الله وليًّا، أو ابتغوا غير الله حَكَمًا.

فالله وحده هو رب العالمين وسيدهم ومدبِّر أمرهم ومالك أزِمَّتهم، وهو الذي بيده ـ وحده ـ الخلق والرزق، والموت والحياة، والحكم والتشريع، والتحليل والتحريم، وهو الذي يستحق ـ وحده ـ التعظيم والتقديس والضراعة والخضوع. فإذا وُجِدَ في الناس فرد أو مجموعة تعلن بقولها أو تتجه في تفكيرها وعملها: أنَّها ـ وحدها ـ مالكة الأرزاق، ومدبِّرة الأمور، وسيدة الناس، والمهيمنة على كل شيء، والمنفردة بالحكم والتشريع، وفرض نظام معيَّن على المجتمع بالإكراه ـ أو الحيلة

QaradawiBooks.com

ـ فهذا إخراج للمجتمع من نور التوحيد إلى ظلمات الشـرك، من عبادة الله وحده إلى عبادة غيره طَوْعًا أو كَرْهًا.

وهذا ما يعاديه الإسـلام في قوة، ويقاومه في صراحة: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾؟! [الأنعام: ١٦٤]، ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾؟! [الأنعام: ١٤]، ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾؟ [الأنعام: ١١٤].

لقد دمغ القرآن اليهود والنصارى بالشرك ـ وهم أهل كتاب ديني ـ؛ لأنَّهم حكَّمـوا رجال دينهم فيمـا ليس من حقِّهم، بـل هو من حق الله وحده، حق التشريع والتحليل والتحريم، ونسوا أنَّ أمر الحكم والتشريع لله سبحانه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]... دمغ القرآن النصارى بالشرك فقـال: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وفسَّـر ذلك النبي ﷺ أنَّ عبادتهـم إياهم إنَّما كانـت طاعتهم فيما يُشرِّعون من تحليل وتحريم[(١)].

فإذا كان هذا حكم القرآن على أهل كتـاب حكَّموا رجال الدين في بعض شـؤونهم، فماذا يكون حكمه على من حكَّم رجـال الدنيا ـ من الجاحدين للدين أو الساخرين به أو الشاكِّين فيه ـ في كل شؤونهم؟

(١) رواه الترمذي في التفسـير (٣٠٩٥)، وقال: حديث غريب. وابن جرير في تفسيره (٢١٠/١٤)، والطبراني (٩٢/١٧)، والبيهقي في آداب القاضي (١١٦/١٠)، وحسـنه الألباني في الصحيحة (٣٢٩٣)، عن عدي بن حاتم.

QaradawiBooks.com

لقد جاء الإسلام محرِّرًا للبشر من كل عبودية لغير الخالق الأعلى، جاء يعلن أن الناس كلهم سواسية كأسنان المشط، وكلهم إخوة كأبناء الأسرة، وبذلك لا يبغي بعضهم على بعض، ولا يتسلَّط بعضهم على بعض، ولا يعيش أقلهم أربابًا وأكثرهم عبيدًا، وكانت الآية التي يختم بها النبي ﷺ كتبه إلى الملوك والأمراء والجبارين في الأرض من القياصرة وغيرهم عنوان هذا الاتجاه: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

بل أقول في جزم وتأكيد: إنَّ هؤلاء المتحكمين في رقاب الناس وأرزاقهم وحياتهم الاقتصادية ـ وبالتالي في حياتهم التشريعية والفكرية والعقدية ـ لا يقبلون الله ﷻ شريكًا معهم، كما قبل الوثنيون، وإنَّما هم يريدون التفرد بالسلطان كله، والتدبير كله، والحكم كله.

إنَّ جوهر العقيدة الإسلامية من الناحية الإيجابية هو عبادة الله وحده، وهي من الناحية السلبية كفر بالطاغوت وبراءة منه، وإعلان بمعاداته: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]... ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ [الزمر: ١٧].

وليس يرضي الإسلام ولا أي دين سماوي أن يكون قلب الإنسان وعقله وسلوكه موزَّعًا بين الله وبين الطاغوت ـ فضلًا عن أن يكون خالصًا للطاغوت ـ لأنَّ الله سبحانه لا يقبل شريكًا معه بحال، ولا يقبل أن يُجعَل له ند، أو يُشرَك به شيء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]، ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]. والشرك ليس إثمًا

QaradawiBooks.com

وضلالًا فحسب، بل هو ـ مع ذلك ـ انحطاط بالإنسان من أفق الحرية والكرامة التي أرادها الله، إلى حضيض العبودية والخضوع لغير من خَلَقه فسوَّاه: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

فهما غايتان لا ثالثة لهما: إما الله، وإما الطاغوت، ولا واسطة، وليختر امرؤ لنفسه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٧٦]، ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

ثانيًا: الإيمان بالإنسان:

أقرَّ النظام الإسلامي الحرية؛ لأنَّه يؤمن بالله، وأقرَّها أيضًا لأنَّه يؤمن بالإنسان، يؤمن بفطرته التي فطره الله عليها، ويؤمن بكرامته ومؤهلاته التي استحق بها رتبة الخلافة في الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، وقال سبحانه في استخلاف أبي البشر آدم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣٠، ٣١].

لقد خلق الله الإنسان وجهَّزه بالقوى المادية والمعنوية اللازمة للقيام بحق هذه الخلافة وعمارة الأرض على أساس من الصلة بالسماء.

QaradawiBooks.com

وما كان الله جلَّت حكمته ليفطر الإنسان على طبيعة معيَّنة، ثم يشرِّع له من النظم ما يناقض هذه الطبيعة، ويستأصل هذه الفطرة، وبذلك يناقض خلقُه أمرَه، ويعاند شرعُه قَدَرَه، وتعالت حكمة الله عن ذلك عُلوًّا كبيرًا.

وما كان الله ليخلق هذا النوع المكرَّم الذي سخَّر له ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه، ثم يدع حفنة من البشر يخطّون له مصيره كما شاؤوا، ويسوقونه بعصا القهر والجبروت. ويُسلِّطون على عنقه سيف الحذر والخوف، ويتحكمون في مأكله ومشربه، وملبسه ومسكنه، وقوله وعمله، بل تفكيره وشعوره. وهو لا يملك إزاء تحكمهم من الأمر شيئًا، إلا أن يرضخ ويستسلم، ويمشي في الرِّكاب طوعًا أو كرهًا.

إنَّ أولى ما يقال لهؤلاء الجبارين المتحكمين ما قاله عمر من قبل: متى تعبَّدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟![1]

لقد أعلن هؤلاء حربًا ضروسًا على فطرة الإنسان، وحرية الإنسان:

إذا كان الإنسان مفطورًا على حب التملك، قال له هؤلاء: لا مِلْكية للفرد، نحن فقط ـ واسمنا الدولة ـ الذين نملك كل شيء.

إذا كان الإنسان مفطورًا على المنافسة وضعوا له نظامًا يقضي على المنافسة، وإن كانت في حدود المقبول والمشروع.

(١) فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم صـ ١٩٥، نشر مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٥هـ، وحسن المحاضرة للسيوطي (٥٧٨/١)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار إحياء الكتب العربية، مصر، ط١، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.

QaradawiBooks.com

إذا كان الإنسان مفطورًا على حب أولاده، وادخار شيء لهم من بعده، قال له هؤلاء: لا ادخار ولا ميراث... وهكذا.

ذلك هو النظام الشيوعي الذي أعلن عدواته الضارية لحرية الإنسان، بل قضى عليها بالحديد والنار قضاءً تامًّا في سبيل شيء اسمه: «المساواة المطلقة»، فخسر الإنسان نعمة الحرية، ولم يظفر ـ ولن يظفر ـ بما سموه: «المساواة»، وأي خسارة أفدح من خسارة الحرية؟!

هذا... والمساواة المطلقة التي زعموها غير عادلة ـ كما سيأتي ـ وهي مع ذلك غير ممكنة، وأكبر شاهد على ما نقول وجود الفوارق في ديار الشيوعية نفسها تباين الدخول.

غير مرخصة للطباعة

الحرية والسعادة الإنسانية:

ولعمري إذا كانت الأنظمة تشرع لسعادة الإنسان، فأي سعادة ينعم بها في ظل نظام يناقض طبيعته، ويسلبه حريته، وبالتالي يفقده الطمأنينة والأمان ويبقيه خلف ستار حديدي رهيب؛ يخشى من الكلمة أن تُنقل، ومن النظرة أن تُؤوَّل، ومن الفكاهة أن تُسجَّل... ووراء ذلك ما وراءه ممَّا يعرفه الناس ويتناقلون أنباءه...!

إنَّ سعادة الإنسان ليست في شبع بطنه، وامتلاء معدته، وإلا كان المسجونون أسعد الناس، بما توفره لهم إدارة السجن من غذاء منتظم في كل يوم.

إنَّ شعور الإنسان بالحرية هو أول أسباب السعادة، وشعوره بالقيد هو أول مدمر للسعادة. وقديمًا تزوجت امرأة عربية بدوية من بنات الصحراء الطليقة، أحد الخلفاء، فوضعها في قصر مشيد، وغمرها بكل

نسخة مجانية

ما لذّ وطاب، من الطعام والشراب، وكل ما جمل وغلا من الحرير والديباج، والحلي والزينة، وغلَّق عليها الأبواب بعد ذلك كله، فثارت على هذا القيد الذهبي، وقالت أبياتها الشهيرة:

لبيتٌ تَخْفِقُ الأرياحُ[1] فيه ... أحبُّ إليَّ من قصرٍ مَنِيفِ!
ولُبْسُ عباءةٍ وتقرَّ عيني ... أحبُّ إليَّ من لُبْس الشُّفُوفِ!
وأكلُ كُسَيْرَةٍ في قَعْرِ بَيْتِي ... أحبُّ إليَّ من أكلِ الرَّغِيفِ[2]!

الحرية الاقتصادية والديمقراطية السياسية:

ولقد أثبت التاريخ الحافل والواقع الماثل، أنَّ الحريات الإنسانية وحدة لا تتجزأ، فإنَّها يتبع بعضها بعضًا، ويؤثر بعضها في بعض، فلا ضمان ولا بقاءَ لحرية الإنسان السياسية والاجتماعية إذا فقد حريته الاقتصادية؛ فإنَّ الفرد أو الحفنة التي ملكت كل موارد ثروته وأصبحت تتحكم في اقتصاده، وتوجيه حياته، لا بد أن تتحكم بالتالي في توجيه سياسته، وتقرير مصيره، وتخطيط مستقبله، على النحو الذي تريده هي، والذي يكفل بقاءَها متربعة على عرش السيادة، قابضة على صولجان السلطان.

ومن هنا نعلم أنَّ الحرية الاقتصادية سبيل إلى الحرية السياسية.

ومثل الحرية السياسية: حرية الفكر والضمير، وحرية الاعتقاد والتدين، ولا ضمان لبقائهما في ظل نظام تتحكم فيه القِلَّة الساحقة في الأكثرية المسحوقة، بواسطة التحكم في الأرزاق وتحريم التملك على النَّاس.

---

(١) الأرواح: الرياح.

(٢) الأبيات لميسون بنت بحدل الكلبية، كما في درة الغواص في أوهام الخواص للحريري ص٤٩، تحقيق عرفات مطرجي، نشر مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

QaradawiBooks.com

الحرية ونمو الشخصية الإنسانية:

ثم هنـــاك نقطة أخرى نبَّه عليها الداعية الإســـلامي الكبير الأســـتاذ أبو الأعلى المودودي. فقال:

«إنَّ المجتمع الإنســـاني يتكوَّن من آلاف مؤلَّفة بل من ملايين من الأفراد، ولكل فرد روح وعقل وشعور وشـــخصية مستقلة تحتاج إلى الفرص الكافية لنموها وازدهارها. كما أنَّ لكل فرد طبيعة تختلف عن طبائع غيره، وغرائز شـــخصية تقتضيه تحقيقها. فهـــذه المجموعة من الأفراد الإنسانية ليســـت بمثابة الأجزاء في الماكينة حيث لا أهمية لها إلا في هيئتها الموحَّدة، بل الأمر بالعكس من ذلك. فالمجتمع الإنساني عبارة عن مجموعة من الأفـــراد ذات الأرواح والمشـــاعر... والغرض الرئيســـي لاجتماع هذه الأفراد إنَّما هـــو التكافل والتعاون لمســـاعدة بعضهم بعضًا في تحقيق حاجاتهم، وتهيئة الفرص لتحقيق ما لأرواحهم وأجسادهم من المطالب.

ومن الناحية الأخرى... فإنَّ كُلًّا منهم مسؤول أمام الله تعالى، ولكل منهم أجل مسمَّى، فإذا قضى أجله حاسبه الله تعالى: كيف كوَّن شخصيته باســـتعمال المواهب والقـــدرات والاختصاصات المتاحـــة له؟ وكيف استخدم النعم التي أسبغها الله عليه ظاهرة وباطنة، وكيف مارس الوسائل التي يسَّرها له في هذه الدنيا. وهذه المسؤولية عند الله لا تكون جماعية، وإنَّما تكون فردية، أي لا تقوم الإنسانية كلها أمام الله يوم القيامة بصورة الأسر والقبائل والشعوب، بل يُحضر الله كل نفس إلى محكمته بصورة فردية ليسألها: ماذا اكتسبت؟ وعلى أي نوع كوَّنتَ شخصيتك؟ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ

QaradawiBooks.com

وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [النحل: ١١١]، ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]، فهذان الأمران ـ أي: نمو الشخصية الإنسانية في الدنيا ومسؤولية الإنسان أمام الله في الآخرة ـ يقتضيان أن يكون لكل فرد حرية في أعماله وأفكاره، فإنَّ الإنسان إذا لم يجد الفرص المواتية لإكمال شخصيته في المجتمع، تذبل فيه إنسانيته وتضيق عليه نفسه، وتضمحل قواه ومؤهلاته، فيعتريه الخمول والتعطل والبطالة، ويصبح محصورًا محبوسًا، وهؤلاء الناس المحصورون والمحبوسون تنتقل معظم مسؤولياتهم إلى الذين وضعوا هذا النوع من النظام الاجتماعي؛ فهم لا يُحاسَبون على ما أتوا من أعمالهم الفردية فحسب، بل يُحاسَبون كذلك على ما كبَّلوا حرية غيرهم، وأرغموهم على تكوين شخصياتهم الناقصة المبتورة حسب إرادتهم.

ومن الواضح أنَّه لا يرضى أحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقف أمام الله حاملًا على عنقه تلك المسؤولية الكبرى... بل المؤمن بالله واليوم الآخر يرغب دائمًا في إعطاء الأفراد حرياتهم إلى أقصى الحدود، ليكوِّن كل منهم شخصيته على إرادته ومسؤوليته، ولا تنتقل هذه المسؤولية إلى من يدير هذا النظام الاجتماعي»[1].

ومن هنا، جاء النظام الإسلامي ـ الذي شرعه الحكيم الخبير ـ فلم يسلب الفرد حريته، ولم يغلبه على أمره، ولم يضعه في قفص من حديد، أو حتى من ذهب، ولم يحجر عليه كأنَّه صبي أو مجنون أو سفيه، بل

(١) العدالة الاجتماعية وسبيل تحقيقها للأستاذ أبي الأعلى المودودي صـ ١٤، نشر مكتبة دار البيان، الكويت.

QaradawiBooks.com

احترم فطرته وحفظ كرامته، وصان شـــخصيته، فترك لـــه الحرية في أن يكســـب ويمتلك، وأن يزاحم وينافس، وأن يتصرف وينفق، وأن يقتصد ويدّخر، وأن يوصي ويتبرع، وأن يـــورِّث أولاده من بعده (كل ذلك في حدود ما شرع الله كما ســـيأتي). وهو بهذه الحرية التي أتاحها قد جعل الإنسان مخلوقًا جديرًا بتكريم الله واستخلافه في الأرض، لا آلة مسخَّرة تعمل في دولاب كبير.

❊ ❊ ❊

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

المِلْكية الفردية أبرز مظاهر الحرية

ومن هنا كانت إباحة الملكية الخاصة هي المظهر الأول للحرية، والدليل الأول على وجودها، والضمان الأول لبقائها.

وإنَّ نظام الإسلام حين أقرّ حق الملكية الخاصة، إنَّما أراد بذلك أن يُشبع ذلك الدافع الفطري الأصيل في الإنسان، وهو حب التملك، فالطفل منذ نعومة أظفاره يحبّ أن يتملك، ويفرح بما يملك، ويبكي ويصرخ إذا اعتدى عادٍ على ملكه، فطرة الله لا تلقين الإنسان.

ومعنًى آخر من المهم إبرازه وتأكيده، ذلك أنَّ الإنسان إذا تملَّك شعر بقيمة ذاته، وأحسَّ بمعنى السيادة، ومعنى القدرة، أما إذا رأى غيره ـ أيًّا كان ذلك الغير ـ يملك كثيرًا من الأشياء، بل يملك كل شيء، وهو لا يملك شيئًا، فإنَّه يفقد ذلك الشعور الرفيع، ولا يحسُّ إلا بالعبودية والعجز والاستسلام أمام السادة المالكين.

فرق ما بين العبد والحرّ في نظر القرآن:

وما أروع القرآن وأبلغه، وهو يجعل التملك مقارنًا للسيادة والقدرة، ويجعل عدم التملك ملازمًا للعبودية والعجز. وذلك في المثل الذي ضربه حيث يقول: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن

QaradawiBooks.com

﴿رَزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥].

هل يستوون؟! لا واللهِ، لا يستوي السيد الحر المتملك المنفق المتصرف، وذلك العبد المملوك العاجز الذي لا يقدر على شيء؛ لأنَّه لا يملك شيئًا، ولكن أكثرهم لا يعلمون.

وممَّا لا يعلمه هؤلاء: أنَّه لا فرق بين عبيد الدولة اليوم وعبيد السادة بالأمس، كان عبيد الأمس في حضانة سادتهم، يضمنون لهم طعامهم وشرابهم وكسوتهم ومأواهم، ويحمونهم من كل اعتداء عليهم، بل يعدّونهم جزءًا من أسرتهم، ولكنَّهم لا يملكون شيئًا. السادة هم الذين يرسمون لهم طريق العيش، ويُسيِّرونهم كما أرادوا، ومهما مهروا في عملهم وأتقنوا، أو جدُّوا وثابروا، فلا ملكية لهم، ولا ميراث لذُرِّيتهم من بعدهم، بحسب السيد أن يملك، وأن يضمن العيش لهم وللذُرِّية.

هل يختلف عبيد الدولة اليوم عن هؤلاء في شيء؟ لا... إلا أنَّ السيد الجديد أشد عتوًّا وجبروتًا وتحكمًا من السيد القديم.

كان السيد قديمًا إذا ائتمن عبده أعطاه حرية مؤقتة، فيتاجر ويكسب ويتصرف، ويتحمل المسؤولية، وكان أحيانًا يعد عبده بحرية معلَّقة، يخدمه حياته، فإذا مات عاد حرًّا، وكان في أحيان أخرى يرغب في الخير فينجز عتقه، ويحرِّر رقبته لوجه الله.

ولكنَّ السيد الجديد لا يرضى بإعطاء قليل من الحرية، مؤقتة أو معلَّقة أو منجزة. ومَن حدَّثته نفسه بشيء من ذلك فويل له ثم ويل له! إنَّ السيد هنا يأخذ بالظنة ويعاقب على الشبهة، ويحتاط أحيانًا بلا ظنة ولا

QaradawiBooks.com

شـــبهة، فيجري إجراءات وقائيـــة وحملات تطهيرية، ومـــا أخبار منافي سيبيريا ولا حمامات الدم بالمجر وغيرها من الناس ببعيد!!

فلا عجب ـ بعد ذلك ـ أن أباح النظام الإسلامي للناس أن يملكوا، بل حثَّهم على أن يملكوا، ولا عجب أن حمى هذه الملكية من كل ظالم معتد عليها، فقطع يد الســـارق والسارقة جزاءً بما كســـبا نكالًا من الله، وشـــرع دفاع المرء عن ماله، ومقاتلة الغاصب الصائـــل، وجعل مَن قُتِلَ دون ماله شهيدًا كمن قُتِلَ دون دينه أو دمه أو أهله.

استفادة الرأسمالية من إقرار الملكية:

وقد استفاد النظام الرأســـمالي من إقرار الملكية الفردية أو الخاصة، فكان لذلك آثاره في الحياة الاقتصادية والتقدم المادي، ومن ذلك:

١ ـ تنشـــيط الحافز على نمو الثروة وتراكمها: فالإنسان يحب المال حبًّا جمًّـــا، ويهوى زيادته وجمعـــه؛ لهذا يجد في داخلـــه حافزًا لا يهدأ لتنمية هذا المال وزيادته.

٢ ـ وهذا يؤدي به إلى الدخـــول في كافة الطرق التي تزيده، فيخاطر ويرتاد المجهـــول للحصـــول على مزيد مـــن المال، وهـــذا يفتح باب الكشف، ويؤدي إلى مزيد من التسخير للموارد.

٣ ـ يدفع هذا الحافز الإنســـاني إلى حفظ الثروة، وعدم تبديدها أو الإسراف فيها، فأرضه لا يغفل عن تخصيبها حتى لا تبور، وآلته لا يكل عن صيانتها حتى لا تتلف، ومبانيه لا ينتظر عليها الخلل حتى لا تُهدم، وهذا ينمـــي الثروة العامـــة، ويحافظ عليهـــا، ويخفض مـــن التكاليف الاجتماعية الناشئة عن التسيب والإهمال الذي يظهر في الملكية العامة.

QaradawiBooks.com

٤ ـ الاعتدال في الاستهلاك، وتوفير المدخرات التي تتحول إلى استثمارات، تزيد من ثروته، وبالتالي تفتح آفاق التقدم الاجتماعي وزيادة فرص العمل وزيادة الإنتاج[١].

التفاضل في الأرزاق من ثمار الحرية:

ومن مظاهر الحرية الاقتصادية التي أقرَّها القرآن الكريم: ظاهرة التفاضل في الأرزاق والاختلاف بين الناس فيه.

وقد أنكرت الشيوعية أن يتفاضل الناس ويملك بعضهم ويُحرم آخرون من التملك، ونادت بإلغاء الملكية الفردية؛ تمهيدًا للمساواة ومحو الفروق بين الناس.

والواقع أنَّ هذه المساواة المدَّعاة ضد طبيعة البشر، بل ضد طبيعة الوجود كله، فإنَّ هذا الوجود يقوم على وحدات تتشابه حينًا وتختلف أحيانًا، ولكنَّها جميعًا تتجه إلى هدف واحد، وتؤدي مهمة واحدة، كما قال تعالى في نبات الأرض وشجرها: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]، وقال: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٣].

إنَّ تنوع الثمار في هذه القطعة من الأرض، واختلاف طعومها وألوانها وروائحها، مع تجاوزها في المنبت، واشتراكها في الماء الذي

(١) انظر: الإسلام والمذاهب الاقتصادية للأستاذ يوسف كمال صـ ٣١، نشر دار الوفاء، المنصورة، مصر، ط ١، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

تُسقَى به، لم يجلب شرًّا، بل جلب خيرًا كثيرًا، وأعطى الحياة أنواعًا وأصنافًا لكل منها خصائصه والراغبون فيه، إنَّ اختلاف التنوع ـ وبعبارة القرآن: اختلاف الألوان ـ آية من آيات الله في الكون والحياة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

ولو كانت الحكمة في أن يتساوى الناس ويزول من بينهم كل اختلاف في الرزق والدرجة لكان الواجب أن يتساووا أولًا فيما هو أهم من الرزق والمال: أعني في المواهب والمَلَكات، والقُوَى والقدرات العامة والخاصة، والطاقات العقلية والنفسية والجسمية، حتى لا يوجد في الناس العمالقة والأقزام، والعباقرة والبلهاء، والموهوبون والمحرومون، والأقوياء والعجزة، ولكن هكذا صنع الله ـ كما نقول، أو هكذا فعلت الطبيعة ـ كما يقولون. وكل مقاومة للطبيعة وفطرة الله في الناس والحياة ستكون عاقبتها خسارتنا نحن، وهزيمتنا نحن، وانتصار فطرة الله.

يقول الأستاذ إسماعيل مظهر صاحب مجلة «العصور»: «إنَّه مهما اختلفت نظرات الباحثين في رأس المال... فإنَّهم متفقون على أن هنالك رأس مال لا يمكن أن تتناوله دعوتهم، ولا يُستطاع أن يُلغى أو يُفقد بمحض الإرادة البشرية، ذلك هو رأس المال الطبيعي، فالقوة البدنية والمواهب العقلية والكفاءات بأنواعها وضروبها كالجمال وحسن الصوت وقوة الإرادة والذكاء والشجاعة والصبر على احتمال المكاره... عامة هذه الأشياء وما إليها رأس مال طبيعي، لا يستطيع القائمون ضد رأس المال أن ينتقصوه بدعوتهم؛ لأنَّ الطبيعة[1] لا تُحاسَب. فهي تعطي

(١) هذه تعبيرات دخيلة على المسلمين، والصواب أن يقال: لأن الله لا يُحاسَب، فإن المعطي هو الله وليست الطبيعة.

QaradawiBooks.com

مَن تشاء وتمنع مَن تشـــاء، بغير حساب، فكيف تصح الدعوة ضد هذا؟ ذلك دليل على أنَّ رأس المال غير مستطاع محوه، بل غاية المستطاع هو إلغاء بعض وجوهه، وتحوير البعض الآخر، إن دعت الطبيعة إليه، وكان إلغاؤه أو تحويره مسايرًا لارتقاء الإنسانية ونظاماتها الاجتماعية.

أما الحرية، ذلك المبدأ المقدَّس، فتقضي بـــأنَّ كل امرئ عليه وزر ما اكتسب، وله فائدة ما كسب. فإذا تعطل هذا القانون ـ وهو أول حجر في بناء الآداب المدنية، والأخلاق الاجتماعية ـ كما يقول هربرت سبنسر ـ فهناك يرتد النظام الاجتماعي إلى عمايـــة وفوضى لا نهاية لها. أما إذا ســـيطر هذا القانون الطبيعي على نظام الاجتماع ـ وذلك طبيعي لا مردّ ولا ناقض له ـ فـــإنَّ كل فرد يجني مـــن الدنيا بقـــدر ما تؤهله مواهبه، وتنتهي به كفايته، فـــي دائرة القواعد الطبيعية، ويظـــل رأس المال قائمًا على قواعد الحرية والآداب، بهذا وحـــده تتهدم ثلاثة أرباع الدعوة ضد رأس المال»[1].

* * *

(١) الاشتراكية تعوق ارتقاء النوع الإنساني للأستاذ إسماعيل مظهر صـ ١٨، ١٩، ضمن مجموعة مجلة العصور لنشر المعرفة والآداب، ١٣٤٦هـ ـ ١٩٢٧م.

QaradawiBooks.com

الميراث أبرز حقوق الملكية

وإذا كانت الملكية الفردية أو الخاصة من أخص مظاهر الحرية، فإنَّ الميراث من أبرز حقوق الملكية، التي ردَّها الباحثون إلى حقين رئيسيَّين:

حق الدوام، وحق حرية التصرف في المملوك.

ومعنى حق الدوام: بقاء الملكية ما بقيت العَيْن المملوكة، وهذا الدوام قد يكون حقيقيًّا، وقد يكون اعتباريًّا.

وإنَّما يكون حقيقيًّا إذا كانت العَيْن المملوكة قابلة للاستهلاك وأتيح لصاحبها أن يستهلكها في حياته، وذلك مثل ما أكله من طعام فأفناه، وما لبسه من ثياب فأبلاه، وما استعمله من أثاث وأدوات استهلكها بمضي الزمن، ففي هذه الحالة يصدق على الملكية أن يد مالكها بقيت مسيطرة عليها طول المدة التي استغرقها بقاؤها.

ويكون الدوام اعتباريًّا في حالتين:

أولاهما: أن تكون العَيْن المملوكة قابلة للاستهلاك ولم يُتَح لمالكها أن يستهلكها في حياته.

الثانية: أن تكون غير قابلة للاستهلاك كالأراضي والعقار يموت صاحبها، وهي لا تزال في مِلْكه.

QaradawiBooks.com

ففي هاتين الصورتين يتحقق الدوام في صورة تقديرية اعتبارية، تواضعت عليها الشرائع والنُّظُم التي تقر المِلْكية الفردية، وهي انتقال العَيْن المملوكة إلى خِلْف للميت يخلفه في تملك ما تركه من عقار أو منقول.

وهذه الخلافة إنَّما تتحقق بطريق الوصية من المالك نفسه لمن يعيِّنه من بعده، أو بطريق الميراث لأهله وأقاربه، الذين تُقرِّر الشرائع القائمة أنَّهم أولى الناس بالمالك الميت وأقربهم إليه.

ففي كلتا الحالتين لا يعتبر انتقال العَيْن المملوكة إلى الموصى له أو الوارث تملكًا جديدًا من جميع الوجوه، بل يُعتبر بمثابة امتداد للمِلْك القديم، لتحقيقه رغبة المالك الأصلي في حالة الوصية، أو لتعلقه بأفراد يمتون إليه بلُحمة قرابة قوية تجعلهم صورة متجددة منه، وامتدادًا لوجوده، فكأنَّ هؤلاء وأولئك يمثلون المالك الأول، وكأن المِلْكية الأولى لا تزال قائمة، وإن لبست ثوبًا آخر غير ثوبها القديم[1].

ذلك أنَّ تحقيق رغبة المالك وإشباع حاجته لا ينحصر في استهلاك الشيء المملوك، بل يتحقق أيضًا بانتقاله إلى مَن يحب في حياته أو بعد مماته.

والإنسان مفطور على حب ذاته، ومفطور كذلك على حب ذُرِّيته من بعده، فإذا كنا نبيح للمالك في حياته أن ينقل مِلْكه ـ هبة وتبرعًا ـ إلى مَن يحب من الناس، فلماذا نحظر عليه انتقال هذا المِلْك نفسه إلى مَن يحب بعد وفاته؟

(١) انظر: حقوق الإنسان في الإسلام للدكتور علي عبد الواحد وافي صـ ٥٠، نشر نهضة مصر، ط ٥.

QaradawiBooks.com

إنَّنا بهذا الأمر نشبع دافعًا فِطريًّا أصيلًا في نفس المالك، وننمي فيه حوافز السعي والدأب، وبواعث الإنتاج والإتقان، والأسرة والمجتمع بلا شك هما الرابحان من وراء هذا كله كما سنبيِّن بعد.

الحكمة من وراء شرع الميراث:

إنَّ في نظام الميراث ـ كما شرعه الإسلام ـ رعاية لمصلحة الفرد، ورعاية لمصلحة الأسرة، ورعاية لمصلحة المجتمع.

١ ـ مصلحة الفرد:

مصلحة الفرد إنَّما تُرعى وتتحقق برعاية حوافزه الشخصية، وتحقيق رغباته المشروعة، وإشباع دوافعه الفطرية في غير ظلم ولا عدوان، ومن الدوافع الأصيلة في النفس الإنسانية حب المرء لذريته، ذلك الحب الكريم النبيل الذي يعلو على طلب المنفعة أو الأجر، والذي يرتقي في كثير من الأحيان إلى الإيثار على النفس.

هذا الحب الذي عبَّر عنه النبي ﷺ في شأن ابنته فاطمة فقال: «**إنَّما فاطمة بَضْعة مني، يؤذيني ما آذاها، ويُنصبني ما أنصبها**»[(١)]، وعبَّر عنه الشاعر العربي[(٢)] بقوله:

وإنَّما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض!

حتى إنَّك لتجد الإنسان ـ وقد فُطِرَ على حبِّ نفسه، وحب الخير لها أكثر من غيرها، ويود أن يكون أفضل من غيره في كل شيء ـ هذا

(١) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥٢٣٠)، ومسلم في الفضائل (٢٤٤٩)، عن المسور بن مخرمة.

(٢) هو حطان بن المعلَّى، كما في الحماسة لأبي تمام (١٦٧/١)، تحقيق د. عبد الله بن عبد الرحيم العسيلان، جامعة الإمام محمد بن سعود، المملكة العربية السعودية.

QaradawiBooks.com

الإنسان تجده دائمًا يحب من كل قلبه أن تكون ذُرِّيته من بعده خيرًا منه مقامًا، وأرغد عيشًا، وأفضل حالًا، في الدين والدنيا.

ولا غرابة أن نجد الأنبياء عليهم السلام وهم المُثُل العليا للإنسان الفاضل ـ يحرصون على خير أولادهم حرصهم على خير أنفسهم، ويسألون الله لبنيهم كما يسألونه تعالى لذواتهم.

وهذا ما جعل نوحًا يستشفع عند الله لابنه ـ برغم كفره ـ قائلًا: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥].

وإبراهيم يقول: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وحين اصطفاه الله وقال له: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، بادر خليل الله فقال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾؟ ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

والإنسان المؤمن الصالح يدعو الله فيقول: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وإنَّ الإسلام ليسمو بالصلة بين الوالد وولده، حتى إنَّه ليتجاوز بها الحياة إلى ما بعد الوفاة، فيموت الوالد ولكنَّه يظل حيًّا في ولده من بعده، ويظل عمله ممتد الأثر بعمل الصالحين من أبنائه، وفي هذا يقول رسول الإسلام: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[(١)].

فإذا كانت هذه صلة الوالد بولده، وعاطفته نحوهم، فلماذا نحول بينه وبين ما يريده من غِنًى ويسار لهم بعد وفاته، يدخر لهم هذا الغِنى نتيجة كدِّه

(١) رواه مسلم في الوصية (١٦٣١)، وأحمد (٨٨٤٤)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

وجهده، وتقديمه مصلحة ولده في الغد على لذة نفسه اليوم، ورأس المال ـ كما يقول الاقتصاديون ـ ما هو في الواقع إلا عمل مدخَر، وجهد مختزَن.

وإنَّما أشـبعنا القول في حوافز الفرد إذا كان أبًا أو أُمًّا؛ لأنَّ هذه هي الصورة الشـائعة المعهودة في الميـراث... وهذا لا يعنـي أن الميراث مقصور على ذلك، فإنَّ الآباء والأمهات يرثون أيضًا من أبنائهم وبناتهم، ولا غرابة في ذلك فأولئك هم سـبب وجودهم ومنشأ حياتهم، والولد مأمور ـ دينًا وخُلُقًـا ـ أن يبرهم في حياتهم وبعـد مماتهم، وأن يرعى حقَّهم، ويعرف فضلهم، ويفي لهم ببعض إحسانهم إليه، ولا أقل من أن ينالهم نصيب من تركته إذا مات في حياتهم، وهو نصيب ضئيل بالنسبة لنصيـب الأولاد من والديهم؛ ذلـك لأنَّ الأولاد مقبلـون على الحياة، وهؤلاء مدبرون عنها، فكان حظهم أقل.

٢ ـ مصلحة الأسرة:

وأما مصلحة الأسـرة من وراء نظام الميراث فإنَّه يُقوِّي عُرَا الترابط فيما بينها، ويصل ما بين أفرادها برباط وثيق، رباط التكافل والتعاون في الحياة، والتوارث بعد الوفاة.

إنَّ الأسـرة هي الخلية الأولى في جسـم المجتمع، وهي المحضن الأول للأخلاق، وفي حرارتها تفرخ وتنمو أمهات الفضائل الإنسانية: من حب وحنان، ورحمة وإيثار، وتعاون وتكافل وتعاطف.

ولقد أثبت الواقع المشاهَد الذي أيَّدته الدراسات النفسية الحديثة، أنَّ «اللُّقطاء» الذيـن حُرِموا حنـان الأمومة، وعطف الأبوة، وجو الأسـرة المشحون بالمشاعر الرقيقة والعواطف الحانية، هم أكثر الأطفال تعرضًا للعُقَد والشذوذ والانحراف.

QaradawiBooks.com

«ولقد حاولت الشيوعية أن تقضي على الأسرة بحجة أنَّها تنمي أحاسيس الأثرة الذاتية، وحب التملك، وتمنع شيوعية الثروة، وشيوعية مِلْكية الدولة للأفراد... ولكنَّها فيما يبدو قد فشلت في هذا فشلًا تامًّا، فالشعب الروسي شعب عائلي، وللعائلة مكانها في نفسه وفي تاريخه، فوق أنَّ الأسرة نظام بيولوجي ونفسي لا نظام اجتماعي فحسب، فتخصيص امرأة لرجل أصلح بيولوجيًّا وأفلح لإنجاب الأطفال، وقد لوحظ أنَّ المرأة التي يتداولها عدة رجال تعقم بعد فترة معيَّنة أو لا يصلح نسلها. أما من الوجهة النفسية فمشاعر المَوَّدة والرحمة تنمو في جو الأسرة خيرًا ممَّا تنمو في أي نظام آخر. وتكوين الشخصية يتم في هذا المحيط خيرًا ممَّا يتم في أي نظام آخر. وقد أثبتت تجارب الحرب الأخيرة بين أطفال المحاضن، أن الطفل الذي تتناوب تربيته عدة حاضنات تختل شخصيته وتتفكك، ولا تنمو فيه مشاعر الحب والتعاون، كما أنَّ الطفل الذي لا والد له يعاني مُركَّب النقص، ويهرب من هذا الواقع بتخيل والد لا وجود له، يتصل به في الخيال، ويُصوِّره في شتى الصور والأشكال»[١].

«وليست العوامل البيولوجية والنفسية وحدها، فهناك مقتضيات الضرورة والمصلحة التي تربط بين رجل وامرأة لتكوين بيت ورعاية أطفال، ثم العلاقات التي تربط بين أفراد الأسرة الواحدة، وتجعل منهم وحدة اجتماعية متعاونة في الخير والشر، متكافلة في الجهد والجزاء، جيلًا بعد جيل»[٢].

(١) أطفال بلا أسر لأنا فرويد ودورثي برلنجهام، ترجمة محمد بدران، ورمزي يسَّي، نقلًا عن العدالة الاجتماعية في الإسلام للأستاذ سيد قطب صـ ٦٥.

(٢) المصدر السابق صـ٦٤

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

والإسلام لذلك مَعْنِيٌّ أكبر العناية بالأسرة، حريص كل الحرص عليها، وهو يعمل دائمًا ـ بأحكامه الملزمة، ووصاياه الهادية ـ على تثبيت دعائمها، وتوثيق روابطها، وتجنيبها أسباب التفكك والانحلال.

ولا عجب أن تجد الوصية بالوالدين، وذوي القُرْبَى مقرونة في كتاب الله بالوصية بعبادته تعالى وتوحيده: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦]، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٢٦]، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]، ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

ومن هنا لا يرضى الإسلام أن ينفصل الولد عن أبويه وأُسرته بمجرد ولادته، لتتلقفه المحاضن العامة حيث الأب والأم لا يفرغان لمثل هذا الأمر الصغير! ودولاب العمل الجبار لا يني ولا يتوقف، من أجل عاطفة مشبوبة، لا مكان لها في عالَم الإنتاج وسباق الأرقام.

كما لا يرضى الإسلام أن تنقطع صلة الولد بأمه وأبيه بمجرد كبره وبلوغه رشده، واستقلاله اقتصاديًّا عنهما، بل يفرض البر والإحسان والتواصل بين الأصول والفروع، بل بين الأقارب جميعًا بعضهم وبعض: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥، الأحزاب: ٦].

ولم تقتصر تعاليم الإسلام على الأمر بالبر والصلة، بل أوجبت للفقير العاجز على قريبه الغني القادر نفقته وكفايته الاقتصادية بالمعروف، يُلزَم بذلك قضائيًّا كما يُؤمَر به دينيًّا.

ولم تقف بالبر والصلة عند حدود الحياة الدنيا القصيرة، بل تجاوزتها إلى ما بعد الممات، ففرضت على الولد أن يبر أباه في قبره

QaradawiBooks.com

بإنفاذ وصاياه، والوفاء بعهده، وصلة أقربائه، وإكرام أصدقائه، والاستغفار له؛ ولهذا كان من دعاء الأنبياء: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [نوح: ٢٨].

وإذا كانت هذه عناية الإسلام بالأسرة وتماسكها، كان من تمام ذلك تشريع التوارث بين أعضائها، فالصلة بينهم لم تنفصم عراها طوال الحياة، ولا بعد الحياة.

٣ ـ مصلحة المجتمع في تشريع الميراث:

وللمجتمع كله ـ بعد ذلك ـ من وراء تشريع الميراث مصلحة مؤكدة، مصلحة نرى آثارها في الإنتاج، وفي الاستهلاك، وفي التوزيع.

أما الإنتاج: فلا يخفى أنَّ للميراث أثره العظيم في زيادته، وتوسيع مجالاته، وبعث الهمم والحوافز لتحقيق أعلى نسبة مستطاعة من الكفاية الإنتاجية.

يقرر الاقتصاديون أنَّ استغلال الثروات الطبيعية في بلدٍ ما، وتقدمه الاقتصادي إنَّما يتوقف على توافر عنصر أساسي، هو وجود المدخرات الكبيرة، وبعبارة أخرى: رؤوس الأموال الضخمة التي يمكن استغلالها في إقامة المشروعات والمنشآت الزراعية والصناعية وغيرها ممَّا يضاعف الإنتاج، وينمي الاقتصاد والعمران.

والنظام الاقتصادي الذي يقر مبدأ الميراث هو الذي يتيح وجود هذه المدخرات ورؤوس الأموال؛ لأنَّ من شأنه أن يحفز كل واحد من الناس على ألا يستهلك كل ثمار عمله في الحال، بل يُرغِّبه في ادخار جزء من دَخْله، أي في أن يرجئ استهلاك هذا الجزء، ليستعمله في تأسيس مشاريع جديدة، فمصلحة الفرد المهتم بتحسين حاله وحال

QaradawiBooks.com

أولاده من بعده، تتفق مع مصلحة المجتمع الذي يتوقف نهوضه على كثرة الأموال المدخَّرة.

وفي مجال الاستهلاك: نجد لتشريع الميراث أثرًا فعَّالًا لا يُنكر، فإنَّ ممَّا تشكو منه الدول والجماعات، ويشكو منه رجال التخطيط الاقتصادي ـ في البلاد النامية خاصة ـ إسراف الأفراد في الإنفاق، وتوسعهم في الاستهلاك، ممَّا يجعل محاولات التنمية، ومضاعفة الإنتاج تضيع هباءً وتذهب جُفاءً، كما أنَّ هذا الإسراف يقضي على الادخار، الذي لا بد منه لتكوين رؤوس الأموال.

ولا شيء يُلزم الإنسان حدود التوسط في الإنفاق، والاعتدال في الاستهلاك، مثل حبه لذُرِّيته، وحرصه على أن يكونوا من بعده أغنياء؛ ولهذا نجد الأب ـ كل أب عاقل ـ يقتصد في معيشته، وربما يُضيِّق على نفسه، ليدخِّر جزءًا من دخله، ونصيبًا من كسبه لذريته من بعده، وهو بذلك راضي النفس، قرير العين.

وإنَّما يفعل ذلك الآباء إذا أيقنوا أن ثروتهم من بعدهم لأبنائهم وبناتهم، أما إذا علموا بأن النظام الذي يحكمهم يأخذ ثروتهم التي كسبوها بعناء النهار، وسهر الليل، ليعطيها غير أبنائهم ـ أيًّا كان ذلك الغير ـ فسرعان ما يعرضون عن الادخار، ويقبلون على الإنفاق والتبذير فيه، مستمتعين بلحظتهم العاجلة، على حدّ ما قال الشاعر:

ما مَضَى فَاتَ، والمُؤَمَّلُ غَيْبٌ ولَكَ السَّاعَةُ الَّتي أَنْتَ فِيْهَا[1]

(١) ذكره ابن مالك في شرح التسهيل (٢٨٢/٣)، تحقيق د. عبد الرحمن السيد ود. محمد بدوي المختون، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

QaradawiBooks.com

وفي مجال التوزيع: نجد الميراث ـ كما شرعه الإسلام ـ عاملًا بارزًا في تفتيت الثروات الكبيرة، وتوسيع قاعدتها، ونقلها من مالك واحد إلى عدد من المُلَّاك.

ذلك أنَّ تشريع الإسلام لم يجعل التركة من حظ الابن الذكر الأكبر، كما هو شـرع الإنجليز، ولم يجعلها للذكور دون الإناث أو للكبار دون الصغار، كما كان العرب في الجاهلية، لا يُورِّثُون إلا مَن حمى البَيْضة، وحمل السلاح، وعلى هذا لا يُورِّثُون البنات، إذ لا شأن لهن في القتال والدفاع عن الحَوْزة، كما قال الشاعر:

كُتِـبَ القتـل والقتـالُ علينـا وعلى الغانيـاتِ جـرُّ الذيولِ[1]

ولم يكونـوا يُورِّثُون الصغـار أيضًا، ذكـورًا كانـوا أو إناثًا؛ لأنَّهم عاجزون عن حماية أنفسهم، فضلًا عن حماية قومهم.

لم يصنع الإسـلام ما صنع هؤلاء وأولئك، بل وزَّع ثروة الميت بين أولاده جميعًا؛ للذكر مثل حظ الأُنثيَيْـن، وإنَّما فاوت بين الذكر والأنثى تبعًا لأعباء كل منهما والتزاماته المالية؛ فالأنثى في كفالة الرجل، ومكفية بإنفاقه عليها، ابنة كانت أو زوجة، فضـلًا عمَّا تأخذه من صداق خالص لها، لا يشـركها فيه أب ولا زوج، إلا إذا طابت نفسًا بشيءٍ منه: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾ [النساء: ٤].

وهذا بخلاف الرجل الذي تلزمه الشريعة بالمهر والنفقة على الزوجة والأولاد.

---

(١) البيت لعمر بن أبي ربيعة. انظر: العقد الفريد (١٢٨/٧)، نشـر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.

QaradawiBooks.com

ومن عدل الإسلام: أنَّه جعل للآباء والأمهات حظًّا في تركات أولادهم، كما كان للأولاد حظًّا في تركاتهم.

ومن عدل الإسلام: أنَّه جعل لكلٍّ من الزوجين حظًّا في تركة صاحبه؛ نظرًا لما بينهما من ارتباط وثيق، والتحام عميق.

ومن عدل الإسلام: أنَّه جعل لعصبة المرء وذوي رحمه نصيبًا في ميراثه، في حدود خاصة، وبشروطه معيَّنة، وذلك لما بينهم من رابطة الدم، ووشيجة القُربى، التي تفرض عليهم التضامن والتعاون في العُسر واليُسر، ولهذا أوجبت الشريعة على القريب الموسر أن ينفق على قريبه الفقير، ويقوم بحاجاته الاقتصادية: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وإذا كان القريب قد ينفق على قريبه فيغرم في حياته، ويغرم بالاشتراك في دفع الدِّيَة له إذا ارتكب جريمة قتل خطأ حسب نظام العاقلة في الإسلام، فمن العدل أن يكون له حق في تركته بعد وفاته، وذلك إذا لم يكن له وارث من ذُرِّيته... فحينئذ توزع التركة على الإخوة والأخوات، فسائر العصبات، الأقرب فالأقرب؛ قال تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٧٦].

ويقول الرسول ﷺ: «**ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر**»[(١)].

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٧٣٢)، ومسلم (١٦١٥) كلاهما في الفرائض، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

ولم يبح الإسلام للمالك أن يتعدَّى حدود الله في الميراث فيخص بعض الوارثين بأكثر ممَّا فرض الله له، أو يحرم بعضهم ممَّا قسم الله له، أو يعطيه دون ما يستحقه، فإنَّ الانحراف عن هدي الله في ذلك من الكبائر التي توعَّد الله عليها بالعذاب الشديد، كما نرى ذلك في ختام آيات المواريث؛ قال تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ۞ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۞ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ [النساء: ١١ ـ ١٤].

وكذلك يحظر الإسلام على المُلَّاك أن يوصوا بثروتهم بعد وفاتهم لمن يشاؤون من الأشخاص إلا بشروطٍ خاصَّةٍ وفي حدود معيَّنة. ومن هذه الشروط: ألَّا وصية إلا في حدود ثلث التركة؛ روى الشيخان، عن

QaradawiBooks.com

سعد بن أبي وقاص، قال: مرضتُ عام الفتح مرضًا أشفيتُ على الموت، فأتاني رسول الله ﷺ يعودني، فقلت: يا رسول الله، إنَّ لي مالًا كثيرًا، وليس يرثني إلا ابنتي، أفأوصي بمالي كله؟ قال: «**لا**»، قلت: فثلثي مالي؟ قال: «**لا**»، قلت: فالشطر؟ قال: «**لا**»، قلت: فالثلث؟ قال: «**الثلث، والثلث كثير، إنَّك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالةً يتكففون الناس**»[(١)].

كما أنَّه لا تجوز الوصية لوارث؛ إذ الوارث له نصيبه الذي فرضه الله، إلا إذا أجاز ذلك بقية الورثة فهم أصحاب الحق؛ ولهذا قال ﷺ: «**إنَّ الله أعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فلا وصية لوارث**»[(٢)].

وقال ﷺ ـ فيما رواه أبو هريرة ـ: «**إنَّ الرجل ليعمل والمرأة بطاعة الله ستين سنة، ثم يحضرهما الموت فيضارَّان في الوصية فتجب لهما النار**»، ثم قرأ أبو هريرة: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖ ...﴾ [النساء: ١٢]، إلى قوله: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[(٣)] [النساء: ١٣]، فإذا تمَّت الوصية بهذه الشروط كانت مُقدَّمة على ميراث الوارثين بنصِّ القرآن الكريم: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ [النساء: ١٢].

وبهذا كله يمنع الإسلام تركيز التركة في يد أو يدين، وينثرها ـ بالوصية الواجبة والمستحَبة وبالميراث المفروض ـ بين المستحقين من الأصول

---

(١) سبق تخريجه صـ٩٣.

(٢) رواه أحمد (٢٢٢٩٤)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. وأبو داود (٢٨٧٠)، والترمذي (٢١٢٠)، وقال: حسن. وابن ماجه (٢٧١٣)، ثلاثتهم في الوصايا، وحسَّن الحافظ إسناده في التلخيص الحبير (٢٠٢/٣)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١٧٨٩)، عن أبي أمامة الباهلي.

(٣) رواه أبو داود (٢٨٦٧)، والترمذي (٢١١٧)، وقال: حسن غريب. كلاهما في الوصايا، وضعَّفه الألباني في ضعيف الجامع (١٤٥٧)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

والفروع، والعصبة وذوي الأرحام، ومن كتبت له الوصية من الأقربين غير الوارثين، ومن سائر المحتاجين، ومن حضر قسمة التركة من أُولي القُربى واليتامى والمساكين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٨].

دفع شبهات الشيوعيين على الميراث:

هذا هو نظام الميراث في الإسلام، الذي عُنِيَ الله ببيانه في كتابه، وقال في آخر آية من آيات الميراث، وهي آخر آية من سورة النساء: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٧٦]، فلولا بيان الله العليم لنا لضللنا، كما ضلَّ كثيرون، قديمًا وحديثًا، في شأن الميراث، بين الإفراط والتفريط.

والشيوعية ترفض هذا النظام، بل ترفض مبدأ التوريث من أساسه، ولا تكاد تقرُّه إلا في توافه المتاع.

«وحُجَّتها الأولى والأخيرة أنَّ الميراث قد ينقل أموالًا طائلة لمن لا يستحقون بعملهم شيئًا منها.

وذلك ينافي العدالة، وينافي مبدأ تكافؤ الفرص، ثم إنَّ أولاد الأغنياء لهم في ثرواتهم الموروثة تصرفات أضرَّت بالمجتمعات، وزحمتها بأفانين من العبث والسخف.

هذا كلام عليه مسحة من الصدق، بَيْد أنَّه مغشوش لمن فطن إلى جوهره، لو كانت المواريث تنقل الأموال فقط من الأجيال السابقة إلى الأجيال اللاحقة لأمكن عدُّ ذلك من الأمور التي تُقاوَم الطبيعة فيها، لو أمكن أن تُقاوَم.

QaradawiBooks.com

ولكنَّ الوراثة سُـنَّة ثابتة مطردة تنقل مقاديـر هائلة من الخصائص والصفات المادية والمعنوية، وتحملها بأمانة عن الموتى المدبرين إلى ذراريهم الناشئين.

وقوانين الوراثـة معروفة في علـوم الأحياء، والاعتـراف بآثارها لا مندوحـة عنه، والمجتمعات كلهـا تعترف بالـذكاء والنباهة والقوة ـ وهي بعض ما يورث ـ وتقدم ذويها.

ومبدأ تكافؤ الفرص لا يتدخل في توزيع المواهب على البشر.

والمال الموروث من أيسر الشؤون التي يُستطاع التحكم فيها حتى لا تُضار الأمة به.

فالإسلام الذي حدَّد لكل وارث حظَّه من التركة، وضع من القوانين ما يمنع سوء التصرف في هذا النصيب الموروث.

فسدَّ أبواب الحرام في المجتمع حتى لا يمكن إنفاقه في حرام.

وقدَّر مصارف الحلال للفرد حتى إذا جنح بعدها إلى تبذير ومتلفة أمكن الحجر عليه إلى أن يرشد.

ومن ثَمَّ يتضح أنَّ المال الموروث ـ في ظل الإسلام ـ لا يميل ذَرَّة بموازين العدالة، وأنَّ سبيله سبيل غيره من روافد الوراثة الأخرى، بل لعلَّه أقل خطرًا»[1].

* * *

(١) انظر: الإسلام والمناهج الاشتراكية للشيخ محمد الغزالي صـ ١٦٢ ـ ١٦٤، ط ٣.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

قيمة العدل ومعناه والحاجة إليه

الحرية المطلقة رذيلة ممقوتة:

تلك هي الحرية التي أقرَّها نظام الإسلام، ولكن ما حدودها؟ هل هي حرية مطلقة؟ لا، إن الحرية الاقتصادية المطلقة ـ أو شبه المطلقة ـ التي يحبذها الرأسماليون ـ كالمساواة الاقتصادية المطلقة التي يحلم بها الشيوعيون ـ كلتاهما ليست فضيلة محمودة، بل رذيلة ممقوتة؛ ولهذا فإنَّ الإسلام حين أباح للإنسان حرية التملك لم يدع له الحبل على الغارب: يتملك كيف يشاء، وبأي طريق شاء، ويتصرف فيما ملك كيف يشاء، وفي أي موضع شاء، بل وضع حدودًا للكسب والتملك، وحدودًا للتصرف في المِلْك، تثميرًا أو استهلاكًا، وفرض حقوقًا معيَّنة على المال المملوك إذا بلغ نصابًا مقدَّرًا، وحقوقًا أخرى يعيِّنها أُولو الأمر، أو تحدِّدها الضرورات والحاجات.

فإذا كان للحرية نشوة، وفي إطلاقها خطر الشرود والجموح، فهذا ما احتاط له الإسلام، فقيَّد من جموح الحرية الاقتصادية بما وضع من حدود، وما فرض من حقوق، وما ألزم به من قيود، أحلَّ بها الحلال، وحرَّم الحرام.

QaradawiBooks.com

حرية مقيَّدة بالعدل:

إنَّ الحرية التي شرعها الإسلام في مجال الاقتصاد، ليست حرية مطلقة من كل قيد، كالحرية التي توهَّمها قوم شعيب: ﴿أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ [هود: ٨٧]، بل هي حرية منضبطة، مقيَّدة بـ «العدل» الذي فرضه الله.

ذلك، أنَّ في الطبيعة الإنسانية نوعًا من التناقض الذي خلقها الله عليه لحكمة اقتضاها عمران الأرض، واستمرار الحياة.

فمن طبيعة الإنسان: الشغف بجمع المال، وحبه حبًّا قد يُخرجه عن حدِّ الاعتدال، كما قال تعالى في وصف الإنسان: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]، وكما صوَّر الرسول مدى طمع الإنسان بقوله: «**لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى إليهما ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب**»(١).

ومن طبيعة الإنسان الشُّحُّ والحرص كما قال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]، وقال الرسول ﷺ: «**يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان: الحرص على المال، والحرص على العمر**»(٢).

ومن طبيعته حبُّ الخلود، إن لم يكن بنفسه فبذريته من بعده، وحبُّ الاستعلاء والسيطرة على الآخرين، وهاتان الغريزتان كانتا الأحبولة التي أوقع إبليس بها آدم أبا البشر في شَرَكِ المخالفة بالأكل من الشجرة: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝ فَأَكَلَا مِنْهَا ...﴾ [طه: ١٢٠، ١٢١].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٣٦)، ومسلم في الزكاة (١٠٤٩)، عن ابن عباس.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٢١)، ومسلم في الزكاة (١٠٤٧)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

الطبيعة الإنسانية وحدها غير مأمونة دائمًا:

وهـذه الطبائع وغيرهـا ضرورية لعمـران الأرض، ولازمة لتمام الابتلاء الذي قام عليه أمر الإنسـان، ولكنَّها ـ مهما تكن الحكمة من خلقها ـ من شـأنها إذا تُرِكَتْ وحدها ـ أن تدفع الإنسـان إلى تجاوز الحدود، وجحد الحقوق، فيأخذ ما ليس له بحق، ولا يعطي ما عليه من واجب.

نعم، لو تُرِكَ الإنسانُ حرًّا لطبيعته وحدها ـ كما نادى دعاة الاقتصاد الرأسمالي ـ فإنَّه قد يكسـب المال من غير حِلِّه، وينفقه في غير محله، ويبخل به عن مستحقه، وهذه الثلاثة هي جرثومة الشر في الأرض:

١ ـ قد يُترك بعض الناس حرًّا، فيبيع نفسه للشيطان ليكسب المال بالخيانـة لدينـه أو لوطنه، وقد يكسـبه بترويج الفجور والفسـاد في الأرض، وقد تبيع المرأة جسمها لتكسب به، وقد يستطيع بعض الأفراد أن يكسبوا ثروة ضخمة دون أن يبذلوا جهدًا ملائمًا لها، عن طريق القوة أو الحيلة، بالنهب العلني والسـرقة المكشـوفة، أو النهـب المنظَّم، والسـرقة المموَّهة بطلاء الشـرعيَّة الزائف... وأي شرعيَّة في استغلال ضعف الآخريـن أو حاجتهم، أو جهلهم أو غفلتهم؟! وبهذا الكسـب الخبيث والتحايل الحرام يتضخم هؤلاء على حساب غيرهم، ويسمنون والناس إلى جنبهم يهزلون!

٢ ـ وهناك شـخص قد يجمـع ثـروة ضخمة من حلال الكسـب والميراث، ولكنَّه ينفقها على شهواته، ومن يخدم شهواته، فهو في مجال السرف والترف والمتاع الرخيص، ومجال الفخر والخُيَلاء، والمكاثرة، يبعثر الأموال ذات اليمين وذات الشـمال، ومثل هـذا المبذِّر المتلاف

QaradawiBooks.com

لا تجده في جانب الخير إلا شحيحًا بخيلًا مضيِّعًا لحقوق المستحقين، وما أصدق ما قال الحكيم: «ما رأيتُ إسرافًا إلا وبجانبه حق مضيع»[1].

٣ ـ وقد لا يكـــون مالك المال من هذا النوع المســـرف المتلاف، ولكنَّه نوع آخر يرى أنَّ المال ماله، جمعـــه بذكائه وجِدِّه، أو ورثه عن أبيه وجَدِّه، وليس لأحد حق فيه، فذلك الذي وصفه الله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ [فصلت: ٥٠] (أي: وليس لأحد فيه نصيب).

ومن هذا النوع قارون الذي قال له قومه ناصحين: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۞ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٦، ٧٧].

فماذا كان جوابه على هذه النصيحة المخلصة؟ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، وهي آيات ناطقة تُصوِّر طبيعة الإنســـان الرأسمالي وأنانيته وغروره. ومثل هذا لو تُرِكَ حُـــرًّا لطبيعته وحدها لمات الضعفاء إلى جواره جوعًا، أو عُريًا، أو مرضًا، دون أن يرى لهم حقًّا، أو يمد إليهم يدًا، كأولئك الذين خاطبهم القرآن بقوله: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۞ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۞ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۞ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجـــر: ١٧ ـ ٢٠]، وهـــي أيضًا آيـــات ناطقة تصـــوِّر طبيعة المجتمع الرأسمالي المتظالم المتهالك على المال، الذي يذكر كل فرد فيه نفسه، وينســـى الضعيف والمســـكين. هؤلاء الأنواع من الناس هل

(١) ذكره الجاحظ في البيان والتبيين (١٧٧/٣) منسوبًا لسيدنا معاوية، نشر دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.

QaradawiBooks.com

يُتركون أحرارًا تُسيِّرهم دوافعهم الطبيعية وحدها؟ لا، ثم لا، إنَّ العدل هنا هو لجام الحرية، وصِمَام الأمان للفطرة، وهو الذي يعطي كل ذي حقٍّ حقَّه.

العدل في الإسلام أساس:

إنَّ دعامة الحرية الاقتصادية التي تقوم على احترام الفطرة والكرامة الإنسانية، إنَّما يضبطها ويكملها دعامة أخرى هي: العدل.

والعدل في الإسلام ليس مبدءًا ثانويًّا، بل هو أصل أصيل، وأساس متين، يدخل في تعاليم الإسلام وأحكامه كلها عقائد وشرائع وأخلاقًا.

وحين أمر الله بثلاثة أشياء كان العدل أولها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].

وحين أمر بشيئين كان العدل أحدهما؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النساء: ٥٨].

وحين أمر بشيء واحد كان هو العدل؛ قال تعالى: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الأعراف: ٢٩].

إنَّ التوحيد نفسه ـ وهو جوهر الإسلام وأساس بنيانه ـ معنى من العدل، كما أنَّ الشرك ضرب من الظلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

وممَّا يدل على عناية الإسلام بالعدل: حظره للظلم، وتأكيد نهيه عنه، وتشديد الحملة على الظالمين، وإيعادهم بأشد أنواع العذاب في الدنيا والآخرة.

QaradawiBooks.com

وحسبك أن تقرأ في القرآن مثل هذه الآيات وهي قُلّ من كُثر:

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١]، ﴿وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا﴾ [طه: ١١١].

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا﴾ [الكهف: ٥٩].

﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ [النمل: ٥٢].

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا﴾ [الكهف: ٨٧].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

ومِمَّا جاء به القرآن: أنَّ الله قد يبقي الدول والأمم مع الكفر، ويؤجل حسابها للآخرة، ولكنَّه لا يبقيها مع الظلم والبغي في الأرض.

وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

قال المفسِّرون: المراد من الظلم هنا: الشرك؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣]، والمعنى: أنَّه تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم.

والحاصل أنَّ عذاب الاستئصال لا ينزل لأجل كون القوم معتقدين للشرك والكفر، بل إنَّما ينزل ذلك العذاب إذا أساؤوا في المعاملات وسعوا في الإيذاء والظلم.

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

ولهذا قال الفقهاء: إنَّ حقوق الله تعالى مبناها على المسامحة والمساهلة، وحقوق العباد مبناها على الضيق والشح.

ويقال في الأثر: المُلْك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم، فمعنى الآية: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ ﴾ [هود: ١١٧] أي: لا يهلكهم بمجرَّد شركهم إذا كانوا مصلحين يعامل بعضهم بعضًا على الصلاح والسداد.

وهذا تأويل أهل السُّنَّة لهذه الآية، قالوا: «والدليل عليه أنَّ قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب إنَّما نزل عليهم عذاب الاستئصال لما حكى الله تعالى عنهم من إيذاء الناس وظلم الخلق»[1].

* * *

(١) تفسير الفخر الرازي (٤١٠/١٨).

QaradawiBooks.com

حاجة الناس إلى الكتاب والميزان لمعرفة العدل

الحكمة من إرسال الرسل إقامة العدل:

ولا عجب بعد ذلك أن يعلن القرآن الكريم أنَّ الحكمة من وراء إرسال الله تعالى لرسله، وإنزال كتبه هي: قيام الناس بالعدل. قال تعالى في سورة الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥].

حدَّد القرآن في هذه الآية الغاية من إرسال الرسل وإنزال الكتاب والميزان معهم تحديدًا واضحًا، بيَّن فيه أنَّ كل شريعة يشرعها الله، وكل كتاب ينزله، فليس لله حاجة تعود عليه، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، وإنَّما الحاجة حاجة العباد أنفسهم، والمصلحة مصلحتهم أنفسهم، وهي هنا صريحة محكمة: أنْ يقوم الناس بالقِسْط. والتعبير هنا يشير إلى معنى دقيق رائع، وهو: أنَّ الناس هم الذين عليهم أن يقوموا بالقسط والعدل بأنفسهم. وما على الرسل ـ بما أنزل الله معهم من كتاب وميزان ـ إلَّا أن يُبيِّنوا معالم الحق والعدل، ويزيلوا الغموض والشبهات. وهذا التعليل في الآية، يعطي الناس ـ وأُولي الأمر منهم خاصة ـ حق التصرف بما يزيل الأوضاع الظالمة المجحفة، ويعالج المسالك المنحرفة المعوجة،

QaradawiBooks.com

ويقضي على آثار التسلط والبغي من فريق على فريق، أو من فرد على غيره، ويقيم مكان ذلك كله أوضاعًا يسود فيها العدل والإنصاف، والتوازن المقسط بين الطبقات والأفراد، على أن يكونوا في ذلك كلِّه مهتدين بهدي الكتاب والميزان اللذين أنزلهما الله سبحانه.

فإذا لم يستجب الناس لإقامة العدل بالإقناع والحُسْنَى، فهناك سلطان القوَّة، الذي أشارت إليه الآية الكريمة فقالت: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

ولكن، ما الكتاب؟ وما الميزان اللذان أنزلهما الله تعالى؟

الكتاب الذي أنزله الله تعالى:

الكتاب هو كلمات الله التي أنزلها على رسله، ليضيئوا بها الحياة، ويهدوا بها الناس للتي هي أقوم، وليرجع البشر إليها فيما يختلفون فيه ـ باعتبارها النصوص الإلهية المعصومة ـ فتحسم النزاع وترفع الخلاف، وتجمع الناس على أمر راشد، وطريق مستقيم. قال تعالى في شأن الرسل عامة: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى مخاطبًا خاتم رسله محمد ﷺ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]، وقال مخاطبًا له أيضًا: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وقد ختمت كتب الله تعالى، وتمَّت كلماته بالكتاب الخالد المعجز «القرآن»؛ الذي تكفَّل الله بحفظه ليكون دستور الحياة إلى أن تقوم

QaradawiBooks.com

الساعة: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ضرورة الكتاب الإلهي لمعرفة العدل:

إنَّنا لكي نعرف مدى حاجتنا إلى الكتاب الإلهي، نطرح هذا السؤال: ما معنى العدل؟

فقد يزعم الماركسيون أنَّ ما يدعون إليه هو العدل بعينه، وأنَّ المِلْكية الفردية هي مصدر كل ظلم وجَوْر في الماضي والحاضر والمستقبل؛ ولهذا كان إلغاؤها وتأميم وسائل الإنتاج... إلخ؛ هو صميم العدل.

وقد يردُّ عليهم الرأسماليون بأنَّ تحريم المِلْكية على الإنسان بالقهر والجبروت، وتحكم الدولة، أو مجموعة من الناس ـ في رزق الإنسان وإنتاجه واستهلاكه وعمله وتنقله... إلخ ـ هو أكبر ظلم وقع في الماضي والحاضر أو يقع في المستقبل، وإنَّ العدل كل العدل في ترك الناس يعملون دون تدخل من أي سلطة إلا في حدود ضيقة يحددها القانون.

ما العدل إذن ما دام أنصار كل نظام معيَّن يضفون على نظامهم صفة العدل، ويبرئونه من كل ظلم وعدوان؟

ربَّما كان أقرب التعريفات التي توضح مفهوم العدل ما قاله بعض الحكماء: إنَّه إعطاء كل ذي حق حقه، بلا إفراط ولا تفريط.

ولكن هذا التعريف الجميل، لا يحلُّ العقدة، حيث ينشأ هنا سؤال مهم يتطلب الإجابة أيضًا، وهو: مَن الذي مِنْ سلطته واختصاصه أن يوزع الحقوق على مَن يستحقها، وما يستحقها، فيجعل لهذا الشخص أو هذه الجماعة حقًّا، ولا يجعل لذاك أو أولئك، ويجعل لهذا الأمر حقًّا،

QaradawiBooks.com

ولا يجعل لمقابله حقًّا؟ ومَـن الذي يحدِّد مقدار الحـق ومداه كمًّا أو كيفًا؟ أليست هذه معضلة أيضًا؟

إنَّ الاشتراكي الماركسـي سـيقول: من حق الدولة أن تسيطر على الإنتاج والاسـتهلاك، وليس من حـق الأفراد أن يتملكـوا الأراضي أو المصانع والآلات ونحوها، وليس مـن حق الآباء أن يورثوا ثروتهم من بعدهم لأبنائهم... ومن حق المادية الجدلية أن تكون هي المنهج السائد في كل تفكير، وأن يكون التفسـير المادي للتاريخ هو العمدة في تعليل كل حادث، اليوم وغدًا. وليس من حـق الدين أن يعيش في هذا العصر بعد أن ثبت عندنا أنَّه أفيون الشعوب ومخدِّر الملايين.

والرأسمالي سيقول: من حقِّي أن أُثمِّر مالي بالطريق الذي يجلب إليَّ ربحًا أكثر، كالربا أو الاحتكار أو ما شئت، ما دمت لا أجبر على ذلك أحدًا، ولا أسـتعمل الحديد والنار لكي يسـتقرض الناس مالي ويعطوني الفوائد عليـه. ومن حقِّي أن أتبرع للفقراء والمسـاكين إن طابت نفسي، وأن أقبض يدي إن شئت. ومن حقِّي أن أوصي بمالي كله لابني الأكبر، أو لعشيقتي أو لمن أريد من الناس. ومن حقِّي أن أشـرب الخمر وألعب الميسـر، وأن ألهوَ وأتنعَّمَ ما شاء لي الهوى؛ فالمال مالي، وما كان من ضرر فسيقع على رأسي لا على رؤوسكم، وسأتحمَّله وحدي.

مَن الذي يفصل بين هؤلاء فيما يدَّعون من الحقوق لأنفسهم؟

لا أحد إلا ربّ الناس، ملك الناس، إله الناس.

وربّ الناس إنَّما يتصل بالناس ويبلِّغهم ما يريده منهم عن طريق كتبه على ألسنة رسله.

QaradawiBooks.com

ولهـــذا كان الكتاب الإلهي ضـــرورة لا بد منهـــا؛ ليضع للناس المبادئ العامة والأحكام الهامة التي بـــدون الاهتداء بها يتيهون في بيداء مهلكة، ويخبطون خبط عشواء في ليلة ظلماء. فلا ينتهون إلى مبدأ، ولا يهتدون إلى غاية، ولا يتفقون على طريق؛ مثل هذه المبادئ الأساسية:

هل يُباح للناس التملك أو لا؟

وهل يُباح في حـــدود وشـــروط أو إباحة مطلقة؟ وما هي وســـائل التملك المشروع؟

وهل للمجتمع حق التدخل إذا انحرف المالك أو لا؟

وهل للضعيف حق عند القوي؟ وكيف يؤخذ منه؟

وهل يشرع التفاضل في الأرزاق إلى أي حد؟... إلخ.

وهل يشرع التوارث أو لا؟ وعمّن يكون؟ وكم يكون؟... إلخ.

سؤال وجواب:

ولماذا لم يُترك للناس أنفسهم أن يختاروا المبادئ ويقرِّروا الأحكام التي يرونها أليق بهم وأصلح لشأنهم؟

والجواب: أنَّ هذا متعذر على البشر.

فمَن الناس الذين سيختارون ويقرِّرون؟

لا شك أنَّ اجتماع الناس جميعًا غير ممكن وغير مفيد؛ فلا بدَّ من اجتماع قِلَّة تمثـــل الآخرين وتعبِّر عنهم، ولكن مَـــن الذي يختار هذه القلة؟

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

قد يقال: يختارهم حاكم عادل، ولكن مَن الذي يضمن عدله، وحياده، أولًا، ويضمن سلامة تقديره واختياره ثانيًا، ويضمن الرضا عن اختياره ثالثًا؟!

وقد يقال: الشعب هو الذي يختارهم، ولكن من أي الأصناف يختارهم؟ من العامة ـ العمال والفلاحين مثلًا ـ وهم الأغلبية؟

فالعامة، لا يستطيعون أن يهتدوا إلى الصواب في هذه الأمور الخطيرة.

أم من الخاصة؟ فكيف يُضمن تمثيلهم لمصالح العامة وهم بشر تحكمهم ـ ولا شك ـ نفوسهم ومصالحهم عن شعور أو غير شعور؟! على أنَّ الشعب كثيرًا ما يُخدع فيختار الطالح يظنُّه صالحًا!

وفوق هذا كله، فالبشر بصفتهم بشرًا ـ محكومون بأمرين لا خلاص منهما:

الأول: قصور المعرفة الإنسانية التي تتغير وتتبدل بتغير الظروف والأوضاع؛ نظرًا لمحدودية العقل البشري الذي تؤثر في حكمه عوامل شتَّى من الوراثة والبيئة والثقافة والملابسات.

والثاني: غلبة الأهواء والميول البشرية التي لا ينفك عنها إنسان مهما بلغ من حسن الأخلاق، وجمال الطباع؛ إذ لا بد أن يتأثر بالميول والنزعات الشخصية والأسرية والإقليمية والطائفية والوطنية والقومية.

وقد يتسامح في الأمر لو كان يتعلق بالجزئيات والتفصيلات، أما وهو يتعلق بالمبادئ الأساسية والأحكام الرئيسية، فالأمر أخطر وأعظم من أن يُتهاون فيه.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

هذا إلى أنَّ إعطاء مجموعة من البشر حق التشريع المطلق لسائر الأمة، بحيث تختط لها منهج حياتها، وتحدد لها أهداف وجودها، ومعالم شخصيتها، وأصول علاقاتها، وقيم سلوكها، وموازين تفكيرها ـ إعطاء مجموعة من البشر هذا الحق، معناه في نظر الإسلام: منحهم نوعًا من «سُلطة الألوهية» التي من حقِّها الانفراد بالحكم والتشريع، وجعلهم «أربابًا من دون الله»، أربابًا لمن يُشرِّعون لهم فينفذون، ويأمرونهم فيطيعون. وهذا ينافي هدف الإسلام في تحرير البشر من عبودية بعضهم لبعض، وخضوع بعضهم لبعض.

لهذا كان لا بدَّ من سُلْطة تمتاز بالعلم الشامل، والعدل الكامل، سلطة أعلى من سلطة البشر، سلطة معصومة لا تضل ولا تنسى، سلطة عادلة محايدة، تشرف على الجميع من عليائها، لا تتحيز لقوم دون قوم، ولا لطبقة دون طبقة، ولا لفريق دون فريق، سلطة تنظر للضعفاء نظرتها إلى الأقوياء، وللفقراء نظرتها إلى الأغنياء، وللنساء نظرتها إلى الرجال، وللمحكومين نظرتها إلى الحكام، وللسود نظرتها إلى البيض.

سلطة يتحاكم الجميع إليها فيرضون بها حَكَمًا؛ لأنَّ قولها هو الفصل، وحكمها هو العدل. وتلك هي سلطة الكتاب الإلهي، الذي أنزله إلٰه ليس بينه وبين الناس نسب، إلا أنَّه ربهم وخالقهم وبارئهم، الرحيم بهم، والعالم بما يصلحهم وما يفسدهم: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ولا بدَّ أن يكون هذا الكتاب مصونًا من التحريف والتبديل، حتى لا تعبث به أهواء البشر، وأوهام البشر... ولم يبق في الأرض كتاب

QaradawiBooks.com

سماوي سليم من ذلك غير القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

الميزان الذي أنزله الله:

ولكنَّ الله أنزل مع الكتاب شيئًا آخر هو: الميزان. وقد قرن بينهما في سورة أخرى هي سورة الشورى، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ...﴾ [الشورى: ١٧].

وفي سورة الرحمن يقول تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمٰن: ٧ ـ ٩].

فما هذا الميزان الذي قرنه الله بالكتاب حينًا، وقرنه برفع السَّماء حينًا، وأمرنا ألَّا نطغى فيه ولا نُخسره، وأن نقيم الوزن بالقسط؟ هل هو الميزان الحديدي الذي توزن به البضائع؟

ذهب إلى ذلك بعض المفسِّرين، ولكنَّ هذا يُقرَن بالكيل لا بالكتاب، ثم لا يبلغ شأنه مبلغ الميزان المذكور في مطلع سورة الرحمن، المقرون برفع السَّماء مسكن الملائكة، ومصدر الوحي الإلهي.

لا بدّ أن يكون إذن ميزانًا معنويًّا توزن به الأفكار لا الأشياء، والحقائق لا الحقائب، والمعاني لا الصُّور، ميزانًا تُقَوَّم به العقائد والأخلاق والأعمال والأشخاص، والأنظمة والمذاهب.

وأقرب عبارة لتحديد معنى هذا الميزان ـ والله أعلم بمراده ـ أنَّه القيم الأخلاقية الأصيلة التي توارثتها الأجيال عن النبوَّات الهادية، وأنَّه المقاييس الإنسانية السليمة التي تهتدي بالكتاب الإلٰهي لمعرفة الحق قياسًا للأمر بنظيره، وردًّا للفرع إلى أصله.

QaradawiBooks.com

وقد جاء عن قتادة ومجاهد وغيرهما من مفسري السَّلف أنَّ الميزان في الآية: هو العدل. واختاره ابن جرير شيخ المفسرين، وأيَّده ابن كثير قائلًا[١]: وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة، المخالفة للآراء السقيمة. كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾؟ [هود: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]. وقال بعض الحكماء: «العدل ميزان الله في الأرض، وضعه للخلق، ونصبه للحق».

وبهذا نعلم أنَّ الأديان السماوية كلَّها جاءت لتضع للناس ميزانًا خُلُقيًّا ثابتًا، غرس الله تعالى أصوله في فطرهم وعقولهم، ميزانًا يتحاكمون إليه، إذا أعوزهم النصُّ من الكتاب الإلٰهي.

وبهذه الآية استدلَّ الفقهاء الذين يستعملون الرأي والقياس في معرفة الأحكام الشرعية، وبيَّنوا أنَّ النصَّ الصريح لا يخالف القياس الصحيح، وأنَّ الشرع لا يُفرِّق بين متماثلين كما لا يُسوِّي بين مختلفين. قال المحقِّق ابن القيم: «قد ثبت أنَّ الله أنزل الكتاب والميزان، فكلاهما في الإنزال أخوان، وفي معرفة الأحكام شقيقان، وكما لا يتناقض الكتاب في نفسه، فالميزان الصحيح لا يتناقض في نفسه، ولا يتناقض الكتاب والميزان، فلا تتناقض دلالة النصوص الصحيحة ولا دلالة الأقيسة الصحيحة، بل كلُّها تتصادق متعاضدة متناصرة، يُصدِّق بعضها بعضًا، ويشهد بعضها لبعض، فلا يناقض القياسُ الصحيح النصَّ الصحيح أبدًا»[٢].

(١) تفسير ابن كثير (٢٧/٨).

(٢) إعلام الموقعين (٢٤٩/١)، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

QaradawiBooks.com

ليس العدل هو المساواة دائمًا:

العدل إذن هو التوازن بين قُوَى الفرد وطاقاته الروحية والمادية، وهو التوازن بين الفرد والمجتمع، ثم بين المجتمع وغيره من المجتمعات، ولا سبيل إلى هذا التوازن إلا بتحكيم شريعة الله سبحانه، وما أنزل من كتاب وحكمة. فليس معنى العدل المساواة المطلقة، فإنَّ المساواة بين المختلفين كالتفريق بين المتماثلين، كلاهما ليس من العدل في شيء، فضلًا عن أنَّ المساواة المطلقة أمرٌ مستحيل؛ لأنَّه ضد طبيعة الإنسان وطبيعة الأشياء.

العدل أن تُسوِّي بين المتماثلين بقدر تماثلهما وتشابه ظروفهما، وأن تفرِّق بين المتخالفين بقدر تخالفهما وتباين ظروفهما.

يقول الأستاذ عباس العقاد رَحِمَهُ اللَّهُ: «المساواة المُثْلَى هي العدل الذي لا ظلم فيه على أحد؛ ولهذا لم يستطع فقهاء التعريفات أن يجعلوها مساواة في الواجبات؛ لأنَّ المساواة في الواجبات، مع اختلاف القدرة عليها ظلمٌ قبيح.

ولم يستطيعوا أن يجعلوها مساواة في الحقوق؛ لأنَّ المساواة في الحقوق مع اختلاف الواجبات، ظلم أقبح من ذلك؛ لأنَّه إجحافٌ يأباه العقل، وإضرار يحيق بالمصلحة العامة، كما يحيق بمصلحة كل فرد من ذوي الحقوق والواجبات.

وقوام الأمر إذن أن تكون المساواة العادلة مساواة في الفرص والوسائل، فلا يُحرم إنسان فرصته لإحراز القدرة التي تمكِّنه من النهوض بواجبٍ من الواجبات، ولا يُحرم وسيلته التي يتوسل بها إلى بلوغ تلك الفرصة، ما استطاع من وسائل السعي المشروع»[1].

(١) الشيوعية والإنسانية صـ ٢٩٣، ٢٩٤، نشر دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٢م.

QaradawiBooks.com

من العدل تفاضل الأرزاق وتكافؤ الفرص

من العدل تفاوت الناس تبعًا لمواهبهم واجتهادهم:

وإذا كان من الظلم أن نُفرِّق بين المتماثلين لغير سبب وبغير مبرر، فليس من العدل أن نُسوي بين المتخالفين لمجرد شهوة المساواة: فإذا أتحنا الفرصة لاثنين أن يتعلما ما شاءا أو ما استطاعا، فواصل أحدهما بذكائه وجِدِّه وعزمه وصبره حتى حصل على الدكتوراه مثلًا، وتخلف الثاني لكسله أو للهوه أو قلة ذكائه، فمن الظلم البيِّن أن يُسوَّى بين هذا وذاك.

وإذا أتحنا لاثنين أن يعملا في مجال واحد، فثابر أحدهما وأحسن وأثبت نشاطه وكفايته، على حين كان الآخر مهملًا أو كسلان أو ضعيف الإنتاج، فمن الظلم أن نسوِّي من كل الوجوه بين هذا وذاك.

وبعض هذه العوامل هبة لا دخل للإنسان فيها ـ كالذكاء والقدرة البدنية أحيانًا ـ وبعضها كسبيٌّ كالجِدِّ والنشاط والمثابرة ـ ومع هذا فلكلا الجانبين أثره في التفريق، فإذا كانت حكمة الله اقتضت المخالفة بين الناس بالفطرة، فنحن على هدى الفطرة نسير، ونخالف بينهم، ما لم يُكَمِّلُوا هم مواهبهم بنشاط زائد واجتهاد بالغ.

وقد قرَّر القرآن هذه الحقيقة فقال: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ

QaradawiBooks.com

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾ [النساء: ٩٥]، وقال: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة: ١١]، ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأنعام: ١٣٢].

والأمر الذي لا بد من تأكيده أن يكون أساس التفاوت هو الكفاية وإحسان العمل: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمٰن: ٦٠].

أما أن يكون أساس هذا التفاوت امتيازًا يختص به قوم أو فرد أو أفراد أو أسرة أو أسر؛ لينهبوا موارد الدولة، ويسرقوا أموال الأمة، أو يستغلوا حاجات الناس، أو يكون أساسه كسبًا خبيثًا عن طريق الخمر والميسر أو الخنا والفجور، أو الرشوة والاحتيال، أو الإثم والعدوان، أو المعاونة على الإثم والعدوان، أو أي صورة من صور أكل أموال الناس بالباطل والإثراء الحرام، فهذا تفاوت ظالم لا يرضاه الله ورسوله ولا المؤمنون، التفاوت العادل المشروع هو ما كان أساسه العلم والعمل والإحسان.

التفاضل في الأرزاق ومعناه:

وهذا التفاوت العادل ولا شك يؤدي إلى التفاضل في الأرزاق، وهي الحقيقة التي عبَّر عنها القرآن في أكثر من آية في مثل قوله: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِ﴾ [النحل: ٧١].

ولعلَّ أقرب آية ترد على الذهن هنا هي قوله: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗا﴾ [الزخرف: ٣٢].

والملاحظ هنا أنَّ التفضيل ليس معناه حرمانًا صرفًا لبعض الناس من كل شيء، وإعطاء الآخرين كل شيء، وإنَّما التفضيل ـ كما هو

QaradawiBooks.com

معروف ـ اشتراك اثنين في أمر، ثم زيادة أحدهما على الآخر فيه، ولا بأس بذلك ما دام أساس هذا التفضيل ما ذكرناه من العلم والعمل والإحسان، فليس تفضيلًا عشوائيًّا كما يظنُّ الجاهلون، بل هو مبنيٌّ على سنن الله في كونه وشرعه.

وكلمة «سُخْرِيًّا» المذكورة في الآية لا تعطي معنى تسخير القهر والإذلال كما يحلو لبعض الناس أن يفهمها، وإنَّما هو تسخير النظام والإرادة، فإذا شبَّهنا الحياة بمصنع كبير، فإنَّ هذا المصنع ـ لكي يسير دولاب العمل فيه ـ يحتاج إلى مدير عام، ثم إلى مساعدين له، ثم إلى رؤساء أقسام ومفتشين، ثم إلى عمال فنيين على درجات مختلفة، ثم إلى حرّاس وسعاة وفرَّاشين... إلخ، وكل هؤلاء يُسخِّر بعضهم بعضًا، بلا حَرَج يشعر به الصغير، ولا غطرسة يشعر بها الكبير، إذا استقامت الأمور.

من العدل تكافؤ الفرص:

من أجل ذلك يجب أن يتساوى أبناء المجتمع جميعًا في حق الحياة وحق التملك، وحق التعليم، وحق العمل، وحق العلاج، وحق الكفاية من العيش، والأمان من نكبات الدهر.

نعم... يجب أن تتاح لهم فرص متكافئة متساوية في ذلك كله؛ لأنَّ هذه حقوق إنسانية استحقوها بالصفة الإنسانية المحضة، لا بصفتهم من أبناء طبقة خاصة أو أسرة معينة، ولا بوصفهم أفرادًا لهم مواهب خاصة. وما دام الجميع متساوين في معنى الإنسانية، فالتفريق بين فرد وآخر أو مجموعة ومجموعة، ظلمٌ لا مبرِّر له؛ لأنَّه تفريق بين متماثلين من جميع الوجوه.

ليس من العدل إذن أن يضع بعض الكادحين يده على بطنه يشكو عضة الجوع، وأن يضعها آخر ـ لا عمل له ـ على بطنه يشكو زحمة التخمة!

QaradawiBooks.com

وليس من العدل إذن أن يُتاح لبعض الناس أن يتعلم ابنه إلى أعلى مراحل التعليم، وربما كانت قدرته الذهنيــة محدودة، على حين نرى آخر لا يســتطيع أن يعلِّم التعليم الابتدائي لابنه؛ لأنَّــه في حاجة إليه ليعمل في الحقل ويجلب القوت الضروري، وربمــا كان الولد يتمتع بنسبة عالية من الذكاء.

ليس من العدل أن يُتاح لبعضهم أن يعالج نفسه أو زوجه أو ابنه ـ بل أقول: أو كلبه ـ إذا مرض عند أمهر الأطبــاء، إن لم يكن في بلده فليطِر إلى بلدان العالَم، على حين يكون علاج آخر في مســكن صحي تدخله الشمس والهواء النقي، أو في حُسن التغذية بوجبة من اللحم، وطبق من الفاكهة، ولكنَّه لا يجده... وهو الذي يتغنــى بالمثل القائل: «اللحم من العيد للعيد، والفاكهة في المرض الشديد»!

ومن الأمثلة العملية ما رواه المؤرخون عن الخليفة الراشــد عمر بن عبد العزيز أنَّ ابنًا له طلب إليه أن يزوِّجه وأن يصدق عنه «يدفع صداقه» من بيــت المــال ـ وكان لابنــه ذلك امــرأة ـ فغضب لذلــك عمر بن عبد العزيز، وكتب إليه: لعمر الله، لقد أتاني كتابك، تسألني أن أجمع لك بين الضرائر من بيت مال المســلمين، وأبناء المهاجرين لا يجد أحدهم امرأةً يستعفُّ بها، فلا أعرفنك ما كتبت بمثل هذا[1].

وبعثت إليه ابنتــه بلؤلؤة، وقالت له: إن رأيــت أن تبعث إليَّ بأخت لها، حتــى أجعلها في أذني... فأرســل إليها بجمرتين، ثــم قال لها: إن استطعتِ أن تجعلي هاتين الجمرتين في أُذنيكِ، بعثتُ إليكِ بأخت لها[2].

(١) ســيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ ١١٠، نشــر عالم الكتــب، بيروت، ط ٦، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

(٢) المصدر نفسه صـ ١٣٨.

QaradawiBooks.com

ليس كل أبناء المسلمين يستطيعون الزواج بامرأتين، وليس كل بنات المسلمين يستطعن التحلي باللآلئ في آذانهنّ، فلماذا يُتاح لأبناء عمر الخليفة وبناته ما لا يُتاح لأبناء المسلمين وبناتهم؟!

إنَّ الخليفة الراشد ليمنع ذلك ويحاربه أشد الحرب، وبخاصة في أسرته وآل بيته وأتباعه، ولا سيما إذا كان هذا الترفّه والتزيّد من المال العام الذي هو ملك المسلمين جميعًا.

سأله عنبسة بن سعيد ـ وكان من أقربائه وأصدقائه ـ حاجة، فقال له عمر: يا عنبسة، إن كان مالك الذي أصبح عندك حلالًا فهو كافيك، وإن كان حرامًا فلا تزيدنَّ إليه حرامًا، ألا تخبرني: أمحتاج أنت؟ قال: لا، قال: أفعليك دَيْن؟ قال: لا، قال: أفتأمرني أن أعمد إلى مال الله فأعطيكه من غير حاجة بك إليه، وأدع فقراء المسلمين؟! لو كنتَ غارمًا «مدينًا» أدَّيتُ غرمك، أو محتاجًا أمرتُ لك بما يصلحك[1].

* * *

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ ١٣٥.

QaradawiBooks.com

من العدل توفية العاملين حقوقهم

من العدل توفية العامل حقه:

ومن القيم المطلوبة هنا: توفية العامل أو الأجير حقَّه. فلا يجوز في عدل الإسلام: أن يبذل الأجير جهده وعرقه، ويحرم جزاءه وأجره، أو يُنقص منه، أو يُؤخَّر عنه.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

وقال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧].

فأشار إلى أنَّ عدم توفية العاملين أجورهم ظلم لا يحبه الله تعالى.

وواجب المسلم أن يتخذ عدل الله نبراسًا له.

ثلاثة خصمهم الله:

وفي الحديث القدسي الذي رواه البخاري في «صحيحه»: «**ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرًّا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا، فاستوفى منه، ولم يعطه أجره**»[1]، أي استوفى منه العمل، ولم يوفِّه الأجر، فهو من خصماء الله يوم القيامة.

(١) رواه البخاري في البيوع (٢٢٢٧)، عن أبي هريرة.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وفي رواية: «**ثلاثة أنا خصمهم... ومن كنت خصمه خصمته**»[١]، أي: غلبته وقهرته وهو وعيد شديد.

غير مرخصة للطباعة

أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه:

وقال ﷺ: «**أعطوا الأجير أجره قبل أن يجفَّ عرقه**»[٢].

وهو كناية عن وجوب المبادرة بالأجرة عقب فراغ العمل إذا طُلِبَ، وإن لم يعرق بالفعل، أو عرق وجف.

قال العلماء في تعليل ذلك: لأنَّ أجره عمالة جسده، وقد عجل منفعته، فإذا عجلها استحقَّ التعجيل للأجر، ومن شأن الباعة أنَّهم إذا سلّموا قبضوا الثمن عند التسليم، فهو أحق وأولى، إذ كان ثمن مهجته، لا ثمن سلعته، فيحرم مطله والتسويف به مع القدرة[٣].

وإنَّما يستحق العامل أجره إذا أدَّاه على الوجه المطلوب والمتفق عليه بينه وبين مَن استأجره، فالمسلمون عند شروطهم، إلا شرطًا حرَّم حلالًا، أو أحلَّ حرامًا.

فأما إذا تخلَّف عن العمل بلا عذر، أو أدَّاه على غير وجهه عامدًا، فينبغي أن يُحسب ذلك عليه، إذ كلُّ حقٍّ يقابله واجب، وما دام له حق الأجرة مستوفاة، فعليه واجب العمل مستوفى كذلك.

والأولى أن تفصِّل ذلك «قوانين العمل»، وتحدد الحقوق والواجبات لكل واحد من طرفي العقد.

---

(١) رواه أحمد (٨٦٩٢)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن.

(٢) رواه ابن ماجه في الرهن (٢٤٤٣)، والقضاعي في مسند الشهاب (٧٤٤)، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٩٨٠)، عن ابن عمر.

(٣) فيض القدير (٥٦٢/١).

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

أما تحديد الأجر كم هو؟ فمرجعه إلى الاتفاق بين الطرفين، ولكن لا ينبغي للطرف القوي في العقد أن يستغل حاجة الطرف الضعيف، ويعطيه دون أجر مثله.

وكما نُهي عن بيع المضطر، بمعنى: أنَّه لا يجوز استغلال ضرورة البائع ليشتري منه سلعته بأقل من قيمتها، فيغبنه غبنًا فاحشًا، كذلك لا يجوز استغلال ضرورة الأجير ليشتري منه كدَّ يمينه، وعرق جبينه، بأجر بخس، لا يُسمن من شبع ولا يُغني من جوع.

كما لا يجوز للعمال أن يطلبوا من الأجر فوق ما يستحقون، وما يحتمله المستأجرون، عن طريق الضغط بواسطة الاحتكار، أو النقابات، أو الإضراب، وغير ذلك.

والواجب الذي يفرضه الإسلام أن يُعْطَى كل ذي حق حقه بالمعروف، بلا وكس ولا شطط.

وعلى الدولة المسلمة ـ بحكم شمول رعايتها ـ أن تتدخل لحماية الطرف الضعيف، وإقامة الموازين بالقسط.

ومن مكارم الأخلاق: أن يزيد الأجيرَ شيئًا فوق أجره، هدية أو فضلًا منه، وخصوصًا إذا أحسن في عمله، اقتداءً بالباري ﷻ، الذي يقول: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ ﴾ [النساء: ١٧٣].

وهو ما يقتضيه الحديث: «**رحم الله عبدًا سمحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى**»[1]، فالإجارة ما هي إلا بيع المنفعة والخدمة.

(١) رواه البخاري في البيوع (٢٠٧٦) بلفظ: «رحم الله رجلًا سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى»، عن جابر بن عبد الله.

QaradawiBooks.com

واجب الدولة مع عمالها:

وإذا كانت الدولة هي المستأجرة؛ فالواجب عليها أن تكون قدوة للآخرين، في توفية العاملين لديها أجورهم بالمعروف: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، ولا سيما إذا اتسعت مواردها، وكثرت خيراتها.

روى أبو يوسف: أنَّ أبا عبيدة قال لعمر: دنَّستَ أصحاب رسول الله ﷺ بالعمل! فقال له عمر: إذا لم أستعن بأهل الدِّين على سلامة ديني، فبمن أستعين؟ قال أبو عبيدة: أمَّا إن فعلت فأغنهم بالعُمالة عن الخيانة، يعني: إذا استعملتهم على شيء فأجزل لهم العطاء والرزق لا يحتاجون[١].

وهنا يراعَى في تقدير الأجر أمران:

الأول: قيمة العمل نفسه، إذ لا يمكن التسوية بين العالِم والجاهل، والذكي والبليد، والمتقن والمهمل، والمتخصص وغير المتخصص؛ لأنَّ التسوية بين المختلفين ظلم، كما أنَّ التفريق بين المتماثلين ظلم أيضًا؛ قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٣٢].

والثاني: حاجة العامل، فهناك حاجات إنسانية أساسية لا بد أن تتوافر له، من المطعم والمشرب والملبس والمسكن والمركب «المواصلات» والعلاج، والتعليم لأولاده «وسائر ما لا بد له منه، على ما يليق بحاله، من غير إسراف ولا إقتار، لنفس الشخص ولمن هو في نفقته»، على حدِّ تعبير الإمام النووي[٢].

---

(١) الخراج لأبي يوسف صـ ١٢٦، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، سعد حسن محمد، نشر المكتبة الأزهرية للتراث.

(٢) المجموع للنووي (١٩١/٦). وانظر: روضة الطالبين (٣١١/٢)، تحقيق زهير الشاويش، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٣، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

QaradawiBooks.com

ومعنى هذا: أنَّ الكفاية ليســت جامدة، ولا هي صورة واحدة لكل الناس، بل هي لكل إنسان على ما يليق بحاله. وقد قال أبو بكر: افرضوا لي عيش واحد من أوسط قريش، ليس بأعلاهم ولا أدناهم.

بل اعتبرتِ السُّــنَّةُ النبويةُ «الزوجةَ» من حاجاته لمن لا زوجة له؛ إذ لا رهبانية في الإسلام، وكذلك الخادم لمن لا يستطيع خدمة نفسه.

يقول الرسول ﷺ: «**من كان لنا عاملًا، فليكتسب زوجة، فإن لم يكن له خادم فليكتسب خادمًا، فإن لم يكن له مسكن فليكتسب مسكنًا**»[١].

وكلمة «عامــل» كانت تُطلق على الوالي، ولا زالت مســتعملة في بعض الأقطار العربية، ولكن الأشياء المذكورة كلها من حاجات الناس عامة، فيما عــدا الخادم، فيدخل في عموم هــذا الحديث كل العاملين لدى الدولة.

وقد ورد أنَّ النبي ﷺ فاوت بين المسلمين في العطاء لتفاوت حاجاتهم ومســؤولياتهم؛ فعن عوف بن مالك: أنَّ رســول الله ﷺ كان إذا أتاه الفيء قســمه في يومه، فأعطى الآهل (مَن له أهل، أي: زوجة) حظَّين، والعزب حظًّا. قال: فدُعينا ـ وكنت أُدعى قبل عمار ـ فدعيتُ، فأعطاني حظِّي، وكان لي أهلي، ثم دعي بعدي عمار بن ياسر، فأعطى له حظًّا واحدًا[٢].

فرغم فضل عمار وسابقته وبلائه في ســبيل الله، أعطى عوفًا ضعف ما أعطاه، من أجل أهله وأسرته.

---

(١) رواه أبو داود في الخراج والإمارة (٢٩٤٥)، وابن خزيمة (٢٣٧٠)، والحاكم (٤٠٦/١)، وصححه على شرط البخاري، كلاهما في الزكاة، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣٧٥١) عن المستورد بن شداد.

(٢) رواه أحمد (٢٣٩٨٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء (٢٩٥٣)، وابن حبان في السير (٤٨١٦)، عن عوف بن مالك.

QaradawiBooks.com

على حين فاوت بين الفارس والراجل في قسمة الغنائم، فأعطى الفارس سهمين، والراجل سهمًا[١]؛ لأنَّ عطاء الفارس يفوق عطاء الراجل من غير شك.

وفي بعض الأحاديث: أنَّه أعطى سهمًا للفارس، وسهمين لفرسه[٢]؛ وذلك لما علم أنَّ مؤونة الفرس مضاعفة على مؤونة صاحبه، فضوعف له العوض من أجله.

العاملون في القطاع الخاص:

ومن الخطأ في رأيي: قياس العاملين في القطاع الخاص على العاملين لدى الدولة، بحيث يوفَّر لهم تمام كفايتهم وفق ظروفهم وحاجتهم من أجورهم.

فهذا في الحقيقة جَوْر على المستأجِرين؛ لأنَّ العامل الأجير قد يكون ضعيف الإنتاج، محدود الموهبة والخبرة، والعطاء، ومع هذا يكون كثير العيال، لعل له أبوين كبيرين، وإخوة صغارًا، إلى جوار ذرية ضعفاء، من زوجة أو أكثر، فما ذنب من وظَّفه حتى يحتمل هذه الأعباء؟

إنَّ الذي على مستأجره: أن يعطيه أجر مثله بالمعروف، وأن يُزاد أجره كلَّما كبرت سنه ونمت خبرته، وكذلك كلَّما غلت الأسعار، وكلما كثرت الأرباح، فهذا من المعروف. أما سد حاجاته وحاجات أسرته، فهذا له وسائله الأخرى: من نفقات الأقارب الموسرين، ومن مال الزكاة، ومن

(١) رواه أحمد (١٥٤٧٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الجهاد (٢٧٣٦)، والحاكم في قسم الفيء (١٣١/٢)، وصححه ووافقه الذهبي، عن مجمع بن جارية الأنصاري.

(٢) كما في الحديث المتفق عليه: عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ جعل للفرس سهمين ولصاحبه سهمًا. رواه البخاري (٢٨٦٣)، ومسلم (١٧٦٢)، كلاهما في الجهاد والسير.

QaradawiBooks.com

موارد الدولة الأخرى من الفيء والغنائم والخراج وغيرها، ممَّا فصَّلناه في كتابنا: «مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام؟».

الكفاية للجميع والتمييز للمبدعين والمتفوقين:

أما الدولة فواجبها أن تُوفِّر الكفاية التامة لكل مَن يعيش في كنفها ـ مسلمًا أو غير مسلم ـ من أجر عمله أولًا ـ مراعية حاجاته الإنسانية ـ ما دام في حصيلتها متسع.

وقد قال الماوردي في «أحكامه السلطانية»: تقدير العطاء معتبر بالكفاية[1].

والعطاء لمن رُتِّب له بمثابة الرواتب في زمننا.

وبعد تحقيق الكفاية للجميع من العاملين لدى الدولة، يفسح المجال لتمييز المجتهدين، والمتقنين والمبدعين عن الخاملين والعاديين، فهذه سُنَّة من سنن الله في الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

وقد سار على ذلك الخلفاء الراشدون.

فعمر يقول في توزيع الفيء وتقسيم العطاء: فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته[2].

(١) الأحكام السلطانية صـ ٣٤٤، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

(٢) رواه أحمد (٢٩٢)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف، وأبو داود في الخراج (٢٩٥٠)، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في تخريجه على المسند.

QaradawiBooks.com

وعليٌّ يقول لعامله على مصر: لا يكن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإنَّ في ذلك تزهيدًا لأهل الإحسان، وتدريبًا لأهل الإساءة على الإساءة[١].

غير مرخصة للطباعة

العامل إذا كان شريكًا:

وهناك نوع من العمال لا يأخذ أجرًا محدَّدًا على عمله؛ لأنَّه شريك مع ربِّ المال في المغنم والمغرم، وذلك هو العامل في «المزارعة والمساقاة» الذي يشارك صاحب الأرض، أو صاحب الحديقة، فهذا يقدِّم أرضه أو حديقته، وذاك يقدم جهده وخبرته وعمله، والثمرة بينهما على ما يتفقان عليه، ولا يجوز أن يُفرض لأحدهما ناتج قطعة أرض معينة، أو مقدار معين من الحبوب أو الثمار، فقد تهلك الثمرة كلها إلا هذه القطعة أو العكس، فيضمن لأحدهما الغُنم، ويكون على الآخر الغُرم، وهو ما نهى عنه النبي ﷺ[٢].

ومثله العامل في «المضاربة» الذي يشارك رب المال، فيقدم له جهده وخبرته، ويقدم الآخر ماله، والربح بينهما على ما يتفقان عليه، وإذا خسر

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب (٢٢/٦)، نشر دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ.

(٢) يقول ابن تيمية: والذي نهى عنه النبي ﷺ من المخابرة وكراء الأرض، قد جاء مفسرًا بأنهم كانوا يشترطون لرب الأرض زرع بقعة معينة، ومثل هذا الشرط باطل بالنص وإجماع العلماء، وهو كما لو شرط في المضاربة لرب المال دراهم معينة، فإن هذا لا يجوز بالاتفاق؛ لأن المعاملة مبناها على العدل، وهذه المعاملات من جنس المشاركات، والمشاركة إنما تكون إذا كان لكل من الشريكين جزء شائع كالثلث والنصف، فإذا جعل لأحدهما شيء مقدر، لم يكن ذلك عدلًا، بل كان ظلمًا. مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٨٣/٢٨، ٨٤)، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، نشر مجمع الملك فهد، المدينة المنورة، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

QaradawiBooks.com

المشـــروع كانت الخســـارة على رأس المال، ويكفي العامل أنَّه خســـر جهده، كما في المزارعة، فالمضاربة مزارعة في المعنى، كما قال الفقهاء، فالمزارعة مضاربة في الأرض، والمضاربة مزارعة في المال[1].

* * *

(١) انظر كتابنا: فوائد البنوك هي الربا الحرام صـ ٤٩ ـ ٥٤، نشـــر المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٣، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

من العدل إقامة تكافل اجتماعي شامل

ضمان اجتماعي للضعفاء والعاجزين في المجتمع:

على أنَّ من القادرين على العمل من تُفرض عليه البطالة الجبرية، فلا يجد العمل قط، أو لا يجد العمل الملائم لـه، أو يجده ولكن لا يأخذ الأجر الذي يكفيه، لكثـرة العيال، أو غلاء الأسـعار، وهؤلاء يُعتبرون ضعفاء أو عاجزين حكمًا، ثم هناك ضعفاء وعاجزون عن العمل حقيقة، فما الموقف من هؤلاء؟

إنَّه مهما يكن من تفاضل الناس في الرزق ـ تبعًا لمواهبهم وأعمالهم وحدها ـ فإنَّ مبدأ «العدل» الذي نادى به الإسلام، يفرض على مجتمعه ألَّا يترك الضعفاء تدوسـهم أقدام الأقوياء في سيرهم المتدافع الطموح، ويوجب عليه أن يأخذ بأيديهم ليقْووا، ويصلب عودهم، ويكفوا أنفسهم بأنفسهم.

فالأصـل في القادريـن أن يعملوا؛ حتـى يعفُّوا أنفسـهم، ويغنوها بالحلال، ويوفِّروا لأنفسهم المطالب المشروعة الملائمة، وعلى المجتمع أن يعاونهم على توفير العمل الملائم لهم، ويدربهم عليه[1].

(١) انظر في تفصيل ذلك كتابنا: مشـكلة الفقر وكيف عالجها الإسـلام صـ ٤٢ ـ ٥٨، الوسيلة الأولى من وسائل الإسلام في معالجة الفقر، وهي: العمل.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فإن عجزوا، فإنَّ لهم في أموال القادرين حقًّا معلومًا، يحقق لهم تمام كفايتهم، كما يعبِّر الفقهاء، بحيث يكفل لهم مستوًى كريمًا من المعيشة، يتوافر فيه الغذاء والكساء والمسكن والدواء؛ وهذا القرآن يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥]، ويقول: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وهذا ما يُعبَّر عنه في عصرنا باسم: «الضمان الاجتماعي» أو «التكافل الاجتماعي».

ومن الناس من يظن أنَّه من ثمار هذا العصر، ومن مبتكرات الغرب، والإسلام قد فرضه منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا[1].

وهنا تبرز الزكاة بوصفها موردًا أساسيًّا لتحقيق هذه الكفالة المعيشية، وهي ليست بالقدر الهين، إنَّها تُقدَّر بالعُشر (١٠٪)، أو نصف العُشر (٥٪) من الحاصلات الزراعية.

مستوى تمام الكفاية:

كما أنَّ هذا التكافل أو الضمان الاجتماعي الإسلامي لا يُقصد به مجرد إسعاف سريع يقضي به الفقير بعض حاجته المادية أو المعيشية، ثم يظل محتاجًا إلى كثير من الأشياء الأخرى، إنَّما المقصود به: كفالة مستوى للمعيشة لائق به، يحقق المطالب أو الحاجات المادية والنفسية لكل إنسان يعيش في المجتمع الإسلامي ـ مسلمًا أو غير مسلم ـ عن طريق إتاحة العمل للقادر عليه، أو تدريبه عليه إن كان يحتاج إلى تدريب، أو سدِّ حاجته إن كان من أهل العجز.

---

(١) انظر كتابنا: مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام صـ ١١٢ ـ ١١٤، تحت عنوان: الزكاة أول ضمان اجتماعي في العالَم.

QaradawiBooks.com

وهذا المستوى اللائق له صفة الديمومة، وهو لا يقتصر على أن يوفر للفرد في المجتمع المسلم «حد الضرورة» أو «مستوى الضرورة» الذي لا يعيش الإنسان إلَّا به، فإنَّ هذا المستوى لا يرضى به الإسلام إلا في حالة المخمصة والمجاعة التي تبيح للإنسان أكل المحرَّمات إذا تناولها غير باغٍ ولا عادٍ، كما قال تعالى بعد ذكر تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أُهِلَّ به لغير الله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

كما لا يقتصر هذا الضمان على توفير «مستوى الكفاف» أو «حد الكفاف» للفرد، وهو يعني «الحد الأدنى للمعيشة» التي يشق على الإنسان أن يعيش بدونها، ولكنَّه يُمَكِّنه أن يعيش، فهذا الحد أو المستوى في رتبة ما يسميه الأصوليون: «الحاجيات»، والحد الأول في رتبة ما يسمونه: «الضروريات».

إنَّما يعمل الضمان الاجتماعي في الإسلام على توفير مستوى «تمام الكفاية»، كما يعبِّر الفقهاء في مبحث «ما يُعطاه الفقير والمسكين من الزكاة».

وقد مرَّ بنا كلام الإمام النووي في تعريف الكفاية وتحديدها، وأنَّها تشمل: المأكل والمشرب والملبس والمسكن وغيرها من كل ما لا بد منه، على ما يليق بحاله، من غير إسراف ولا تقتير، لنفس الشخص ولمن يعوله.

وقد ذكر الفقهاء: أنَّ من تمام كفاية المرء كتب العلم إن كان من أهله، وأثاث البيت المناسب، والفرس الذي يركبه!

كما ذكروا أنَّ الزواج يدخل في تمام الكفاية.

بل رأينا من الفقهاء ـ كما هو مذهب الشافعي ـ من يرى وجوب إعطاء الفقير من الزكاة كفاية العمر الغالب لأمثاله، بحيث تغنيه الزكاة

QaradawiBooks.com

غِنًى دائمًا لا يحتاج معه إلى الزكاة مرة أخرى، بأن يُعْطَى أدوات الحرفة إن كان محترفًا، أو رأس مال التجارة إن كان تاجرًا، أو ضَيْعة أو حصة فيها إن كان زارعًا، أو يُعْطَى عقارًا يدر عليه دخله ما يكفيه إن كان عاجزًا، ويُمنع من بيعه[١].

وبهذا تنقله الزكاة من يد آخذة إلى يد معطية، وتحوله إلى قوى الإنتاج بعد أن كان في عِداد المستهلكين. وهذا هو الموافق لسياسة عمر في الإغناء بالزكاة: «إذا أعطيتم فأغنوا»[٢]... «كرِّروا عليهم الصدقة، وإن راح على أحدهم مائة من الإبل»[٣].

تأمين ذوي الحاجات الطارئة:

وممَّا لا يفوت ذكره هنا: أنَّ الاقتصاد الإسلامي لم يكتف بضمان العيش لأهله عن طريق إتاحة العمل للعاطل، والأخذ بيد العاجز والفقير.

بل فرضَ لذوي الحاجات الطارئة من بيت المال ما ينهض بهم إذا عثرو، ويصلهم بالحياة إذا انقطعوا، ويعوِّضهم بعض ما فقدوا أو خسروا.

وحسبنا أنَّ الله تعالى جعل في مصارف الزكاة سهمًا «للغارمين»، وهم الذين ادَّانوا على أنفسهم وعيالهم في غير معصية ولا إسراف، أو ادَّانوا في سبيل مصلحة اجتماعية، مثل: إصلاح بين الناس، أو نزلت بهم جوائح وكوارث كسرت جناحهم، كمن احترق بيته، أو

(١) انظر: فقه الزكاة، مبحث: كم يُعْطَى الفقير والمسكين من مال الزكاة (٢/٥٧٥ ـ ٥٩٠).

(٢) رواه عبد الرزاق (٧٢٨٦)، وابن أبي شيبة (١٠٥٢٦)، كلاهما في الزكاة، وضعفه الألباني في تخريج مشكلة الفقر (٨٣).

(٣) انظر: فقه الزكاة (٢/٥٧٨، ٥٧٩).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

دكّانه، أو ذهب السيل بماله، أو سُرِق متجره، أو غير ذلك ممَّا ينزل بالناس من نوازل.

كما جعل سبحانه ـ في أموال الزكاة والغنيمة والفيء ـ سهمًا «لابن السبيل»، وهو الذي انقطع عن وطنه وماله، وإن كان غنيًّا في بلده، تشجيعًا للسياحة والضرب في الأرض، وإيواءً وإعانةً للاجئين والمشرَّدين بغير اختيارهم، وإشعارًا للمسلم أنَّه ما دام في دار الإسلام؛ فلن يهلك ولن يضيع، وأنَّ أرض الإسلام كلها وطنه.

كتب عمر بن عبد العزيز إلى ولاته بالأقاليم: أن اقضوا عن الغارمين، أي: أدُّوا عنهم ديونهم من بيت المال، فكتب بعضهم إليه: إنَّا نجد الرجل له المسكن والخادم، وله الفرس، وله الأثاث في بيته!! يعني: أيجوز أن نقضي عنه؟ فكتب عمر: لا بدّ للرجل من المسلمين من مسكن يأوي إليه رأسه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوَّه، وأثاث في بيته، ومع ذلك فهو غارم، فاقضوا عنه ما عليه من الدَّيْن[1].

وكتب إلى زيد بن عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب ـ وكان واليًا على الكوفة ـ: كتبتَ تذكر أنَّه قد اجتمعت عندك أموال بعد أعطية الجند، فأعط من كان عليه دَيْن في غير فساد، أو تزوَّجَ، فلم يقدر على نقد[2]، أي: لم يستطع دفع الصداق.

ولم يكتف بأداء الدَّيْن عن الأحياء وحدهم، بل طلب إلى ولاته قضاء الدَّيْن عن الأموات أيضًا، حتى يلقوا ربهم وقد برئت ذِمَّتهم.

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ ١٤٥.
(٢) المصدر السابق صـ ٦٣.

QaradawiBooks.com

وفي ذلك كتب إلى أبي بكر بن حزم: أنَّ كل مَن هلك وعليه دَيْن، لم يكن دَيْنه في خُرقه (أي: سفهه وتبذيره)، فاقض عنه دَيْنه من بيت مال المسلمين[١].

ولم يكن عمر بن عبد العزيز في ذلك مبتدعًا شيئًا من عند نفسه، ولكنَّه متبع لِهَدْي رسول الله ﷺ، الذي كان يتولى قضاء دَيْن مَن مات من المسلمين ممَّا أفاءَ الله عليه من مال الفيء والغنائم والصدقات، وأعلن عن سياسته في ذلك، فقال: «**أنا أولى بكل مسلم من نفسه: من ترك مالًا فلورثته، ومن ترك دَيْنًا أو ضَياعًا** (أولادًا ضائعين لصغرهم وقلة مالهم) **فإليَّ وعليَّ**»[٢].

وذكر ابن سعد في طبقاته أنَّ عمر رضي الله عنه اتخذ في خلافته دارًا للدقيق، فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب، وما يُحتاج إليه، يعين به المنقطع به، والضيف ينزل بعمر، ووضع عمر في الطريق السُّبُل ما بين مكة والمدينة ما يصلح من ينقطع به ويحمل من ماء إلى ماء[٣].

وهذه مزية أخرى للتكافل الإسلامي.

موارد تمويل هذا الضمان:

ولتمويل هذا الضمان أو هذا التكافل في الإسلام موارد شتى، ذكرها القرآن والسنة، وطبَّقها الخلفاء الراشدون، الذي أُمِرنا باتباع سُنَّتهم والعضّ عليها بالنواجذ، وقرَّرها الفقهاء المعتبرون لدى الأمة؛ من هذه الموارد:

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز، الموضع السابق.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الكفالة (٢٢٩٨)، ومسلم في الفرائض (١٦١٩)، عن أبي هريرة.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٨٠/٣)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٦٨م.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

١ ـ الزكاة:

أول هذه الموارد التي تموِّل هذه الكفالة المعيشية أو هذا الضمان: الزكاة المفروضة، التي أوجبها الله في أموال المالكين للنصاب الشرعي؛ تزكيةً لأنفسهم، وتطهيرًا لأموالهم: «**تؤخذ من أغنيائهم لتُرَد على فقرائهم**»، وتُصرف في المصارف الثمانية التي حددها القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

وهي ـ بالنظر إلى مجموع الأمة ـ ليست بالقدر الهين، إنَّها تُقدَّر بالعُشر (١٠٪)، أو نصف العُشر (٥٪) من كل الحاصلات الزراعية مأكولة أو غير مأكولة ـ على مذهب عمر بن عبد العزيز وأبي حنيفة، كما قال تعالى: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

يُقاس عليها ـ في ترجيحنا ـ ريع المصانع والعمارات ومؤسسات النقل البري والبحري والجوي ونحوها. ورُبع العُشر (٢,٥٪) من رؤوس الأموال النقدية والتجارية، ونحو هذه النسبة ـ تقريبًا ـ من الثروة الحيوانية، وهي فريضة دورية يتكرَّر أخذها كل حَوْل (عام قمري) من النقود والتجارة والماشية، وعند كل حصاد، أو جذاذ من الزرع والثمر، كما أنَّها فريضة عامة يشترك فيها الأكثرية العظمى من الأمة، ولا يُعفَى منها إلا أصحاب الدخول المحدودة الذين لم يتوافر لديهم النصاب الشرعي.

وهناك زكاة أخرى سنوية مفروضة على الرؤوس، بمناسبة عيد الفطر من كل عام، وهي ـ في رأي جمهور الفقهاء ـ لا تشترط ملك النصاب، بل تجب على كل من يملك مقدارها، فاضلًا عن قوت يوم العيد وليلته.

QaradawiBooks.com

وهي مقدار زهيد من الحبوب التي تكون غالب قوت البلد ـ أو قيمته على الصحيح ـ وهو صاع أي: نحو اثنين كيلو ونصف تقريبًا.

وهي ـ في مجموع الأمة ـ تكون موردًا ذا قيمة.

والزكاة ـ كما شرعها الإسلام ـ لها عدة خصائص تميزها:

١ ـ فهي ليس مجرد إحسان فردي، أو صدقة اختيارية، بل هي «حق معلوم»، عَلِمَه الذين وجبت عليهم، وعَلِمَه الذين وجبت لهم، فهو معلوم المقدار، ومعلوم الوقت، ومعلوم المصرف.

٢ ـ وهي تتمتع بأعلى درجات الإلزام: الديني الخُلُقي والتشريعي، فهي فريضة عظمى، وشعيرة كبرى، وهي ثالثة دعائم الإسلام وأركانه الخمس العظام، ويأتي ترتيبها في القرآن والسُّنَّة بعد الشهادتين وإقامة الصلاة.

٣ ـ هذه الزكاة ـ على الأموال وعلى الرؤوس ـ عبادة يتقرَّب بها المسلم إلى الله كالصلاة والصيام، ويسأله تعالى أن يقبلها منه، وهي مع ذلك ضريبة رسمية تقوم الدولة المسلمة على جبايتها من أرباب المال، وصرفها على المستحقِّين «بواسطة العاملين عليها»، ضريبة يُعاقَب مَن كتمها، ويُقاتَل عليها من تَحدَّى الجماعة الإسلامية بمنعها.

والدولة الإسلامية في عهد أبي بكر الصديق قاتلت مانعي الزكاة، كما قاتلت المرتدِّين الذين اتَّبعوا أدعياء النبوة «مسيلمة وسجاح والأسود العنسي وغيرهم»، وقال الصِّدِّيق كلمته الشهيرة: «**واللهِ، لأقاتلنّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة. واللهِ، لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه**»[1].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٣٩٩، ١٤٠٠)، ومسلم في الإيمان (٢٠)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

وتعتبر الدولة الإسلامية أول دولة تحارب من أجل حقوق الفقراء، وانتزاعها من براثن الأغنياء.

٤ ـ إنَّها تخالف كثيرًا من الضرائب التي تؤخذ من الكادحين المتعَبين من العمال، وصغار التجار والموظفين، لتُنفق في أُبَّهة الحكام، وعلى أتباعهم والمروِّجين لهم، حتى يمكنك أن تقول فيها: إنَّها تؤخذ من الفقراء لتُرَد على الأغنياء!

٥ ـ والتعبير النبوي الكريم: «**تؤخذ من أغنيائهم فتُرَد على فقرائهم**»، يوحي بأنَّ الزكاة ليست إلا صرف بعض أموال الأمة، ممثلة في أغنيائها، إلى الأمة نفسها، ممثلة في فقرائها، فهي من الأمة وإليها، من اليد المستخلَفة في المال، إلى اليد المحتاجة إليه، وهاتان اليدان ـ المعطية والآخذة ـ هما يدان لشخصية واحدة هي شخصية الأمة المسلمة[1].

٦ ـ ولم يجعل الإسلام نصابها كبيرًا، ليشترك جمهور الأمة في أدائها، وجعل نسبها معتدلة من (٢,٥٪) في النقود والتجارة، وما يقاربها في الثروة الحيوانية «سائمة الأنعام»، إلى (٥٪) في الزرع المسقي بالآلات، إلى (١٠٪) فيما سُقِيَ بغير آلة، إلى (٢٠٪) في الركاز «المعادن» وفيما يُعثر عليه من الكنوز، فكلما كان جهد الإنسان أكبر كانت النسبة أخف.

ونسبة الـ (٥٪) أو الـ (١٠٪) أو الـ (٢٠٪) تعتبر نسبة مخفَّفة وميسَّرة على ربِّ المال مالك النصاب، وإذا نظرنا إلى الواجب في زكاة التجارة، فإنَّ الواجب هناك (٢,٥٪) على رأس المال، أما هنا ـ وإن كان (٥٪) أو (١٠٪) ـ

(١) انظر: الإسلام عقيدة وشريعة للإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت صـ ٩٤، نشر دار الشروق، القاهرة، ط ٩، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

QaradawiBooks.com

فهو على النماء أو على الدخل، وخصوصًا إذا أخذنا بالمذهب الذي يرفع النفقات ويُزَكِّي الباقي.

وكأنَّ هذا التيسير أو التخفيف مقصود للشارع لحثِّ الناس على إحياء الأرض وزراعتها، لما وراء ذلك من تحقيق الأمن الغذائي للأمة، ومحاربة الجوع والخوف.

٢ ـ موارد الدولة الأخرى:

وإذا لم تكفِ الزكاة جميع الفقراء، ففي جميع موارد الدولة الإسلامية متسع لكفايتهم، وتأمين حاجاتهم من خُمس الغنائم، ومن الفيء والخراج ونحوها.

يقول الله تعالى في مورد الغنائم: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١].

ويقول في الفيء: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧].

ومن ذلك: ما تملك الدولة من النفط والمعادن والأراضي الزراعية والعقارات ونحوها، ممَّا يدر عليها دخولًا وإيرادات تكثر أو تقل.

والدولة في الإسلام ليست مسؤولة عن الحماية الخارجية والأمن الداخلي فقط، بل هي مسؤولة كذلك عن رعاية العاجزين والمحتاجين، وضمان العيش الكريم لهم، كما في الحديث الصحيح: «**كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته... فالإمام راعٍ ومسؤول عن رعيته...**»[1].

(١) سبق تخريجه صـ٢١٧.

QaradawiBooks.com

وهكذا بيَّن لنا ﷺ ـ بوصفه إمام المسلمين ـ أنَّه مسؤول عن الجميع، وأنَّه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن ترك منهم مالًا فهو لورثته، ومن ترك دَيْنًا أو ضَياعًا (أولادًا صغارًا معرَّضين للضياع لفقرهم ويتمهم)، فإليه وعليه[١].

وعلى هذا الأساس فرض عمر لكلِّ مولود في الإسلام عطاء، يكثر ويزداد كلَّما نما وكبر.

ويقول عمر عن مال الدولة: «واللهِ، ما أحد أحق بهذا المال من أحد، وما أنا أحق به من أحد، ووالله، ما من أحد إلا وله في هذا المال نصيب، ووالله لئن بقيت لهم، لأُوتين الراعي بجبل صنعاء حظَّه من هذا المال، وهو يرعى مكانه»[٢].

وقد فرض عمر من بيت المال راتبًا ليهودي رآه يسأل على الأبواب[٣].

ومثل ذلك ما رواه البلاذري في «تاريخه»: أنَّ عمر ـ عند مقدمه الجابية من أرض دمشق ـ مرَّ بقوم مجذومين من النصارى، فأمر أن يُعطوا من الصدقات، وأن يُجرى عليهم القوت[٤].

والظاهر من الصدقات: أنَّها الزكوات المفروضة؛ لأنَّ أموالها هي التي تكون عادة تحت أيدي الولاة.

ويبدو أن مذهب عمر كان جواز إعطائه أهل الذمة من الزكاة[٥].

---

(١) سبق تخريجه صـ٤٠٧.

(٢) سبق تخريجه صـ٣٩٩.

(٣) رواه أبو يوسف في الخراج صـ ١٣٩.

(٤) ذكره البلاذُري في فتوح البلدان صـ ١٣١.

(٥) انظر: فقه الزكاة (٨٩٤/٢).

QaradawiBooks.com

وهذا يدلُّنا على أنَّ التكافل في الإسلام يشمل المسلم وغير المسلم على السواء، ما دام يقيم داخل المجتمع المسلم، أو بالتعبير الموروث: في دار الإســلام، وهذا ما كتبه خالد بن الوليد فــي وثيقة الصلح التي كتبها لأهل الحيرة بالعراق في عهد خلافة أبي بكر، وفيها:

«وجعلت لهم أيّما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنيًّا فافتقر، وصار أهل دينه يتصدَّقون عليه، طُرِحَتْ جزيته، وعِيلَ من بيت مال المسلمين وعياله، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام»[1].

كتب ذلك خالد، وأقرَّه عليه من معه من الصحابة، كما أقرَّه الخليفة الأول أبو بكر ومن معه من الصحابة.

وقد كتب ذلك أبو يوســف في خراجه الذي ألَّفــه للخليفة هارون الرشيد ليعمل به في سياسة الدولة المالية.

وقد روى أبو عبيد عن الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز أنَّه كتب إلى واليه على البصرة كتابًا جاء فيه:

«وانظر مَن قِبَلك من أهل الذِّمة قد كبرت سِنُّه، وضعفت قوَّته، وولَّت عنه المكاسب، فأجرِ عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه...»[2].

وهو في ذلك يستدل بما صنعه عمر بن الخطاب مع اليهودي.

٣ ـ الحقوق الأخرى في المال:

وإذا لم تــفِ الزكاة، ولا ســائر الموارد الأخــرى، بضمان العيش للفقراء، فعلى الموســرين فــي المجتمع أن يقومــوا بكفايتهم، فليس

(١) الخراج لأبي يوسف صـ ١٥٧، ١٥٨.
(٢) الأموال لأبي عبيد صـ ١١٩.

QaradawiBooks.com

بمؤمنٍ من بات شبعان وجاره جائع، وليس بمؤمنٍ من لا يحبُّ لأخيه ما يحب لنفسه، فإن قاموا بذلك مختارين، بدافع الإيمان والتقوى فهذا خير وأبقى، كما حدَّثنا النبي ﷺ عن الأشعريين، فقال: «**إنَّ الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قل طعام عيالهم في المدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسَّوية، فهم مني وأنا منهم**»[(١)].

وإذا لم يقم الناس من تلقاء أنفسهم برعاية فقرائهم، فللإمام أن يفرض على الأغنياء ما يقوم بكفاية الفقراء، فقد روي عن النبي ﷺ: «**إنَّ في المال حقًّا سوى الزكاة**»[(٢)]، وفي القرآن ما يدل على ذلك، فقد قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، ففرَّقت الآية الكريمة بين إيتاء المال على حبِّه ذوي القُرْبَى واليتامى والمساكين... إلخ، وبين إيتاء الزكاة، وهذا يدل على أنَّهما حقَّان في المال[(٣)].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الشركة (٢٤٨٦)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٠٠)، عن أبي موسى.

(٢) رواه الترمذي في الزكاة (٦٦٠)، عن فاطمة بنت قيس مرفوعًا، وقال: هذا حديث إسناده ليس بذاك، وأبو حمزة ميمون الأعور يضعف، وصحَّحه من قول الشعبي. وقال القرطبي في تفسيره معقبًا على هذا الحديث (٢٤١/٢، ٢٤٢): والحديث وإن كان فيه مقال دلَّ على صحته معنى ما في الآية نفسها من قوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. فذكر الزكاة مع الصلاة، وذلك دليل على أن المراد بقوله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾، ليس الزكاة المفروضة، فإن ذلك يكون تكرارًا. وانظر كتابنا: فقه الزكاة (٩٧٣/٢ ـ ١٠٠١).

(٣) انظر كتابنا: فقه الزكاة، باب: في المال حق سوى الزكاة (٩٧١/٢ ـ ١٠٠٢)، وانظر: اشتراكية الإسلام للدكتور مصطفى السباعي صـ ١١٩ ـ ١٣٣، تحت عنوان: قوانين التكافل المعاشي، نشر الدار القومية، القاهرة، ط ٣.

QaradawiBooks.com

وقد جاء في القرآن حق الزرع عند الحصاد، وحق الماعون.

كما جاء في السُّـنَّة حق الضيف في القِرَى، وحـق الجار ألا يبيت جائعًا وجاره إلى جنبه شبعان، كما في الحديث: «**ليس بمؤمن مَن بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع**»[١].

وهذه كلهـا غير الزكاة، ومثـل ذلك: الأُضحية، وكفَّـارات اليمين، والظهـار، والجِماع في نهار رمضـان، وفدية الصيام، وهَـدْي الحج... وغيرها.

فالزكاة ـ إذنْ ـ هي الحق الدوري الثابت المحدد، فهي أول الحقوق وليست آخرها.

أما الحقوق الأخرى فهي حقوق طارئة، تفرضها الحاجة والمصلحة، وليس لها مقدار معيَّن، ولا وقـت محدود، فقد يكفي بعض الفضل من المال، وقـد لا يكفي إلا كل الفضل؛ ولهذا شـاع بين المسـلمين هذه العبارة: «إذا احتاج المسلمون فلا مال لأحد».

وقد نقل الإمامان ابن العربي والقرطبي عن الإمام مالك قوله: يجب على كافة المسلمين فداء أسراهم، وإن استغرق ذلك أموالهم[٢].

قال القرطبي: واتفق العلمـاء على أنَّه إذا نزلت بالمسـلمين حاجة ـ بعد أداء الزكاة ـ يجب صرف المال إليها[٣].

---

(١) رواه البخاري فـي الأدب المفرد (١١٢)، وأبـو يعلى (٢٦٩٩)، والطبرانـي (١٥٤/١٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٥٥٥): رجاله ثقات، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٤٩)، عن ابن عباس.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٨٨). وتفسير القرطبي (٢٤٢/٢).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٢٤٢/٢).

QaradawiBooks.com

وقال العلامة الرملي الشافعي في «شرح المنهاج»: «ومن فروض الكفاية: دفع ضرر المسلمين، ككسوة عارٍ، وإطعام جائعٍ، إذا لم يندفع بزكاة وبيت مال، على القادرين، وهم: مَن عنده زيادة على كفاية سنة لهم ولممونهم... فيجب في الكسوة ما يستر كل البدن، على حسب ما يليق بالحال من شتاء وصيف، ويلحق بالطعام والكسوة ما في معناهما كأجرة طبيب، وثمن دواء، وخادم منقطع، كما هو واضح»[(١)].

وإذا لم يقم الناس بأداء الحقوق اختيارًا، أُجبروا عليها إجبارًا، وقد قال عثمان رضي الله عنه: «إنَّ اللهَ يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»[(٢)].

يقول ابن حزم: «وفرض على الأغنياء في كل بلد أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان على ذلك، إن لم تقم الزكوات بهم، ولا في سائر أموال المسلمين بهم، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لا بد منه، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك، وبمسكن يكنُّهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة»[(٣)].

٤ ـ الصدقات التطوعية:

ولا يقتصر الإسلام في تقرير التكافل على القوانين الملزمة، ولا الحقوق الواجبة، بل يربِّي المسلم على البذل وإن لم يُطلب منه، والإنفاق وإن لم يجب عليه، ويهوِّن عليه المال والدنيا، ويحذِّره من الشُّحِّ والبخل، ويحبِّب إليه الصدقة والإنفاق في السَّرَّاء والضَّرَّاء، بالليل

(١) نهاية المحتاج في شرح المنهاج (٤٩/٨، ٥٠)، نشر دار الفكر، بيروت، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.
(٢) ذكره ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٤١٦/١١).
(٣) المحلَّى (٢٨١/٤)، مسألة (٧٢٥).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

والنهار، سرًّا وعلانيةً، ويعده بالخلف والفضل في الدنيا، والمثوبة عند الله في الآخرة: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ٢٦٨].

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ...﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤].

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۞ فَكُّ رَقَبَةٍ ۞ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۞ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۞ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١١ ـ ١٦].

وفي وصف الأبرار: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۞ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨، ٩].

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢].

أما الأحاديث النَّبوية التي حثَّت على الصدقة والسخاء والإنفاق، فهي أكثر من أن تُحصر، وأشهر من أن تُذكر[١].

وقد عرف تاريخنا الإسلامي الكثيرين ممَّن لم يكتفوا بالزكاة، بل تصدقوا مختارين بما فوق الزكاة.

(١) انظر في ذلك ما ذكره الحافظ المنذري في كتابه: الترغيب والترهيب، وأوردناه في كتابنا: المنتقى (٣٠٢/١ ـ ٣٢٣).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

بل هناك مـــن أرباب الأموال من لم تكن تجـــب عليهم الزكاة، كما حكوا عن عبد الله بن جعفر، وعن الليث بن سعد، فهم لا يدعون المال حتى يحول عليه الحَوْل وتجب فيه الزكاة.

وقد حكوا: أنَّ امرأة سألت عبد الله بن جعفر أكلة من عسل، فأمر لها بزِقٍّ من عسل، فقيل له: تسألك أكلة، فتعطيها زِقًّا؟ (الزِّقُّ: جرة كبيرة)، فقال: هي تسأل على قدر حاجتها، ونحن نعطيها على قدر نعمة الله علينا.

ولامه بعض أصحابه على كثرة عطائه، وأنَّه لا يرد سائلًا، فقال: يا قوم، إنَّ الله عوَّدني عادة، وعوَّدتُ عباده عادة، عوَّدني أن يعطيني، وعوَّدتُ عباده أن أعطيهم، فأخشى إذا قطعت عادتي عن عباده أن يقطع الله عادته عني.

كما عرفت أُمَّتنـــا ما يقوم به أبنـــاء المجتمع المؤمـــن ـ بدافع من إيمانهم ـ من البذل والبرِّ والمواساة، التي تنتهي إلى درجة الإيثار، وهي درجة لا يرتقي إليها إلا من خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم. أما المادِّيُّون فإنَّهم محرومون منها، وحســبهم أن يحصروا أنفسهم في حدود التوزيع الرسمي بالبطاقات وغير البطاقات.

وقد رأى المجتمع الإسلامي في المدينة هذا النموذج من التواسي والتكافـــل والإيثار، الذي دفع إليـــه حُداء الأُخوَّة والإيمان، لا ســـيف القانون والسلطان.

بعد الهجرة إلى المدينة آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فوسعهم الأنصار بدورهم وأموالهم وصدورهم، وآثروهم على أنفسهم ممَّا ســـجَّله لهم القرآن آيات تُتلَى على مَـــرِّ العصور: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

QaradawiBooks.com

وحسبنا مثلًا في ذلك ما عرضه سعد بن الربيع الأنصاري على عبد الرحمن بن عوف القرشي، الذي أُخرج من داره وماله مهاجرًا إلى الله ورسوله.

روى البخاري[١]: أنَّهم لمَّا قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، فقال سعد لعبد الرحمن: إني من أكثر الأنصار مالًا، فأقسم مالي نصفين (يعني: لك نصفه ولي نصفه)، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك، تسمِّها لي أطلقها، فإذا انقضت عدَّتها تزوجتَها، فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟... فدلُّوه على سوق بني قينقاع...

إيثار كريم من سعد، وعفاف نبيل من عبد الرحمن، ولا يملك المرء المنصف أمام هذا وذاك، إلا أن يقف معجبًا بهذه الأنفس الزاكية، التي صنعها الإسلام وخرَّجتها مدرسة القرآن...

الصدقة الجارية والوقف الخيري:

ومن أعظم ما رغَّب فيه الإسلام: الصدقة الجارية (أي: الدائمة بعد موت المتصدِّق).

وفي هذا جاء الحديث الصحيح: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[٢].

كما يتضح ذلك في نظام الوقف الخيري، وهو الذي يخرج فيه المال من مِلْك الأفراد، لتُحبس ثمراته ومنافعه على جهة من جهات الخير، ابتغاء مثوبة الله تعالى.

---

(١) رواه البخاري في البيوع (٢٠٤٩)، عن أنس.

(٢) رواه مسلم في الوصية (١٦٣١)، وأحمد (٨٨٤٤)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

وقد أشار الرسول ﷺ على عمر بوقف ماله بخيبر، ولم يكن عنده مال أنفس منه، ولم يكن أحد من الصحابة ذا مقدرة إلا وقف. والذي يقرأ بعض ما أبقاه لنا التاريخ من حجج الوقف، وشروط الواقفين، يتبين حقيقة التكافل في المجتمع المسلم، ويقف على أصالة عواطف الخير، ومشاعر الرحمة والبر، وشيوع المعاني الإنسانية الكريمة في أعماق هذه الأمة، حتى إنَّ برَّها لم يقتصر على دائرة الإنسان، بل تجاوزه إلى الحيوانات العجماوات، حتى لتجد فيها أوقافًا لعلاج الحيوانات المريضة، وأُخرى لإطعام الكلاب الضالة[1].

التكافل بين الأجيال:

وهناك لون من التكافل لم يلتفت إليه الباحثون، وقد نبهنا عليه في عدد من كتبنا، وهو: التكافل بين أجيال الأمة بعضها وبعض، وهو يكمل التكافل بين أقطار الأمة بعضها وبعض، فهو تكافل زماني، بجوار التكافل المكاني.

ومعنى تكافل الأجيال: ألَّا يستأثر جيل بخيرات الأرض المذخورة والمنشورة، ويحلب درها، حتى لا يترك في ضرعها قطرة لمن بعده.

بل يجب على الجيل الحاضر أن يحسب حساب الجيل المقبل، بل الأجيال المقبلة، وأن يصنع صنيع الأب الرحيم البصير، الذي يحرص على أن يدع ذُريته في حال اكتفاء واستغناء، وأن يقتصد في إنفاقه واستهلاكه، حتى يترك لهم شيئًا ينفعهم، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس**»[2].

---

(١) انظر نماذج من ذلك في فصل: الرحمة، من كتابنا: الإيمان والحياة، صـ ٢٦٠ ـ ٢٧٠.

(٢) سبق تخريجه صـ٩٣.

QaradawiBooks.com

وقد جاء عن أبي بكر رضي الله عنه: «لا يعجبني الرجل يأكل رزق أيام في يوم واحد!»[١].

ومثل ذلك يُقال للمجتمع الذي يأكل رزق أجيال في جيل واحد.

وهذا ما جعل الفاروق عمر بن الخطاب يأبى تقسيم سواد العراق على الفاتحين، وقد طلب ذلك عدد من الصحابة، وهو ثروة هائلة يستمتع بها جيل الفتح، ولا تجد الأجيال القادمة المدافعة عن حُرُمات الأمة، وبَيْضة المِلَّة، ما يصرفون منه، لإعداد عُدَّتهم، وبناء قوتهم، وقضاء حوائجهم.

ولهذا كان عمر يقول لمعارضيه: «أتريدون أن يأتي آخر الناس وليس لهم شيء؟!».

وروى عنه البخاري قوله: «لولا أن يُترك آخر الناس لا شيء لهم، ما فتح الله على المسلمين قرية إلا قسمتها سُهمانًا، كما قُسِمَتْ خيبر سُهمانًا، ولكنِّي أخشى أن يبقى آخر الناس لا شيء لهم»[٢].

وقال معلنًا عن وجهته ووجهة من أيَّده: «إنِّي أريد أمرًا يسع أول الناس وآخرهم»[٣].

وكان على رأيه من فقهاء الصحابة أمثال علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما.

وكان ممَّا قاله معاذ لعمر حين فكر في الاستجابة لطالبي التقسيم هذه الكلمات الحكيمة البليغة: والله ليكوننَّ ما تكره، إنَّك إن قسمته صار

(١) سبق تخريجه صـ ٢٥٧.

(٢) رواه البخاري في المغازي (٤٢٣٥).

(٣) انظر: الأموال لأبي عبيد صـ ١٤٧.

QaradawiBooks.com

الريع العظيم في أيدي القوم، ثم يبيدون، فيصير ذلك إلى الرجل الواحد أو المرأة، ثم يأتي من بعدهم قوم يسدُّون من الإسلام مسدًّا، وهم لا يجدون شيئًا، فانظر أمرًا يسع أولهم وآخرهم[١].

وعلَّق الإمام أبو يوسف في «خراجه» على صنيع عمر فقال: «والذي رأى عمر رضي الله عنه من الامتناع من قسمة الأرضين بين من افتتحها عندما عرَّفه الله ما كان في كتابه من بيان ذلك (يشير إلى ما فهمه عمر من آيات قسمة الفيء في سورة الحشر) توفيقًا له من الله فيما صنع، وكانت فيه الخيرة لجميع المسلمين، وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم»[٢].

وكتب عمر إلى سعد بعد فتح القادسية يقول له: «... واترك الأرضين والأنهار لعمَّالها، ليكون ذلك في أعطيات المسلمين، فإنَّا لو قسمناها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء»[٣].

ووجد عمر في آيات سورة الحشر ما أيَّد توجهه، حيث جعلت توزيع الفيء على الجيل الحاضر من المهاجرين والأنصار، ثم أشركت معهم الجيل القادم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠]، قال عمر بعد أن قرأ الآية: فكيف أقسمه لكم، وأدع من يأتي بغير قسم؟[٤]

(١) الأموال صـ ١٥٢.
(٢) الخراج لأبي يوسف صـ ٣٨.
(٣) الأموال صـ ١٥٠، والخراج ليحيى بن آدم صـ ٢٧، ٤٥، نشر المطبعة السلفية، ط ٢، ١٣٨٤هـ.
(٤) الخراج لأبي يوسف صـ ٤٦.

QaradawiBooks.com

وبهذا تتضامن الأجيال وتتواصل، ويدعو اللاحق للسابق، بدل أن يلعن آخر الأمة أوَّلَها، حين يقولون: أخذوا كل شيء ولم يُبقوا لنا شيئًا. وهذا ما أخشى أن تقوله الأجيال الآتية في بلاد النفط، حيث استهلكوه في الزينة والمتاع والتوسع في الاستهلاك، وأسرفوا في استخراجه، حتى كثر في سوق العرض، فباعوه بأرخص الأسعار، ولو نظروا إلى حق الأجيال المستقبلة لاقتصدوا وعَفُّوا، واعتدلوا ولم يسرفوا، فإنَّ الله لا يحبُّ المسرفين.

مزايا التكافل الإسلامي:

ويمتاز هذا التكافل أو الضمان الاجتماعي في الإسلام بشموله لكل أصناف المحتاجين، سواء أكانت حاجتهم حاجة دائمة بسبب عجز بدني أو عقلي، أم حاجة طارئة بسبب ظروف عارضة، كالسفر والأزمات.

ومن الأصناف الذين يدخلون في هذا الضمان:

١ ـ الفقراء.

٢ ـ المساكين. والصنفان يعنيان: أهل العوز والحاجة.

٣ ـ الغارمون «المثقلون بالديون».

٤ ـ أصحاب الكوارث، فهم جزء من الغارمين.

٥ ـ ابن السبيل، ويشمل اللاجئين والمشرَّدين، كما يشمل المنقطعين في السفر.

٦ ـ اليتامى، والمقصود: من ليس له مال منهم.

٧ ـ الأرامل، أي من لا مورد له ولا عائل منهن.

٨ ـ اللُّقطاء، فهم من أبناء السبيل أيضًا.

QaradawiBooks.com

ومن هؤلاء من نصَّ القرآن على استحقاقهم نصًّا صريحًا.

ففي مصارف الزكاة نقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

وفي مصرف خُمْس الغنائم الحربية نقرأ قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ...﴾ [الأنفال: ٤١].

وفي مصرف الفيء نقرأ: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧].

ونلاحظ أنَّ في هذه المصارف كلِّها صنفًا مشتركًا بينها جميعًا وهو: المساكين، وإذا ذُكِرَ لفظُ «المساكين»، وحده دخل الفقراء في معناه، ويقصد به أهل الحاجة، وإذا ذُكِر مع الفقراء كما في آية: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾ كان معنى الفقراء: الذين لا يسألون، والمساكين، هم الذين يسألون.

والنص في كل مصرف على استحقاق هذا الصنف من أهل الحاجة يدل على مبلغ عناية الإسلام بعلاج مشكلة الفقر والمسكنة، علاجًا حاسمًا شاملًا.

وبهذا يتميَّز الضمان الاجتماعي في الإسلام عن الضمان الاجتماعي في الغرب الحديث والمعاصر، بعدة أمور:

١ ـ بسبقه الزمني، فقد مضى عليه أربعة عشر قرنًا أو تزيد.

QaradawiBooks.com

٢ ـ بشموله لكلِّ أصناف المحتاجين (الفقراء، والمساكين، والغارمين، وابن السبيل (اللقيط)، الأرامل، اليتامى)... إلخ.

٣ ـ بشموله لكلِّ حاجاتهم المادية والنفسية (مستوى تمام الكفاية، بل الإغناء كما قال عمر).

٤ ـ بدرجة الإلزام به (فريضة بل ركن مقرون بالصلاة، وبالإيمان بالله العظيم).

٥ ـ بمدى المسؤولية عنه، على مستوى الفرد... والأسرة (النفقة والعاقلة)، والوحدة الاجتماعية الصغيرة (الجيران ـ أهل العَرْصة)، المجتمع كله (فروض الكفاية)، الدولة: («**كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته...**»[١]، «**من ترك كلًّا أو ضياعًا فإليَّ وعليَّ**»[٢]).

٦ ـ بشموله الزماني والمكاني، فهو يشمل الأجيال المختلفة، كما يشمل الأقطار المختلفة.

* * *

(١) سبق تخريجه صـ ٢١٧.

(٢) سبق تخريجه صـ ٤٠٧.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

من العدل تقريب الفوارق بين الناس

العلاقة بين الأغنياء والفقراء:

اعترف الإسلام بالتفاوت الفِطري المعقول في الأرزاق بين الناس؛ إذ قبل ذلك ثبت تفاوتهم الفطري في المَلَكات والقدرات والمواهب والعمل والنشاط.

والإسلام ـ باعتباره دينًا يعترف بالفطرة، ويسمو بها ولا يصادمها ـ اعترف بالمِلْكية الفردية الناشئة عن سببٍ مشروع، ليُشبع بذلك الفطرة البشرية، والدوافع الفطرية، في حبِّ التملك والتنافس والادِّخار.

والإسلام لا يحترم الملكية الفردية إذا نشأت عن سبب غير مشروع كالغصب أو السرقة الجلية أو الخفية؛ كالرشوة، والهدايا للحكام، واستغلال النفوذ ونحوها... ويصادر هذه المِلْكيات، وإن طال عليها الزمن، واختلف الليل والنهار، فطول الزمن لا يبيح المحظور، ولا يقلب الحرام حلالًا.

والإنسان في الإسلام ليس مالكًا حقيقيًّا يتصرف في ماله كيف شاء. كلا، فالمال مال الله، ومقتضى هذه العبارة: أنَّه مال الجماعة، والغني موظف على رعايته وتنميته وإنفاقه بما يوافق صالح الجماعة، أو بتعبير القرآن هو «مُسْتَخْلَف» على المال: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، ويقول: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

QaradawiBooks.com

فالمِلْكيــة إذن وظيفة اجتماعية، والغنــي إذن مطالَب بواجبات إزاء مجتمعه، أدناها الزكاة.

وبيت المال الــذي تُجمع فيه الزكاة وغيرها ليــس مِلْكًا للخليفة أو الأمير وإنَّمــا هو خازن أمين، ليــس له منه إلا راتبه كمــا قال أبو بكر: أعطوني كأوسط رجل من قريش ليس بأدناهم ولا أعلاهم.

وقال عمــر أكثر من ذلــك: إنَّما أنا وهــذا المال كولــيِّ اليتيم، إن استغنيتُ استعففت، وإن افتقرتُ أكلت بالمعروف[١].

وأبــى عليّ بن أبــي طالــب أن يأخذ من بيــت المال شــيئًا... وانحرافات بعض حكَّام المســلمين ليســت حُجَّة على الإسلام، وقد اعترفوا بذلك هم أنفســهم، فنجد خليفةً كمعاوية يقول: «أما أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها، وأما نحن فتمرَّغنا فيها ظهرًا لبطن»[٢].

تقريب الشُّقة بين الأغنياء والفقراء:

واعتراف الإســلام بالتفاوت الطبيعي في الرزق ليس معناه أن يدع الغنيَّ يــزداد غنًى، والفقيــر يزداد فقرًا، بــل تدخَّل بتشــريعه القانوني ووصاياه الخُلُقية، لتقريب الشُّــقَّة بين الأغنياء والفقراء، فحدَّ من طغيان أولئك، ورفع من مستوى هؤلاء.

(١) رواه ابن أبي شيبة في الســير (٣٣٥٨٥)، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٥١/١٣): سنده صحيح.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (١٣٨/٢)، تحقيق د. بشار عوّاد معروف، نشر دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢٠٠٣م.

QaradawiBooks.com

حرَّم على الأغنياء الكسب بالباطل، وكذلك تنمية ما كسبوه بالباطل وحظر عليهم الربا قليله وكثيره، جليَّه وخفيَّه، واعتبر آكل الربا محاربًا لله ورسوله.

وحرَّم عليهم الاحتكار، وعلى هاتين الساقين ـ الاحتكار والربا ـ تقوم الرأسمالية.

وحرَّم عليهم السرف والتبذير دينًا وقضاءً، وجعل للحاكم سُلْطة الحجر على المبذِّرين السفهاء.

وحرَّم عليهم كل ألوان الترف الذي يفُسد الأفراد والأمم، مثل الخمر وأواني الذهب والفضة في الطعام والشراب، والتحف والتماثيل الفضية والذهبية، ومفارش الديباج والحرير الطبيعي وغيرها من ألوان الترف والتنعم، ولِبْس الذهب والحرير للرجال.

وحرَّم عليهم الكنز: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

والزكاة محاربةٌ عمليَّةٌ لكلِّ مالٍ يُكنز، إذ يخرج منه كل عام (٢,٥٪)، فإن لم يعمل ويستثمر استهلكته الزكاة بجوار النفقة.

وفي الجانب الآخر، أتاح الإسلام الفرص المتكافئة للفقراء، ليقفوا على قدم المساواة مع الأغنياء، فباب العمل والكسب مفتوح للجميع، ومن لم يجد عملًا هيأ له ولي الأمر عملًا، فإن لم ييسر له العمل، أو كان عاجزًا عن العمل، أو كان أجره من عمله لا يكفيه، كان واجبًا على ولي الأمر أن يرعاه، ويهيئ له ما هو حق لكل مسلم أو ذِمِّي في ظل الإسلام من مأكل ومشرب، وملبس للصيف، وملبس للشتاء، ومسكن يكنُّه ويؤويه، كما قرَّر فقهاء الإسلام.

QaradawiBooks.com

وللحاكم إذا لم تكفِ الزكاة والموارد العادية لسدِّ هذه الحاجات، أن يفرض على أغنياء المسلمين ما يقوم بمصالح فقرائهم، وقد قرَّر علماء المسلمين هذا المبدأ: «إذا احتاج المسلمون فلا مال لأحد».

ومن الناحية النفسية والقانونية، فليس لغنيٍّ أي امتياز على فقير، وإنَّما كلهم أمام القانون وأمام الله سواسية كأسنان المشط.

وقد اتخذ الإسلام طرقًا مثمرة في تفتيت الثروات، أبرزها تشريع الميراث، الذي يوزع ثروة الرجل الواحد بين زوجته وأبويه وأولاده جميعًا، ذكورًا وإناثًا، لا للذكور فقط كما كان يفعل العرب في الجاهلية، ولا الابن الأكبر كما تصنع بعض الدول كالإنجليز.

وبهذا نرى أنَّ الاقتصاد الإسلامي ـ مع إقراره التفاضل في الأرزاق ـ يرى من العدل تقريب الفوارق بين أبناء مجتمعه، تحقيقًا للتوازن، وإطفاءً لنيران الحسد والبغضاء، وتفاديًا لأسباب الصراع والصدام بين الأفراد والطبقات.

ووسيلة الإسلام في ذلك ـ كما رأينا ـ هي: العمل على رفع مستوى الفقير، إلى جانب الحدِّ من طغيان الغني.

فهو لا يكتفي بكفالة العيش للمعدمين والمحتاجين عن طريق معونات دورية يتقاضونها، بل يعمل على تمليكهم ما يكفيهم ويغنيهم: من قطعة أرض أو متجر أو أدوات حرفة... إلخ.

وهذا ما قرره علماؤنا منذ قرون، وخصوصًا الشافعية منهم، فذكروا في قدر ما يُعطاه الفقير والمسكين من الزكاة، هذه العبارات الجلية، قالوا:

«يُعطيان ما يخرجهما من الحاجة إلى الغنى، وهو ما تحصل به الكفاية على الدوام... فمن كان عادته الاحتراف، أُعطي ما يشتري به حرفته أو

QaradawiBooks.com

آلات حرفته قلَّت قيمة ذلك أم كثرت، ويكون قدره بحيث يحصل له من ربحه ما يغني بكفايته غالبًا تقريبًا. ويختلف ذلك باختلاف الحِرَف والبلاد والأزمان والأشخاص... قالوا: فمن كان حرفته بيع الجواهر يُعطَى عشرة آلاف درهم مثلًا، إذا لم يتأت له الكفاية بأقل منها. ومن كان تاجر أو خبَّازًا أو صرَّافًا أُعطي بنسبة ذلك، ومن كان خيَّاطًا أو نجَّارًا أو قصَّابًا، أو غيرهم من أهل الصنائع أُعطي ما يشتري به الآلات التي تصلح لمثله.

وإن كان من أهل الضِّياع يُعطَى ما يشتري به ضَيْعة أو حصة في ضَيْعة تكفيه غلَّتها على الدوام، قالوا: فإن لم يكن محترفًا ولا يحسن صنعة أصلًا ولا تجارة ولا شيئًا من أنواع الكسب، أُعطي كفاية العمر الغالب لأمثاله في بلاده، ومثَّلوا لذلك: أنه يُعطَى ما يشتري به عقارًا يستغل منه كفايته»[(١)].

وهذا يتفق مع السياسة العُمَرية الراشدة في توزيع أموال الزكاة إذا اتسعت حصيلتها، وذلك حين قال لعمال الزكاة والولاة على الصدقات: «إذا أعطيتم فأغنوا»[(٢)].

وقال رضي الله عنه معلنًا عن نهجه في الإعطاء: «لأكررنَّ عليهم الصدقة، وإن راح على أحدهم مائةً من الإبل»[(٣)]، ومائة من الإبل: تساوي عشرين نصابًا من أنصبة الزكاة.

ولقد قلنا: إنَّ التملُّك ـ مع إشباعه لدافع الفطرة ـ دليل الحرية والسيادة وسبب للشعور بالقوة، والإحساس بالنعمة. فمن العدل إذن أن ينعم بهذا التملك أكبر عدد مستطاع من الناس.

---

(١) المجموع للنووي (١٩٤/٦، ١٩٥).

(٢) سبق تخريجه صـ٤٠٥.

(٣) فقه الزكاة (٥٧٨/٢، ٥٧٩).

QaradawiBooks.com

ولهذا المعنى كره الإسلام أن تقتصر نعمة التملك والغِنَى على طائفة قليلة من المجتمع، والأكثرون يعيشون في سعير الفقر ومرارة الحرمان.

ولهذا المعنى نفسه عمل التشريع الإسلامي على تفتيت المِلْكيات ـ وبخاصة الكبيرة منها ـ ونقلها من يدٍ واحدةٍ إلى جملة أيدٍ. وذلك بوسائل شتى من الميراث والوصية الواجبة والمندوبة، ونفقات الأقارب، والزكاة المفروضة، والحقوق الأخرى التي تجب في المال حسب الحاجات، فضلًا عن حقِّ الحاكم العادل في التدخل لإصلاح الفساد وإقامة العدل، وإعادة التوازن، ومحاربة الفقر، وإشاعة التكافل بين النَّاس، على نحو ما قال عمر: «**لو استقبلتُ من أمري ما استدبرت، لأخذت فضول أموال الأغنياء، فرددتها على فقراء المهاجرين**»[(١)].

ولهذا المعنى أيضًا اتجه النبي ﷺ إلى توزيع الأموال التي أفاءها الله عليه من يهود بني النضير على المهاجرين خاصة، دون الأنصار إلا رجلين منهم هما سهل بن حنيف وأبو دجانة، ذكرا فقرًا فأعطاهما[(٢)]، وهي التي جاء فيها قوله تعالى من سورة الحشر: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ [(٣)] فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ...﴾ [الحشر: ٦].

قال ابن شهاب الزهري: كانت أموال بني النضير ممَّا أفاء الله على رسوله، ولم يوجف عليه بخيلٍ ولا ركاب، وكانت لرسول الله ﷺ خالصة، فقسمها رسول الله ﷺ بين المهاجرين ولم يعطِ أحدًا من الأنصار

(١) المحلَّى (٤/٢٨٣)، وقال: هذا إسناد في غاية الصحة والجلالة.
(٢) الخراج ليحيى بن آدم صـ ٣٢.
(٣) أي من بني النضير.

QaradawiBooks.com

منها شيئًا، إلَّا رجلين كانا فقيرين: سماك بن خرشة (أبا دجانة)، وسهل بن حنيف[١].

وقد روي أنَّ رسول الله ﷺ قال للأنصار: «**إنَّ إخوانكم من المهاجرين ليست لهم أموال، فإن شئتم قسمت هذه وأموالكم بينكم وبينهم جميعًا، وإن شئتم أمسكتم أموالكم، وقسمت هذه بينهم خاصة**»، فقال الأنصار رضي الله عنهم: لا، بل تقسم هذه فيهم، واقسم لهم من أموالنا ما شئت[٢].

هذه الرواية تدلنا على أنَّ الرسول ﷺ بعد أن خوَّله الله أموال بني النضير، وأذن له في التصرف فيها كما يشاء، باعتباره إمامًا ورئيس دولة، لم يستأثر بها على الناس، ولم يحرزها دونهم، ولكنَّه وجد في هذه الثروة الجديدة فرصة لإقامة التوازن الاقتصادي بين أبناء المجتمع الإسلامي في المدينة، بين مُلَّاك الأرض والدور من الأنصار، الذين جمعوا ثرواتهم من حلال، وآثروا على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وآووا ونصروا، وبين الوافدين من المهاجرين الذي أُخرِجوا من ديارهم وأموالهم، يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا، وينصرون الله ورسوله.

---

(١) رواه يحيى بن آدم في الخراج صـ ٣٢، فقرة (٧٩)، وقال العلامة الشيخ أحمد شاكر في التعليق: هذا الحديث مرسل، وقد رواه البخاري (٢٩٠٤)، ومسلم (١٧٥٧)، كلاهما في الجهاد والسير، عن مالك بن أوس بن الحدثان، وليس فيه إعطاء الرجلين من الأنصار، بل هو مذكور في سيرة ابن هشام بدون إسناد، وهي قصة طويلة سيذكرها المؤلف برقم (٨١، ٨٦، ٨٧)، ورواها ابن سعد في الطبقات (٤٧١/٣)، قال: فأخبرنا الفضل بن دكين قال: حدَّث ابن عيينة قال: سمعت الزهري يقول: لم يعط رسول الله ﷺ من أموال بني النضير أحدًا من الأنصار إلا سهل بن حنيف وأبا دجانة، وكانا فقيرين، وروى البلاذري (٥١٨/١) الموصول والمرسل.

(٢) الخراج ليحيى بن آدم صـ ٣٣.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

أجل... جعل النبي ﷺ من هذا الفيء فرصة لرفع المستوى المالي للمهاجرين، وتقريب الفوارق بينهم وبين إخوانهم الأنصار.

وإن صحَّت الرواية الأخيرة فإنَّها تدل على تخيير الرسول للأنصار بين قصر توزيع الثروة الجديدة على المهاجرين، أو إعادة توزيع الثروة كلها في المدينة ـ ومنها أموال الأنصار ـ بينهم وبين المهاجرين على سبيل المساواة.

ولكن هذه الرواية لم تبلغ درجة الصحة[١]، التي يؤخذ منها حكم كهذا، وبخاصة أن ملكية الأنصار لأموالهم ليس فيها أدنى ريبة، وبذلهم منها في سبيل الله وإيثار إخوانهم بها فوق ما يطلب من البشر.

وبحسبنا في تقريب الفوارق ما جاءت به الروايات الأخرى، من توزيع المال في هذه القصة على المهاجرين وحدهم، وبحسبنا بعد ذلك ما علل به القرآن توزيع الفيء ـ أيُّ فيء بعد ذلك ـ حيث قال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ[٢] فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ﴾ [الحشر: ٧].

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ﴾: أي جعلنا هذه المصارف لمال الفيء كي لا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء، ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء، ولا يصرفون منه شيئًا إلى الفقراء[٣].

---

(١) ذكر هذه الرواية يحيى بن آدم عن الكلبي ـ محمد بن السائب ـ وهو ضعيف جدًّا، ورماه جماعة بوضع الحديث، فضلًا عن أن الرواية منقطعة، فقد مات الكلبي سنة (١٤٦هـ).

(٢) أي جميع البلدان.

(٣) تفسير ابن كثير (٦٧/٨).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

إنَّ هذه الكلمة الموجزة التي علَّل بها القرآن توزيع الفيء في الوجوه والمصارف التي ذكرها ـ وهي خشية تداول المال بين الأغنياء وحدهم (أي: مع حرمان أكثرية الأُمَّة من تداوله ومن تملكه) ـ هذه الكلمة تعبِّر أبلغ تعبير عن الروح الجماعية المعتدلة، التي يقوم عليها نظام الإسلام، وتنفر من طغيان النظام الرأسمالي الذي أخص صفاته وسماته ـ إن أوجزنا العبارة ـ أنَّ المال فيه «دُولَة بين الأغنياء»، وهذا ما يحرص كتاب الله الكريم على تجنبه والفرار منه.

إن هناك عوامل خبيثة تتدخل أحيانًا في توزيع الثروة، فتخلق التفاوت الهائل، وتقسم المجتمع الواحد إلى طبقات متحاسدة متصارعة، وتجعل النَّاس كالسمك يأكل الكبير الصغير؛ فتجد الثراء الفاحش بجانب الفقر المدقِع، وترجمة هذا أنَّ النعيم والترف في جانب، والبؤس والحرمان في جانب. وكثيرًا ما يكون الغنى والنعيم حظ العاطلين، والعوز والحرمان نصيب العاملين؛ ممَّا يثير الضغائن، ويورث الفتن، ويُعرِّض المجتمع لأخطر القلاقل والاضطرابات.

ومن حق الدولة المسلمة ـ بل من واجبها ـ أن تتخذ من الوسائل ما يمحو التفاوت الظالم أو يكسر من حدَّته وضراوته على الأقل، قد يكون ذلك بتحديد الملكية بالنسبة لأموال معينة، وقد يكون بتأميم بعض المرافق والمؤسسات المهمَّة التي تُضار الأمة إذا سيطر على مِلْكِيتها بعض الأفراد «بشرط التعويض العادل»، وقد يكون ذلك بقصر توزيع بعض الثروات الجديدة على المعدمين خاصة، ويسند الدولة الإسلامية في ذلك: آية سورة الحشر من كتاب الله، وتقسيم أموال بني النضير من سُنَّة رسول الله، كما يشد أزرها مجموعة من القواعد الكلية التي وضعها أئمة الإسلام وفقهاؤه بعد استقراء نصوص الشريعة وأحكامها مثل: رفع

QaradawiBooks.com

الحَرَج، ودفع الضـــرر قبل وقوعه، وإزالته بعـــد وقوعه، وارتكاب أخف الضررين، وتفويت أدنى المصلحتين، والضـــرورات تبيح المحظورات، والمشقة تجلب التيسير، ورد المفسدة مقدَّم على جلب المصلحة... إلخ.

الأغنياء ليسوا طبقة:

ونظام الإسلام يتسع للأغنياء بوصفهم أفرادًا، يجمعون الثروات من حلال، لا بوصفهم طبقة لها مزايا شـــرعية أو حقـــوق قانونية، يتوارثها الأبناء عن الآباء، والأحفاد عن الأجداد.

كلا، فليس في الإسلام طبقات بهذا المعنى الذي ذكرناه، كتلك التي عُرِفت عند الغرب، من طبقـــة الملوك أو الحكام، وطبقة الأشـــراف أو النبلاء، وطبقة الفرسان، وطبقة رجال الدين... إلخ.

ليس في الإسلام شيء من ذلك أبدًا...

الحكام أفراد تختارهم الأمة بواسطة أهل الحل والعقد فيها، أو بأي وسيلة تختارها، وليســـوا من فئة أو أســـرة معينة، بل قال الرسول ﷺ: «**اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد يقودكم بكتاب الله**»[1]، وقال عمر قبل موته: لو كان سالم مولى حذيفة حيًّا لاستخلفته[2].

والفقهاء في الإسلام ليســـوا طبقة كهنوتية كرجال الأديان الآخرين، إنَّما هم علماء متخصصون في دراسة الإسلام، عقيدته وتشريعه وأخلاقه، فهم في الحقيقـــة علماء دين، وعلماء قانون، وعلمـــاء أخلاق واجتماع، وليسوا واسطة بين الله وعباده، ولا هم يملكون مفاتيح الجنة، ولا يبيعون صكوك الغفران والرضوان.

---

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٨٣٨)، وأحمد (١٦٦٤٦)، عن أم الحصين الأحمسية.

(٢) رواه الطبري في تاريخه (٢٢٧/٤)، نشر دار التراث، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ.

QaradawiBooks.com

ونقابة «الأشراف» في مصر مثلًا، لا تعني أكثر من هيئة تضم المنتسبين إلى عليٍّ أو بني هاشم، وهو مصطلح اصطلحوا عليه، ولا مشاحة في الاصطلاح كما يقال، وقد قال النبي ﷺ لعمِّه العباس وابنته فاطمة وبني هاشم جميعًا: «**اعملوا فإني لا أُغني عنكم من الله شيئًا**»[(١)]، «**مَن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه**»[(٢)]. والقرآن الكريم يقول: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

والأغنياء في الإسلام، إنَّما هم أفراد يثرون بجهدهم ونشاطهم، وقد لا يدوم لهم الثراء، وقد ينقص أو ينتقل ميزانه إلى غيرهم.

فالفقر والغنى في المجتمع الإسلامي ليسا شيئًا ثابتًا مؤبدًا، بل كلاهما أمر دائم التغير بتغيُّر ظروف الحياة، وفرص الكسب، وقوانين الميراث، وكم من غني افتقر، وكم من فقير اغتنى.

هؤلاء هم الأغنياء الذين يوجدون في نظام الإسلام، وإن سمَّاهم الناس «طبقة الأغنياء» فلا ضَيْر في التسمية إذا وضحت المسميات، فقد يقسم بعضهم النَّاس إلى ثلاث طبقات: غنية وفقيرة وميسورة، أو عُليا ودُنيا ووسطى، وهو تقسيم على وجه التشبيه والتقريب، كتقسيم الناس إلى ثلاثة ألوان بين البياض والسواد وما بينهما.

ووجود «الطبقة» بهذا المعنى أمر اقتضاه نظام الوجود كله، الذي قضى بالاختلاف والتفاوت حتى بين النباتات بل الجمادات، فما بالنا بالإنسان، وبين أفراده من التفاوت ما لا يوجد في أي نوع من الأنواع

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الوصايا (٢٧٥٣)، ومسلم في الإيمان (٢٠٤)، عن أبي هريرة.
(٢) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٩)، وأحمد (٧٤٢٧)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

الأخرى للكائنات؟ حتى جاء في الحديث الشريف: «**ليس شيء خيرًا من ألف مثله إلا الإنسان**»(١).

ولقد زال رأس المال من روسيا وزال معه أغنياؤها وسراتها ونبلاؤها، وسيطر الحكم الاشتراكي، ومع هذا ظهرت فيها ـ كما قال الأستاذ العقاد ـ «طبقة حاكمة من الخبراء والمهندسين لا تدانيها في سطوتها واستبدادها طبقة حاكمة في أشهر البلاد باستبداد نظم الصناعة ورأس المال»(٢).

ولقد كان الإسلام دين الفطرة والواقع حقًّا، حين اعترف بالتفاضل الموجود فعلًا في كل بلاد الدنيا ـ رأسمالية أو شيوعية ـ فقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِ ﴾ [النحل: ٧١]، ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وإذا كان هذا صُنع الله، فإنَّ الله لا يصنع شيئًا عبثًا، إنَّما يصنعه لحكمة بالغة، والحكمة هنا كما ذكر القرآن: أمران:

أولهما: الابتلاء الذي على أساسه يقوم التكليف والجزاء: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡ ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

والثاني: التسخير: ﴿وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗا﴾ [الزخرف: ٣٢].

وهذا ليس تسخير القهر والإذلال، بل تسخير النظام والمصلحة المشتركة، فلو كانت الحياة مصنعًا لم يكن صلاحه أن يكون كل العاملين

(١) رواه الطبراني (٢٣٨/٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٦١٨): رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن محمد بن يوسف وهو ثقة، وحسن إسناده العراقي في تخريج الإحياء صـ ٨٩٩، وقال الألباني في الصحيحة (٢١٨٣)، عن سلمان الفارسي.

(٢) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للعقاد صـ ١٤٨، نشر نهضة مصر، ط ٤، ٢٠٠٥م.

QaradawiBooks.com

فيه مديرين أو مهندسين، بل لا بد من المدير والمهندس ورئيس القسم والمساعد والكاتب والعامل والخفير، وهكذا يعمل بعضهم تحت رعاية البعض الآخر وإشرافه ليستقيم الأمر، ويأتي بخير الثمار.

وإذا كان التفاضل في الرزق لا يمنح صاحبه ميزة على غيره في المجتمع المسلم، فإنَّ التفاضل الحقيقي المعترف به هو التفاضل في مجال العلم والإيمان والعمل.

﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٢].

وهكذا يقيم الإسلام العلاقة بين الغني والفقير على أساس العدل والمساواة والإخاء، فهو يُسوِّي بين الجميع في أصل الحقوق والواجبات.

ويتيح الفرصة للجميع ليكسبوا ويقول لهم جميعًا: ﴿ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

ويقول للأغنياء بعد هذا: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

ويقول لولي الأمر: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً ...﴾ [التوبة: ١٠٣].

ويقول للفقير: لا تحقد ولا تحسد: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [طه: ١٣١].

ويقول للجميع بعد هذا: «**كونوا عباد الله إخوانًا**»[1].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥١٤٣)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٣)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

وهكذا كان الإخاء يسود المجتمع الإسلامي كله، فلم يحقد فقير على غني، ولم يبغ غني على فقير، وشعر الغني أنَّ الفقير أخوه، وشعر الفقير أنَّ مال الغني ماله، ورأينا بلال بن رباح، وعمار بن ياسر، وأبا هريرة، وأهل الصُّفَّة، جنبًا إلى جنب، مع عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، لا يشعرون إلا بالإخاء والمحبة والتعاون.

وفي عهد رسول الله ﷺ لم نَرَ الفقراء يحسدون الأغنياء أو يغبطونهم إلَّا في مجال أرفع ممَّا يتنافس عليه الماديون، فقد ذهب الفقراء إلى النبي ﷺ يشكون إليه تفوق الأغنياء عليهم، فماذا قالوا؟

لنقرأ معًا هذا الحديث الذي رواه الشيخان عن أبي هريرة: أنَّ فقراء المهاجرين أتوا النبي ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور (الأموال) بالدرجات العلا والنعيم المقيم! فقال: «**وما ذاك؟**» قالوا: يصلون كما نصلِّي، ويصومون كما نصوم، ويتصدَّقون ولا نتصدَّق، ويُعتِقون (العبيد) ولا نعتق! فقال رسول الله ﷺ: «**أفلا أعلمكم شيئًا تدركون به من قد سبقكم، وتسبقون به مَن بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم**»؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**تسبحون وتكبرون وتحمدون ـ دبر كل صلاة ـ ثلاثًا وثلاثين مرة**»، قال أبو صالح (الراوي عن أبي هريرة): فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: «﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾»[1] [المائدة: ٥٤].

هذا ما كان يتنافس فيه الفقراء والأغنياء في ذلك المجتمع المثالي: أيهم يسبق بالخيرات، ويزيد على غيره في عمل الصَّالحات!

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٨٤٣)، ومسلم في المساجد (٥٩٥)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرَضَاوِي

خاتمة

دور الدولة في الإلزام بالقيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

دور الدولة في الإلزام بالقيم والأخلاق

حاجة الناس إلى هذه القيم والتعاليم:

هذه القيم والأخلاق التي وضَّحناها، وهـذه الحقائق والتعاليم التي ذكرناها، هي روح الاقتصاد الإسلامي، روحه الذي يبعث في كل قوانينه وشـرائعه الحياة؛ لأنَّها حقائق تحتل مـن عقل المسـلم وقلبه وحياته الفكرية والوجدانية مكانًا فسيحًا عميقًا.

هذه الحقائق والتعاليم ليست أفكار فيلسوف، ولا اجتهادات مصلح، ولا استنباطات فقيه، ولا خيالات شاعر أو فنان، أعني أنها ـ في أصولها ـ ليست آراء بشر نأخذ منها وندع، كلا، إنَّما هي توجيهات إلٰهية، وتعليمات نبوية، أنزل الله بها كتابه المبين، وبعث بها رسـوله الكريم، ليرسـي في الحياة ركائز الحق، ويضع فيها موازين القسط، ويُحيي فيها نوازع الخير، ويُضيء للناس مصابيح الهدى، ويُبيِّن لهـم معالم الطريق، فلا تضطرب بهم الغايات، ولا تتفرق به السُّـبُل، ولا ينحرف بهـم الأدلاء الجاهلون والمضلُّون: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

QaradawiBooks.com

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ۝ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٤، ١٧٥].

وما أحوج الناس في دنيانا هذه ـ وفي عصرنا هذا خاصة ـ إلى هذه الهداية الإلٰهية، ما أحوجهم إلى نور الله في ظلمات المادة! ما أحوجهم إلى «سبل السَّلام» في عالم الحروب بين الدول، والصراع بين الطبقات، والتحاسد بين الأفراد! ما أحوجهم إلى رحمة الله وفضله في دنيا القسوة والأنانية! ما أحوجهم إلى الصِّراط المستقيم في عصر التطرُّف في المذاهب والأفكار، وتفرق السُّبُل التي على رأس كل منها شيطان: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقد تبين لنا من خلال تلك الأبواب والفصول والمباحث: أنَّ للفرد في الالتزام بهذه القيم ورعايتها دورًا لا يُنكر، فهو المخاطَب الأول بهذه التعاليم، وإسعاده هو الهدف الأول من ورائها، كما أنَّه هو الوسيلة والأداة في تحقيقها.

دور الدولة في الإلزام بالقِيَم:

بقي هنا سؤال مهم، وهو: هل للدولة المسلمة دور في الإلزام بالقيم والأخلاق في مجال الاقتصاد والمعاملات؟ بمعنى: أن تصدر بذلك التشريعات المنظمة، والقوانين الملزمة، وتحدد العقوبات لمن خالف ذلك بلا عذر؟

أعتقد أنَّ دراستنا هذه قد أجابت عن هذا السؤال الكبير والمهم بالإيجاب بلا ريب.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فمهمة الدولة الإسلامية: أن تحوِّل الفكرة إلى عمل، وتحوِّل القيمة إلى قانون، وأن تنقل المثاليات الأخلاقية إلى ممارسات واقعية، وأن تنشئ من المؤسسات والأجهزة ما يقوم بمهمة الحراسة والتنمية والتطوير لهذا كله، وأن تقوم بمراقبة التنفيذ بعد ذلك، ومدى قيامه بالواجب المطلوب أو تخلُّفه عنه، وأن تعاقب من تعدَّى وخالف، أو أهمل إهمالًا مخلًّا.

مهمة الدولة أن تعمل على إقامة الفرائض والواجبات، وأن تمنع وقوع المحرَّمات، وبخاصة الكبائر منها، مثل: الربا، والغصب، والسرقة، وظلم الأقوياء للضعفاء.

وقد قال تعالى في وصف المؤمنين الممَكَّنين في الأرض: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١].

والتمكين في الأرض للمؤمنين يعني أن تكون السلطة بأيديهم، والكلمة والقرار لهم، لا لغيرهم، ولا بد أن يظهر أثر هذا التمكين في إقامة حقوق الله، وأبرزها الصلاة، ورعاية حقوق الناس، وبخاصة الفقراء والضعفاء، وأبرزها الزكاة، وإشاعة الحق والخير والصلاح، وهو ما يُعبَّر عنه بالأمر بالمعروف، ومقاومة الباطل والشر والفساد، وهو ما يُعبَّر عنه بالنهي عن المنكر.

وقد قال ﷺ: «**كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راعٍ، وهو مسؤول عن رعيته...**»[1].

(١) سبق تخريجه صـ ٢١٧.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وقال: «**أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، من ترك مالًا فلورثته، ومن ترك دَيْنًا أو ضياعًا** (أي: عيالًا ضائعين لصغرهم وفقرهم) **فإليَّ وعليَّ**»[(١)].

وقال أبو بكر في أول خطبة له بعد توليه الخلافة: «ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه».

وقال عمر الخليفة الثاني: «واللهِ، ما أحد أحق بهذا المال (مال الفيء) من أحد، وما أنا أحق به من أحد، واللهِ، ما من المسلمين أحد إلا وله في هذا المال نصيب... فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقَدَمه في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته... واللهِ، لئن بقيتُ لهم، ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظُّه من هذا المال، وهو يرعى مكانه»[(٢)].

وقال عثمان الخليفة الثالث: «إنَّ الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»[(٣)].

ومن هنا نرى دور الدولة في المجال الاقتصادي ثابتًا مؤكَّدًا في رعاية القيم والإلزام بها، وذلك في كل المجالات بلا استثناء: الإنتاج، والاستهلاك، والتوزيع، والتداول.

دور الدولة مع الزكاة والربا:

لقد رأينا الإسلام يشرك الدولة في المسؤولية عن تحصيل الزكاة وتوزيعها.

وهذا أمر واضح في القرآن الكريم والسُّنَّة النبويَّة؛ فالزكاة فريضة مالية «**تؤخذ من الأغنياء لترد على الفقراء**»، والذي يأخذها هو السلطان

(١) سبق تخريجه صـ ٤٠٧.

(٢) سبق تخريجه صـ٣٩٩.

(٣) ذكره ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٤١٦/١١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

أو ولي الأمر الشرعي بوساطة من سمَّاهم القرآن: «العاملين عليها»، وهم الذين يقومون على أمر الزكاة جبايةً وحفظًا وصرفًا ومحاسبةً.

وقد بعث النبي ﷺ جُباته وعُمَّاله إلى جميع الجهات والقبائل في جزيرة العرب، لأخذ الزكاة ـ وخصوصًا زكاة الأنعام ـ ممَّن ملكوا نصابها[1].

بهذا جعل الإسلام على أداء الزكاة حُرَّاسًا ثلاثة:

الحارس الأول: إيمان المسلم وضميره الديني، الذي يدفعه إلى أداء الواجب، ابتغاء مرضاة الله، ورجاء مثوبته، وخوفًا من عقوبته.

والحارس الثاني: الضّمير الاجتماعي، الـذي يتمثل في الرأي العام الإسـلامي، الذي تكوِّنه فريضة الأمر بالمعروف والنهـي عن المنكر، والتواصي بالحق والصبر.

والحارس الثالث: هو سلطان الدولة المسلمة المخوَّلة بأخذ الزكاة، ولو كرهًا، ممَّن لم يؤتها طوعًـا، بل تقاتل عليها أي جماعة امتنعت من أدائها وكانت ذات شَوْكة.

والخليفة الأول أبو بكر قد حارب مانعي الزكاة، كما حارب مدَّعي النبوة ودعاة الرِّدَّة، وجهَّز لحربهم أحد عشر لواءً، وقال كلمته التاريخية: «واللهِ، لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ، لقاتلتهم عليه».

وكما أنَّ الدولة في الإسلام مسؤولة عن تطبيق الزكاة، فهي مسؤولة كذلك عن تطبيق تحريم الربا.

والقرآن يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

(١) انظر كتابنا: فقه الزكاة، فصل: علاقة الدولة بالزكاة (٢/٧٥٨ ـ ٨٠٢).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فالحرب التي يؤذن بها المرابون هنا، ليست حربًا من الله فقط، بل هي حرب من رسوله أيضًا، ورسوله هو إمام المسلمين ورئيس دولتهم.

وقد خطب الرسول ﷺ في حجَّة الوداع خطبته الشهيرة، وفيها قال: «**ألا إنَّ ربا الجاهلية موضوع** (أي: ساقط مُلغًى)، **وأول ربا أضعه: ربا عمي العباس**»[(١)].

حق المجتمع في فضل مال المسلم:

وإذا نظرنا إلى الحقوق المفروضة على مال المسلم بعد الزكاة، رأيناها تجب في فضل ماله، أي ما فضل عن حاجته وحاجة عياله بالمعروف، وهو المسمَّى في لغة القرآن: «العفو»، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

أما مقدار هذا الإنفاق ومدى الإلزام به، فيختلف باختلاف الحاجات والطوارئ التي تطرأ على الأفراد والمجتمع.

فأحيانًا يكون الإنفاق مستحبًّا، وأحيانًا يكون واجبًا، وقد يرتقي الوجوب فيصبح من أعظم الفرائض.

وهنا قد يدعه أولو الأمر لضمائر الناس وإيمانهم، وقد يتدخل ولي الأمر بإصدار الأوامر والتعليمات دون إلزام، وقد يزيد على ذلك بالإلزام والعقوبة لكلِّ مقصِّرٍ أو مخالف.

من ذلك: ما ذكره النبي ﷺ عن الأشعريين، إذ قال: «**إنَّ الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قَلَّ طعام عيالهم بالمدينة، جعلوا ما كان عندهم**

(١) رواه مسلم في الحج (١٢١٨)، وأحمد (٢٠٦٩٥)، عن جابر.

QaradawiBooks.com

في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسَّويَّة، فهم منِّي، وأنا منهم»[١].

فهؤلاء ليس للقانون ولا للحاكم سبيل عليهم، فقد أدَّوْا واجبهم بسلطان الإيمان والإخاء، دون حاجة إلى سلطان القانون والقضاء.

ومن ذلك: ما جاء عن النبي ﷺ من النهي عن ادِّخار لحوم الأضاحي إذا كان بالناس أزمة أو حاجة عارضة؛ قال: «**كنت نهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث، ليتسع ذوو الطول على من لا طول له، فكلوا ما بدا لكم، وأطعموا وادَّخروا**»[٢].

وفي حديث آخر: «**إنَّما نهيتكم من أجل الدافّة، التي دفّت، فكلوا وادَّخروا وتصدَّقوا**»[٣].

والمراد بالدافّة: مَنْ وفد من ضعاف الأعراب على المدينة بمناسبة العيد.

ومن الحاجات العارضة: السفر والغزو.

كما في حديث أبي سعيد الخدري: بينما نحن في سفر، إذ جاء رجل على راحلة له، فجعل يصرف بصره يمينًا وشمالًا، فقال رسول الله ﷺ: «**من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له**»... فذكر من أصناف المال ما ذكر، حتى رأينا أنَّه لا حقَّ لأحدٍ منَّا في فضل[٤].

---

(١) سبق تخريجه صـ٤١٤.

(٢) رواه مسلم في الجنائز (٩٧٧) مختصرًا، وأحمد (٢٢٩٥٨)، والترمذي في الأضاحي (١٥١٠)، عن بريدة بن الحصيب.

(٣) رواه مسلم (١٩٧١)، وأبو داود (٢٨١٢)، كلاهما في الأضاحي، عن عائشة.

(٤) رواه مسلم في اللقطة (١٧٢٨)، وأبو داود في الزكاة (١٦٦٣)، عن أبي سعيد الخدري.

QaradawiBooks.com

والمراد بالظهر: ما يُركب على ظهره من الدواب.

وحديث جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنَّه أراد أن يغزو، فقال: «**يا معشر المهاجرين والأنصار، إن من إخوانكم قومًا ليس لهم مال ولا عشيرة، فليضم أحدكم إليه الرجلين أو الثلاثة، فما لأحدنا من ظهر يحمله إلا عُقْبة كعقبة. يعني: أحدهم، قال: فضممت إليَّ اثنين أو ثلاثة، ما لي إلا عُقبة كعقبة أحدهم من جملي**»[(١)].

أي ليس له إلا نوبة يتناوبها في ركوب جمله مع اثنين أو ثلاثة آخرين.

ومن ذلك نرى أنَّ الأزمات التموينية حاجة تستدعي فرض حق على المال، كمنع الاستثمار أو الادِّخار، وكذلك السفر أو الغزو، أو نزول ضيوف طارئين على البلد، أو نحو ذلك، وكل هذا في فضل مال المسلم أو «العفو».

وأهم من ذلك: وجود فقراء في المجتمع لا يجدون كفايتهم وكفاية أسرهم، فهؤلاء يجب أن يوفر لهم ما يحقِّق تمام كفايتهم بالمعروف، والمجتمع كله متضامن في ذلك، حتى لا يكون ممَّن قال الله فيهم: ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: ٤٤]، ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الفجر: ١٧، ١٨].

فالمجتمع المسلم مجتمع متكافل متراحم، لا يدع المسكين يجوع وهو قادر على إطعامه، ومثل إطعامه: كسوته، وعلاجه، ورعاية كل حاجاته. وكل مؤمن بالدين عليه واجبان نحو المسكين:

---

(١) رواه أحمد (١٤٨٦٣)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود (٢٥٣٤)، والحاكم (٩٠/٢)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، كلاهما في الجهاد، عن جابر بن عبد الله.

QaradawiBooks.com

الأول: أن يطعمه ويرعاه إن قدر على ذلك.

والثاني: أن يحضَّ غيره على إطعامه، وإلا وقع تحت وعيد الله في قوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۞ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١ ـ ٣].

وقوله تعالى في أصحاب الشمال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٣٣، ٣٤].

وللسلطان ـ أي: الدولة ـ أن تجبر القادرين على إعطاء ما يكفي العاجزين والمحتاجين، بل هذا هو واجبها ومقتضى مسؤوليتها عن رعيتها، وقد نقلنا قبل ذلك عن ابن حزم ما يؤيد ذلك.

الإشراف على السوق:

وكان النبي ﷺ يشرف على السُّوق بين الحين والحين ناصحًا تارة، وزاجرًا تارة، ومؤدبًا طورًا آخر.

ولم يكتفِ بذلك بل استعمل ﷺ سعيد بن سعيد بن العاص بن أمية على سوق مكة، كما ذكره ابن عبد البر[١].

وأخرج ابن سعد عن الزهري: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل عبد الله بن عتبة على السوق[٢].

كما ذكر ابن عبد البر: أنَّه استعمل أحيانًا الشفاء بنت عبد الله القرشية العدوية على شيء من أمر السوق[٣].

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر (٦٢١/٢) ترجمة رقم (٩٨٤)، نشر دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

(٢) الطبقات الكبرى (٥٨/٥).

(٣) الاستيعاب (١٨٦٨/٤ ـ ١٨٦٩)، ترجمة رقم (٣٣٩٨).

QaradawiBooks.com

الدولة مؤسسة إرشادية وتربوية أيضًا:

والدولة في الإسلام ليست سوطًا يُرْهِب، ولا قوة تُرْعِب، إنَّما هي مؤسسة إرشادية وتربوية، إلى جوار أنَّها مؤسسة سياسية وإدارية وإلزامية.

وهكذا كان النبي ﷺ: داعيةً ومعلِّمًا، كما كان قائدًا وإمامًا.

وقد بعث معاذ بن جبل إلى اليمن، كما في الحديث المتفق عليه، واختلف العلماء والشُّرَّاح: هل كان واليًا أو قاضيًا أو معلِّمًا وداعية؟ والحق أنَّه كان ذلك كله.

وعمر بن الخطاب يمنع الناس من الإسراف في استهلاك اللحوم، ويمنع الذبح في بعض الأيام، ويشرف على ذلك بنفسه، ولكنَّه يقف مع ذلك مربِّيًا ومعلِّمًا للناس قائلًا لهم: أما يريد أحدكم أن يطوي بطنه لأخيه وابن عمِّه؟! أَوَكلَّما اشتهيتم اشتريتم[1]؟! وهذا هو موقف الداعية المربِّي.

وكذلك كان عمر يبعث ولاته إلى الأقاليم دعاةً ومعلمين قبل كل شيء.

يقول عمر: «اللهمَّ إنِّي أشهدك على أمراء الأمصار، فإنَّما بعثتهم ليُعلِّموا النَّاس دينهم، وسنة نبيهم ﷺ، ويقسموا فيهم فيئهم، ويعدلوا عليهم، ويرفعوا إليَّ ما أشكل من أمرهم»[2].

وخطب عمرُ النَّاسَ يومًا فقال: ألا واللهِ إني لا أرسل عُمَّالي (أي: ولاتي) إليكم ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أرسلهم إليكم ليعلِّموكم دينكم وسُنَّتكم، فمن فُعِلَ به شيءٌ سوى ذلك، فليرفعه إليَّ، فوالذي نفسي بيده، إذنْ لأقصَّنَّه منه (أي: لأمكِّننَّه من أن يقتص من

---

(١) سبق تخريجه صـ٢٥٢.

(٢) رواه مسلم في المساجد (٥٦٧)، وأحمد (١٨٦).

QaradawiBooks.com

الوالي)... ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تُجمِّروهم فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم[١].

ومعنى «لا تُجمِّروهم»: أي لا تجمعوهم في الثغور، وتحبسوهم عن العودة إلى أهليهم، فيكون من وراء ذلك فتنة على الرجل وعلى أهله.

امتناع النبي عن التسعير وتفسيره:

وربما يستدل بعض الناس على أنَّ الدولة في الإسلام لا تتدخل في الاقتصاد مُلْزِمة بالقِيم والأخلاق أو مُعَاقِبة على من انحرف عنها، بالحديث الذي رواه أنس: قال الناس: يا رسول الله، غلا السعر، فسعِّر لنا، فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله هو المُسَعِّر القابض الباسط الرازق، وإني لأرجو أن ألقى الله، وليس أحد منكم يطالبني بمظلمة في دم ولا مال**»[٢].

وعن أبي هريرة أنَّ رجلًا جاء فقال: يا رسول الله، سَعِّر، فقال: «**بل أدعو**»، ثم جاءه رجل فقال: يا رسول الله، سَعِّر، فقال: «**بل الله يخفض ويرفع، وإنِّي لأرجو أن ألقى الله، وليس لأحد عندي مظلمة**»[٣].

---

(١) رواه أحمد (٢٨٦)، وقال مخرِّجوه: أبو فِراس النهدي، لم يروِ عنه غير واحد، ولم يوثقه غير ابن حبان، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين. وحسن إسناده الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على المسند، ورواه ابن أبي شيبة في السير (٣٣٥٩٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٠٦٨): في الصحيح طرف منه ـ صحيح البخاري (٢٦٤١) ـ وأبو فراس لم أرَ مَن جرحه ولا وثقه، وبقية رجاله ثقات.

(٢) رواه أحمد (١٤٠٥٧)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وأبو داود (٣٤٥١)، والترمذي (١٣١٤)، كلاهما في البيوع، وابن ماجه في التجارات (٢٢٠٠)، وصحَّحه الألباني في غاية المرام (٣٢٣).

(٣) رواه أحمد (٨٤٤٨)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وأبو داود في البيوع (٣٤٥٠)، وحسن إسناد أبي داود ابنُ الملقن في البدر المنير (٥٠٨/٦).

QaradawiBooks.com

كما روى نحو ذلك عن أبي سعيد[١] وعليّ[٢] وغيرهما من الصحابة[٣].

ولم يستدل أحد بهذا الحديث أو ذاك على سلبية الدولة في الإسلام، وتخلِّيها عن الإلزام بالقيم والأخلاق الإسلامية في المجال الاقتصادي، إنَّما استدل به من استدل على أن موقف الدولة هنا هو ترك السوق حُرَّة للعوامل الطبيعية، دون تدخل مفتعل من جانبها يُكْرِه الناس على البيع بثمن لا يرضونه، أو على الاشتراء بثمن لا يقبلونه، ويرون هذا مظلمة ـ كما جاء في الحديث ـ لا ينبغي لمسلم أن يلقى الله تعالى وهو يحمل وزرها.

قال الشوكاني: وقد استدل بالحديث وما ورد في معناه على تحريم التسعير وأنه مظلمة «وهو أن يأمر السلطان أهل السوق ألا يبيعوا بضائعهم إلا بسعر كذا، فيمنع من الزيادة عليه أو النقصان منه»، ووجهه: أنَّ الناس مسلَّطون على أموالهم، والتسعير حجر عليهم، والإمام مأمور برعاية مصلحة المسلمين، وليس نظره في مصلحة المشتري برخص الثمن، أولى من نظره في مصلحة البائع بتوفير الثمن، وإذا تقابل الأمران، وجب تمكين الفريقين في مصلحة البائع بتوفير الثمن، وإذا تقابل الأمران، وجب تمكين الفريقين من الاجتهاد لأنفسهم، وإلزام صاحب السلعة أن

(١) رواه أحمد (١١٨٠٩)، وقال مخرِّجوه: صحيح لغيره. وابن ماجه في التجارات (٢٢٠١).

(٢) رواه البزار (٨٩٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٤٧٠): فيه الأصبغ بن نباتة؛ وثقه العجلي، وضعفه الأئمة، وقال بعضهم: متروك.

(٣) رواه الطبراني في الصغير (٧٨٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٤٦٩): رواه الطبراني في الصغير، وفيه علي بن يونس، وهو ضعيف، عن ابن عباس. ورواه الطبراني (١٢٥/٢٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٤٧١): فيه غسان بن الربيع، وهو ضعيف، عن أبي جحيفة.

QaradawiBooks.com

يبيع بما لا يرضى به مُنافٍ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمۡ﴾ [النساء: ٢٩]، وإلى هذا ذهب جمهور العلماء. وروي عن مالك: أنَّه يجوز للإمام التسعير، وأحاديث الباب ترد عليه[١].

وموضع الوهن في هذا الاستدلال من العلامة الشوكاني يرجع إلى نقطتين أساسيتين:

الأولى: قوله: «إنَّ الناس مُسلَّطون على أموالهم، والتسعير حجر عليهم»، هكذا بإطلاق، وهو أشبه بكلام قوم شعيب: ﴿أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ [هود: ٨٧]، والصواب: أنَّ الناس مُستخلَفون في أموالهم، مُسلَّطون عليها بما لا يضرهم، ولا يضار غيرهم، إذ لا ضرر ولا ضِرار.

والثانية: أنَّ الحديث ـ كما ذكر صاحب «سبل السلام»[٢] ـ ورد في أمر خاص، أو في قضية حال معينة، ولم يجئ بلفظ عام، ومن المقرَّر في علم أصول الفقه: أنَّ قضايا الأعيان لا عموم لها.

قال ابن تيمية: ومن منع التسعير مطلقًا محتجًّا بحديث: «**إن الله هو المسعِّر**»... فقد غلط، فإن هذه قضية معينة، ليست لفظًا عامًّا، وليس فيها أن أحدًا امتنع من بيع يجب عليه، أو عمل يجب عليه، أو طلب في ذلك أكثر من عوض المثل[٣].

ومن هنا ينبغي النظر في الحديث المذكور على ضوء ذلك، ناظرين إلى العلة أو الحكمة التي كانت وراء الامتناع من التسعير في ذلك الوقت، فما شابهها يأخذ حكمها، وما لا فلا.

---

(١) نيل الأوطار (٢٥٩/٥، ٢٦٠).

(٢) سبل السلام (٢٥/٣)، نشر مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط ٤، ١٣٧٩هـ ـ ١٩٦٠م.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٩٥/٢٨).

QaradawiBooks.com

وهذا هو ما اتجه إليه شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته في «الحسبة»، ونقله عنه وأقره تلميذه الإمام ابن القيم، في كتابه: «الطرق الحكمية».

التسعير الممنوع والتسعير المشروع:

يقرر ابن تيمية أنَّ التسعير «منه ما هو ظلم محرَّم، ومنه ما هو عدل جائز.

فإذا تضمن ظلم الناس وإكراههم بغير حق على البيع بثمن لا يرضونه، أو منعهم ممَّا أباح الله لهم، فهو حرام. وإذا تضمن العدل بين الناس، مثل إكراههم على ما يجب عليهم من المعاوضة بثمن المثل، ومنعهم مما يحرم عليهم من أخذ الزيادة على عوض المثل، فهو جائز بل واجب.

فأما القسم الأول: فمثل ما روى أنس قال: «غلا السعر على عهد النبي ﷺ ...» الحديث[1].

فإذا كان الناس يبيعون سلعهم على الوجه المعروف من غير ظلم منهم، وقد ارتفع السعر، إمَّا لقلة الشيء، وإمَّا لكثرة الخلق (إشارة إلى قانون العرض والطلب)، فهذا إلى الله، فإلزام الناس أن يبيعوا بقيمة بعينها: إكراه بغير حق.

وأما الثاني: فمثل أن يمتنع أرباب السلع من بيعها ـ مع حاجة الناس إليها ـ إلا بزيادة على القيمة المعروفة؛ فهنا يجب عليهم بيعها بقيمة المثل، ولا معنى للتسعير إلا إلزامهم بقيمة المثل، والتسعير ههنا إلزام بالعدل الذي ألزمهم الله به»[2].

---

(١) سبق تخريجه صـ ٣٠٥.

(٢) مجموع الفتاوى (٧٦/٢٨، ٧٧).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

التدخل لمنع الظلم والاحتكار:

ومن أقبح الظلم الذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية، ونقله عنه العلامة ابن القيم: أن يلزم الناس ألَّا يبيع الطعام أو غيره من الأصناف إلا ناسٌ معروفون، فلا تباع تلك السلع إلا لهم، ثم يبيعونها هم بما يريدون، فلو باع غيرهم ذلك مُنِعَ وعُوقب. فهذا من البغي في الأرض والفساد والظلم، الذي يُحبس به قَطْر السَّماء. وهؤلاء يجب التسعير عليهم، وأن لا يبيعوا إلا بقيمة المثل، ولا يشتروا إلا بقيمة المثل، بلا تردد في ذلك عند أحد من العلماء؛ لأنَّه إذا مُنِع غيرهم أن يبيع ذلك النوع أو يشتريه، فلو سوِّغ لهم أن يبيعوا بما شاؤوا، أو يشتروا بما شاؤوا: كان ذلك ظلمًا للناس: ظلمًا للبائعين الذي يريدون بيع تلك السلع، وظلمًا للمشترين منهم.

فالتسعير في مثل هذا واجب بلا نزاع. وحقيقته: إلزامهم بالعدل، ومنعهم من الظلم.

ولهذا منع غير واحد من العلماء ـ كأبي حنيفة وأصحابه ـ القسَّامين الذين يقسمون العقار وغيره بالأجر، أن يشتركوا والناس محتاجون إليهم، حتى لا يغلوا عليهم الأجر؛ فمنع البائعين الذين تواطؤوا على أن لا يبيعوا إلا بثمنٍ قدَّروه أولى. وكذلك منع المشترين إذا تواطؤوا على أن يشتركوا، فإنهم إذا اشتركوا فيما يشتريه أحدهم حتى يهضموا سلع الناس أولى أيضًا. فإذا كانت الطائفة التي تشتري نوعًا من السلع أو تبيعها قد تواطأت على أن يهضموا ما يشترونه، فيشترونه بدون ثمن المثل المعروف، ويزيدون ما يبيعونه بأكثر من الثمن المعروف ويُنْمُوا ما يشترونه: كان هذا أعظم عدوانًا من تلقِّي السلع، ومن بيع الحاضر للبادي، ومن النَّجَش، ويكونون

QaradawiBooks.com

قد اتفقوا على ظلم الناس حتى يضطروا إلى بيع سلعهم وشرائها بأكثر من ثمن المثل، والناس يحتاجون إلى بيع ذلك وشرائه، وما احتاج إلى بيعه وشرائه عموم الناس فإنَّه يجب أن لا يُباع إلا بثمن المثل، إذا كانت الحاجة إلى بيعه وشرائه عامة.

وقد ذكر ابن تيمية هنا مسألة تنازع فيها العلماء، وهي:

إذا كان للناس سعر غالب، فأراد بعضهم أن يبيع بأغلى من ذلك، فإنَّه يُمنع من ذلك عند مالك، وهل يُمنع من النقصان؟ على قولين لهم.

واحتج مالك رَحِمَهُ اللَّهُ بما رواه في «موطئه» عن يونس بن سيف عن سعيد بن المسيب: أنَّ عمر بن الخطاب مرَّ بحاطب بن أبي بلتعة، وهو يبيع زبيبًا له بالسوق، فقال له عمر: إمَّا أن تزيد في السعر، وإمَّا أن تُرفع من سوقنا[1]. قال مالك: لو أنَّ رجلًا أراد فساد السوق فحطَّ عن سعر الناس لرأيت أن يقال له: إمَّا لحقت بسعر الناس، وإمَّا رُفعت.

وهذا ما يفعله بعض حيتان الرأسماليين من اليهود وأمثالهم؛ ينزلون عن السعر المعتاد، ويبيعون ـ ولو بخسارة ـ لضرب السوق، فيخسر الصغار، بل يفلسون، ثم ينفردون هم بالسوق بعد ذلك ويحتكرون السلعة، فيتحكَّمون في بيعها بالسعر الذي يشاؤون.

وذكر ابن تيمية أنَّه لا يجوز عند أحد من العلماء أن يقول للتجار: «لا تبيعوا إلا بكذا وكذا، ربحتم أو خسرتم، من غير أن ينظر إلى ما يشترون به، ولا أن يقول لهم فيما قد اشتروه: لا تبيعوه إلا بكذا وكذا ممَّا هو مثل الثمن أو أقل».

(١) رواه مالك في البيوع (٢٣٩٩)، تحقيق الأعظمي.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ومعنى هذا أنَّ التسعير العادل هو الذي يراعي الثمن الذي اشتريت به السلعة حقيقة، ثم يفرض بعده ربحًا معقولًا، وبذلك لا يُظلم التاجر ولا يُظلم المستهلك، كما لا يُظلم المنتج.

قال: «وإذا ضرب لهم الربح على قدر ما يشترون: لم يتركهم أن يغلوا في الشراء وإن لم يزيدوا في الربح على القدر الذي حدَّ لهم. فإنهم قد يتساهلون في الشراء إذا علموا أنَّ الربح لا يفوتهم».

وهنا أيضًا نظرة إلى مصلحة المستهلك، فإنَّ التسعير ـ بتحديد الربح ـ لا ينفعه إذا كان ثمن الشراء عاليًا، نتيجة تهاون التُّجَّار مع المنتجين أو اتفاق الطرفين، قال: وأبعد الأئمة عن إيجاب المعاوضة وتقديرها: هو الشافعي. ومع هذا فإنَّه يوجب على من اضطر الإنسان إلى طعامه: أن يبذله له بثمن المثل. وتنازع أصحابه في جواز تسعير الطعام، إذا كان بالناس إليه حاجة، ولهم فيه وجهان.

وقال أصحاب أبي حنيفة: لا ينبغي للسلطان أن يُسَعِّر على الناس، إلا إذا تعلق به حق «دفع» ضرر العامة. فإذا رُفِعَ إلى القاضي: أمر المحتكر ببيع ما فضل عن قوته وقوت أهله على اعتبار السّعة في ذلك ونهاه عن الاحتكار، فإن أبى: حبسه وعزَّره على مقتضى رأيه، زجرًا له ودفعًا للضرر عن الناس.

قالوا: فإن تعدى أرباب الطعام، وتجاوزوا القيمة، تعدِّيًا فاحشًا، وعجز القاضي عن صيانة حقوق المسلمين إلا بالتسعير: سَعَّره حينئذ بمشورة أهل الرأي والبصيرة[1].

(١) الهداية في شرح بداية المبتدي (٣٧٨/٤) بتصرف، تحقيق طلال يوسف، نشر دار إحياء التراث العربي.

QaradawiBooks.com

ومثل ذلك إذا احتاج الناس إلى أهل صنعة من الصناعات، فليس لهم أن يمتنعوا عن العمل أو يطلبوا فوق أجر المثل المعتاد، تحكمًا منهم واحتكارًا.

وعلى ولي الأمر المسؤول أن يجبرهم على ما يحتاج إليه من الناس من صناعاتهم كالفلاحة، والحياكة، والبناية. وإذا أجبرهم على ذلك فإنَّه يُقدّر لهم أجرة المثل. فلا يمكّن المستعمل لهم من نقص أجرة الصانع عن ذلك، ولا يمكِّن الصانع من المطالبة بأكثر من ذلك حيث تعين عليه العمل. وهذا من التسعير الواجب.

قال ابن تيمية: وكذلك إذا احتاج الناس إلى من يصنع لهم آلات الجهاد. من سلاح وجسر للحرب، وغير ذلك، فيستعمل بأجرة المثل، لا يمكّن المستعملون من ظلمهم، ولا العمال من مطالبتهم بزيادةٍ على حقِّهم، مع الحاجة إليهم، فهذا تسعير في الأعمال[1].

وختم ابن تيمية بحثه بقوله: «وجماع الأمر: أنَّ مصلحة الناس إذا لم تتمَّ إلا بالتسعير، سَعَّر عليهم تسعير عدل لا وكس ولا شطط، وإذا اندفعت حاجتهم، وتمَّت مصلحتهم بدونه لم يفعل، وبالله التوفيق»[2].

إنَّ الدولة والمجتمع والأفراد مسؤولون جميعًا عن إشاعة القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، وعن غرس القيم والأخلاق في

(١) مجموع الفتاوى (٨٦/٢٨، ٨٧).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٠٥/٢٨)، والطرق الحكمية لابن القيم (٦٨٣/٢)، تحقيق نايف بن أحمد الحمد، نشر دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٨هـ، نشر مكتبة دار البيان، والكلام منقول بتصرف.

QaradawiBooks.com

الأمة، وتربية أبنائها عليها. إنَّهم جميعًا مسؤولون عن تنمية الإنتاج، وترشيد الاستهلاك، وسلامة التداول، وعدالة التوزيع.

وآخر دعوانا: ﴿أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفِ القَرَضَاوِي

الفهارس العامة

- فهـرس الآيات القرآنيـة الكريمة.
- فهرس الأحاديث النبوية الشـريفة.
- فهرس الموضوعات.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

غير مرخصة للطباعة

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الفاتحة		
﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۞ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾	٢ ـ ٤	٣٥
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾	٥ ـ ٦	٣٥، ٣٤٠
سورة البقرة		
﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾	٣	٤٨، ٢٠٨
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾	٣٠	٣٥، ٦٧، ١٤٣، ١٤٥، ١٥٨، ٣٤٣
﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾	٣١	٣٤٣
﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾	٣٢	٦٧
﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾	٦٠	١٦٨
﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾	٧٤	٣١١
﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾	١٢٤	٣٥٩
﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾	١٤٣	٨٥، ١٨٥، ٣٨٤

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾	١٦٤	١٤٥
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾	١٦٨	٣١، ٦٩
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾	١٧٢	٣٢، ٢١٤، ٣٣٠
﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾	١٧٣	٤٠٤
﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾	١٧٧	٤١٤
﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾	١٧٨	١٥٦
﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾	١٨٠	٩١
﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾	١٨٣	٨، ١٥٦
﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ﴾	١٨٥	١٧، ٢٥
﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ﴾	١٨٧	٧٣
﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ﴾	١٨٨	٣٣، ٣٩، ١١٢
﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾	١٩٥	٢١٠
﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾	٢٠١	٨٩
﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾	٢٠٥	١٦٩
﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾	٢١٣	٣٧٩
﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾	٢١٥	٥٣، ٩١، ٢١١
﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ﴾	٢١٩	٥٣، ٦٢، ٢١١، ٤٤٨
﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ﴾	٢٢٠	١١٤، ٣٨٤
﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾	٢٢٣	٧٣

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾	٢٢٩	١٦٤
﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ﴾	٢٣٦	٢١٧
﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾	٢٤٥	٢١٠
﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾	٢٥٤	٤٨
﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾	٢٥٦	٣٤٢
﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾	٢٥٧	٣٤٣
﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾	٢٥٨	٣٧٦
﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾	٢٦١	٢١٠
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾	٢٦٤	٢٨٧
﴿أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾	٢٦٧	٤٠٨، ٤٣٨
﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾	٢٦٨	٤١٧
﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾	٢٧٤	٤، ٤١٧
﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ﴾	٢٧٥	٤، ٣٣
﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾	٢٧٦	٤
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾	٢٧٧	٤
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾	٢٧٨	٤، ٣٣، ٢٩٨، ٤٤٧
﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾	٢٧٩	٤، ٣٣، ٢٩٨، ٣٩٦، ٤٤٧
﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾	٢٨٠	٤، ٣١٦

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾	٢٨١	٤
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ ﴾	٢٨٢	١٨، ٩٥، ٢٧٠
سورة آل عمران		
﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾	٧	١٨
﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ ﴾	١٤ ـ ١٥	١٠٩
﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ ﴾	٥٧	٣٩٣
﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ ﴾	٦٤	٣٤٢
﴿ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ ﴾	٧٥	٢٩٩
﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ ﴾	٩٢	٤١٧
﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗا ﴾	٩٧	١٨٣
﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾	١٣٣ ـ ١٣٤	٤١٧
﴿ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾	١٣٦	١٤٠
﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾	١٤٨	٨٩
﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾	١٨٠	٤٨
سورة النساء		
﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ ﴾	١	٣٦٢
﴿ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ ﴾	٢	١١٤
﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ ﴾	٤	١١٥، ٣٦٥
﴿ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا ﴾	٥	٥٤، ٥٨، ٩٤، ٩٦، ٢٧٠

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا ﴾	٦	٩٦، ٢٧٠
﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ ﴾	٨	٣٦٩
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا ﴾	١٠	١١٤
﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ ﴾	١١ ـ ١٤	٣٦٧
﴿ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖ ﴾	١٢	٣٦٨
﴿ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾	١٣	٣٦٨
﴿ وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ ﴾	٢٠	١١٥
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾	٢٩	٣٣، ١١٢، ٤٥٥
﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا ﴾	٣٦	٣٦٢
﴿ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾	٣٧	٤٨
﴿ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ﴾	٣٩	٢٠٨
﴿ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾	٤٨	٣٤٣
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾	٥٨	٢٨٨، ٣٧٥
﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ ﴾	٦٠	٣٤٣
﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ ﴾	٧٦	٣٤٣
﴿ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ ﴾	٩٥	٣٨٨
﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾	١٠٥	٢٥
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾	١١٦	٣٤٢
﴿ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ ﴾	١٢٨	٣٧٢

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾	١٤١	١٨٥
﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾	١٦٥	٣٦
﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾	١٧٣	٣٩٥
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾	١٧٤ ـ ١٧٥	٤٤٤
﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾	١٧٦	٣٥، ٣٦٦
سورة المائدة		
﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾	٢	١٥٢، ٢٨٣
﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾	٤	٧٠
﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾	٦	١٧
﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾	١٣	٣١١
﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾	١٥ ـ ١٦	٤٤٣
﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ﴾	٤٤	٢٤
﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾	٤٩	٢٥
﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾	٥١	٢٨٣
﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾	٥٤	٤٣٩
﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾	٦٤	١٦٩
﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾	٦٦	٩٤
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾	٨٧	٧٠، ٢١٤، ٢٢٨
﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾	٨٨	٧٠، ٧١، ٢١٤

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ ﴾	٩٠ ـ ٩١	٦٢
﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖۚ ﴾	١٠٣	١٩٠
سورة الأنعام		
﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُ ﴾	١٤	٣٥، ٣٤١
﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾	٢١	٣٧٦
﴿ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴾	٢٩	٨٨
﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ ﴾	٤٤	٧٩، ١٠١
﴿ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗا ﴾	١١٤	٣٥، ٣٤١
﴿ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ ﴾	١١٥	٣٨٠
﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَا ﴾	١٢٣	٢٣٧
﴿ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴾	١٣٢	٣٨٩، ٣٩٦، ٤٣٨
﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ ﴾	١٣٨	١٦٩
﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ ﴾	١٤١	٢٢٨
﴿ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾	١٤٢ ـ ١٤٤	١٩٠
﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ ﴾	١٥١	١٠٠
﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾	١٥٢	١١٣، ١٥٧، ٣٠٣
﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ ﴾	١٥٣	٤٤٤
﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾	١٦٤	٣٥، ٣٤١، ١٤٥
﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ ﴾	١٦٥	٤٣٧

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الأعراف		
﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾	١٠	١٤٠، ١٤٥
﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ ﴾	٢٦	٧١، ١٧٩
﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ﴾	٢٩	٣٧٥
﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ ﴾	٣١	٣٢، ٧١، ٧٥، ٢١٤، ٢٢٨، ٢٥٠، ٢٥٨
﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ ﴾	٣٢	٣٢، ٧٥، ٢٠٦، ٢١٤، ٢٢٨
﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾	٥٦	١٦٨
﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ ﴾	٧٤	٧٢، ١٦٨، ٢٢٦
﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾	٨١	٢٤٢
﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾	٨٥	١٦٨
﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ ﴾	٩٦	٦٨، ٩٤، ١٥٧
﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾	١٢٩	١٥٤
﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾	١٥٧	٧٠
﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾	١٧٠	١٤٠
سورة الأنفال		
﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾	٢ ـ ٤	٢٠٨
﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾	٢٦	٣٢
﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾	٢٨	١٠١

QaradawiBooks.com



الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾	٤١	٤١١، ٤٢٤
﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾	٥٣	٥٦
﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾	٦٠	١٩٥
﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾	٧٥	٣٦٢، ٣٦٦
سورة التوبة		
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾	٢٨	٦٠
﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾	٣١	٣٤١
﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾	٣٤	٥٨، ٢٠١، ٢١١، ٢٨٢، ٤٢٨
﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ﴾	٣٥	٥٨، ٢١١
﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾	٥٥	٨١
﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾	٦٠	٤٠٨، ٤٢٤
﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾	٧١	١٥٢
﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾	١٠٣	٤، ٨، ٤٠٣، ٤٣٨
﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾	١٠٥	١٦٠، ٤٣٨
﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾	١٢٢	١٨٩، ١٩٤
سورة يونس		
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾	٧ ـ ٨	٨٩
﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾	١٠	٤٦١

QaradawiBooks.com



الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ ﴾	٥٩	١٦٩
﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾	٦٦	٤٥
سورة هود		
﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾	٦	٥٠، ١٤٠، ١٤٦
﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا ﴾	١٥ ـ ١٦	٧٧
﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾	١٧	٣٨٦
﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾	١٨	٢٩٧
﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾	٢٧	٢٣٥
﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾	٢٩ ـ ٣٠	٢٣٥
﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾	٤٥	٣٥٩
﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾	٥٢	٩٤
﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾	٦١	٦٧، ١٤٣، ١٤٥، ١٥٤، ١٥٨
﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾	٨٤	٣٣، ٣٠٤
﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ ﴾	٨٥	٣٣
﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾	٨٧	٣٣، ٣٧٢، ٤٥٥
﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ ﴾	١٠٢	٣٧٦
﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾	١١٣	٣٧٦
﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ ﴾	١١٦	٢٣٧
﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾	١١٧	٣٧٦، ٣٧٧

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة يوسف		
﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾	٤٠	٣٤١
﴿فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ﴾	٤٧	٢٦٤
﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ﴾	٤٨	٢٦٤
﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖ﴾	٦٥	٩٧
سورة الرعد		
﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾	٣	١٣٩
﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ﴾	٤	١٣٩، ٣٥٣
﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾	١١	١٠١
﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥ﴾	١٧	٧٦
﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗ﴾	٣٨	١٤٥
سورة إبراهيم		
﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾	١	٣٧٩
﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾	٧	٥٥، ١٠٥
﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾	٣٢	٤٦، ١٣٦
﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾	٣٣	٤٦، ١٣٦، ١٣٨، ١٤٥
﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾	٣٤	٤٦، ١٣٦، ١٤٥
﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾	٣٥	٣٥٩

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾	٣٧	٣٢
﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾	٤٠	٣٥٩
سورة الحجر		
﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾	٣	٢٣٦
﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾	٩	٣٨٠
﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾	١٦	٧٦
﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾	٩٩	١٥٥
سورة النحل		
﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۚ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾	٥	٧٥، ١٣٦، ١٧٩، ١٨٤، ١٨٥
﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾	٦	٧٥
﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾	٧	٧٢
﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾	٨	٧٢، ٧٥
﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ﴾	١٠ ـ ١١	١٣٦، ١٨٤
﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾	١٢	١٣٨
﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ﴾	١٣	٣٥٣
﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ﴾	١٤	٧٦، ١٣٧، ١٨٤
﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾	٢٥	١٦٧
﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾	٥٣	٤٨
﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾	٦٤	٣٧٩

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com



الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ ﴾	٦٦	١٣٦، ١٨٤
﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ ﴾	٦٧	١٣٧، ١٨٤
﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾	٦٨	١٣٧، ١٨٤
﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ ﴾	٧١	٣٨٩، ٤٣٧
﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾	٧٢	٧٣، ١٨٤، ١٨٥
﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾	٧٥	٣٥٠
﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾	٨٠	٧٢، ١٣٦، ١٧٩، ١٨٤
﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾	٨١	١٧٩، ١٨٤، ١٨٥
﴿ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾	٨٩	٧
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾	٩٠	٣٧٥
﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾	٩٧	٧٩، ٨٢
﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾	١١١	٣٤٨
﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ﴾	١١٢	١٠٥
سورة الإسراء		
﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾	٩	٢٥، ٣٧٩
﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ ﴾	١٣ ـ ١٤	٣٤٨
﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ ﴾	١٦	٢٣٧
﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ ﴾	١٨ ـ ١٩	٧٨
﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ ﴾	٢٠	١٠١

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾	٢٣	٣٦٢
﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ... وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾	٢٦	٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٨، ٣٦٢
﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾	٢٧	٩٥، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤
﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾	٢٩	٣٢، ٢١٧، ٢٤٤، ٢٤٩
﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ﴾	٣١	١٠٠
﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ﴾	٣٤	١٥٧، ١٩٢
﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ﴾	٣٥	٣٠٣
﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم﴾	٧٠	١٤٦، ٣٤٣
﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾	١٠٠	٣٧٢
سورة الكهف		
﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾	١٩	٧٠
﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾	٣٠	٣٩٣، ٣٩٩
﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾	٣٢ ـ ٤٣	٤٢، ٥٧، ١٠٢
﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾	٤٦	٩٤، ١٠٨
﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾	٥٩	٣٧٦
﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾	٨٧	٣٧٦
﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾	٩٦ ـ ٩٧	١٣٨

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة مريم		
﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾	٦٤	٢١
سورة طه		
﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾	٦	٤٥
﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾	٥٠	٤٦
﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾	١١١	٣٧٦
﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾	١١٧ ـ ١١٩	١٤٤
﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾	١٢٠ ـ ١٢١	٣٧٢
﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾	١٢٣ ـ ١٢٤	٦٩، ٩٣
﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾	١٣١	١٠٩، ٤٣٨
سورة الأنبياء		
﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾	٨	١٤٤
﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾	١١ ـ ١٣	٢٣٨
﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾	٨٠	٤٨
﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾	١٠٥	١٥٧
﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾	١٠٧	٣٠٩
سورة الحج		
﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾	٥	٧٦
﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾	٣١	٣٤٣

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com



الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ﴾	٣٧	٨
﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾	٤١	٤٤٥
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا﴾	٧٣	٤٥
سورة المؤمنون		
﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾	٨	٢٨٨
﴿ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ۞ فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾	٣١ ـ ٣٣	٢٣٥
﴿ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ۞ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴾	٥٤ ـ ٥٦	١٠٢
﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴾	٦٤ ـ ٦٥	٢٣٨
﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾	٨٤ ـ ٨٩	٣٤٠
﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾	٩٦	١١٣، ١١٤
﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾	١٠١	٤٣٦
﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴾	١١٥ ـ ١١٦	٣٦
سورة النور		
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ ﴾	٢٧	١٨٠
﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ﴾	٣٣	٤٨، ٦١، ٤٢٦
﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾	٣٦	٣٢١، ٣٢٦
﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾	٣٧	٣٢١، ٣٢٦، ٣٢٧

QaradawiBooks.com



الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الفرقان		
﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾	٢	٤٥
﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾	٢٠	١٤٥
﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا﴾	٦٤ ـ ٦٥	٢٤٢
﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾	٦٧	٩٤، ٢٤٢، ٢٤٩
﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ﴾	٦٨	٢٤٢
سورة الشعراء		
﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾	١٢٨ ـ ١٣٤	٢٢٥، ٢٢٦
﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ۝ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾	١٨١ ـ ١٨٢	٣٠٤
سورة النمل		
﴿هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾	٤٠	٤٢، ٥١
﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾	٥٢	٣٧٦
﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾	٦٠	٧٦
﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾	٨٨	٧٦
سورة القصص		
﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ﴾	٨	٣١٠
﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾	٢٣	١٥١
﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾	٢٧	٩٧
﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾	٦٠	١٠٩

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ﴾	٧٦	٣٤، ٥٦، ١٠٣، ٣٧٤
﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ﴾	٧٧	٣٤، ٥٦، ١٠٣، ٣٢٢، ٣٧٤
﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾	٧٨	٣٤، ٤٢، ٥١، ٥٦، ١٠٤، ٣٧٤
﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾	٧٩	٥٦، ١٠٩
﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾	٨٠	٥٦، ١٠٩
﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾	٨١	٥٦، ١٠٤
سورة العنكبوت		
﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾	٤٥	٨
سورة الروم		
﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾	٢١	٧٣
﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾	٢٢	١٣٩
﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾	٣٠	٣٨٦
سورة لقمان		
﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾	١٣	٣٧٥، ٣٧٦
﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾	١٤	٣٦٢
﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾	٢٠	١٣٦، ١٤٥
سورة السجدة		
﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾	٧	٧٦

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الأحزاب		
﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾	٦	٣٦٢
سورة سبأ		
﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾	١٢	١٣٨
﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ﴾	١٥	٣٢، ٧١، ١٠٦
﴿فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾	١٦	١٠٦
﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾	١٧	١٠٦
﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾	٢٢	٤٥
﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾	٣٤	٢٣٦
﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾	٣٥ ـ ٣٧	١٠٢
﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾	٣٩	٤١٧
سورة فاطر		
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾	٢٧	١٣٨، ١٣٩، ٣٥٤
﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾	٢٨	١٣٩
﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾	٣٩	١٤٣
سورة يس		
﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾	٣٣ ـ ٣٥	٤٧
﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾	٧٣	٤٧

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الصافات		
﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾	٦	٧٦
﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾	٢٢	٢٤٤
سورة الزمر		
﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾	٩	٣٨٨، ٣٩٦، ٤٣٨
﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾	١٧	٣٤٢
﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾	٣٨	٣٤٠
﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾	٦٢	٤٥
سورة غافر		
﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ ﴾	٣٩ ـ ٤٠	٤٣
﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾	٦٤	١٤٦
﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾	٧٩ ـ ٨٠	٧٢
سورة فصلت		
﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾	١٠	١٤٠، ١٤٥
﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۞ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾	٤١ ـ ٤٢	٣٨٥
﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ﴾	٥٠	٥١، ٣٧٤
سورة الشورى		
﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾	١٧	٣٨٥
﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾	٣٨	٢٠٨
﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾	٤٠	٣٧٦

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com



الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الزخرف		
﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾	١٢ ـ ١٤	٧٣
﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ ﴾	٢٣ ـ ٢٤	٢٣٦
﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾	٢٩ ـ ٣٠	٢٣٦
﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ ﴾	٣٢	٣٨٩، ٤٣٧
﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾	٣٦	٢٤٤
سورة الدخان		
﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾	٣١	٢٤١
سورة الجاثية		
﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ ﴾	١٣	١٣٦، ١٤٥
سورة الأحقاف		
﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ ﴾	١٥	٣٥٩
﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾	١٩	١٤٦
﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾	٢٠	٢٤٠، ٢٥٢، ٢٥٣
سورة ق		
﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾	١٠	٧٦
سورة الذاريات		
﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾	٥٦	١١٠، ١٥٤، ١٥٧
﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾	٥٧	١١٠
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾	٥٨	١١٠

غير مرخص للطباعة
نسخة تعليمية

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة النجم		
﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ ﴾	٢٩ ـ ٣٠	٧٧
﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾	٣١	٤٥
سورة الرحمن		
﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾	٧ ـ ٩	٨٦، ٣٨٥
سورة الواقعة		
﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾	٤١ ـ ٤٦	٢٣٥
﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾	٦٣ ـ ٧٠	٤٧
سورة الحديد		
﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾	٧	٤٨، ٤٩، ٥٥، ٢٠٧، ٤٢٦
﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾	١٠	٥٢، ٢١٠
﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾	٢٥	٣٦، ٤٧، ١٣٧، ١٩٤، ٣٧٨، ٣٧٩
سورة المجادلة		
﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾	١١	٣٨٩، ٤٣٨
سورة الحشر		
﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ ﴾	٦	٤٣١
﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾	٧	٤١١، ٤٢٤، ٤٣٣
﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً ﴾	٩	٢١٢، ٤١٨
﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ﴾	١٠	٤٢٢

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الصف		
﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾	٩	٣٦
سورة الجمعة		
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ ﴾	٩	٦١، ٣٢١
﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ ﴾	١٠	١٤٠، ٣٢١
﴿ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَـٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ ﴾	١١	٦١، ٣٢١
سورة المنافقون		
﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾	٨	١٨٥
سورة الطلاق		
﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجًا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ ﴾	٢ ـ ٣	٩٤، ١٥٧
﴿ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ ﴾	٧	٢١٧
سورة الملك		
﴿ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴾	٤	٢٤٤، ٢٥٠
﴿ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَـٰبِيحَ ﴾	٥	٧٦
﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾	١٤	٣٨٤
﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ ﴾	١٥	٣١، ١٤٠، ١٤٦
سورة القلم		
﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ۝ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾	١٤ ـ ١٥	١٠٣
سورة الحاقة		
﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴾	٣٣ ـ ٣٤	٤٥١

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة المعارج		
﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾	٢٤ ـ ٢٥	٤٠٣
سورة نوح		
﴿ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ﴾	١٠ ـ ١٢	٩٣
﴿ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ ﴾	٢٨	٣٦٣
سورة الجن		
﴿ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴾	١٦	٦٨، ١٥٧
سورة المزمل		
﴿ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴾	١١	٢٣٦
سورة المدثر		
﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ۞ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ﴾	١١ ـ ١٦	١٠٣
﴿ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴾	٤٤	٤٥٠
سورة الإنسان		
﴿ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ﴾	٨ ـ ٩	٤١٧
سورة النازعات		
﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۞ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۞ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴾	٣٧ ـ ٣٩	٧٧
سورة عبس		
﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۞ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ﴾	٢٤ ـ ٣٢	٤٧، ١٧٣
سورة المطففين		
﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۞ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ﴾	١ ـ ٦	٢٧٨، ٣٠٣
﴿ فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ ﴾	٣٤	٢٥٣

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com



الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الفجر		
﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴾	١٥ ـ ١٧	١٠٢
﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾	١٧ ـ ٢٠	٣٧٤، ٤٥٠
سورة البلد		
﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾	١١ ـ ١٦	٤١٧
سورة الليل		
﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾	٨ ـ ١١	١٠٣
سورة الضحى		
﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾	٨	٩٢
سورة العلق		
﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾	٦ ـ ٧	١٠٣
سورة الزلزلة		
﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾	٧	٣٦، ١٤٠
﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾	٨	٣٦
سورة العاديات		
﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾	٨	٩١ ، ٣٧٢
سورة التكاثر		
﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾	٨	٥٨
سورة العصر		
﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾	١ ـ ٣	٣٦

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

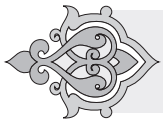
الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الهمزة		
﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾	٢، ٣	١٠٣
سورة قريش		
﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ﴾	٤	٣٨
سورة الماعون		
﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾	١ ـ ٣	٤٥١
سورة المسد		
﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾	١ ـ ٢	١٠٣

❊ ❊ ❊

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com



فهرس الأحاديث النبوية الشريفة



الحديث	رقم الصفحة
أ	
اتق الله حيثما كنت	٣٢٨
اختلاف أُمَّتي رحمة	٣٢٣
إذا أنفق المسلم نفقة على أهله	٢١٩
إذا تبايعتم بالعِينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع	١٩٥
إذ أدَّيْتَ زكاةَ مالِكَ، فقد أذهبتَ عنه شرَّه	١٢٠
إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمَّى الله تعالى	٥، ١٩
إذا سقطت لقمة أحدكم، فليأخذها، وليمط عنها الأذى	١٧٢، ٢٣٠
إذا ظهر الزنى والربا في قرية فقد أحلُّوا بأنفسهم عذاب الله ﷻ	٢٩٩
إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية	٣٥٩
إذا وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله فانتظِر الساعة	٢٣٧
أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع	٢٢٢
أربع مَن كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا	٢٨٨
أربعة يبغضهم الله: البيَّاع الحلاف، والفقير المختال، والشيخ الزاني	٢٨٥
اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد يقودكم بكتاب الله	٤٣٥
أشد الناس بلاء: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل	٧٩

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
اعرف عفاصها ووكاءها، ثم عَرِّفها سنة فإن جاء صاحبها	١١٦
أعطوا الأجير أجره قبل أن يجفَّ عرقه	٣٩٤
أعطوه حيث بلغ سوطه	٩٧
اعقلها وتوكَّل	١٣٤
اعملوا فإني لا أُغني عنكم من الله شيئًا	٤٣٦
أفضل دينار ينفقه الرجل: دينار ينفقه على عياله	٢٢٠
أفضل الصدقة ما ترك غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى	٢١٩
أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس؟ مَن غَشَّنا فليس منا	٢٩١
الاقتصاد في النَّفقة نصف المعيشة	٢٢٩
أقم حتى تأتينا الصدقة (يعني: الزكاة) فنأمر لك بها	١٨٨
ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبرَّه	١٠٥
ألا إنَّ ربا الجاهلية موضوع (أي: ساقط مُلغًى)	٤٤٨
ألَّا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان	٦٠
ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر	٣٦٦
الذي يأكل ويشرب في آنية الفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم	٢٣٩
ألك مال؟ قال: نعم، قال: من أي المال؟	٢١٥
اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار	٨٩
اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري	٨٩
اللهم أعط منفقًا خلفًا، وأعط ممسكًا تَلَفًا	٢١٨
اللهم اغفر لي ذنبي، ووسِّع لي في داري، وبارك لي في رزقي	٧٢، ٢٢١
اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه	٩٦

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل	٤٩
اللهم إنِّي أسألك الهُدَى والتُّقَى والعفاف والغِنَى	٩٠، ٩٢
اللهم إنِّي أعوذ بك من الجوع، فإنَّه بئسَ الضجيع	٩٩
اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجُبن والهرم، والبخل	٩٠، ٢٣٢
اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر	٩٢
اللهم رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء	١٠٠
اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة	١٠٧
اللهم وسِّع عليَّ	٩٧
أما صدقتُك على سارق، فلعلَّه أن يستعفَّ عن سرقته	٩٩
أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك	٩٦
إنَّ إخوانكم من المهاجرين ليست لهم أموال	٤٣٢
إنَّ الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قَلَّ طعام عيالهم بالمدينة	٤١٤، ٤٤٨
إن الذي يأكل أو يشرب في آنية الفضة والذهب...	٢٣٩
إن الله إذا حرَّم شيئًا حرَّم ثمنه	٣٣
إنَّ الله أعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فلا وصية لوارث	٣٦٨
إن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال:	٣٣٠
إن الله تعالى حرَّم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام	٢٨٠
إنَّ الله تعالى يحب المؤمن المحترِف	١٤٧
إنَّ الله جميل يحب الجمال	٧١، ٢٢٣
إنَّ الله حدَّ حدودًا فلا تعتدوها، وفرض فرائض فلا تُضيِّعوها	٢٠
إنَّ الله سائلٌ كلَّ راعٍ عما استرعاه، حفظ أم ضيَّع	١٥٠، ٢١٧

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
إنَّ الله طيب لا يقبل إلا طيِّبًا	٤٠
إنَّ الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة	١٥٦
إنَّ الله كره لكم إضاعة المال	٢٤٦
إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم ولا أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم	١٠٥
إن الله ليغضب إذا مُدِحَ الفاسق	٣٣٠
إنَّ الله هو المسعِّر القابض الباسط الرازق	٣٠٥، ٤٥٣، ٤٥٥
إنَّ الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه	١٥٦، ١٦٠
إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده	٢١٦
إنَّ الله يحب من العامل إذا ما عمل أن يحسن	١٥٦
إنَّ الله يعطي الدنيا مَن يحب ومَن لا يحب	١٠٢
إنَّ أول الناس يستظل في ظل الله يوم القيامة: لَرَجلٌ أنظر معسرًا	٣١٦
إنَّ التُّجَّار هم الفُجَّار! قالوا: يا رسول الله، أليس قد أحلَّ الله البيع؟	٢٨٦
أن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان	٢٢٤
أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك	١٦٠
إنَّ الدنيا حلوة خضرة، وإنَّ الله تعالى مستخلفكم فيها	١٠٧
إنَّ الرجل إذا غرم (أي: استدان) حدَّث فكذب أو وعد فأخلف	٢٣٣، ٢٤٩
إنَّ الرجل ليعمل والمرأة بطاعة الله ستين سنة	٣٦٨
إنَّ في المال حقًّا سوى الزكاة	٤١٤
إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة	١٥٥
إن كان خرج يسعى على ولده صغارًا، فهو في سبيل الله	١٥١
إنَّ لبدنك عليك حقًّا	١٧٨

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
إنَّ لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال	١٠٨
إنَّ لله أقوامًا اختصهم بالنعم لمنافع العباد، يقرّهم فيها ما بذلوها	٥٥
إنَّ المسألة (أي: سؤال الناس) كَدٌّ يكُدُّ بها الرجل وجهه	١٤٩
إنَّ المسألة لا تحلُّ إلا لأحد ثلاثة	٥
إنَّ المسألة لا تصلح إلا لثلاثة: لذي فقر مُدقِع، وذي غُرم مُفْظِع	١٤٩
إنَّ المسلم ليؤجر في كل شيء ينفقه، إلا في شيء يجعله في هذا التراب	٢٢٤
إنَّ مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح الله عليكم من زهرة الدنيا وزينتها	١٠٧
إنَّ من أعظم الذنوب عند الله أن يلقاه بها عبد	٣٠٦
إنَّ هذين حرام على ذكور أمتي	٢٤٠
إن المؤمن ليشرب في مِعًى واحد، والكافر يشرب في سبعة أمعاء	٢٥٤
أن رسول الله ﷺ جعل للفرس سهمين ولصاحبه سهما	٣٩٨
أن رسول الله ﷺ حجر على معاذ وباع ماله	٢٧١
أن رسول الله ﷺ كان إذا أتاه الفيء قسمه في يومه فأعطى الآهل حظَّين	٣٩٧
أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، من ترك مالًا فلورثته، ومن ترك دَيْنًا	٤٠٧، ٤٤٦
أنتم أعلم بأمر دنياكم	١٧، ١٨
أنفق يا ابن آدم يُنفَق عليك	٢١٨
أنفقي ـ أو انْفَحِي أو انْضَحِي ـ ولا تُحصي، فيُحصي الله عليكِ	٢١٨
إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس	٩٣، ٩٦، ٤٢٠
إنَّك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها	٢١٩، ٢٢٥
إنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحُجَّته من بعض،	٣٩، ١١٣
إنَّما أنا رحمة مهداة	٣٠٩

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
إنَّما بُعِثتُ لأتمِّم صالح الأخلاق	٧، ٥٩
إنَّما فاطمة بَضْعة مني، يؤذيني ما آذاها، ويُنصبني ما أنصبها	٣٥٨
إنَّما نهيتكم من أجل الدافّة، التي دفّت، فكلوا وادَّخروا وتصدَّقوا	٤٤٩
إنَّه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة	٢٥٩
إياكم والشُّح، فإنَّما هلك من كان قبلكم بالشح	٢١٥
إياكم وكثرة الحلف في البيع؛ فإنَّه ينفِّق، ثم يمحق	٢٨٦
إياك والتنعم؛ فإنَّ عباد الله ليسوا بالمتنعِّمين	٢٥٢
إياكَ والحلوب	١٧١
أيما مسلم أضاف قومًا، فأصبح الضيف محرومًا	٢٢٣
ب	
باع آخرته بدنياه	٢٨٦
بل أدعو، ثم جاءه رجل فقال: يا رسول الله، سَعِّر	٤٥٣
البيِّعان (أي: البائع، والمشتري) بالخيار ما لم يتفرَّقا	٢٨٤
ت	
تؤخذ من أغنيائهم لتُرَد على فقرائهم	٤٠٨، ٤١٠، ٤٤٦
التاجر الصدوق يحشر مع النبيين والصِّدِّيقين والشهداء	١٩٧، ٢٨٤
تُخرج الزكاة من مالك، فإنها طُهرة تطهرك، وتصل أقرباءك	٥٣
تَعِس عبدُ الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القَطِيفة، وعبد الخَمِيصة	٢٠٠، ٢٣٧
تعوَّذوا بالله من جَهْد البلاء، ودَرَك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء	٩٠
تلتقي ملائكة الليل والنهار عند طلوع الفجر وعند صلاة العصر	٣٢٧
تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم، فقالوا: عملتَ من الخير شيئًا؟	٣١٧

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ث	
ثلاث خصال من سعادة المرء المسلم في الدنيا: الجار الصالح	١٨٠
ثلاث من السعادة، وثلاث من الشقاء، فمن السعادة: المرأة الصالحة	٢٢٢
ثلاث مَن كُنَّ فيه فهو منافق، وإن صام وصلَّى وزعم أنَّه مسلم	٢٨٨
ثلاث مهلكات: شُحٌّ مطاع، وهوًى متبع، وإعجاب المرء بنفسه	٢١٥
ثلاثة أنا خصمهم... ومن كنت خصمه خصمته	٣٩٤
ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر	٣٩٣
ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: أُشَيْمط زانٍ، وعائل مستكبر	٢٨٥
ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم	٢٨٦
ح	
حقٌّ على كلِّ مسلمٍ في كل سبعة أيام يوم يغسل فيه رأسه وجسده	١٧٩
الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمَّل به في النَّاس، وأواري عورتي	٧١
خ	
خذ عنا مالك، لا حاجة لنا به	٢١٣
خذي ما يكفيكِ وولدك بالمعروف	٢١٨
الخراج بالضمان	٣٠٢
خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير	٢٦٥، ٢٦٦
خير تجارتكم البَزّ، وخير صناعتكم الخرز	٣٢٥
خير الصدقة ما كان عن ظهر غِنًى، وابدأ بمن تعول	٢١٩
خير الكسب كسب يد العامل إذا نصح	١٩٧
خير المال مُهْرة مأمورة	٢٣٨
خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم	٢٥٩

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
د	
دعوه، فإنَّ لصاحب الحقِّ مقالًا، ثم قال: أعطوه سنًّا مثل سِنِّه	٣١٥
الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر	٧٨
الدنيا كلها متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة	٧٣، ١٨١
دينار أنفقته في سبيل الله (أي: في الجهاد)	٢٢٠
الدين النصيحة: لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم	٢٨٩
ذ	
ذاك جمال، والله جميل يحب الجمال، ولكن الكبر من بطر الحق	٢١٦
ر	
الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا مَن في الأرض يرحمكم من في السماء	٣٠٩
رُبَّ قائم ليس له من قيامه إلا السهر	٨
رحم الله عبدًا سمحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا اقتضى	٣١٥، ٣٩٥
س	
سبحان الله، سبحان الله! ما أنزل من التشديد؟	٢٣١
السبع الموبقات	٢٩٩
ش	
شرار أمتي الذين غُذُّوا بالنعيم، الذين يأكلون ألوان الطعام	٢٥٢
ص	
صدق، ومَن أحق بالعدل مني؟	٣٠٧

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ط	
طعام الاثنين كافي الثلاثة، وطعام الثلاثة كافي الأربعة	٢٦٤
طلب العلم فريضة على كل مسلم	١١٩، ١٨١
ع	
عُذِّبت امرأة في هِرّة حبستها، حتى ماتت جوعًا	٢٢١
غ	
غَبْن المسترسل حرام	٢٩٥
غُسْل الجمعة واجبٌ على كل محتلم	١٧٩
غفر الله لرجل كان قبلكم، كان سهلًا إذا باع، سهلًا إذا اشترى	٣١٧
ف	
فالرجل راعٍ في أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته	١٥٠
فإنَّ لبدنك عليك حقًّا (أي: في الراحة)، ولعينك عليك حقًّا	٢٥٩
فراش للرجل، وفراش لامرأته، وفراش للضيف، والرابع للشيطان	١٨١، ٢٢٣
فرض رسول الله ﷺ صدقة الفطر طُهْرة للصائم من اللغو والرفث	٣٢٠
فشوبوه بالصدقة، أو بشيء من الصدقة	٣١٩
فلا تعطه مالك، قال: أرأيتَ إن قاتلني؟ قال: قاتله	١١٥
فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعِرضه	٣٩
في الدَّيْن، والذي نفسي بيده، لو قُتِلَ رجل في سبيل الله	٢٣١
في كل كبد رطْبة أجر	١٥٣

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ق	
قل: اللهم اغفر لي وارحمني وعافني وارزقني	٩٠
ك	
كتب الإحسان على كل شيء	١٦٠
كفى بالرجل إثمًا أن يضيع من يقوت	١٥٠، ٢١٧
كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راعٍ، وهو مسؤول عن رعيته	٢١٧، ٤١١، ٤٢٥، ٤٤٥
كلوا واشربوا والبسوا وتصدَّقوا من غير مَخِيلَة ولا سَرَف	٢٥١
كنت أبايع الناس، وكان من خُلُقي الجواز (المسامحة)	٣١٧
كنت نهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث	٤٤٩
كونوا عباد الله إخوانًا	٤٣٨
ل	
لا بأس بالغنى لمن اتقى الله ﷻ، والصحة لمن اتقى خير من الغنى	٨١
لا تتلقوا الركبان، ومَن تلقاها فصاحب السلعة بالخيار بعد أن يقدم السوق	٢٩٢
لا تحل الصدقة لغَنِيٍّ، ولا لذي مِرَّة (قوة) سَوِيٍّ	١٤١، ١٨٧
لا تُخِيفُوا الأنفس بعد أمنها، قالوا: يا رسول الله، وما ذاك؟	٢٣٢
لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى، وليس في وجهه مُزْعة لحم	١٤٩
لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه	٢٢٧
لا تسرف، فقال: أوَ في الماء سرف يا رسول الله؟ قال: نعم	٢٢٨
لا تلبسوا الحرير، فإنَّ مَن لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة	٢٤٠
لا تلبسوا الحرير ولا الديباج، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة	٢٣٩
لا توكي فيوكَى عليكِ	٢١٨

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسلَّطه على هلكته في الحق	٩٣
لا حِمَى في الأراك	١٢٥
لا صدقة إلا عن ظهر غنى	٢١١
لا ضَرر ولا ضِرار	١١١، ١١٢، ٢٨١
لا غنى بي عن بركتك	٩٨
لا قُدستْ أمة لا يُعطَى الضعيف فيها حقَّه غير متعتَع	٣٠٨
لا، قلت: فثلثي مالي؟ قال: لا، قلت: فالشطر؟ قال: لا	٣٦٨
لا يبارك في ثمن أرض ولا دار	٢٣٤
لا يبع الرجل على بيع أخيه، حتى يبتاع أو يَذَر	٣١٨
لا يبلغ عبد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرًا ممَّا به بأس	٥، ٤٠
لا يحتكر إلا خاطئ	٣٣، ٣١٠، ٣١٣
لا يحل لأحد يبيع شيئًا إلا بيَّن ما فيه، ولا يحل لمن علم ذلك إلا بيَّنه	٢٩٠
لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر	٢١٦
لا يُركب البحر إلا لحج أو عُمْرة أو غزو	٣٢٩
لا يوردنَّ مُمْرض على مُصِح	١٧١
لأن يأخذ أحدكم أَحْبُله (جمع حبل)، ثم يأتي الجبل	١٤١، ١٥٠
لعن الله آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه	٣٣
لعن الله الخمر، وشاربها وساقيها ومبتاعها وبائعها وعاصرها ومعتصرها	٦٣
لعن النبي ﷺ الخمر، وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها	٢٨٠
لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برئ بإذن الله	١٨٢
لمن هذه الشاة؟ قالوا: إنَّها شاة لمولاة ميمونة ـ أم المؤمنين ـ	١٧٢

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
لو اتَّجر أهل الجنة لاتَّجروا في البز، ولو اتجر أهل النار لاتجروا في الصرف	٣٢٥
لو استقبلتُ من أمري ما استدبرت، لأخذت فضول أموال الأغنياء	٤٣١
لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى إليهما ثالثًا	٣٧٢
لو كان هذا في غير هذا، كان خيرًا لك	٢٥٨
لَيُّ الواجد يُحلُّ عِرضه وعقوبته	٣٠٦
ليس بمؤمن مَن بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع	٤١٥
ليس شيء خيرًا من ألف مثله إلا الإنسان	٤٣٧
م	
ما أبقيتَ لأهلك؟ قلت: مثله، قال: وأتى أبو بكر بكل ما عنده	٢١٢
ما أحسن القصد في الغِنَى، وما أحسن القصد في الفقر	٢٥٧
ما أحلَّ الله في كتابه فهو حلال، وما حرَّم فهو حرام	٢٠
ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده	١٩٧
ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أُصبُعه في اليمِّ	١٠٧
ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء	١٨٢
ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشَّرَف	١٠٨
ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام متوالية، ولو شئنا لشبعنا، ولكنه كان يؤثر على نفسه	٢٦٦
ما عال مَن اقتصد	٢٢٩، ٢٥٧
ما لم تنله أخفاف الإبل	١٢٥
ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًّا من بطنه	٢٥١
ما من عبد أنعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه	٥، ٥٦
ما من مسلمٍ يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة	١٥٣

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ما من مسلم يقتل عصفورًا فما فوقها، بغير حقِّها، إلا يسأله الله ﷻ عنها	١٧٠
ما نفعني مال قط، ما نفعني مال أبي بكر	٩٢، ٩٦
ما هذا السرف يا سعد؟ فقال: أَوَفي الوضوء سرف؟	٢٤٣
ما هذا يا صاحب الطعام؟! قال: أصابته السماء يا رسول الله يعني: المطر	٢٩٠
الماء، قال: يا نبي الله، ما الشيء الذي لا يحل منعه؟ قال: الملح	١٢١
مروا صبيانكم بالصلاة، إذا بلغوا سبعًا واضربوهم عليها، إذا بلغوا عشرًا	١٨٠
المسبل، والمنَّان، والمنفِّق سلعته بالحلف الكاذب	٢٨٧
المسلم أخو المسلم	٢٩٠
المسلم يأكل في مِعًى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء	٢٥٣
المسلمون شركاء في ثلاثة: في الكلأ والماء والنار	١٢١
مطل الغني ظلم	٣٠٦
من احتكر طعامًا أربعين يومًا، فقد برئ من الله، وبرئ الله منه	٣١٠
من احتكر فهو خاطئ	٣١٠، ٣١٣
من أحيا أرضًا ميتةً فهي له، وما أكلت العافية طُلاب الرزق منها	١٧٣
من أصبح آمنًا في سربه، معافًى في بدنه، عنده قوت يومه	٨٢
من أنظر معسرًا أو وضعَ له (تنازلَ له عن جزء من الدَّيْن) أظلَّه الله في ظله	٣١٦
مَن باع دارًا ثم لم يجعل ثمنها في مثلها، لم يُبَارك له فيها	٢٣٤
مَن باع منكم دارًا أو عقارًا	٢٣٤
مَن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه	٤٣٦
من ترك كلًّا أو ضياعًا فإليَّ وعليَّ	٤٢٥
مَن حمل علينا السلاح فليس منَّا، ومَن غَشَّنا فليس منَّا	٢٩٠

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
مَن دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يُعصى الله في أرضه	٣٣٠
من رغب عن سُنَّتي فليس مني	١٨١
من سأل النَّاس أموالهم تكثرًا، فإنَّما يسأل جمرًا، فليستقل أو ليستكثر	١٨٧
من سرَّه أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة، فلينفس عن معسر	٣١٧
مَن سنَّ في الإسلام سُنَّة سيئة، فعليه وزرها، ووزر من عمل بها	١٦٦
من شرب في إناء من ذهب أو فضة فإنما يجرجر في بطنه نارًا من جهنم	٢٣٩
مَن صوّر صورة فإنَّ الله يعذّبه حتى ينفخ فيها الروح	٦٣
من فقه الرجل قصده في معيشته	٢٢٩، ٢٥٦
مَن قُتِلَ دون ماله فهو شهيد	٩٨، ١١٦
مَن قتل عصفورًا عبثًا، عجّ إلى الله يوم القيامة، يقول: يا ربِّ	١٦٩
مَن قتل وزغة في أول ضرب كُتِب له مائة حسنة	١٥٨
من قطع سِدْرة صوّب الله رأسه في النار	١٧٠
من كانت الدنيا همه: فرَّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه	٨١
من كانت له أرض فليزرعها، فإن لم يستطع أن يزرعها، وعجز عنها	١٩١
من كان لنا عاملًا، فليكتسب زوجة، فإن لم يكن له خادم فليكتسب خادمًا	٣٩٧
من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له	٤٤٩
مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه	٨
مَن لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه	٨
مَن يسَّر على معسر في الدنيا، يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة	٣١٦
المؤمن يؤجر في كل شيء، حتى في اللقمة يرفعها إلى في امرأته	٢٢٥

غير مرخصة للطباعة
نسخة إلكترونية
QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ن	
نسمة المؤمن مرتهنة في قبره بدَيْنه، حتى يُقضَى عنه	٢٣٣
نِعْمَ المال الصالح للرجل الصالح	٩٦
نهى رسول الله ﷺ عن تلقي الركبان	٢٩٢
نهى رسول الله ﷺ عن النجش	٢٩٢
نهى نبي الله ﷺ أن تكسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس	٣٢٥
نهانا النبي ﷺ أن نشرب في آنية الذهب والفضة	٢٤٠
هـ	
الهدي الصالح والسمت الصالح	٢٢٩
هذا خير من ملء الأرض مثل هذا	١٠٥
هذه شاة ذبحت بغير إذن أهلها.	٣٣٠
هلا استمتعتم بإهابها؟ (جلدها)، قالوا: إنَّها ميتة! قال: إنَّما حُرِّم أكلها	٢٤٦
هنَّ لهم في الدنيا، وهي لكم في الآخرة	٢٣٩
و	
وأسألك القصد في الفقر والغنى	٢٥٧
وأعوذ بك من شر فتنة الغنى، ومن شر فتنة الفقر	٩٩
وأعوذ بك من الفقر والكفر	٩٩
والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه	٥٦
واللهِ، لأقاتلنّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة	٤٠٩
والله، ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا	١٠٦
والنصح لكل مسلم	٢٨٩

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
وحُرِّمَتِ التجارةُ في الخمر	٢٨٠
وضَلَع الدين وغلبة الرجال	٩٠
وما ذاك؟ قالوا: يصلون كما نصلِّي، ويصومون كما نصوم	٤٣٩
ومَنْ كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته	٥٦
ومَن منعها فإنَّا آخذوها وشطر ماله ـ أو وشطر إبله ـ	١٢٠
ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة	٥١
ي	
يا ابن آدم، إنَّك أن تبذل الفضل خير لك، وأن تمسك شر لك	٢١٩
يا حنظلة، لو أنكم تدومون على الحال التي تكونون عليها عندي	٧٤
يا عباد الله، تداووا فإنَّ الله لم يضع داءً إلا وضع له دواء	١٨٢
يا عبادي، إنِّي حرَّمتُ الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرَّمًا فلا تظالموا	٢٩٧
يا عمرو، نِعِمّا بالمال الصالح للمرء الصالح	٩٢
يا معشر التجار، إن البيع يحضره اللغو والحلف، فشوبوه بالصدقة	٣١٩
يا معشر التُّجَّار، فاستجابوا لرسول الله ﷺ، ورفعوا أعناقهم وأبصارهم	٢٨٦
يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج	١٨١
يا معشر المهاجرين والأنصار، إن من إخوانكم قومًا ليس لهم مال ولا عشيرة	٤٥٠
يأتي أحدكم بما يملك، فيقول: هذه صدقة	٢١٣
يحضره الكذب والحلف، أو اللغو والكذب	٣١٩
يد الله على الشريكين، ما لم يخن أحدهما صاحبه	٢٨٩
يَعمِد أحدكم إلى جمرة من نار، فيجعلها في يده	٢٤١
يُغفر للشهيد كل ذنب إلا الدَّيْن	٢٣١، ٣٠٧
يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان: الحرص على المال، والحرص على العمر	٣٧٢

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

فهرس الموضوعات

❖ **من الدستور الإلهي للبشرية** ٤

❖ **من مشكاة النبوة الخاتمة** ٥

• **مقدمة** ٧

• **تمهيد** ١١

• **الاقتصاد الإسلامي حقيقة واقعة** ١١

شبهات حول وجود اقتصاد إسلامي ١٥

ثبات الدين وتغير الأنظمة ١٦

حديث: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**» ١٧

عموم الرسالة وخلودها ١٧

اختلاف الأئمة والحكام ١٧

الإجابة عن هذه الشبهات... المراد من الحديث ١٨

الثابت والمتغير من الأحكام ١٩

اختلاف الفقهاء والخلفاء ٢٢

الإسلام أوسع من الدين ٢٣

القرآن هداية ونور وحُكْم ٢٤

الاقتصاد أمل لعلم وليس علمًا ٢٥

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

• **القيم والأخلاق في الاقتصاد والمعاملات الإسلامية** ٢٧

❖ **القِيَم والأخلاق في الاقتصاد والمعاملات الإسلامية** ٢٩

تمهيد ٢٩

❖ **اقتصاد ربَّاني** ٣١

ربانية المنطلقات ٣١

اقتصاد خادم للعقيدة «ربانية الوجهة والغاية» ٣٤

العقيدة أساس هذا النظام ٣٤

هذه العقيدة تقوم على العناصر التالية ٣٥

وازع الإيمان قبل وازع السلطان ٣٨

أهمية التربية الإيمانية في توجيه الاقتصاد ٤٠

❖ **فكرة الاستخلاف في مال الله** ٤٤

أساس فكرة الاستخلاف ٤٤

من أقوال علمائنا ٤٩

شيوع فكرة الاستخلاف عند عوام المسلمين ٥٠

آثار فكرة الاستخلاف في الحياة الاقتصادية والاجتماعية ٥١

كلمة أوجست كونت ٥٤

عقوبة الغَنِيِّ الذي لا يقوم بحق الاستخلاف ٥٥

❖ **اقتصاد أخلاقي** ٥٩

الاقتصاد والأخلاق ٥٩

تنويه بعض الأجانب بأخلاقية الاقتصاد الإسلامي ٦٤

❖ **اقتصاد إنساني** ٦٦

توفير الحياة الطيبة للإنسان ٦٨

QaradawiBooks.com

العنصر المادي في الحياة الطيبة ٦٩
طيبات المأكل والمشرب ٧٠
طيبات الملبس والتجمل ٧١
طيبات المسكن ٧٢
طيبات المركب ٧٢
طيبات الحياة الزوجية ٧٣
طيبات اللهو ٧٤
طيبات الجمال والزينة ٧٥
الزهد الذي جاء به الإسلام ٧٧
العنصر المعنوي في الحياة الطيبة ٨٠

❖ **اقتصاد وَسَطي ٨٣**
الفردية أساس النظام الرأسمالي ٨٣
النظام الاشتراكي يسحق الفرد ٨٤
الوسطية العادلة أساس النظام الإسلامي ٨٥
الاقتصاد جزء من نظام الإسلام ٨٦

❖ **وسطية الإسلام في موقفه من المال ٨٨**
موقف الإسلام من الدنيا ٨٨
المال خير وزينة للحياة وقوام للنَّاس ٩١
الاستعاذة من فتنة الفقر ٩٩
المال فتنة واختبار للأفراد والجماعات ١٠١
الناس يتفاضلون بالأعمال لا بالأموال ١٠٤
القيم المعنوية خير وأبقى ١٠٦
الحياة الاقتصادية الطيبة وسيلة إلى هدف أكبر ١٠٩

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

❖ **وَسَطية الإسلام في قضية المِلْكية** **١١١**
حماية الإسلام للملكية الحلال وبخاصة ملكية الضعفاء ١١٣
واجب الفرد في حماية مِلْكه من العدوان ١١٥
تشريع اللُّقَطة ١١٦
الـمِلْكية التي يحميها الإسلام ١١٧
رعاية حقوق الاستخلاف شرط لحماية المِلْكية ١٢٠
تقرير المِلْكية الجماعية في الأشياء الضرورية للناس ١٢١

• **القيم والأخلاق في مجال الإنتاج** **١٢٩**

❖ **القيم والأخلاق في مجال الإنتاج** **١٣١**
ترحيب الاقتصاد الإسلامي بكل ما يُيسر حياة الإنسان ١٣١

❖ **تنبيه القرآن على الثروات الطبيعية** **١٣٥**
الثروة الحيوانية ١٣٦
الثروة النباتية ١٣٦
الثروة البحرية ١٣٧
الثروة المعدنية ١٣٧
الشمس والقمر ١٣٨
الانتفاع بهذه الثروات موقوف على العلم والعمل ١٣٨
العمل واجب وحق ١٤٠

❖ **العمل وإحسانه أعظم أركان الإنتاج** **١٤٢**
الإنتاج منذ نزل آدم إلى الأرض ١٤٣
ضمان الرزق وطلب العمل ١٤٦
العمل أو النشاط الاقتصادي عبادة وجهاد ١٤٦

QaradawiBooks.com

العمل مطلوب لإغناء النفس ١٤٩
العمل مطلوب للأسرة ١٥٠
العمل للمجتمع ١٥١
العمل للحياة والأحياء عامة ١٥٣
العمل لعمارة الأرض ١٥٣
العمل لذات العمل ١٥٤
إحسان العمل فريضة دينية ١٥٥
أفهام خاطئة يجب أن تُصحَّح ١٥٧
المؤمن يخشى الله في عمله فيتقنه ١٥٩
أثر السكينة النفسية في الإنتاج ١٦١
أثر الاستقامة في الإنتاج ١٦١
إحساس المؤمن بقيمة الوقت ١٦٢

❖ **الإنتاج في دائرة الحلال ١٦٤**

❖ **المحافظة على الموارد فريضة ١٦٨**

تعطيل الثروة الزراعية والحيوانية من عمل الشرك ١٦٩
الوعيد على قتل عصفورًا عبثًا ١٦٩
قاطع السِّدْر في النَّار ١٧٠
الحفاظ على الحيوانات من العدوى ١٧١
إياكَ والحلوب ١٧١
الانتفاع بجلد الميتة ١٧٢
لا تترك اللُّقمة للشيطان ١٧٢
إحياء الموات ١٧٣

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

❖ **هدف الإنتاج** **١٧٦**
الهدف الأول: تحقيق تمام الكفاية للفرد ١٧٧
الهدف الثاني: تحقيق الاكتفاء الذاتي للأمة ١٨٥
كيف نحقق الكفاية للفرد وللأمة؟ ١٨٦
تحقيق الكفاية على مستوى الفرد ١٨٦
تحقيق الكفاية على مستوى الأمة ١٨٨
ضرورة التخطيط ١٨٩
تهيئة الطاقات البشرية وحُسن توزيعها ١٨٩
حُسن استغلال الموارد المتاحة ١٩٠
تنويع الإنتاج وفق حاجة الأمة ١٩٣
تشغيل الثروة النقدية ٢٠٠

• **القيم والأخلاق في مجال الاستهلاك** **٢٠٣**

❖ **القيم والأخلاق... في مجال الاستهلاك** **٢٠٥**

❖ **الإنفاق على الطيبات ومحاربة الشُّح والتقتير** **٢٠٧**
الإنفاق على الطيبات في اعتدال ٢٠٧
وجوب الإنفاق ٢٠٨
وجهتا الإنفاق المطلوب ٢٠٩
الإنفاق في سبيل الله ٢١٠
أنواع الإنفاق في سبيل الله ٢١٣
الإنفاق على النفس والأهل وهدي الإسلام فيه ٢١٤
الدار الواسعة الكثيرة المرافق ٢٢١

غير مرخصة للبيع
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

❖ **محاربة السرف والترف** **٢٢٧**
من روائع الترشيد في الاستهلاك ٢٣٠
التنفير من الاستدانة ٢٣١
المحافظة على الأصول الثابتة ٢٣٣
حملة القرآن على الترف والمترفين ٢٣٥
حملة القرآن على الإسراف والتبذير ٢٤١
إتلاف المال أو إهماله وإضاعته ٢٤٥
قيود الإسلام على الإنفاق نوعان ٢٤٨
١ ـ قيود على الكيف والصفة ٢٤٨
٢ ـ قيود على الكم والمقدار ٢٤٩
أهداف الإسلام من تقييد الاستهلاك ٢٥١
تربية خُلُقية ٢٥١
تربية اجتماعية ٢٥٤
تربية اقتصادية ٢٥٦
تربية صحية وجسمية ٢٥٨
تربية عسكرية وسياسية ٢٦٠
تأكيد وجوب الاعتدال في الإنفاق عند الأزمات ٢٦٣
حرية الفرد ومصلحة الجماعة ٢٦٤
الاعتدال في الإنفاق الحكومي ٢٦٥

❖ **تدخل القانون بجوار الإرشاد والتوجيه** **٢٦٩**
الحجر في الفقه الإسلامي ٢٦٩
النوع الأول: حجر على الإنسان لمصلحة نفسه ٢٦٩
النوع الثاني: الحجر لمصلحة الغير ٢٧١

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

- **القيم والأخلاق في مجال التداول ٢٧٣**
  - **موقف الإسلام من السوق ٢٧٥**
  - **منع التجارة في المحرمات ٢٨٠**
  - **الصدق والأمانة والنصيحة ٢٨٤**
    - الصدق ٢٨٤
    - الأمانة ٢٨٧
    - النصيحة ٢٨٩
    - التدليس بإخفاء سعر الوقت ٢٩٢
    - تحريم الغبن الفاحش ٢٩٤
  - **العدل وتحريم الربا ٢٩٧**
    - العدل ٢٩٧
    - تحريم الربا ٢٩٨
    - تبريرات رأسمالية ٣٠٠
    - شُبهةٌ لأنصار الربا ٣٠١
    - إيفاء الكيل والميزان بالقسط ٣٠٣
    - بخس الناس أشياءهم ٣٠٤
    - إكراه الناس على سعر لا يرضونه بغير مسوغ ٣٠٥
    - مطل الغني ظلم ٣٠٦
  - **الرحمة وتحريم الاحتكار ٣٠٩**
    - الرحمة ٣٠٩
    - تحريم الاحتكار ٣١٠
    - ما الذي يحرم احتكاره من السلع؟ ٣١١
    - الوقت الذي يحرم فيه الاحتكار ٣١٣

QaradawiBooks.com

❖ **السماحة والأخوة والصدقة ٣١٥**
السماحة ٣١٥
رعاية حقوق الأخوة ٣١٨
الصدقة غير المقدَّرة ٣١٩
❖ **زاد التاجر إلى الآخرة ٣٢١**
﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ ﴾ ٣٢١
زاد التاجر المسلم إلى الآخرة ٣٢٢
أمور سبعة ينبغي مراعاتها ٣٢٣
• **القيم والأخلاق في مجال التوزيع ٣٣٣**
❖ **القيم والأخلاق... في مجال التوزيع ٣٣٥**
❖ **قيمة الحرية وأساس الإيمان بها ٣٣٩**
أساس الإيمان بالحرية ٣٣٩
أولًا: الإيمان بالله وتوحيده ٣٣٩
ثانيًا: الإيمان بالإنسان ٣٤٣
الحرية والسعادة الإنسانية ٣٤٥
الحرية الاقتصادية والديمقراطية السياسية ٣٤٦
الحرية ونمو الشخصية الإنسانية ٣٤٧
❖ **المِلْكية الفردية أبرز مظاهر الحرية ٣٥٠**
فرق ما بين العبد والحرّ في نظر القرآن ٣٥٠
استفادة الرأسمالية من إقرار الملكية ٣٥٢
التفاضل في الأرزاق من ثمار الحرية ٣٥٣

QaradawiBooks.com

❖ **الميراث أبرز حقوق الملكية** **٣٥٦**
الحكمة من وراء شرع الميراث ٣٥٨
١ ـ مصلحة الفرد ٣٥٨
٢ ـ مصلحة الأسرة ٣٦٠
٣ ـ مصلحة المجتمع في تشريع الميراث ٣٦٣
دفع شبهات الشيوعيين على الميراث ٣٦٩
❖ **قيمة العدل ومعناه والحاجة إليه** **٣٧١**
الحرية المطلقة رذيلة ممقوتة ٣٧١
حرية مقيَّدة بالعدل ٣٧٢
الطبيعة الإنسانية وحدها غير مأمونة دائمًا ٣٧٣
العدل في الإسلام أساس ٣٧٥
❖ **حاجة الناس إلى الكتاب والميزان لمعرفة العدل** **٣٧٨**
الحكمة من إرسال الرسل إقامة العدل ٣٧٨
الكتاب الذي أنزله الله تعالى ٣٧٩
ضرورة الكتاب الإلهي لمعرفة العدل ٣٨٠
سؤال وجواب ٣٨٢
الميزان الذي أنزله الله ٣٨٥
ليس العدل هو المساواة دائمًا ٣٨٧
❖ **من العدل تفاضل الأرزاق وتكافؤ الفرص** **٣٨٨**
من العدل تفاوت الناس تبعًا لمواهبهم واجتهادهم ٣٨٨
التفاضل في الأرزاق ومعناه ٣٨٩
من العدل تكافؤ الفرص ٣٩٠

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

❖ **من العدل توفية العاملين حقوقهم ٣٩٣**
من العدل توفية العامل حقه ٣٩٣
ثلاثة خصمهم الله ٣٩٣
أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه ٣٩٤
واجب الدولة مع عمالها ٣٩٦
العاملون في القطاع الخاص ٣٩٨
الكفاية للجميع والتمييز للمبدعين والمتفوقين ٣٩٩
العامل إذا كان شريكًا ٤٠٠
❖ **من العدل إقامة تكافل اجتماعي شامل ٤٠٢**
ضمان اجتماعي للضعفاء والعاجزين في المجتمع ٤٠٢
مستوى تمام الكفاية ٤٠٣
تأمين ذوي الحاجات الطارئة ٤٠٥
موارد تمويل هذا الضمان ٤٠٧
١ ـ الزكاة ٤٠٨
٢ ـ موارد الدولة الأخرى ٤١١
٣ ـ الحقوق الأخرى في المال ٤١٣
٤ ـ الصدقات التطوعية ٤١٦
الصدقة الجارية والوقف الخيري ٤١٩
التكافل بين الأجيال ٤٢٠
مزايا التكافل الإسلامي ٤٢٣
❖ **من العدل تقريب الفوارق بين الناس ٤٢٦**
العلاقة بين الأغنياء والفقراء ٤٢٦

غير مرخص للطباعة
نسخة محاسبية
QaradawiBooks.com

تقريب الشُّقة بين الأغنياء والفقراء ٤٢٧
الأغنياء ليسوا طبقة ٤٣٥

- **خاتمة: دور الدولة في الإلزام بالقيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي** **٤٤١**

❖ **دور الدولة في الإلزام بالقيم والأخلاق** **٤٤٣**
حاجة الناس إلى هذه القيم والتعاليم ٤٤٣
دور الدولة في الإلزام بالقِيَم ٤٤٤
دور الدولة مع الزكاة والربا ٤٤٦
حق المجتمع في فضل مال المسلم ٤٤٨
الإشراف على السوق ٤٥١
الدولة مؤسسة إرشادية وتربوية أيضًا ٤٥٢
امتناع النبي عن التسعير وتفسيره ٤٥٣
التسعير الممنوع والتسعير المشروع ٤٥٦
التدخل لمنع الظلم والاحتكار ٤٥٧

- **فهرس الآيات القرآنية الكريمة** **٤٦٥**
- **فهرس الأحاديث النبوية الشريفة** **٤٩١**
- **فهرس الموضوعات** **٥٠٧**

❊ ❊ ❊

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com